نوستوس

حكاية شارع في بغداد



معاذ الآلوسي



نوستوس

حكاية شارع في بغداد

معاذ الآلوسي

منشورات الرمال



الطبعة الاولى 2012
دار منشورات الرمال
قبرص
www.rimalbooks.com

ISBN 978-9963-715-00-8

الغلاف: واجهة مقهى في منطقة الكرخ
بورتريه الغلاف الاخير: الفنان رافع الناصري
الصور: ما قبل 1952© ظافر الالوسي
ما بعد 1952© معاذ الالوسي
جزيرة ألوس ودجلة في الصليخ © د. عاكف الالوسي

مطابع دار الأديب - عمان - هاتف: 4888585



شكر وامتنان لـ

سوزانه الالوســـي

بكر الالوســـــــي

فيصـل الجــبوري

سـهيل سامـي نادر




مكتبة
الفكر الجديد

الفهرس





التقديم

إنها تجربتي الأولى في كتابة نص طويل، يتخذ من حياتي أو من بعض ذكرياتي، موضوعاً. من هنا فقد استغرقت بتفكير مُتأني بعض الشيء بشأن ما أريد أن أكتبه، وعلى جه التحديد، بشأن ما أريد أن أطلقه، وما أفضّل أن أبقيه هاجعاً في مكان ما من ذاكرتي.

بيد أنني من البداية حزمت أمري في ألاّ أكتب سيرة شخصية، وألا أجعل من حياتي رواية. سهّل هذا التحديد معرفة كفاياتي الأولى، لكن لم يلغ التفاصيل الهائلة التي تمتلئ بها ذاكرتي بما يستدعي انتخاب وتوزيع مراكز الثقل. كان الأمر يحتاج إلى تحديد تال، هو الاكتفاء بالعناصر التي أثّرت في حياتي ودفعتني إلى أن أختار هذا الدرب وليس ذاك. فمن النقطة التي أواجه حياتي منها الآن أجد أن مهنتي التي اخترتها واختارتني كانت قد حددت الكثير من دوافعي وأسبابي ومزاجي، كما أنها، بسبب ترابطاتها القوية بالمكان، جمعت الكثير من مادة هذا الكتاب، ورتبتها على طريقتها، في سياق خاص كي يكون صرخة بنبرة عالية "نوستوس"، فيها الكثير من الاشتياق المتوجع على غرار صراخ أصحاب "هومير" في ملحمته الأوديسية. الشوق الى ماض سلكته في مجابهة الواقع، مسلك فيه مواقف معينة، مفاصل في حياتي المهنية، أستطيع أن أطلق عليها صفة درب.

درب! هذه الكلمة أحبها. وفي تسجيل هذا الكتاب كنت أُمنيَّ النفس في أن أعيد انتاج تعرجات الدرب ضمن تعرجات حياتي المهنية، وتلازمهما معاً، من دون أن يبدو هذا التلازم منظماً تنظيماً صارماً، تماما كما في الحياة الواقعية.

يشكل درب المهنة عندي الشكل الذي اتخذته حياتي وما صارت عليه. لقد كرست نفسي لمهنتي أثناء ما كنت أمارس شغفي الحر وغير العادي بالحياة



وبالتعلم. إن احترام مهنتي متلازم مع احترامي للحياة ومحاولة جعلها أكثر بهجة ومليئة، ومثل هذا الطموح يشكل في العراق مشكلة كما سوف نرى.

ليس بجديد القول إن مهنتي مرتبطة بالتاريخ، وما ندعوه بالثقافة، كما أن الحياة في مدينة تاريخية عريقة دخلتها الحداثة بعنف ستجمع الثقافة والتاريخ ضمن وسط متحوّل يبحث عن حل في المكان والزمان، ويضفي الكثير من التوتر على الانتاج الثقافي كله. إن مأزق العمارة الموضوعية في بلدنا تظهر ضمن هذا التحديد. إنه مأزق المهنة أيضا، ومأزقنا الشخصية في البحث عن موقع، والإسهام في تاريخ معماري هو الأقدم في التاريخ العالمي.

إن دربي في الحياة يتصل بدرب العمارة المتعرج، المليء بالتأثيرات والتقاطعات، وتدخلات السياسة المحسوبة وغير المحسوبة. وهو ما يجعل كل ممارسات التجربة المعمارية الشخصية يثير نزاعاً قلبياً وفكرياً.

إن التجربة المعمارية العراقية الحديثة متميزة في المنطقة، كما أن تأثير ممارسة المعماريين العراقيين على التجربة المعمارية العربية واضح وصريح[1]. ثمة ظلال عراقية في معنى (درب) يمكن أن توضح المشكلة الخاصة للتجربة المعمارية، فنحن نشير إلى مجرى ضيّق، لا مجال فيه للمناورة الكبيرة من دون مخاطرة، ولا يتحمل التلاعب في القيم المتوارثة المتواصلة. وبوجه عام نجد أن التقييم الذاتي والجمعي في هذا الدرب قاس لا يرحم، نظراً لأن المجتمع العراقي خازن لأفكار توارثها خلال عمر زمني واسع. عمارته الحضرية والريفية غنية، وموروثها الحضاري ثري، يُعتز ويُفتخر به، بيد أنه لا يتقبل التجديد الرخيص غير الموائم، حتى ولا الجيد منه، ويرفض النشاز ولا يغفر له.

لعلّ هذه الطبيعة الصعبة والمعقدة تجعل الإقدام على أي مشروع معماري متعلق بالمدينة العراقية ويؤثر فيها يثير إحساساً بالتهيّب، كما أن البحث الإضافي عن تحديد ثقافي أمين لذلك الميراث يبعث في نفوسنا الهم.



والحقيقة أن هذا الكتاب ظهر من معترك تلك التحديدات والمصاعب والهموم. وما زلت أذكر أن صديقي الخزاف طارق ابراهيم الذي كان يلازمني أنا وزميلي العتيد فيصل الجبوري في مكتبنا المعماري قال لي في يوم ما من عام 1985 إنه بدأ يراني مهموماً على نحو دائم، وإنني رحت أستغرق متبرماً بالمشروع الذي أجبرنا على الإضطلاع به، وإن علامات الإرهاق والمعاناة بدأت تظهر بوضوح وتؤثر على مجمل تصرفاتي اليومية. الغريب أنه قدم لي نصيحة سيكولوجية، أو بدت كذلك حينها، للخروج من هذه الحالة الكئيبة، فبدلا من الكتمان والتبرم وتدوير المشكلات، طلب أن أدون ما يجري في داخلي، وأن أكتب ما أعاني. برر الأمر كذلك "من أجل المستقبل .. من أجل ابنك البكر" - وكان أنذاك يدرس العمارة في الغرب.

في تلك الأيام بدا لي هذا الطلب مبكراً جداً، على أساس أن مراكز الادراك ما زالت واعية وقادرة على التحليل والتخزين، وما هو آت يمتلك وعوداً، والدرب ما زال سالكاً على الرغم من قسوته ووعورته. بعد سنوات سمعت النصيحة نفسها من صاحبي غانم بيبي، جاري في بيروت، وقد هُجّرنا أنا وهو من قبل الإسرائيليين هذه المرة، ثم استقر بنا الحال بعد لأي في الجزيرة القبرصية. لقد طلب مني هو الآخر أن أكتب. زارني في المكتب في ليماسول، ووجدني أعمل على مشروع في بغداد مرغماً ومن ثم معانياً. أكثر من هذا كنت منصاعاً من أجل ألا أُعرّض فيصل رفيق الدرب في بغداد للخطر. معاناتي واحتجاجي كانا باديين وصارخين وعلنيين. في قبرص لا خوف من مراقبة. اعتراضاتنا لا تصل إلى الأهل في بغداد لكي يقلقوا، ولا إلى السلطة لكي تنغّص علينا حياتنا. كان الخوف يجعلنا نقبل، ولو بحذر مفرط، بيد أن كل حذر يزيد الخوف أضعافاً. في مواجهة سلطة قد نتساوى بالجبن (آه.. لا أخفف هنا من جبني)، فكيف إذا كانت سلطة عنيفة وغير عادلة؟



هناك أنواع من الخوف غير الخوف من أشباح السلطة والموت. هذا ما انتبهت اليه وأنا أحاول علاج نفسي وحياتي: الخوف من الانزلاق، وتقمص شخصية المخرج "هندريك هوفكن" في فيلم "مافيستو"[2] إن المساومة على المبادىء، قد تقود إلى خيانة قيَم الذات الملازمة للحياة.

صديقي غانم، الكاتب، والصحفي، والمحرر لكثير من الدوريات المتخصصة، انتبه لمشكلتي. لعله انتبه أيضاً إلى أن اضطرابي له بؤر عديدة، وأنني لا أقبض عليه تماما، بل ولا أحدده. ولقد تأسفَ لعدم تسجيل معاناتي بأوجهها المختلفة، أو كتابة جوهر وأسباب عدم الرضى والاحتجاج المهني. منذ ذلك الحين ألحَ عليَّ بالكتابة. قال: للتوثيق والعلم في الأقل .. قد يكون هناك من يستفيد، يقرأ ويقيّم التجربة التي قد تكون وبكل تواضع فريدة.

كان هذا هو رأي أصحابي المعماريين أيضاً ولأسباب مختلفة ذات أهداف أكاديمية صرفة.

الأستاذ هنري زفوبودا، المعمار الزميل الذي أُقيّمه غالياً وعالياً كصديق مثقف، ألحَ على تزويده بوثائق الأسلبة والمنهجية الخاصة بمشروع تطوير صوب الكرخ وشريان المنطقة – شارع حيفا. كان ذلك في رجوعي الثاني إلى بغداد، وقد فهمت منه أنه يعامل تلك الوثائق للتوثيق ليس إلاّ. بعد أن حضر عرضاً لي في قسم العمارة في جامعة بغداد، أخبرني بأنه ليس من الانصاف أو العدل احتكار الانتفاع واكتساب الخبرة من هذه المشاريع الكبيرة والفريدة. قال لي إن المشاركة في المحاضرات قد يؤدي إلى مردود معاكس، ذلك لأن النص الشفاهي قابل للإجتهاد والتفسير، ومن ثم الوقوع في الخلط بالمقاييس والمعطيات الواقعية. وبالفعل حدث ذلك عندما سيّس البعض المشروع وسحبه إلى المعماريين العاملين فيه. من هؤلاء يهمني الزميل كنعان مكية، فقد نقد، من دون الرجوع إلى المنهاج والوثائق العلمية، مشروع تطوير



الكرخ بوصفه مشروعاً يقتصر على تشييد شارع فحسب[3]. على خلافه كم أسعدني أن أجد ومن خلال شبكة الإنترنيت، موقع أمانة عاصمة بغداد اليوم يؤكد التزام الجميع بالتصميم الحضري لمنطقة الكرخ مثلما جرى اقتراحه من قبل فريق عملنا في الثمانينيات.

كل التساؤلات مشروعة، في الحياة، وفي مشاريع البشر، سواء في السلب أو الإيجاب. المهم أن تفحص الوقائع وتقيّم النتائج على نحو موضوعي.

الزميلة جاله مخزومي التي أعزها، وهي أُستاذة ورئيسة قسم في الجامعة الأمريكية في بيروت، وواكبت مسيرتها المعمارية والأكاديمية منذ بداياتها، ألحّت ومنذ فترة طويلة على تسجيل ممارستي المعمارية لأنها واسعة، شملت العراق من أقصى شماله إلى جنوبه. لقد اشتركنا أنا وهي بورقتين منفصلتين في "هابيتات فوروم" في برشلونة[4]، وقد اطلعت على أعمال تأهيل بعض قطاعات مدينة الثورة، فأعلنت ومن دون تردد أن لا مجال للتهرب. الدرب يجب أن يكتشف ويفكك من قبل المعنيين، ولا أخص المعماريين منهم وإنما جميع ذوي الإختصاص للاستفادة والاستزادة.

لم أكن في خاطر التدوين حينذاك. كانت أسبابي التي وصفتها قوية عندي. لكن مدونات الآخرين راحت تثير التساؤلات بعد أن بدأت تأخذ منحى غير واقعي، فالبعض منها تأويل شخصي ينطلق من منظور المصلحة الآنية، ويقوم بتحوير الحقائق، والبعض الآخر كان على جهل تام بمجرى العمارة والحياة الثقافية، وخاصة في الحقبة التي شهدت ممارستي المعمارية الخاصة، والتي قاربت نصف قرن. وثمة من يعلم ويصوغ الأحداث على هوى تأويلاته الشخصية ولغرض الكسب الرخيص الآني، سواء كان سياسياً أو مهنياً.

درب! أقول "دروب" ههنا .. فوحدها "دروب" السياسة بمفهومها الحزبي المجرد، لم أقربها. وأصارحكم القول إن قيم السياسة وتقلباتها وتلونها

المستمر هي في تنافر وتضاد مع القيم الأساسية التي أُؤمن بها. إنني متطرف بعدم الانتماء السياسي، ولم أستسغ السياسة منذ البداية. الكتاب الوحيد الذي لم أستمتع بقراءته، في سنين المراهقة، هو الأمير لـ"ميكافيللي" الذي كان في مكتبة والدي. كان بالنسبة لي نصاً معقداً جافاً غير مفيد. ما همني من تاريخيته ودوره في الفكر السياسي؟

والحال أن موقفي من السياسة يناظر ما أخذناه منها لحد الآن، فإذا كانت السياسة مرتبطة بالحقوق والواجبات بوجه عام، فأنا أذكّر أننا في العراق لم نمارس حقوقنا السياسية أبداً، وبالعكس دفعت السياسة الناس إلى تبني أحقاد لا تعود لهم، وتقع خارج تجاربهم الشخصية ومصالحهم. إنني شخصياً لم أتمتع بحقوقي كمواطن، إذ لم تتح لي الفرصة في أن أُمارس حقي بالإنتخاب في العراق إلاّ مرة واحدة، عندما اشتركت في منتصف الستينيات في انتخابات نقابة المهندسين العراقية، وكنت مرشحاً عن اللجنة المعمارية، وفزت بمجموع أصوات الزملاء المعماريين المسجلين حينذاك.

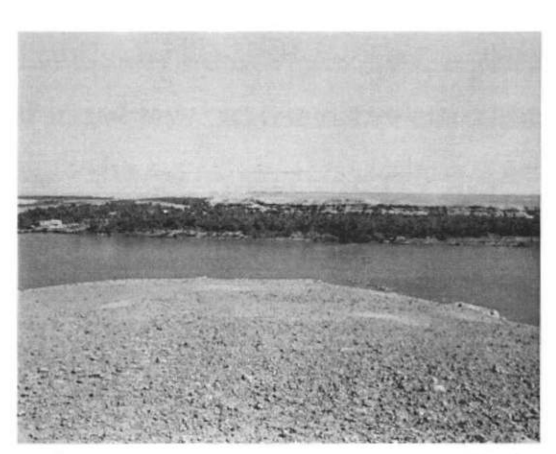
ما يحزّ بي ويؤلمني اليوم، ويسعدني من جهة ثانية، هو أنني أُمارس حقي الكامل اليوم بصفتي أوروبياً، قبرصياً و"عراقي"(هذا مدون في هويتي)، لذلك أنا حريص على المشاركة في اختيار من يمثلني في البرلمان الأوروبي، وفي رئاسة الجمهورية القبرصية، أو في الاستفتاء على مستقبل الجزيرة المقسمة الذي تم على مخطط الأمين العام "كوفي عنان" لتوحيد شطري الجزيرة.

في معارضتي للقيم السياسية وممارساتها، التصقت على الدوام بقيم أخلاقية توارثتها وأعتز بها، وعسى أن أورثها للخلف، قيم ليست متعالية، ولا مستحيلة، بل هي قيم منزلية تماماً، سهلة، لا تقبل المماحكة. ألم يكن هدف السلطات المتعاقبة هو التخلص من أساسيات هذه القيم، كالجيرة والعائلة



والمدرسة والصداقة والأُخوة، لتسهيل مهمة الهيمنة والسيطرة ومن ثم، إمرار الرديء والتعامل مع الرخيص؟ إن قيما قديمة، من التهذيب والصداقة، راحت تختفي على أيدي السلطات. إن كامل قيمي هي نفسها قيم بغداديّ الأمس القريب، وقد تعلمتها من منابعها، وعشتها بإصرار منذ الطفولة، وأعتقد أنني حاولت جاهداً الالتزام بها. يحضرني منها عدم التعالي واحترام الكبير وتمجيد المعلم والاستماع للرأي الآخر، والوثوق بالصديق والصداقة، وحب المرأة واحترامها. (قد أكون قد بالغت في حب المرأة في بعض الأحيان!). العطف على الطفل والضعيف، مساعدة المحتاج، نصرة المظلوم. هل هذه القيم قديمة؟ قديمة لكن جميلة، تهب للحياة معنى. لقد كرهت العسف وتجنبت إهانة الغير. بموازاة ذلك كرهت الجهل والكسل بكل أنواعه، وورثت حب العمل في العمارة والفن. والحال أنني كنت قنوعاً في كثير من أوجه الحياة إلاّ في العمل المهني. عائلياً ربما كنت غير منصف في بعض الأحيان من جراء تعلقي بالعمل. إن ما دعوته بشغفي بالحياة واحترامي لها علمني جشع القراءة والتعلم، جشع المأكل والمشرب الجيد. لقد قمت بسياحات حول العالم من أجل الجميل والتمتع به. لم أشبع من الجمال أينما كان. أحببت الموسيقى. أحببت الابداع والابتكار . ثمة إغراء واحد استسلمت له، وهو من أولياتي التي لا أتنازل عنها، هو البحث عن الخبرة الجديدة وليس المال ولا الجاه ولا السلطة. كم يهدر البعض طاقاتهم ويفسدون أرواحهم بجمع الثروة والبخل والانعزال والانحطاط الروحي؟ أبدا لم استسلم الا لمتطلباتي الروحية والأخلاقية.

لا مجال للتفاخر هنا، فأنا لم أبتكر هذه الأخلاق بل ورثتها عن عائلتي، وأنا سليل ميراث قديم أحببته، ومنحني الكفاية، وحافظت عليه والتزمت بقيمه. فعائلتي معروفة ذات امتداد تاريخي لقرون مضت[5].



جزيرة ألوس



جامع جزيرة ألوس



محمود شكري بريشة ابراهيم العبدلي



الجد عاكف افندي 1886

كان الوالد يذكرني على الدوام بميراثي. نصيحته الدائمة لي هي: "مقياسك لأي قرار مرغم على اتخاذه هو مدى رضى السلف الصالح من الأجداد على هذا القرار". هل كان يتوقع ما سوف أعانيه، أم أن الحياة العراقية كانت تنتج الصعاب والتفكك على الدام؟ على أية حال كانت وصية تقسم الظهر، وتهدّ الحيل، وقد أكملتها بقراءة أغلب كتب الأجداد، سواء كانت



في اللغة أو التاريخ أو الشعر أو الدين، وهي تعدّ بالعشرات. لقد أدرت في حياتي مقياساً صعباً، والغريب أنني أثناء الزمن وجدت من يراقبني، مع شيء من التندر بشأنها. فرفيقة العمر، وهي أجنبية، ترعرعت في بيئة مختلفة كلياً، تهددني على الدوام، وبلغتها العراقية الحادة، بأن عظام أجدادي أبو الثناء أو محمود شكري الآلوسي، أو علي علاء الدين، أو نعمان أبو المكارم ستتحرك بقبورهم إن فعلت ما يغضبهم، أو فعلت أمراً لا تستسيغه هي[6].

الآن أتساءل: ترى من حطّم النمط الثقافي والإجتماعي العراقي الثر غير جاهل ومثقف مزيف ومتلون، أو مثقف مسخَر من قبل السياسة والسياسيين وأحزابهم؟ كم ذبحوا وسحلوا وعلّقوا وذوّبوا أجساداً باسم الوطن والدين والحزب؟ لقد سحقوا المثقفين، ودُمرت الثقافة الأصيلة باسم الوطنية. السياسيون يميناً وشمالا أوصلوا المجتمع العراقي إلى ما هو عليه اليوم، وذلك من خلال تفضيل مصلحة جماعة صغيرة على مصلحة الناس المكافحين، ومصلحة وطن بأكمله.

في هذا النص سوف ألتقي دائما بالمشكلة العراقية، ومجمل أوجه الثقافة العراقية وفي قمتها العمارة. ولأني معماري، فلسوف أقيّم الممارسة المعمارية، ولاسيما مشروع تطوير الكرخ الذي عملت به، مسترجعاً تلك الأيام المتعبة التي سكت فيها الناس وهم غير مصدقين ما يحدث لهم. ليس النقد غير اسم آخر لكشف ما جرى لنا بصدق وأمانة بعيداً عن الغرور والتعالي. ومتجنباً الإتهام السهل العشوائي، أرى أن الأهم هو أن يستقيم الدرب، وننقذ أنفسنا من السقوط في أوحال الإبتذال والوسطية غير النافعة، خاصة في مجمل الثقافة العراقية.

في هذا النص أحداث ذات صلة بالحركة المعمارية في العراق، وهي مترابطة مع مجمل الأحداث الثقافية التي تشكل جوهر حياة المجتمع في المدينة.

إنني مدرك أكثر من ذي قبل كوني وريث بغداد الحاضرة الفريدة. لقد عشتها بالكامل. كنت شاهداً، وفي بعض الأحيان صامتاً مجبراً. في بعض الأحيان فاعلاً وناطقاً، منتقداً وبائساً في أكثر الأحيان، مستشرفاً بعض الشيء على ما ستؤول اليه أُمور المدينة ذاتها، من تحكم الطبّالين والمتهافتين بمصيرها.

كنت من أوائل من فضّل الغربة القاسية والهجرة في أوائل السبعينيات. الهجرة كانت أقسى بكثير من هجرة هذه الأيام، فبغداد آنذاك لم تكن طاردة لمجموع أهلها كما هي الآن، وإنما للبعض من أهلها فقط، والمتجذر منهم كان يعاني أكثر من غيره، فغربته عنها تزداد قسوة وألماً، فيما وضعها في وجدانه يواصل صراع ذكرياته المنغصة.

إحدى المسكنات في الغربة اجترار الذاكرة وخزينها النقي الجميل الأصيل. يقويها محاولة استكشاف وتخزين انتماءات جديدة، والبحث عن جميل وأصيل في مكان وزمان آخر. محطاتي هي بيروت وأثينا وأهلها، وأنا منفرد، متوحد الآن، ولا أقول إنني منعزل في قبرص، جعلت من هذه الأماكن أوطاناً أحنّ اليها. إنها أوطان مع توجع خاص.

بيروت التي غادرتها في عدد من المرات بسبب حروبها العبثية، هي الخالة الحنون، والخالة الحنون كثيراً ما تحاول في حنانها التعويض عن فقدان الوطن. تنجح أحياناً وتفشل أحياناً حسب التجربة. لكن في العمق هناك الأم: بغداد التي لا تعوض!



الهوامش

1 - مقالة د. خالد السلطاني، جريدة المدى، 6 و 13حزيران 2008.

2 - فيلم ألماني هنغاري من إخراج ستفان شابو 1981، حول هندريك، مخرج مسرحي يساوم على مبادئه بسبب النازية.

3 - كتاب "النصب" بالإنكليزية، الناشر: أي بي توروس، 2004.

4 المونل – هابيتات برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية.

5 أسرة سادة وأشراف حسينية تنتسب الى ألوس من مدن محافظة الأنبار، وهي جزيرة على نهر الفرات، وذكرها البلدانيون ومنهم ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان.

6 أبو الثناء محمود شهاب الدين (1903-1984) صاحب "تفسير روح المعاني"، ومحمود شكري (1856-1924) حفيد أبو الثناء صاحب "بلوغ الأرب في دولة العرب"، وعلي علاء الدين المتوفي 1921 صاحب "نظم الأجرومية"، وابن نعمان صاحب "جلاء العينين في محاكمة الأحمدين".


مكتبة
الفكر الجديد

بيوت وأماكن

"بئر أولى": إنها استعارة من سيرة الصديق العزيز أبو سدير، جبرا ابراهيم جبرا تفيد معنى المكان الأول، البيت الأول، والبيوت الأولى[1]. عن طريق هذا البئر أحدد أولئك الذين ما زالت ذكراهم مصدراً للإلهام والانتماء. إنهم من دون مواربة: عائلتي وبيتي ومدرستي وأصدقائي.

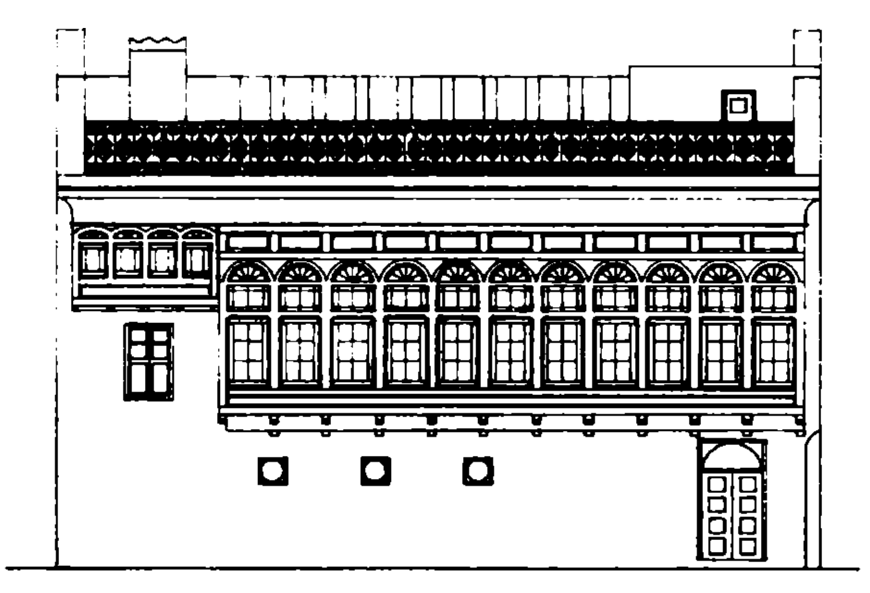
لقد ولدت في صباح 24 تشرين ثاني 1938 في دار اسماعيل أفندي في رأس الكنيسة[2]، خلف جامع المرادية مقابل وزارة الدفاع. الدار الثانية





في دار اسماعيل افندي في 1939

والمدرسة الملاصقة لها تعودان لعائلة الوالدة في الكرخ، في الست نفيسة، مقابل شريعة الشط المسماة باسم الست. أُزيلت الداران والمدرسة في منتصف الخمسينيات، الأولى بسبب استحداث شارع الملكة عالية، الجمهورية اليوم، والثاني بسبب "قص"[3] الشارع الطولي في الكرخ، الذي سميَ في ما بعد بشارع حيفا. الداران وُثقا بمساعدة الوالد والوالد في الذاكرة الآيلة إلى الخباء.





واجهة دار الست نفيسة

لولا دار الست نفيسة في الكرخ والمدرسة الملاصقة له، لباتت دراسة العمارة شبه مستحيلة. فمن المردود المالي لقص هذين المبنيين مَوّلت الوالدة دراستي العمارة في خارج العراق.

بعد مرور ما يقارب الربع قرن، بما فيه من هجرات ومعاناة وتغريب، وبالتحديد في بداية الثمانينيات من القرن الماضي، فاز المكتب المعماري الذي عملت به بمسابقة معمارية، فطلبت أمانة عاصمة بغداد من مكتبي الاضطلاع بتقديم الخدمات الهندسية والتخطيطية لموقع الدار والمدرسة والمنطقة بأكملها. مشروع كبير لتطوير "صوب" الكرخ[4]، أي بالتحديد تلك المنطقة التي أُزيلت في منتصف الخمسينيات. هل هي مصادفة أم هبة من السماء أن أعمل في منطقة عرفتها في طفولتي؟



في هذه المنطقة سأكون إلى جوار نخبة من متصوفي بغداد الكبار كالحلاج والجنيد والشيخ معروف[5]، فلعلي أفوز بحراستهم.. ثم إلى جوار الملوك الشعبيين الطيبين ، فلعلي أجدد بهم الفولكلور: "حنانش" ملك الطرشي المخلل، و"ابن طوبان" أشهر من اتقن صنع الباجة. (يا لها من أسماء: كرشة وراس وكراعين الخراف!)، و"بطو" المتخلف بدرجات، و"صيهود" صاحب الدكان المقابل لدار أسرة الوالدة. ناس في محاليل (جمع محلة) خضر الياس والجعيفر وسوق الجديد والسكة والقمرية وشريعة السويدي. شخصيات أصيلة بغدادية كرخية تفرقوا وتوزعوا على مناطق بغداد المستحدثة المختلفة، الفاقدة للهوية.

كانت بغداد التي جرى التخطيط لها بسوء تستولي على المزارع، ويسكن سكانها في محلات جديدة غير معاصرة، تنشأ بالمصادفة، وذات تخطيط مديني ونسيج مشابه لمدن الخليج النفطية.

لقد كنّا أيضا على مقربة من شخصيات أصيلة اقتلعت من جذورها ، شخصيات من "أرض السواد"، الثلاثية المتميزة في أدب الرواية للأديب الكبير عبد الرحمن منيف[6]. تأكدت من ذلك عند زيارتي له في دمشق قبل وفاته بفترة قصيرة بصحبة صاحبيَّ غانم بيبي وماهر جرار. أصرَّ الأديب أبو ياسر في حينه على الكشف عما استعاره من بعض الرموز المتأخرة في المنطقة، والدته من المنطقة أيضا وعايش في طفولته أصالتها.

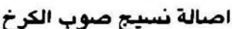
لا بد من التأكيد هنا ، وبكل وضوح، على أن عملية التحديث انطلقت بداية الخمسينيات، وليس كما يعتقد البعض في الثمانينيات. هذه العملية تسببت في هدر نسيج مديني متميز وأبنية ذات خصوصية فريدة: جوامع وحمامات وأسواق، وواجهات وفعاليات نهرية فريدة، في صوبي بغداد، رصافتها وكرخها. لقد فقد إلى الأبد نمط معيشي أصيل ومتميز من دون توثيق جاد.

من ضمن ما فقد دور الأسرة الألوسية الواقعة على امتداد شارع العاقولي في شارع الجمهورية الحالي.



واجهة النهر في الكريمات





اصالة نسيج صوب الكرخ



الشواكة والسفارة البريطانية من نهر دجلة

دار أُخرى مهمة جداً في هذا "الدرب" كانت في الأعظمية، فقد انتقلنا بعد الحرب العالمية الثانية لدار ملاصقة لدجلة، دار السيدة أُم وداد: تصميم بطارمة خشبية، مطلة على نهر دجلة، في مواجهة ضريح الإمام موسى الكاظم[7] من الجهة المقابلة، وتجاور مسجد المتصوف بشر الحافي[8]، المعجب جداً بسيرته الآن، في منطقة تدعى "الحارة" في موقع جسر الأئمة الحالي.

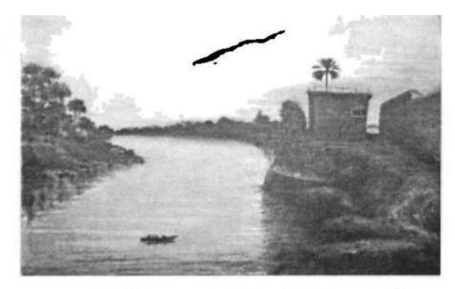
لقد أُزيلت الحارة بأكملها تقريباً بسبب الجسر، ومعها الحديقة المجاورة لمرقد الإمام أبي حنيفة[9].



جسري الاعظمية العائم والأئمة تحت الانشاء 1955

مدرستي الابتدائية كانت قريبة من منطقة الشيوخ، الواقعة بين الحارة والصليخ، محل داري المكعب، سكني وعنواني الحالي حسب الهوية العراقية، التي ما زلت أحملها وبعناد. مديرة المدرسة كانت عدوية الآلوسي، لاحقاً زوجة الأديب المحامي أحمد حامد الصراف، صديق الوالد، وصاحب ترجمة قيّمة لعمر الخيام.

في هذه الدار، ومن الطارمة الخشبية المطلة على الشط وعلى مآذن وقباب ضريح الإمام موسى الكاظم الذهبية، رافقت الوالد في جلسات الرسم، وفي بعض الأوقات مع صاحبه في الرسم وصديقه العم أبو زيد "محمد صالح زكي" الذي كان ضابطاً في الجيش العثماني، ومن رسامي العراق الأوائل. كنت أتأملهما بصمت، وبخشوع المتعبد، منتظراً ما يجودا به عليَّ من بقايا ألوان أو قماش وورق مبتغياً التقليد. هذه الفترة أعدّها بداية التأسيس وتأطير الإتجاه والمسلك، كما أنها السبب الأقوى في عشق النهر "دجلة الخير"[10] الحاضن لبغداد.



دجلة زيت / قماش 1945 رسم ظافر الالوسي



وريف محمد صالح زكي 1949

لابد من أن أشير إلى أنني درست في مدينة الحلة لفترة في مدرسة الفيحاء الإبتدائية، إذ انتقلنا إلى هذه المدينة الوديعة الخضراء بشطها الجميل ونخيلها الشامخ، المشيدة بطابوق بابل التاريخي، وهي امتداد للمدينة صاحبة الشرائع والقوانين الأولى. فيها أُتيحت لي الفرصة للتعرف على مجتمع مغاير عن مجتمع بغداد. لقد سكنا في منطقة تسمى الجباويين تقع وسط المدينة، حيث سكنت عوائل حلّية، مسلمة ويهودية ومسيحية، عراقية وغير عراقية أصيلة، منهم معلمتي الست مارسيل في مدرسة الفيحاء، عمل أخوها داوود مساعد مهندس مع والدي في دائرة منطقة ري الحلة. من غير العراقيين، الدكتور يوسف جبور اللبناني، والد أصدقاء الطفولة سامي وسعاد. مديرة المدرسة الست عليّة مربية فاضلة، حائزة على إحترام وتقدير جميع أهل الحلة، مديرة كبيرة بأخلاقها وسموها وحجمها أيضا. كانت هذه المرحلة مهمة جداً بالنسبة لي في التعرف على الذات والموطن الأصل. كما تعرفت إلى عوائل سكنت المدينة، بعضها لأجيال، وبعضها تعود أصولهم إلى مدن أخرى، وما زلت أتذكرها باحترام كبير، كعائلة دكتور حميد شلاش مدير الصحة، وآل مرجان الذي بات ابنهم عماد صديقي، والقاضي سميسم والد الدكتور محمد زوج الأديبة الراحلة حياة شرارة[11] والذي بقيت على اتصال بأخيه أحمد صديق الطفولة بعد عودتنا إلى الأعظمية. كذلك آل البراك، والقزويني، والهنداوي



الذين سكنوا في دار رؤوف بك الجادرجي خارج المدينة باتجاه المحاويل. بالطبع يحضرني دوماً صديقي وأخي الكبير الأديب والمحامي أمين رؤوف الأمين، والد نائلة أم عمران عقيلة صديق المراهقة يقظان الجادرجي.

عند عودتنا إلى بغداد، وإلى الأعظمية، سكنا في رأس الحواش، وقف هيبت خاتون، خلف كلية العلوم. الدار صممه الوالد وبناه بسرعة قياسية وبكلفة 1100دينار فقط، وما زال قائماً طللا.

المدرسة الابتدائية الثانية، مدرسة تطبيقات دار المعلمين، هي بناء معماري متميز. لن انسى أساتذتي فيها: حسين أمين المؤرخ المعروف، وقاسم ناجي من كبار فناني الرعيل الأول، ومحمود عبد الوهاب الذي لم تفارق كتفه آلة التصوير، والدكتور صادق الخفاجي، لاحقاً مدرسي في كلية الزراعة. مبنى المدرسة يقع وسط حدائق، ضمن مجموعة مباني تعليمية، ومباني جامعة أهل البيت[12].



الصف الخامس في تطبيقات دار المعلمين الابتدائية المدير فائق الجنابي وصادق الخفاجي ومحمود عبد الوهاب



أنهيت المرحلة الابتدائية فانتقلت خطوات عن مدرستي الجميلة إلى متوسطة وثانوية الأعظمية للبنين[13]، وهي مجاورة لدار والد الأستاذ عبد الله إحسان كامل حسن بك أستاذ العمارة في جامعة بغداد. صمم المدرسة المعماري بدري قدح[14] وفيها صفوف دراسية نصف دائرية، شبيهة بغرفة استقبال الأستاذ كامل بك الجادرجي.

في المنطقة نفسها ثمة مدرستان للبنات ما زالتا قائمتين، ثانوية الأعظمية المجاورة لمدرسة البنين، والحريري الجديدة، وهي بعيدة نسبياً، صممها الأستاذ جعفر علاوي: روعة في التصميم، وروعة بما حوته من جميلات الأعظمية. ويبدو أن المدراء والمديرات تواطؤوا وأنهوا الدوام اليومي للبنات قبل البنين، لذا كنّا على الدوام متأخرين عنهن، ولا نصادفهن إلا في الصباح الباكر. كنا مع (الغباش) في إنتظارهن، ولكن بكل أدب وتقدير، فالجمع معارف وأصدقاء، بيد أن كل واحدة منهن تدهش وتخرش، كما يقول الشاعر النعماني:

جتي تهد الماي

والصبح يغشي

هدته.....

واندهش ....

وما قبل يمشي.

ما هذا الجمال الذي يصعق الماء دهشةً ويجعله يرفض الجريان؟



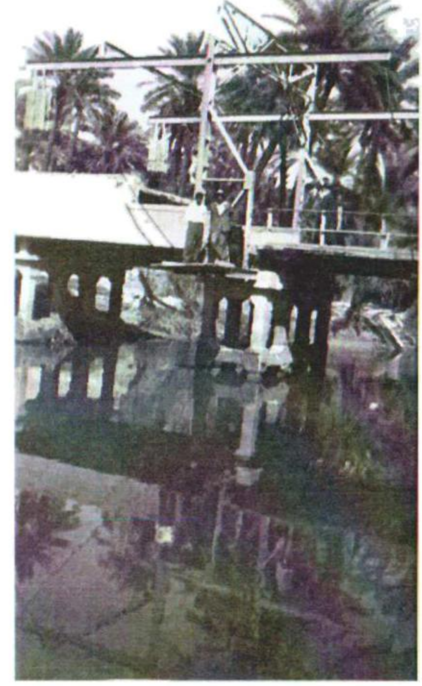


بنات مدارس بغداد في اوائل الثلاثينات

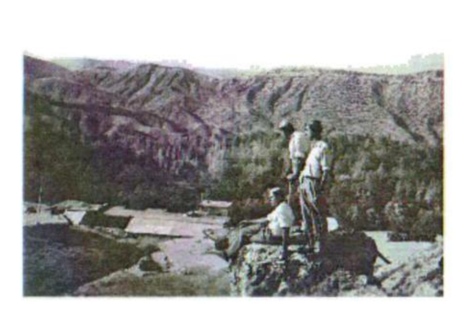
جلّ المدرسين الذين نهلت منهم العلم والخبرة منذ نهاية الأربعينيات وإلى منتصف الخمسينيات كانوا مربين أجلاء أفاضل بكل معنى الكلمة. لن أنساهم ما حييت: في الرسم فرج عبو وفاضل عباس الذي اختفى متصعلكاً. في الرياضيات والجبر والهندسة الأستاذ العظيم حمدون سعيد، وهو من الموصل، ولم يتمكن من التخلص من لهجته الموصلية المحببة، لقد ربى أجيالا. في اللغة العربية أتذكر أُستاذين فاضلين، الأول إبراهيم عبد الرزاق من الأعظمية، والأُستاذ عزت محمد جان من الكرخ الذي حبّب لنا اللغة على الرغم من صعوبتها. قالها يوماً وأمام الجميع: في صفي سوف لن يرسب حفيد الآلوسيين وهم فطاحل اللغة.

كنت محظوظا حقاً حين ترعرعت في منطقة ذات تخطيط حضري مميز وفي مدارس جيدة، وصحبة أصيلة، بين أبنية ذات عمارة متميزة، تمتد من النادي الرياضي الأولمبي[15] في ساحة عنتر، وتنتهي بالمقبرة الملكية[16]، وبينهما دار حماية الأطفال و كلية العلوم، التوجيهية حينذاك، ثانويات البنات

والبنين، جامعة أهل البيت، ودار المعلمين الإبتدائية. إنها أبنية شاخصة، إلى يومنا هذا، بمواد محلية وحلول لعمارة أصيلة، أبنية مؤثرة مخزونة في الذاكرة إلى يومنا هذا، سجلتها في مقالة [17].



جنوبا في ابو الخصيب 1956





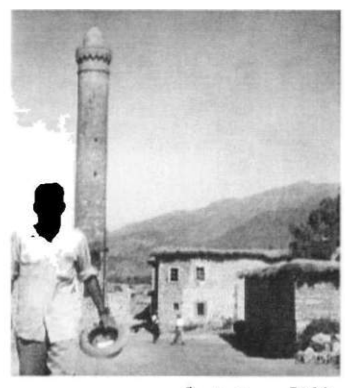
شمالا شقلاوة وسد دوكان عند الانشاء 1955

خلال مرحلة الثانوية (المراهقة) تجولت في الوطن شمالا وجنوباً، البصرة وأبو الخصيب، سرسنك وصلاح الدين، حتى كاناماسي والسولاف وسرعمادية من جهة الموصل، وبيارة وطويلة وبنجوين وحلبجة من جهة السليمانية. كان شغفي بالتصوير الفوتغرافي قد بدأ، فصورت الشمال، كلي علي بك وصلاح الدين والقرى النائية من منطقة أربيل. لن أنسى موقع إنشاَت سد دوكان خلال التنفيذ، موقع لم أر شبيهاً له.





شلال كلي علي بك



مئذنة سر عمادية

بالطبع لم أهمل إكتشاف المناطق القريبة من بغداد بواسطة الدراجة الهوائية، رحلات جماعية متكررة لزقورة عكركوف وسلمان باك (المدائن) والزعفرانية وأبى غريب. كان الهاجس هو التعرف على مكونات البلد الموطن، والأهل والشخصية.

في العطلة الصيفية كانت السباحة اليومية في النهر، عبوراً إلى العطيفية، والعودة سباحة مستغلين جريان دجلة.

منذ ذلك الحين سيطرت عليّ عادة القراءة إلى يومنا هذا. الجميع في دار رأس الحواش يقرأ، الوالد والوالدة كانا جليسي الكتاب. قرأت القرآن وأنا ابن العاشرة، شببت مع الكتاب، غصت في ما توفر لي من الأدب الكلاسيكي. قرأت "تاييس" ل"أناتول فرانس"، و"عبرات" و"نظرات" و"ماجدولين" المنفلوطي، و"أيام" طه حسين، ولسلامة موسى حسب ما أتذكر كتاب في الحشمة، وتوفيق الحكيم، "شللر" و"غوتة"، لامرتين و"آلام فرتر"، و"دوما الإبن" وغادته الكاميليا، و"رسائل التعليقات للرصافي"، ومسرحيات أحمد شوقي، "قمبيز" و"قيس وليلى" و"كليوباترة". لن أنسى مجلدات الهلال، فمنذ الأربعينيات كانت هناك مجموعة منها مجلدة بأناقة من قبل محمد صالح

الأعظمي في شارع الأكمكخانة. كنت أتصفح أبوابها تكراراً، خاصة باب روائع الفن العالمي الذي عرفني على كبار الرسامين والنحاتين. أتمنى الآن بقاء مكتبة الوالد على حالها في داري المهجورة في الصليخ. كنت أنتظر مجلة سومر، مجلة المتحف العراقي الفصلية (المجموعة الآن في قبرص). أنتظر افتتاحية الأهالي وقصائد الجواهري وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة وبلند الحيدري، المنشورة في الجرائد اليومية.

في هذه الأجواء اتصلت بالمجموعة العائدة من الدراسة في الخارج، قحطان المدفعي، وقحطان عوني، رفعة وسيارته التي تكاد تلفظ أنفاسها لقدمها، جواد سليم ودراجته النسائية من دون (شاصي) يتسوق من أول سوبر ماركت في بغداد في ساحة عنتر، افتتحه الطيار محمد سبع من الضباط الأحرار الذي شارك في حركة 14 تموز لابنه ليث. كل ذلك تزامن مع إقامة معرض للعمارة والفنون في النادي الأولمبي، في ساحة عنتر، في منتصف الخمسينيات. من المعروضات كانت تصاميم لمسابقة معمارية لمصرف الرهون، حسبما أتذكر، فضلا عن زيارة فرانك لويد، وربما له كوربوزيه[18] لبغداد وللمعرض. هذه المؤثرات الموجهة، حدت بي إلى أن اتخذ قراراً قطعياً ضد إرادة الأهل: إما العمارة أو لا دراسة!

وعدني الوالدان بالمساعدة إذا ما توفر التمويل اللازم، لعدم وجود كلية عمارة آنذاك. أكملت السنة الأولى في كلية الزراعة لتلافي ضياع الوقت، بعدها أضربت عن الدراسة، عصيان يستهدف التصالح، خاصة بعد أن توفر جزء من التمويل من جراء استملاك دار ومدرسة الست نفيسة في الكرخ من أجل تشييد الشارع الطولي، شارع حيفا اليوم.

تمت الموافقة وتلبية الطلب، فالتحقت بجامعة الشرق الأوسط "أم تي يو"، وبعمي الذي كان يسكن تركيا حينذاك، مع الوعد القاطع بعدم الرسوب







حقول التسمين وعنابر منام الطلاب في كلية الزراعة في ابي غريب 1956

من أجل الحصول على منحة دراسية من مديرية البعثات. بعد عبور امتحانات القبول في بغداد باللغة الإنكليزية، شددت الرحال بواسطة قطار الشرق السريع، الأسطورة. في ذلك الزمن ابتدأت التدخين، كرافن أي "أبو البزون". تحررت إلى الأبد من المراقبة الأبوية الصارمة، وبدأت بالتجريب والتعلم والخوشنة. كنت بعمر 18عاما.

الهوامش

1 - البئر الأولى : فصول من سيرة ذاتية، جبرا ابراهيم جبرا، منشورات وزارة الثقافة 1995.

2 - تعرف باسم كنيسة مريم العذراء وهي من أقدم الكنائس القائمة الآن في مدينة بغداد وموقعها في منطقة الميدان أو محلة رأس الكنيسة. في مطلع الستينيات صانها الزميل هنري زفويودا.

3 - تدعى عملية التهديم وإلى يومنا هذا بالقص، أي قطع النسيج المديني.

4 - تتكون بغداد من جانبين الكرخ والرصافة، يسمى الجانب منه بالصوب، كما في صوب الكرخ أو صوب الرصافة.

5 - الحسين بن منصور بن محمى الملقب بالحلاج 858-922 م. صوفي فارسي، والجنيد من أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري، والشيخ معروف الكرخي من المتصوفين المعروفين بالزهد، المتوفي سنة 815 م. لهم مقامات لا زالت قائمة في منطقة الكرخ تزار من قبل أتباعهم ومريديهم.

6 - عبد الرحمن منيف، ثلاثية أرض السواد، العربية للدراسات والنشر 2000.

7 - ابن جعفر الصادق ولد في مكة في127هـ مات مسموما في 183هـ سابع الأئمة الإثنى عشر.

8 - بشر الحافي الزاهد المشهور. هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء ولد ببغداد سنة خمسين ومائة.

9 - أبو حنيفة أو أبو حنيفة النعمان أو نعمان بن ثابت، ولد في الكوفة 699 وتوفي في بغداد 767 م. فقيه وعالم أفغاني الأصل.

10 - من قصيدة لشاعر العراق الكبير محمد مهدي الجواهري مطلعها: يا دجلة الخير يا أم البساتين حيَيْتُ سفحكِ من بُعد فحييني.

11 - ولدت حياة شرارة في عام 1935 بمدينة النجف، لها مؤلفات منها "إذا غسقت الأيام"، أخت الصديقة بلقيس شرارة، وضعت حداً لحياتها مع إحدى بناتها، بعد أن حاصرها الدهر والزمن الرديء.

12 - دار المعلمين الإبتدائية.

13 - كلية الملك فيصل عند تأسيسها في بداية الاربعينيات من القرن الماضي.



14 - معمار سوري صمم في العشرينيات والثلاثينيات كثير من أبنية بغداد الجميلة منها دار كامل الجادرجي ودار محمد حديد والد الفطحلة زهاء المعمارية الأشهر في العالم.

15 - من تصميم الإيطالي تفيريلي وأحمد مختار ابراهيم في نهاية الثلاثينيات.

16 - من تصميم المعمار الانكليزي كوبر في 1939 مصمم كلية الهندسة، والمجلس الوطني في الخمسينيات.

17 - "الفن المعماري في العراق 1920-1940" في "تنار"، مجلة جمعية المعماريين، كانون الثاني 1966.

18 - معماريان من رواد وأصحاب مدرستين معماريتين مختلفتين، الأول أمريكي -1867-1959 والثاني فرنسي من ولادة سويسرا 1887 -1965.





دراسة العمارة والتعلم

من يومي الأول في الغربة توالت دروس الحياة. في أنقرة نزلت في فندق تعيس يبعد أمتاراً قليلة عن مناطق الفساد الأحمر، حيث يسكن عدد من الشباب العراقي من الدارسين المتبطلين الغارقين بالمرح. في الليلة الأولى جربوا معي لعبة "بوكر" عنيفة لتشليح ما اعتقدوا أنه قادم جديد محمل بنقود الدراسة ولاشك. ممارستي في الميسر كانت محدودة مقتصرة على المزاح واللهو مع أولاد العمة. على عكس توقعاتهم قام هذا القادم الجديد بـ "قش" ما تمكن منهم وحافظ على جيوبه من التشليح. لم ألعب الميسر ثانية طول مدة الدراسة، لضعف التموين، ولعدم تذوق ملهاة سخيفة كهذه. ليالي السهر أكسبتني معرفة العديد من الشباب، منهم من واصل الدراسة ولقيته في بغداد يمارس الطب، والآخر رجع بخفي حنين بعد أن أدمن على الكونياك التركي الرخيص.

في الليلة الثانية باشرت الدرس الأول في الرقص، ابتداءً من التانغو والرومبا، على يد أستاذة متمرسة جديرة بكل صنائع الفسق، لكن من دون فجور. إنها "معلِمة" شيشمان ليلى. وشيشمان تعني باللغة التركية من الوزن الثقيل، ملزلزة / ملضلضة باللبناني، صبوحة الوجه، رعتنا نحن الشباب طلبة الجامعات، ولنا عندها منزلة خاصة. اسم محلها "نيل بار"، سرداب تحت الأرض يرتاده الكادحون المدمنون على كل شيء. في مدخل البار كان هناك "كبابجي" يسوّق الممنوعات ويضرب على الساز "البزق"، والبعض من أصحابي كان يتواصل معه باللغة الكردية.

تركت هذا الجو الذي لا يقدر على وصفه غير محمد شكري[1] الكاتب المغربي المميز. كلما أقرأه، في "الخبز الحافي" أو "الشطار" أو "السوق

الداخلي"، أستعيد على الفور أجواء "شيشمان ليلى" وبناتها بملابسهن المنفوشة وزينتهن المبهرجة وأسنانهن الذهبية.

بعد أن قضيت أسبوعاً واحداً في القسم الداخلي المخصص للطلاب الأجانب، استقليت في مسكن خاص، كانت شقة في منطقة محترمة، قريبة من الجامعة أجَرتها مشاركة لمدة سنة مع عراقي أصيل كان زميلي في الجامعة. هذا الزميل لم يكمل دراسته، فسافر إلى ألمانيا، ويبدو أنه نجح هناك، وبات فناناً قديراً وعمل تدريسيا في الفنون التشكيلية في إحدى معاهد العراق. بعد سفره شاركني السكن والرفقة، في السراء والضراء، الزميل وصديق العمر غسان رؤوف إلى يوم تخرجي.

كانت الدراسة صعبة جداً عليّ، ومستوى زملائي في الفصل من خريجي الثانويات الأُخرى الأجنبية كان أفضل مني، فهم يتقدمونني في اللغة والدروس التطبيقية وخاصة الرسم الهندسي. لقد درست في ثانوية كانت في غنى عن تدريس هذه المواد، ودروس التربية الوطنية عندها أكثر أهمية. كانت الجامعة حديثة التأسيس، أميركية المنشأ والتوجه والمنهاج، ومعظم أساتذتها أميركان أو أتراك أميركان حتى النخاع. وجدت غسان رؤوف من معارفي في الأعظمية قد التحق قبلي بعد أن ترك كلية الهندسة العراقية، وإن قضى فيها سنتين.

ركّز المنهج في السنة الأولى على دروس ونظريات التصميم. درّسني مبادئ التصميم البرفسور "مارفن سيفلي"، أميركي، تساعده "كونول تانكوت" تركية-سويسرية، ما زالت تسأل عني إلى يومنا هذا. التقيت بروفسور سيفلي لاحقاً في مدرسة رابطة المعماريين في لندن.

كان درس نظريات التصميم الأساسية يتناول التجريد والألوان والملمس، وتصرف المواد، وخيال الحجوم، والخط والمكان/الزمان. أجبرنا البروفسور



،وماً على عض المرمر والخشب والحديد لزيادة التحسس. جعلني هذا الدرس مع درس الرسم أواصل دراسة العمارة. من مجموع 55 طالباً تخرج 17 منهم فقط، وكنت واحداً من المتخرجين والمتقدم على زملائي في الرسم الحر والتصوير.

كان أستاذي في الرسم هو بروفسور "ماترز"، أميركي ضخم يلعب كرة القدم الأمريكية، فكنت أراه على الدوام وبيده مطرقة خشبية. كان إذا ما ضرب بمطرقته على نحو مزعج كل خمس دقائق فعلينا تبديل الورق والموضوع (البوز). دوامنا في قاعة الرسم يبدأ في الواحدة ظهراً وينتهي في السادسة مساءً دون توقف، وفي هذه الأثناء كانت المسكينة الموديل في حركة دائمة، مرتجفة من البرد، لأنها من دون ملابس تستر عورتها في أكثر الأحيان.

دروس العمارة كانت من حصة مجموعة من الأساتذة، ورئيسها هو أستاذي المباشر، أميركي من طياري الحرب العالمية، اسمه "وليم كوكس". لم أره يضحك خلال سنيَ الدراسة، وبسبب جديته اعتقد أن من واجبنا العمل والإعتماد على أنفسنا للحصول على تمويل الدراسة، وعدم الإعتماد على الأهل، من هنا كان غير راضٍ عن عملي على الدوام. كان يفاجئنا في الحضور إلى الاستوديو من دون موعد. قد يمر علينا في الواحدة صباحاً، متوقعا كالعادة أن يرانا موجودين، كأن لا عمل ولا عبث آخر لنا في الحياة سوى درس التصميم "وبس"، وكان ينتقد عملنا بجد. كل سلوكه هذا تغير عندما اكتشف في يوم ما بانني كابتن فريق كلية العمارة لكرة القدم، وظهير قشاش في فريق الجامعة. والواقع أنه أكتشف ذلك لتغيبي بسبب إصابة في رجلي أقعدتني لفترة. تغير سلوك هذا الرجل معي، وحاول الحصول على تمويل الرياضيين لي أسوة بالجامعات الأمريكية، ولم يتمكن لأني أجنبي. بيد أنه خصني باهتمامه، وتابع بجد وعلى الدوام ما أُقوم به من مشاريع، كما تعلمت واستفدت منه كثيراً.

المعلم الذي له أكبر الأفضال، وله البصمة في تعليمي، هو الأستاذ "عبد الله كوران" المسؤول المباشر عن مجموعة صغيرة من الطلاب، ولحسن الحظ كنت واحداً منهم. في الأصل هو مدرسي في تاريخ الفن، ثم تاريخ العمارة الكلاسيكية، ثم الحديثة، لكنه كان يمد تعليمنا إلى حياتنا الروحية، فقد عوّدنا على سماع الموسيقى الكلاسيكية. الأكثر أنه علمنا على نمط من الحياة راق، أعني من ناحية السلوك والتصرف والحسّ الإنساني. كان يدعو أحدنا بين فترة وأخرى للعشاء والسهر مع عائلته. زوجته الأميركية فنانة كبيرة ذات علاقة مهنية بالموسيقى.

علمنا هذا المربي الكبير كيف نميز ونفهم ونحلل ونقارن العمل الجيد في الفن والعمارة، كيف ننظر إلى التراث، وإلى أنفسنا. أربع سنوات قضيناها معه من دون أي توتر، كنا فيها نزداد احتراماً له. وكم أسعدني عندما لبى دعوتي لزيارة بغداد في منتصف الستينيات. كان مصراً على زيارة قصر الأخيضر ومراقد الأئمة في كربلاء والنجف. عندما نويت في بداية الثمانينيات على دعوته لتقديم المشورة في مسابقة تصميم جامع الدولة في بغداد علمت أنه مريض، وأن علائم مرض الزهايمر بدأت تبدو عليه، فلم أُفاتحه كي لا أُحرجه. قبل مرضه عيّن رئيساً لجامعة روبرت وتدعى الآن بوغاز اتجي. تأسست باسمه مكتبة عامة مهمة في اسطنبول، وتسمى اليوم مكتبة كوران. ترك عبد الله بك (كان يصر على هذه التسمية) عدة كتب في العمارة الإسلامية والعثمانية والسلجوقية، وترك مُريدين. إنني مدين له مدى الحياة.

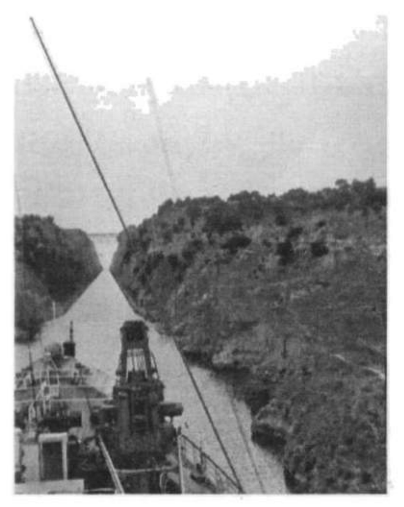
خلال الدراسة كان المطلوب عدم إضاعة الوقت، ولاسيما في عطلة الصيف، بل المواصلة بعمل ذي علاقة بالعمارة. لقد وجدت في هذا التقليد ضالتي وحبي للتغيير، من هنا شددت الرحال مفلساً إلى ألمانيا. زميلي في الدراسة غسان رؤوف فضّل الذهاب إلى الهند، فهناك الجانديكار[2] وأخوه القائم بالأعمال في نيودلهي.



مخرت البحر من اسطنبول إلى أثينا ثم البندقية على متن باخرة هي أقرب إلى سطح حديدي يطوف، ومن البندقية استخدمت شتى وسائل النقل.



في سان ماركو البندقية 1959



عبر مضيق كورنث 1959

وصلت فرانكفورت على الماين عبر التيرول الإيطالي والنمساوي والألماني. رفيقتي كانت الكاميرا على اعتبار أنني أمارس واجباً مدرسياً. وصلت فرانكفورت ليلا في جو ماطر غير أليف. آثار الحرب ما زالت ماثلة في المدينة تذّكر بويلاتها. لم أجد الأُلفة في بداية رحلتي الألمانية الممتعة الشاقة، فأولوياتي كانت البحث عن عمل ذي علاقة بالعمارة. ومن دليل الهاتف، وبمساعدة صديقة ألمانية، وجدت ضالتي في مكتب "البروفسور كران"[3]. بعد مقابلة مطوّلة واتصالات هاتفية عدة وجد لي عملا في أحد المكاتب الصغيرة والمعروفة: مكتب "ألفريد أوسفالد" في "نيدرّاد" في شمال فرانكفورت، 27 "هولتزهيكه". كان هذا المكتب الصغير جزءاً من دار سكن جميل جداً في غابة المدينة، يديره معمار متمدن جداً، قضى فترة من الزمن في سجون النازية، يقدر العرب، متحرر، وتقدمي مؤمن بحركة

الباوهاوس المعمارية[4]. وكعادة أولئك المهنيين الحريصين كان نظامياً إلى حد الإضطهاد، من هنا لم أتأخر يوماً عن موعد الدوام. في مكتبه مارست السبع صنائع، من الألف إلى الياء، ابتداءً بطبع الرسوم، وكانت تنفذ في حينها بالأمونياك، وانتهاءً بصنع المجسمات، كما عملت موديلا لفندق "كافيه بلوم" في مدينة "ويسبادن". في الفندق سوق ومعرض لأكبر ساعة أراها وأسمع بها للمرة الأولى. إنها ساعة "الكوكو" التيرولية الشهيرة، تغرد كطير الكوكو، مع كل ساعة. أزيل الفندق والمقهى مؤخراً، مالكه الألماني من الطائفة الموسوية، جلب انتباهي اليه من نعتي بابن العرب، منكداً على الهير أوسفالد صديق العرب. عملت أكثر الوقت في الرسم الهندسي، وهو في المكتب عملية حسابية/ هندسية شاقة، حيث يتحتم علينا حساب واستنتاج أحجام الأحياز بحيث تكون أبعادها ناتجة عن تكرار أبعاد الطابوقة، أي 24 سم أو نصفها، لتلافي القطع والتبذير. سنلاحظ نتائج هذا التدبير عند زيارة مواقع العمل ومدى نظافتها: لا وجود لكسر طابوقة واحدة. عملت كذلك في الإشراف على العمل في الموقع وهو ما جعلني أدرك مغزى إدارة منضبطة تعرف ما تعمل وتتوقع.

عملت عند "الهير أوسفالد" موسمين متتاليين، أتيح لي فيهما أن أطور ثقافتي المعمارية، والتعرف على كثير من المعالم المعمارية الألمانية والإيطالية واليونانية، منها الحديث وما سبقها من حركات معمارية أوروبية كالركوكو والباروك والغوطي والرومانسك والكلاسيك الروماني واليوناني، مصوراً الكثير من الكنائس القديمة والحديثة. كان مردود العمل المالي قد ساعدني في التجول في طريق العودة في كل من إيطاليا واليونان، موسعاً مجموعتي الكبيرة من شرائح التصوير.

بعد التخرج من الجامعة شددت الرحال كالعادة صوب أوروبا، وهذه المرة مع زميلي وصديقي غسان رؤوف، شريكي في السكن في أنقرة. عند



توقفنا في روما ووجدنا عملا في مكتب هندسي ايطالي بإدارة "بانيرو (و) سلفتوري"، وكانا مسؤولين عن تجهيز تفاصيل مبنى جامعة بغداد المصممة أصلا من قبل الأستاذ "والتر كروبيوس"[5]. قبل المباشرة بمكتبهما في بداية صيف 1961، تسلمت رسالة من ابن عمي دكتور خليل، وهو الأعز والأقرب لي وتربطه صداقة بأستاذنا رفعة الجادرجي، يخبرني فيها بضرورة العودة بسرعة للإلتحاق بدورة ضباط الاحتياط، إذا ما كان في نيتي العودة أصلا، وإلا أُعدَ فاراً من خدمة العلم، وأشبك نفسي في مشاكل قانونية جمة. فكرت ملياً: هناك الوالد والوالدة في انتظار وحيدهم الغائب. قررت العودة على الرغم من إغراء روما وعمارتها وفنها. غير أنني واصلت سفرتي إلى المانيا لوداع الأحبة، ومنهم صديقتي التي ساعدتني في إيجاد العمل ومعلمتي في اللغة الألمانية ومرافقتي (في السراء والضراء) للخمسين سنة الماضية، وبالطبع أُستاذي صاحب الفضل الكبير، الهير الفريد أوسفالد وزوجته الانيقة جدا.

أخذت القطار من فرانكفورت إلى "برنديزي" بصحبة الكاميرا، مروراً بالألب وبإيطاليا بطولها، متسكعاً في "بريينديزي" و"باري"، منتظراً العبور الى اليونان بـ "فيري" اسمها "أفيا"، جميلة جداً. إلا أنني نمت واقفاً على سطحها على قدر ما أملك من النقود. بعد العبور أخذت القطار من "أكوامنتسا" إلى "باتراس" ومنها إلى "سالونيكي". من حسن الحظ صادفت في "سالونيكي" من دعاني إلى مأكل ومشرب ومنام في يخت كنت أتحسر إلى رؤياه، فدُعوت إليه، وقضيت ليلة إعادة شحن كل الهمم للسفر في اليوم التالي إلى إسطنبول عبر "أدرنة" وجامعها الشهير. وصلت إلى الجزء الأوروبي من اسطنبول وعليَ العبور إلى دار عمي في القسم الآسيوي وبالتحديد في منطقة "سُعادية". وجدت الوالدين هناك : الوالد هو من دفع أُجرة التاكسي!

كانت الوالدة قد هرمت. قضيت معهما ليلتين وهما غير مصدقين بأني عائد للإلتحاق بكلية ضباط الإحتياط. عدت إلى بغداد في تموز صيف 1961. جلَ معارفي كانوا خارج العراق للاصطياف. باشرت معاملة تعادل الشهادة ومراجعة دائرة البعثات، إذ كنت حصلت على المنحة الدراسية بعد عبوري السنة الأولى، ثم أرسلوني بدورهم إلى دائرة التجنيد في وزارة الدفاع : موعد الالتحاق بعد ثلاثة أشهر.. والسَوق في مديرية التجنيد قرب وزارة الدفاع.

زرت الأستاذ رفعة الجادرجي في مكتبه (عبد الله إحسان كامل ورفعة الجادرجي وإحسان شيرزاد) في عمارة عقراوي مقابل سينما غرناطة في الباب الشرقي، ساحة التحرير حالياً، في منطقة تغيرت بالكامل. من "منجزات" 14 تموز الثورة أنها أزالت سينما غازي[6] التي كانت أهم دار سينما في العاصمة وملتقى الشباب في أيام الخميس. لقد أزيلت مع ما يجاورها من بسطات "الأبيض وبيض" (ساندويتشات عراقية صرفة)، وبسطات الكتب المستعملة الرخيصة الثمن والصحافة العربية. كانت هذه البسطات الممون الوحيد لقراءاتنا في أيام المراهقة [7].

لم أجد الجادرجي، إذ كان في عطلته الصيفية، فتكرمت على نفسي بإجازة راحة لمدة خمسة عشر يوماً لحين عودته. إنها الإجازة الأولى بعد فترة طويلة من معاناة الدراسة والسفر والعمل، ووجع التصعلك وآلام الغربة وعذابات الوطان التي اعتدناها، والذي أصبح نمطاً للحياة إلى يومنا هذا.



الهوامش

1 - من الروائيين المغاربة والعرب الأفذاذ 1935-2003، عاش طفولة صعبة وقاسية في قريته الواقعة في سلسلة جبال الريف، ثم في مدينة طنجة التي نزح إليها مع أسرته الفقيرة.

2 - مشروع "لو كربوزيه" لمبنى البرلمان الإقليمي في مدينة "جانديكار" في إقليم البنجاب أقصى شمال الهند، أوائل الخمسينيات من القرن الماضي.

3 - البروفسور يوهانس كران 1908-1974، من المعماريين الذين قادوا مرحلة ما بعد الباوهوس في المانيا، من ابنية كران تحديث متحف الشتيتل الذي يعتبر بمستوى اللوفر في فرانكفورت.

4 - مدرسة فنية نشأت في ألمانيا كانت مهمتها الدمج بين الحرفة والفنون التشكيلية، أسسها الأستاذ والتر كروبيوس مصمم جامعة بغداد. تأسست سنة 1919 في وايمر، أغلقت أيام الرايخ الثالث، وأعيد فتحها. مديرها اليوم زميلي وصديقي مخطط المدن عبد الله أكبر.

5 - رائد من رواد العمارة الحديثة في القرن الماضي 1883- 1969 مؤسس مدرسة الباوهاوس في وايمر ألمانيا، لجأ إلى أميركا بعد تسلم الرايخ الثالث للسلطة.

6 - في عام 1937 شيدت سينما غازي في الباب الشرقي التي تميزت بعمارة فخمة واعتمادها على عرض روائع السينما مثل أفلام "باندورا"و"ذهب مع الريح" لكلارك كيبل وفيفيان لي، و"رمل ودم" لتيرن باور، و"السابحات الفاتنات" لاستر وليامس.

7 - دور النشر المصرية واللبنانية تعتمد على قرّاء العراق المعروفين بالنهم، المرجّع من الكتب لا يعاد ارساله إلى القاهرة أو بيروت بل يعاد العنوان فقط، أما الكتاب النص بدون عنوان فيباع في بسطات قرب سينما غازي، في محل نصب الحرية اليوم، وكل منا يقتني كتابا، ونتداور في قراءته.




مكتبة
الفكر الجديد

أعمال وأسماء

عاد الأستاذ رفعة بعد أسبوعين وطلب مقابلتي في مقر وزارة الإسكان، إذ كان يشغل موقع وكيل الوزارة. قابلني فاحصاً ممتحناً متمعناً حتى بملابسي وقيافتي: أسئلة ودردشة دارت حول الدراسة والفن والموسيقى. أتذكر جيداً وجومه عندما أخبرته عن مدى شغفي بموسيقى الجاز، إضافة إلى الموسيقى الكلاسيكية.

كنت متابعاً للرسم والرسامين، ودهشت عندما اكتشفت وجود بعض أعمال موندريان[1] المطبوعة في مكتبه. تحدثنا عن موندريان إذن، ومن دون معرفة سابقة بمقدار شغفه به وتأثيره على شغله.

الإقتراح الذي أملاه عليَّ – وكان صائباً– هو أن أُباشر العمل فوراً صباحاً في وزارة الإسكان، ومساءً في المكتب إلى حين التحاقي بكلية الاحتياط، وذلك لغرض التعرف على المواد الأولية وطرق البناء والبيئة المحلية، والتعمق في هواجس المكان[2]، التي احتجت إلى أن ألمّ بها أكثر.

باشرت العمل في آب 1961 شاغلا غرفة الأستاذ الكبير عبد الله إحسان التي توجد فيها طاولة رسم، أثناء ما كان مجازاً، وبعد أن التحق بالعمل شاركت رفعة طاولته في الرسم. يطول الكلام عن هذا المكتب الذي لخص رفعة فلسفة عمله في كتابه "الأخيضر والقصر البلوري"[3]، وسأعود إليه لاحقاً.

صباحاً التحقت بقسم التنفيذ في مديرية الإسكان العامة الذي ترأسه هشام المدفعي، ومن المهندسين العاملين فيه سهير السنوي - أخوها سهل صاحبي في الثانوية[4]. ومن المهندسين الذين زاملتهم وتعرفت عليهم خلال

زياراتي لمواقع المشاريع: هادي طعمة، غازي عبوش، كريم عباس، زهير البنا، عصمة قندلا، ويوسف سعرتي، وأخص بالذكر المهندس أشرف الحكيم (اسم على مسمى) الذي شاركته الغرفة، ترك العراق مبكراً وفقدت الاتصال به في أوائل الستينيات. كان قد اعتاد أثناء مرافقتي تجميع المخططات العفوية التي كنت أرسمها لهواً خلال أوقات العمل.

كانت مشاريع الإسكان موزعة في جميع أنحاء البلد: فمشروع إسكان سرجنار في السليمانية، وإسكان الجمهورية في البصرة، وفي بغداد مشاريع إسكان الضباط، وغربي بغداد، والأهم هي مشاريع إسكان أصحاب الصرائف في الثورة والشعلة(5). شهران قضيتها في التجوال تعلمت فيها لغة جديدة غريبة عن أُذني، لغة خليط من العربي والإنكليزي المحوّر المُعرّق، والفارسي والهندي، لغة البناء، لغة متداولة إلى يومنا هذا من قبل العاملين في مواقع الانشاء والتشييد، تختلف عن تلك المتداولة في مواقع البناء في بيروت والخليج التي كان عليَ التأقلم معها عند عملي في مشاريع الخليج.

في نهاية صيف 1961 ودعت جماعة قسم تنفيذ مباني الإسكان شاكراً ممتناً لحسن الزمالة المستمرة لحد الآن والتحقت بكلية الاحتياط مسوّقاً لأداء خدمة العلَم.. (غير العلم الحالي)، وكان ذا ساعة بابلية وألوان زاهية مختلفة. اليوم بات اختيار الألوان مشكلة تقسّم الشعب العراقي. في مقترح تصميمه للعلم الجديد، اختار رفعة الجادرجي لوناً اعتقد أنه يوحّد العراقيين. عند الإمعان في الأمر أرى أن اللون المفضل في أرض السواد هو اللون الأسود: اسم على مسمى. علم جديد يتشح بالسواد قد يحوز على موافقة العراقيين ويليق بالعراق بلد الأحزان!

في موقع السَوق بجوار وزارة الدفاع اكتشفت من بين المسوَقين جماعة ثانوية الأعظمية من أصدقائي، وكلهم من الدورة السادسة عشرة – الوجبة



الثانية. وكانت الوجبة الأولى مخصصة لفصيل يتدرب للالتحاق بفوج التحرير الفلسطيني. في مقر كلية الاحتياط في معسكر الرشيد وزّعونا على سرايا وفصائل وحظائر كل منها متكونة من أحد عشرة مسوّقا، وفصيلنا كان يدعى فصيل خريجي المعاهد الأجنبية. وزّعوا علينا كل المستلزمات من ملابس وأحذية وبطانيات. العرفاء وضباط الصف عرّفونا بمرافق الكلية وعنابر النوم والحمامات والمطاعم. نمت الليلة الأولى هناك، ومن ثم تدبرت أمري بالنزول إلى بغداد يومياً والدوام في المكتب بعد الظهر. ولكوني المعمار الوحيد في الدورة وافق آمر الكلية اللواء الركن صبري النعيمي على اقتراح إعادة تجميل وتطوير مرافق الكلية مقابل قيامي بالأعمال خارجياً والنزول يومياً إلى بغداد: مقايضة مريحة ومربحة لي. واظبت الدوام في الكلية دون انقطاع، وحضرت الدروس والتدريبات العملية لمدة ستة أشهر، كنت أترك فيها البيت في الرابعة فجراً للوصول إلى ساحة العرضات في وقت التعداد.

كانت الرحلة من رأس الحواش في هيبة خاتون حيث السكن مع الوالدين، إلى الرستمية حيث ساحة عرضات الكلية، ممتعة مع التهام الفطور في الطريق وبعجالة: باقلاء مع البيض المقلي في الحيدرخانة قرب جريدة الحرية، أو الكاهي من فرن صمون المصبغة وشرب الشاي عند الحاج "زبالة". في تلك الأيام كان يرافقني بعض زملاء الدراسة الابتدائية والثانوية، ومنهم وليد الخوجة وسعد قاسم حمودي[6]. من الأعمال التي قمت بها في الكلية، فضلا عن إعادة التشجير والتزيين، بناء مسرح مفتوح، وبسببه كُرمت من قبل الزعيم عبد الكريم قاسم في حفل التخرج بإهدائي جُنة على شكل درع من الفضة، ما زلت أعتز بها محتفظاً بها في دار الصليخ.

لم أتخلف عن الدوام والعمل بشغف في المكتب طيلة مدة الدراسة في كلية ضباط الاحتياط في الرستمية. علمت أن معسكر الرشيد،



الدائم الخضرة، جرى إزالته مؤخراً بعد أن قامت مجموعات ريفية مقتلعة باستعماله كسكن جماعي.



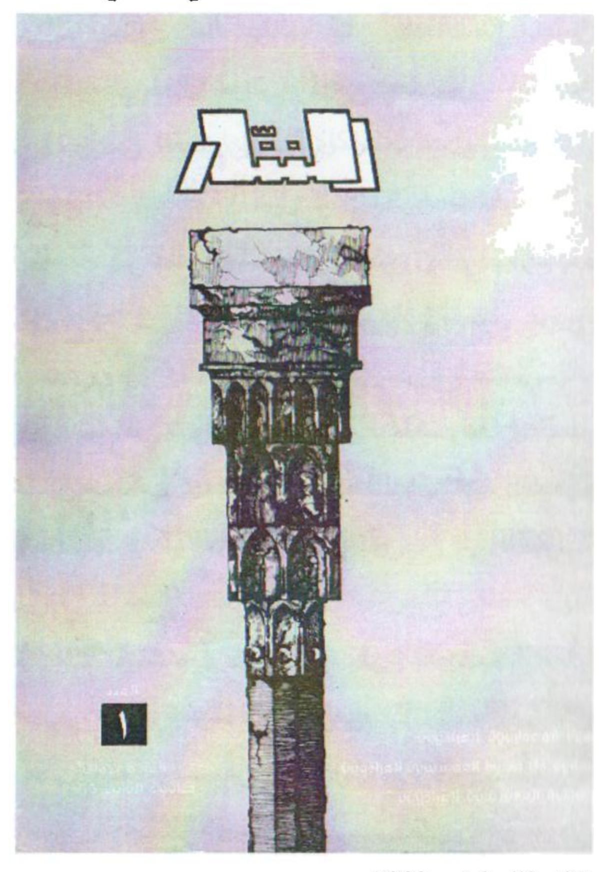
تكريم عبد الكريم قاسم يوم التخرج 1962

بعد التخرج، نسبت إلى وزارة الإسكان التي كانت بحاجة ماسّة إلى خدمات مهندس معماري، وبطلب منها. لا أعجوبة وراء ذلك، فأنا "الأوحد الثاني" بعد الزعيم الأوحد، إذ لم يوجد معماري آخر في الدورة، لذا نسبتني وزارة الدفاع إلى وزارة الاسكان وبدورها نسبتني الوزارة هذه المرة الى قسم التصاميم.

في هذه الأثناء انتسبت إلى نقابة المهندسين، وبين المعماريين كنت الخامس والثلاثين، ورقم انتسابي في النقابة 1895 في 11/11/ 1961. آنذاك كان 17 معمارياً يمارسون العمل فعلا. الإنتماء للنقابة كان شبه إجباري لأجل ممارسة المهنة، مع الاحتفاظ بحق استعمال حدائق جمعية المهندسين الغنّاء للسهر والعربدة.



في شتاء 1965 وبناء على طلب المعماريين الشباب رشحتني النقابة للجنتها المعمارية. حزت على جميع الأصوات المشتركة في الإنتخابات، وكانت 23 صوتاً فقط. عندها أصدرنا وصديقي ياسر حكمت عبد المجيد أول مجلة معمارية، "ننار"[7]: عدد يتيم، صممه وطبعه تبرعاً الفنان الصديق ناظم رمزي[8]. في مطبعته جرى إضافة الألف واللام ليصبح اسمها "النتار". جمعية المهندسين العراقية كانت تصدر مجلة المهندس، وهي مجلة محترمة في حينها، إلا أنها تراجعت مثل كل شيء مهني جيد، وأصبحت نشرة سطحية.



غلاف ننار اليتيم 1966

لقد نَفَذ المكتب مشاريع كثيرة ومتنوعة، وقسم منها كبير. أتذكر منها بناية التأمين الوطنية في شارع الجمهورية، وعمارة هديب الحاج حمود في السعدون، ومدينة الرشاد، ودوراً متعددة كدار الأستاذ محسن شنشل في بزايز الصليخ، ودار الدكتور فاروق الآلوسي، ودار حسن زكريا، ودار أديب جلمران في المنصور، ودور أدمون ميناس في عرصات الهندية وغيرها.

عند التحاقي بالمكتب لم أجد من الزملاء الذين واكبوا المسيرة، ولحين هجرتي الأولى وتركي للمكتب في مايس 1974. سوى خاجاك كربيت، طالب عمارة صباحي ورسام مسائي يحاول إعالة عائلته. كان خاجاك من أحسن الرسامين الهندسيين الذين قابلتهم خلال حياتي المهنية. بعد مرور أقل من عام التحق بالمكتب طالب آخر من القسم المعماري اسمه سامي علوش، وهو صديق لخاجاك الا انه يختلف كلياً عنه، الأول كانت أطروحته دار أوبرا، والثاني إسكان في مدينة الحلة. في ذلك العام تأخر الكثيرون في تخرجهم. وهم: أتيلا ضياء الدين، مودة العلاَق، آمال القرغولي، أحلام فاضل عوني، عطارد الصراف، سميرة سمرة، روزي، جواد ذو النون، رافع طاهر. لقد تعرفت على هؤلاء بعد أن أخذتهم في جولة على مشاريع المكتب خلال العام الدراسي 1962. مودة العلاق احتجّت لصغر عمر الأستاذ المرافق. جميعهم أصبحوا أصدقاء وأعتز بزمالتهم. طلاب الدورة الأولى تخرجوا في الصيف، بعد أن نقحوا أطروحاتهم.

ما أسفت عليه آن خاجاك، وبتشجيع من رفعة، تفرغ لتصميم الأثاث، أسوة برفعة الذي بدأ يخصص الكثير من وقته لتصميم الأثاث. سامي من أوائل المتفرغين للمكتب، حتى رفعة وإحسان لم يكونا متفرغين كلياً. بعد مدة أُرسل سامي إلى البحرين، واستمر لفترة من الزمن يمارس مهنته من الخليج، حتى بعد أن ترك "الاستشاري العراقي" في منتصف السبعينيات.



أول معماري متخرج بعد خاجاك وسامي التحق بالمكتب كانت سيدة إيرانية غاية في الرقة: المهندسة فرخندة زوجة الزميل صفاء الكيلدار، وهي خريجة أميركا، وعملت في المكتب إلى سنة 1975، ثم التحقت بنا في بيروت في نهاية السنة لحين هجرتها الى لندن في الثمانينيات.

في هذه الأثناء تم تشييد مكتب على أرض تعود للمقاول المهندس حسيب صالح، استمر إلى نهاية 2006، بعدها شيّع إلى قبره على يد الورثة، شيرين شيرزاد التي باتت مدرسة في إحدى جامعات الخليج، والثاني كامل نصير الجادرجي الذي بات وكيل وزارة البلديات في مجلس الحكم. شيرين كتبت كتاباً عن المكتب وأعماله، استثنت منه، ولا أظن نسياناً منها، معمارياً من شركاء المكتب.

التحَقت بالمكتب في منتصف الستينيات مجموعة طلاب تضم كلا من سعد الزبيدي ورعد المميز وسهير الموصلي، ومن ثم وجدان نعمان ماهر. بعد مدة التحق عوف عبد الرحمن[9]، ثم فارس حازم نامق، وخالد الراوي، وهوبي، وسامان أسعد كمال، وفريد الكفيشي، وجمال يامور، ومظفر ياموري، وشخص لطيف جداً اسمه عبد الهادي مات غرقاً. التحقا لفترة قصيرة ولأشغال محددة جالة مخزومي وأُنس شبيب. جالة الآن بروفسور في الجامعة الأميركية ببيروت، وأنس تمارس عملها من عمان. هناك أسماء أخرى: رائقة اللوس، منان طاهر، دلال باشي الذي التحق بي في بيروت ومن ثم الخليج وما زال في دبي، عباد الراضي، نزار أحمد عثمان، والإثنان كانا في وحدة عمل منفصلة لأعمال التخطيط، معهما صديق سوداني مخطط مدن، لاحقاً شريكي في بيروت والخليج، اسمه عبد الله محمد صبار. ثم ندى زبوني التي التقيتها مع زينة علاوي لغرض كتابة توصية للإشتغال في مكتب "له كوربوزيه"، حيث كان لي صديق معماري فرنسي يدير المكتب في باريس. هؤلاء اشتغلوا لمدة



سنتين وعملوا على صالة الألعاب التي تم تشييدها قرب ملعب الشعب في بغداد، وبعدها التحقت ندى بي مع فريق تخطيط الكرخ، إلا أنني لم أعرفها في "الاستشاري" إذ أنها التحقت بعد تركي المكتب في هجرتي الأُولى إلى بيروت.

هنا لا يسعني سوى التنويه بدور جنديين مجهولين كانا مسؤولين في "الاستشاري العراقي" عن الرسوم التفصيلية، ولهما أفضال على المكتب، وهما الزميل أتيلا ضياء الدين الذي التحق مبكراً ومن الوجبة الأولى، وزامل المكتب إلى حين إخفاء رفعة في 1976. نجح أتيلا في العمل المعماري، وهو الآن شريك في أحد المكاتب الهندسية الكبيرة في كندا، ويعمل في اسطنبول حسب علمي. الأخر كان على خلاف مهني دائم مع أتيلا، خريج هيوستن/ تكساس، إسمه نبيل قزاز. كان على عكس أتيلا لا حدود لطموحه، معماري جيد، التحق بي ثانية في أثينا، وجاءني يوماً ليسألني: متى تتقاعد؟ فسألته عن سبب سؤاله، فأجاب: يبدو أنك لن تتقاعد قريباً، وعليه فلا مجال لي في هذه المؤسسة، ولم يبق لي إلا السفر والهجرة إلى أميركا! زرته هناك في هيوستن في أواخر السبعينيات: ظل يحتفظ عندي بمنزلة خاصة، فهو لم يخن ولم يكذب.

في "الاستشاري العراقي" لم يبق من المتفرغين غيري، نظراً لسفرات رفعة المتكررة وتوزير إحسان. كنت مسؤولا عن الإشراف الموقعي المعماري واجتماعات دوائر الدولة ومسؤولية المكتب إدارياً ومهنياً. كنت متوحداً كالصوفي في عشقي وإخلاصي للعمل، مع العلم أنني لم أتوقف يوماً عن أخذ المشورة من أساتذتي أينما كانوا. من جراء ذلك بدأ إسمي يظهر على لوحات المواقع، من مثل بناية الطب البيطري، ومراكز أيتام أربيل ودهوك، ودواجن ومعمل علف أربيل، ومشاريع أخرى.



في الوقت نفسه اشتد المرض على الأستاذ عبد الله، ولم يراجع المكتب الجديد إلا مرة واحدة، طلب فيها مني أن آخذه بجولة. لم يعلق بشيء في أثناء وجوده في المكتب سوى فيما إذا كانت الإضاءة من تصميم سامي علوش لغرابتها، وكان دائماً يمزح مع سامي منذ أيام الدراسة. في ما بعد علمت أن الأستاذ عبد الله قرر الإنسحاب أو أريد له أن ينسحب، فقرر الأساتذة الأقدمون المالكون تسمية المكتب بـ"الاستشاري العراقي" وتقسيم الحصة الثالثة بين أرتين ليفون وبيني. أتذكر مدى فرحي، برغم أن المردود لا يعني شيئا، فيما ظل أرتين غير متحمس. في أوائل السبعينيات طلب أرتين، وفي اجتماع مغلق، الإنسحاب كلياً مستغلا قانون التفرغ. لآرتين ليفون أخلاق بمستوى رفيع، عاشق للموسيقي الكلاسيكية كأكثرية الأرمن وأستاذ الهندسة المدنية في كلية الهندسة العراقية، ومسؤول التصاميم الإنشائية في المكتب منذ الخمسينيات، ساعده في فترة ما متي بخايا بإشراف شيخ الإنشائيين الأستاذ إحسان شيرزاد.

هذه النبذة المبتسرة، هذه الكمية من الأسماء العزيزة هي للتسجيل والتوثيق وتصحيح وضع بعض النقاط التي وضعت مؤخراً في مواضع غير مكانها. العمارة على الدوام من دون نقاط، وهي لا تحتاج الى تنقيط، حتى قبل اختراع التنقيط والتحريك في اللغة العربية. إنني أترك قصة الممارسة في "الإستشاري العراقي" لرفعة وحده، فقد فلسفها وفهرسها في كتابه القيّم "الأخيضر والقصر البلوري"[10].

ولسوف أتطرق إلى مشاريع وحوادث في "الاستشاري العراقي" ابتداءً من صيف 1961 لحين هجرتي الأولى إلى بيروت في 1974، وبقدر ما لها من تأثير على مسيرتي في درب العمارة.



أحداث مختارة

قمت بزياراتي الأولى لمواقع العمل في الشهر الأول من التحاقي بالمكتب بصحبة الأسطة العملاق عبد حسن عزاوي، وهو المتمرس في المهنة لدرجة الكمال، متدرجاً فيها إلى أن صُنف من كبار مقاولي بغداد. من أعماله: مدينة الرشاد، بناية مصلحة التبوغ في شارع الجمهورية. كان رفعة قد قدم لي من البداية بعض الوصايا في التصرف الموقعي المهني، منها عدم التردد أو التلكؤ في اتخاذ القرار حتى لو لم يكن الأمثل والأصوب، فالخطأ ممكن إصلاحه، لكن فقدان الثقة نهائي، إذ لا يمكن ترميم الثقة إن خدشت. أوصاني عدم بيان عدم المعرفة أو الطلب بالرجوع إلى المكتب للإجابة.

أذكر هذه الحادثة: مرّ الأسطة عبد "أبو محمد" عليَّ في البيت للذهاب إلى الموقع، وهو على معرفة سابقة بالوالد. في الموقع بدا لي أن أحد الجدران المبني بالطابوق "الجف قيم"[11] مائلا بعض الشيء. ومن دون تردد وجّهت نظر أبو محمد إلى ذلك، وهو بدوره، ومن دون تردد نادى من موقعه على أبي صدر المشرف والبنّاء، طالباً منه هدم الجدار حالا. لم أعترض في بداية الأمر، إلا أنني لاحقاً، متظاهراً بعدم التكلف، سألت أبو محمد: أما كان علينا التأكد من عدم استقامة الجدار قبل هدمه؟ كان الجواب درساً: نعم الجدار لم يكن مائلا، وإنما "الوردة لم تكن على الوردة"، أي أن المفاصل العمودية غير متناسقة. قبلت الشرح صاغراً ولو أني لم أسمع بـ"اسم الوردة" سابقاً.

لقد ورثنا نحن المعماريين عن الأسطوات العراقيين، وقبلهم عن أسطوات البناء بالطابوق من اليهود قبل هجرتهم تراثاً ثرّاً كان بمثابة الزاد لنا، ألهمنا وحفّزنا على الإستزادة والتطوير. خبرتهم في صناعة البناء كانت متوارثة، لها أُصولها ونهجها، لا تقبل بالنشاز. التشكيليون من الأساتذة يعرفون هنا ما أعني: تعلم القواعد الأساسية أولا. إنها بداية المعرفة. التخيّل والشطحات في ما بعد!



عمارة الطابوق، الجف قيم "الوردة على الوردة"

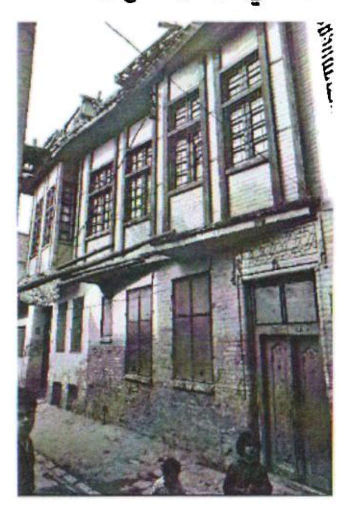


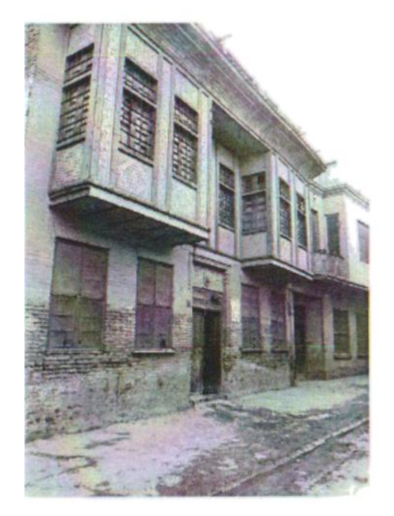
الجف قيم، وقيم مستعارة من عمارة الاسطوات

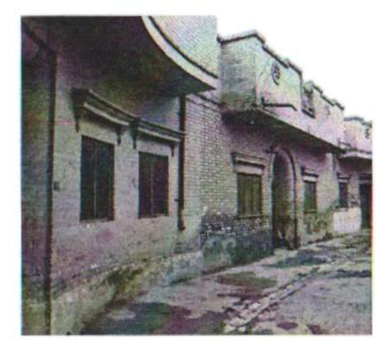
تعلمت كثيراً من الأسطوات الذين زاملتهم، أمثال أسطة ابراهيم، وأسطة محمود الذي شيّد داري، الرخيص الكلفة (من دور ذوي الدخل المحدود)،

بالتعاون مع أسطة عبد الأمير النجار العبقري. لم يسعفني الحظ العمل مع الأسطة الشهير حمودي، إلاّ أني درست بعض أعماله الجبارة. البعض من هؤلاء الأسطوات أصبحوا مقاولين كبارا، كالحاج طه المعمار، وطاهر خلف العاني، وعبد حسن عزاوي، ويعقوب منصور وغيرهم.

كانت لهؤلاء الأسطوات مكانتهم وأصالتهم التي حافظوا عليها بالعمل النزيه المتواصل، مع احترام كبير للذات والتمسك بالمعرفة المتوارثة، وقبل كل شيء بالتواضع ودفء القلب.









عمارة اوائل القرن للماضي للتوارثة من السلف الاسطوات 1920-1940



في يوم ما أراد إحسان شيرزاد إجراء تعديلات جذرية على دار سكنه الأولى في منطقة راغبة خاتون، فدعانا إلى الدار مع أسطة عبد وأبو حسن، محمد مخزومي، الشيخ الانشائي الرديف وزميل إحسان في كلية الهندسة، وأنا الشاب المعماري المحاصر بين الفطاحل. لقد أردنا تغييرات جذرية. المقترح كان رفع جدار حامل رئيس لأثقال الطابق العلوي. بعد الحسابات توصل إحسان وأبو حسن إلى وضع "شيلمان" عدد 2 بكذا قياس، وكم كانت دهشتنا جميعاً عندما وجدنا المقترح هو ذاته المخمن "على الواقف" من قبل أسطة عبد، من دون حسابات ورقية أو القيام بتذكر عويص. تلك هي خبرة وصلت حد الكمال في الاتقان.

في خضم الثورة الإسكانية، ولندرة الكادر الهندسي، طلبت وزارة الإسكان من وزارة الدفاع إعارتها المهندسين المعماريين للعمل على مشاريع الإسكان، فتنسبت إلى مديرية الإسكان العامة قسم التصاميم في نيسان 1962. كان رئيس القسم بسمارك عزيز، مهندس مدني، وله مكتب هندسي استشاري إضافة لوظيفته، ومن خلاله يمارس العمارة بكثافة[12]. التحقت بالقسم الذي كان شغله الشاغل توفير الخدمات لمشاريع الإسكان التي أوشكت على الإنتهاء: مراكز خدمية، مدارس وأسواق ومساجد.

المشاريع الفذة العملاقة كانت تخطيطية، وخاصة تخطيط مديني للثورة والشعلة، حيث الهجرة/الهجمة /الجامحة من ريف العراق إلى المراكز الحضرية. الكل هناك كان مهاجراً وراء لقمة العيش، وفرص العمل، والخدمات المدنية. لم تكن عواقب ذلك الهجوم متوقعة آنذاك، الا أنها ظهرت في ما بعد، وكان لها الأثر الأعظم على توسع المدن عشوائياً وتريّفها. كانت المراكز الحضرية تتريف بدلا من أن يتحضر الريف. المسؤول عن التخطيط كان المخطط مصطفى الجاف، صديق الدرب حتى في الهجرات والغربة، فهو



المخطط المختص الوحيد في ذلك الوقت، تساعده مهندسة مدنية، سعاد مظلوم، زوجة هشام المدفعي الأولى، وشقيقة المعماريين مدحت وسعيد. لم يسع مصطفى أو أي مخطط آخر لكي يوقف تدهورالحالة، سوى إتباع خطى وأُسس مخططات مؤسسة دوكسيادس وتسلسلها في تخطيط وتوزيع الأراضي على جموع النازحين: الدار والبلوك ثم القطاع، والقطاع النموذج صممته مؤسسة دوكسيادس في نهاية الخمسينيات لإسكان أصحاب الصرائف في غربي بغداد. القطاع الذي شيدته مديرية الإسكان،أصبح كما هو اليوم أنموذجاً لسكن المسحوقين من البشر، ومجموع القطاعات التي قاربت المئة، والتي أصبحت في ما بعد مدينة الثورة، ثم مدينة صدام، ومن ثم مدينة الصدر. سأعود إلى هذا الموضوع بتفاصيله، وذلك لعلاقتي المهنية بالمدينة نفسها من خلال قيامي بإعادة تأهيل بعض القطاعات في نهاية الثمانينيات.

في قسم التصميم كنت المعماري الثالث، بينما كان عدنان زكي أمين الأقدم، وكنت زميلا لأخواته وأخيه الأصغر في دراستي الابتدائية والثانوية في الأعظمية. المعمار الثاني كان صديقي هنري زفوبودا، الشخصية الفذة ذو الثقافة العالية والتي دامت صداقتنا لفترة طويلة إلى أن نعاه لي بالبريد الألكتروني في 2006 صديقنا المشترك محمود عثمان. هنري التحق بدورة ضباط تلت دورتي، ثم التحق بقسم التصميم في نهاية 1962. التحق بالقسم بعد ذلك الزميل ابراهيم علاوي لفترة جداً قصيرة، لأنه هرب واختفى بعد أحداث 8 شباط وما واكبها من حوادث مؤلمة. بعد نحو 35 سنة زارني ابراهيم في ليماسول.

في 8 شباط، 1963 اختفى أكثر من نصف القسم، منهم من هرب، ومنهم من أعتقل، كرئيس القسم بسمارك الذي أعتقل بطريقة بشعة وغير مقبولة بكل معايير الإنسانية. الصديق مصطفى الجاف أُعتقل إلا أنه ما لبث أن عاد



بعد فترة قصيرة لكونه كردياً "بارتياً" وليس شيوعياً حسب اعتقاد معتقليه. الزميل محمد محمود مسؤول شعبة الكهرباء في القسم إختفى بإعجوبة، وكأنه ملح ذاب. التقيته ثانية مصادفة في "جومان" على الحدود العراقية الإيرانية في نهاية الستينيات. أخبرني البيشمركة المرافق أحمد، بكنية الزميل وبالموقع المهم الذي يحتله كاكا سامي عبد الرحمن – هكذا كانت كنيته في المقاومة الكردية آنذاك [13]. استشهد محمد محمود بواسطة انتحاري فجَر نفسه في قاعة استقبال في أربيل: خسارة كبرى للعراق ولكردستان. بمقتله فقد العراق إنساناً متمدناً مخلصاً ونبيلا كان بإمكانه إعطاء الكثير لأهله ولوطنه.

في الفترة اللاحقة وبعد أن استقرت الأمور نسبياً طُلب مني رئيس القسم الجديد نور الدين محمد رضا، القيام بتصميم مركز مدني، سوق وجامع مع مستوصف في منطق الفضيلية، شرقي مدينة بغداد. كان المطلوب إتمامه بسرعة قياسية، فمنطقة الفضيلية أُختيرت لإسكان أصحاب الجاموس، شبيهة بمنطقة أخرى في أبي غريب، تقليداً لإسكان مدينتي الثورة والشعلة. بعد الإنتهاء من التصميم، عرض علي نور الدين مكافأةً، وهي زمالة دراسية للإختصاص في الأبنية المدرسية في المناطق الإستوائية. كان هذا بمثابة إنقاذ، وأنا ما زلت ذلك الملازم العسكري المثقل بالديون، لزواجي من رفيقتي الألمانية الجنسية في أيلول 1962. كانت فرصة العمر.. رمية عشرة عصافير بحجر واحد.

في انكلترا

التحقت في 23 أيلول 1963 بـ "كلية رابطة المعماريين" في "بيدفورد سكوير" بلندن، وفي 6 تشرين الأول رزقت في بغداد بوحيدي بكر وأنا خارج العراق.

كانت لندن نقطة تحول، وخير منهل. المدرسة بحد ذاتها ملتقى المعماريين الانكليز وغيرهم من العاملين في مركز المدينة. الجميع كان يلتقي على الغداء،

في صالة مطعم الأعضاء، أو في الـ"تشنغ"، المطعم الأرخص. الندوات الثقافية كثيرة. التحقت بمركز الفنون المعاصرة في "المال"، حيث تقدم النشاطات الفنية والثقافية. صالات عرض الأفلام عامرة، وخاصة الأفلام الكلاسيكية التي لم يكن بمقدوري حضورها في بغداد التي كانت تنتخب حسب مزاج وزارة الأعلام، على الرغم من معرفتي بها من خلال القراءة. لندن في بداية الستينيات كانت مركزاً للإبداع، بلد البيتلز والمودة، "بيبا وتويغي" ومسرحيات "هير" الغنائية، و"بيجاما توب" و"ماوس تراب". في تلك الفترة تم افتتاح الصوب الجنوبي من لندن، مركز النشاطات الموسيقية والمسرحية، واكبنا أنا ورفيقة الدرب كثير من هذه الفعاليات. كان رئيس القسم البروفسور "اوتو كونِكسبرغر"[14] من مهاجري ألمانيا النازية وعلى اطلاع واسع بمكونات العمارة الإستوائية والمحلية. الفصل الدراسي كان بقيادة "المس برايس" التي عاصرت حملة تشييد الأبنية المدرسية بعد الحرب العالمية الثانية، وخاصة الأبنية المصنعة كضرب من اللحاق بتعويض ما دمرته الحرب، وكان هذا هو الهاجس والموجه والهدف في الوقت نفسه. الدارسون كانوا من معماريين مارسوا المهنة بشكل أو بآخر، وهم من خلفيات مختلفة، منهم النايجيري والباهامي والسويسري والفرنسي والغاني، وطبعا الإنكليزي. تنوع في الثقافات فريد ومفيد جداً. المدرسة بحد ذاتها كانت مركزاً للابداع الفني/الثقافي، ورشة إنتاج وما زالت إلى يومنا هذا. هناك تخزين مستمر، تراكم مسجل، من أجل الاستفادة منه لاحقاً في الممارسة.

خلال وجودي في لندن تم تسريح الدورة 16 من الخدمة العسكرية، ثم سرحت لاحقاً في 1964/6/18.



مهندس بأجور يومية

التحقت ثانية بقسم التصاميم في مديرية الإسكان العامة، كمهندس بأجور يومية مقدارها 2.750 دينار في اليوم الواحد. إصراري على عدم قبول وظيفة دائمة كان لغرض المحافظة على حريتي. رئيس القسم كان زميلي وصديقي مصطفى الجاف، رفيقي في التغرب في بيروت وقبرص. اختلفت مع مدير عام الإسكان، وقدمت استقالتي فرفضت من قبل الوزير، وكان حينذاك الدكتور عبد الفتاح الآلوسي الذي طلب مني الإلتحاق بمديرية المباني العامة.

باشرت في 1964/10/18، وقمت خلال الفترة القصيرة التي قضيتها في إلاسكان بتحضير تصاميم مدرسة ابتدائية كنموذج لتعميمها على مشاريع الإسكان متكونة من ستة صفوف قابلة للتوسع إلى 12 صفاً. لقد جرى تشييد عدد كبير من هذا النموذج لأن وزارة الحكم المحلي تبنته، ومن المؤسف أنني فقدت التصاميم والمخططات الخاصة بالمدرسة التي أعتز بها جراء الهجرة المستمرة.

لم آسف على انتقالي من الإسكان إلى المباني العامة، إلاّ لانقطاعي عن مواكبة مدينة الثورة، بيد أنني واصلت مع صاحبي مصطفى تعقب مآلها، حتى منتصف الثمانينيات عندما كلفت من قبل أمين العاصمة سمير الشيخلي بمحاولة إعادة تأهيل بعض القطاعات.

التحقت بمديرية المباني في 1964/6/25، في قسم التصاميم الكائن قرب ساحة الفردوس. لم أكن على معرفة بأي من المهندسين ما عدا متي بخايا المصمم الإنشائي في المكتب، والمعماري فاضل لازار الذي كان يعمل في مكتب حازم نامق جارنا في عمارة عقراوي، وصديقي الإنشائي الفذ في ذكائه، سرمد أنور صائب زميلي في حظيرة كلية الاحتياط وأحد أعضاء المجموعة في صولاتها العبثية خارج أوقات العمل، توفي وهو شاب في 1978 خلال إقامتي في أثينا. من الذين صادفتهم وأنا على معرفة سابقة بهم نوري طباع الخرائط في المكتب، هذا الكادح

بكل معنى الكلمة، ساعدني في إنتاج وطباعة واكتشاف عالم بدأت في سبر غوره وأنا في لندن مع مكاتب الريبرو التي لم نكن نعرفها في بغداد: عالم جديد في الطباعة والنسخ والعرض والكولاج الاستاطيقي لرسوم وتقارير المشاريع العائدة للمكتب فقط وباتت سراً من أسرار المهنة. استمر البحث وسبر امكانات جديدة في موضوع عرض المشاريع في بيروت وأثينا. انتهت هذه المحاولات باكتشاف مناهج الكاد في الحاسوب الألكتروني، حيث لا حدود للإبداع في هذا المضمار.

التحق في مكتب الإستشاري شاب من أهالي أربيل كان أصغر من مراهق اسمه جلال، كان يقوم بأعمال متنوعة، ويساعد نوري عند الحاجة. لقد ترعرع جلال وتعلم واتقن العربية، وكان مؤدباً وأميناً على غرار أكثرية الكرد، شغول وطموح، شبّ والتحق بخدمة العلم لمدة 24 شهراً. دبر أُموره في الخدمة بوصفه حلاقاً، متخلصاً بذلك من الخدمة الشاقة.

في أحد الأيام جاءني جلال هاشاً باشّاً وأخبرني بأنه أنهى الخدمة العسكرية وتسرح من الجيش وهو يبحث عن عمل. أخبرته بأن المكتب مكتبه، ويمكن أن يلتحق بالعمل متى ما رغب. لم يجب، لم يتأثر، لم يبتهج، وتركني شاكراً. عند مغادرتي للمكتب، في وقت متأخر كعادتي، وجدت "جلال" في الكراج المظلم، يقف وحيداً، وطلب مني التفرغ له لدقيقة واحدة. عدت إليه فقال :"سوف لن أعود إلى الشغلة القديمة، وعليك حلّ هذا الإشكال". أفهمته أن هذا وحده المتوفر، ولا يمكننا فتح محل للحلاقة، وهي الصنعة الأخرى التي اتقنها في الخدمة العسكرية. انتهى لقاءنا وعلى محياه الخيبة والدموع في عينيه. في اليوم التالي وجدته يقف في الكراج، سلمت عليه ودخلت، معتقداً أنه سوف يلتحق بنوري رئيسه المباشر. عند تركي المكتب ليلا وجدته ما زال واقفاً في الكراج. تكررت القصة مع التعنت الكردي المعروف. في اليوم التالي وجدته على حاله، وفي نفس المكان يحمّلني المسؤولية الكاملة عن حالته هذه، متألماً متعذباً جداً. تداولت مع رفعة بشأن



مساعدته، إذ لا يمكن تركه على هذه الحالة. وجدنا الحل، وهو تعيينه وتدريبه على ماكنة طباعة "أوفسيت" كنا قد أوصينا عليها لاستعمال المكتب الخاص. فأرسلناه للتدرب عند الصديق أبو نمير، يحيى ثنيان، في مطبعته العامرة. هذا الجلال الشاب الطموح أصبح بعد أشهر قليلة أفضل طباع "روتو برنت أوفسيت" من الدرجة الأولى وبدوام كامل في مطبعة ثنيان، وبنصف دوام في المكتب. إنتاجه في المكتب بمستوى خبير. هو ونوري استمرا على وفائهما يزوراني كلما جئت بغداد. في الثمانينيات علمت أن جلالا تدرج وأصبح رئيس طباعين في مديرية المساحة العامة، وهو أحد أعضاء مجلس نقابة الطباعين: لقد أعطاني درساً من دروس الحياة.

العمل في قسم تصاميم مديرية المباني ممل، فهناك روتين جامد، وأبنية تتكرر. الأعمال المهمة تناط بالاستشاريين المحليين المتنفذين منهم والأجانب، كل حسب مواكبته للسياسة المحببة آنذاك. الأقسام الحكومية لم تكن قادرة على التحرك، إما لقساوة الروتين أو لانعدام المنافسة. شخصياً كنت أعوّض عن تبرمي بالعمل عصراً وبعض الأحيان ليلاً في المكتب. بيد أن العمل ضمن هذه المؤسسات الرسمية مهم جداً، نظرا للعلاقة المباشرة مع مواقع العمل الواسعة المنتشرة في جميع أنحاء العراق، إضافة ما يوفره الالتزام بالروتين من التعرف على الأنظمة والأعراف الهندسية، وتسلسل العلاقات بين دوائر الدولة، وطرق إدارة المشاريع وتمويلها، وتلك خبرة تُكتسب بالممارسة الطويلة. السفير بريمر ومجلس الحكم عينوا وكلاء وزارات ومدراء عامين أغلبهم من دون تجربة سابقة في إدارة أعمال للدولة، لذا عمّت الفوضى، وتفشّى الفساد، وفشل الإعمار، وتبدد المال العام، وضاع الزمن وهو الأثمن في العراق، وتاهت أجيال تنتظر الفرج.

كان للمهندس في السابق هيبة تؤهله أخذ القرارات المهنية الحاسمة. السمعة الطيبة أساسية، فاقدها يشار إليه، وتزول مصداقيته المهنية. إن فاقدي النزاهة

معروفون وهم قلة. الرواتب قليلة في دوائر الدولة لذا يعمل الجميع كل نهارهم في دوائرهم الرسمية، وخارج أوقات الدوام الرسمي يعملون في المكاتب المهنية. لا مجال لتبذير الوقت، إذ لابد من الحفاظ على مستوى مهني واجتماعي يليق بالمهندس.

الدار الاولى – محدودة الكلفة

من الأهداف المشروعة أن تَملك داراً وسيارة. شخصياً جاءتني السيارة من ألمانيا هدية الزواج من العم البروسي، والد الرفيقة. أما الدار فقد تملكته بمصادفة.

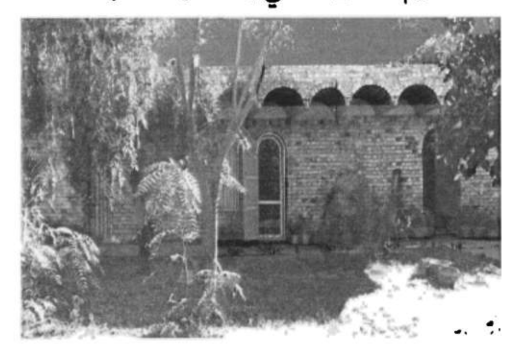
خلال وجودي في الزمالة الدراسية بلندن وزعت أراض سكنية على جمعية إسكان موظفي وزارة الأشغال والإسكان التي كنت عضواً فيها، أسوة بإسكان منتسبي المؤسسات، كالعدل والبنوك والقوات المسلحة. وزعت الأراضي على منتسبي الجمعية لكنهم نسوني لوجودي في الخارج. عند إعتراضي وجدت الكثير من المنسيين، بينهم مدير عام ورؤساء مهندسين وموظفين. وعدونا بإيجاد حلّ، وبالفعل خصصت أرض للمجموعة المنسية في الحي العربي. جاورنا لاحقاً رأس أبو جعفر المنصور الذي أُزيل مؤخراً. (نعته أحد المسطولين بالزندقة بعد ألف وثلاثمئة عام ضمن محاولة إزالة مدينة بغداد مع مؤسسها بالكامل. التخلص من إستعمار قريش الذي دام 14 قرنا: هذا ما قاله أحد مثقفي العراق في إحدى الفضائيات!).

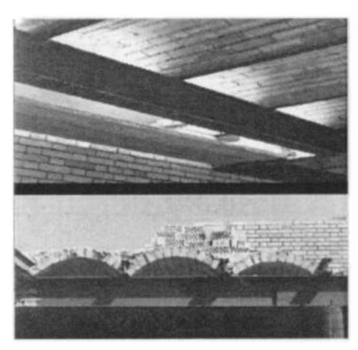
دفعت 90 ديناراً، وهو ثمن رمزي لمساحة 600 متر مربع، وبالتالي امتلكت عقاراً. ها هي بداية أن تكون صاحب أطيان! المشكلة في بناء الدار هو إيجاد التمويل، نظرا لأن الإيجار يأكل نصف المدخول. اقترحت الزميلة سهير السنوي الحصول على قرض من مصرف الرهون وباسمها، إذ لا يحق لي وأنا مهندس بأجور يومية، فالقروض للموظفين الدائميين فقط. حصلت على 300 دينار كانت كافية لإكمال الأساسات، ثم 1000 دينار من المصرف العقاري، فانتهت داري ببناء



مساحته 200 متر مربع. ثلاث جدران متوازية رئيسة حاملة للأثقال، السقوف من الطابوق المعقود على شكل عقود نصف دائرية، مستندة على سكك حديد، بمدلول باعات متساوية، عشرون باع. نفذ الدار أسطة محمود، أحد الأسطوات الأفذاذ، خلفة لأسطة ابراهيم. الطابوق العراقي المشهور هو المادة السائدة في التشييد العراقي منذ القدم إلى أن غزانا الكونكريت. العقادة التقويسة[15] نصف الدائرية كانت جديدة على الأسطة ابو محمود. أردتها نصف دائرية بالكامل لزيادة قوة الدفع الساند الجانبي، بالإضافة للقيمة الجمالية، تكامل غير مقطوع. توصلنا سوية إلى طريقة فذة وهي عمل قوالب من الجص نصف دائرية نمطية، لاستعمالها كقياس نموذج للقوس، وللإسراع في العقد على شكل قوالب زاحفة[16]: نجحت العملية.

المعمارية المخضرمة ألن جودت[17] اتبعت المحاولة نفسها وأصرت على وصفها داراً لسكن ذوي الدخل المحدود، ويجب تعميمها. عمارة سمّاها ظلماً المخضرم حسن فتحي بـ"عمارة الفقراء"[18].





اقواس وعقادة الاسطة ابو محمود

دار الحي العربي الرخيص الكلفة هو الآن قيد الإزالة أيضاً، لتجنب إحتلاله من قبل المخربين المحترفين.

من ضمن المشاريع التي شغلتني في مديرية المباني نموذج لمدرسة ثانوية من إثني عشر صفاً، ومدرسة للفنون المنزلية في الحلة والبصرة، ومجمع المحاكم

النموذج بالإشتراك مع "بيوتر كرارد"، بولوني الجنسية. نموذج الكرخ تفخخ وتحرر مؤخرا بسيارة وأصبح في خبر أسود! هذه الأبنية نماذج جرى تكرارها في جميع أنحاء العراق، تنفذ بالطابوق في الوسط والجنوب، وبالحجر في الشمال مع إجراء بعض التعديلات البسيطة. الأولوية كانت لسد الحاجة الماسة والحفاظ على كلفة واطئة.

حوادث أخرى

لتنفيذ الخطة الخمسية استوردت مديرية المباني مهندسين من مصر وبولونيا للعمل في دوائرها. المصريون لم يكونوا بمستوى جيد، ولم يقوموا بأعمال تستحق الذكر. في حين كان "بيوتر كرارد" و"روبجنسكي" من ضمن المعماريين الأجانب النين اشتغلوا في وزارة الأشغال والإسكان، وهما بولونيا ن عملا في قسم تصاميم المباني، وكانا بمستوى أعلى من زملائهما المصريين، ولقد استفادت منهما البعض من المكاتب الإستشارية العراقية الخاصة. أما مكتب "الإستشاري العراقي" الذي انتميت إليه فلم يستعن بهما لتوفر الخبرة لديه. هنا لابد من ذكر أحد المهندسين البلجيك الذي كان أول القادمين وآخر المغادرين، ألا هو "إيغور بلاتينوف". عمل في دائرة المشاريع الكبرى، الدائرة المسؤولة عن أبنية جامعة بغداد، من تصميم مكتب "تاك" في بوسطن[19]، ومدينة الطب، والسجن المركزي في أبو غريب، من تصميم "لتجفيلد وايتنك" من "منيولا-تكساس"، فرع المكتب في روما كان المسؤول عن هذه الأعمال، ومشاريع أُخرى أو بالأحرى جميع المنشاريع التي كانت بعهدة المكاتب الاستشارية الأجنبية. وحسب اعتقادي كان "ايغور" عنصراً إيجابياً في تنفيذ قسم من هذه المشاريع، وسلبيته تأتت من كونه محاافظاً وتقليدياً في توجهاته المعمارية، ما أثّر كثيراً في قرارات تشييد أبنية متوسطة اا المستوى معمارياً، خاصة أنه كان عنصراً في هيئات تحكيم لمسابقات سادت في تلالك الفترة. أرى أنه تسبب



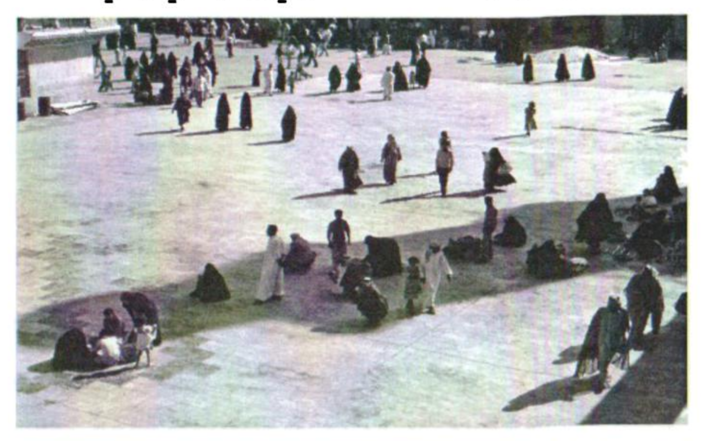
في ضياع بعض الفرص لتشييد أبنية جيدة، فعلى يديه كانت نتائج المسابقات معروفة مسبقا مثل الكليشة. نصيحة سمعتها من أحد الزملاء آنذاك، وهو من الفائزين على الدوام: "الفوز في هذه المسابقات سهل جد. إعمل مدخلا رئيسياً واضحاً للبناية، وواجهة جميلة.. وكفى!". تبسيط موجع لفعل التصميم والعمارة.

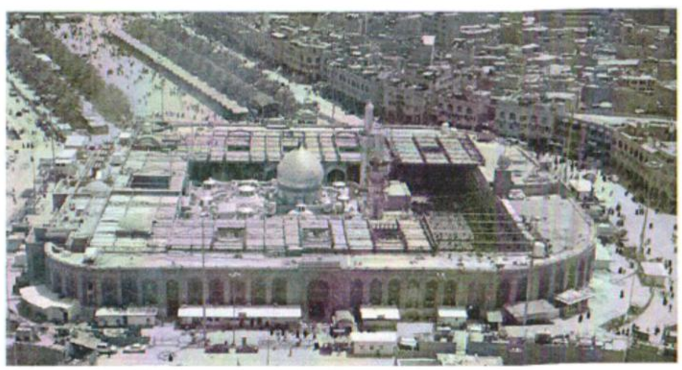
الأعمال التي كانت مثيرة في دائرة تصاميم المباني العامة كنت أُكلف بها مباشرة من قبل الوزراء المتعاقبين أو المدراء العامين، منها اختيار موقع لجامعة البصرة في التنومة، وموقع لمستشفى كربلاء. حين يختلف مدير دائرة الأشغال ومسؤولوا مركز المحافظة، ودوما لأسباب خاصة غير فنية لا يعرفها إلاّ الراسخون في التنجيم، أكون أنا الطرف الثالث المنتخب من قبل الوزير، والمخوّل باتخاذ قرار غير قابل للنقض.

في اختيار موقع جامعة البصرة واجهت صعوبة لم تكن في الحسبان، فالكثير من الأراضي والمواقع الملائمة تعود ملكيتها لشيوخ كويتيين أو لعوائل كويتية معروفة، والتوجه الرسمي في الوزارة كان عدم المساس بأراضي الغير الخاصة، والتركيز في الاختيار على أملاك الدولة، الأميرية منها، وهي في أكثر الأحيان خارج حدود مراكز المدن.

أحد الأعمال التى أُنيطت بي والتي ما زلت أُثمّنها وأحن إليها هي صيانة العتبات المقدسة في كربلاء والنجف. لقد تشكلت بناءً على توجيه رئيس الوزراء عبد الرحمن البزاز لجنة دائمية برئاسة رئيس قسم التصميم نعمان الجليلي، ورئيس المهندسين مهدي الحسني، وأنا بصفتي المسؤول عن الأبنية الثقافية. قمنا بزيارات متعددة للأضرحة الثلاثة للبحث عن بعض التخلخلات الإنشائية التي حدثت من جراء تنفيذ مجاري صرف المياه. درست بالتفصيل طرق بناء هذه الصروح، من قمة قبابها المزدوجة حتى ركائز الأُسس الجبارة في سراديبها. فهمت أساليب ونظام إدارة هذه الأضرحة وهرم المراجع، وكيفية تمويل صيانتها

ونظافتها. كان أكثر ما يؤلم أعمال الهدم والتشويه التي مرت وتمر بها مواقع هذه الصروح المميزة، والطريقة التي تم فيها القضاء على نسيج مديني مهم تتصف به مدن المنطقة، مسلمة ومسيحية، نسيج يختلف عن نسيج مدن الغرب اختلافاً كبيراً بقدر الإختلاف ما بين طقوس ومجتمعات العقائد المتباينة. مما يؤسف هو الإصرار على إدخال عناصر في التصميم المقترح الجديد، تبقي على الخطأ الفادح الذي ارتكب في التسعينيات في تهديم النسق الحضري للمدينتين، واللجوء إلى عناصر دخيلة لا تمت للعقيدة بصلة "تسقيف الصحن"، بل لتلبية مستلزمات أمنية أو سياحية زائلة ذات هدف ديني وسياسي وقتي.





قبل وبعد تسقيف صحن الاضرحة تنكر للدين والعمارة والتاريخ



كانت مديرية المباني تمارس نشاطها من مبنى خلف جامع الشهيد، أما الدائرة الهندسية المسؤولة عن جميع الأبنية الحكومية في عموم العراق، فكانت تمارس ما يوصف بالعمل الإبداعي من مبنى قرب ساحة الفردوس.. ساحة تمثيلية سقوط بغداد الميلودرامية التي أصبحت أشهر من نار على علم[20]. إنه مبنى متكون من شقق سكنية غير مؤهلة لا تلهم، إلى أن شيّد مبنى لوزارة الأشغال والإسكان في الكرخ مقابل المتحف الوطني الذي لا يقلَ قباحة وسلبية عن سابقه، بالرغم من أن تصميمها لمؤسسة رسمية تضم عشرات المعماريين. عند انتقال الدائرة إلى موقعها الجديد في منتصف الستينيات، أُتيحت لي الفرصة لاكتشاف محتويات أرشيف الرسوم والتصاميم، ولاسيما رسوم المشاريع الكبرى التي وجدتُ قسم منها مرمية على السطح في بيت الدرج. ما آلمني كثيراً فقدان قسم منها، وربما إلى الأبد: رسوم أعمال "فرانك لويد رايت" العراقية، تصميم دار الأوبرا والجامعة في جزيرة أم الخنازير. على الرغم من عدم تعاطفي الكامل مع مضمون التصاميم "مصابيح علاء الدين" بسبب نظرتها الإستشراقية العبثية، إلا أن الرسوم بحد ذاتها كنوز فنية تحتوي على أفكار تصميمية راقية في الإبداع، حافظت على قسم منها في حينه، عسى أن يكون القسم المتبقي ما زال موجودا. الغريب أن قسماً منها جرى دهانها بدهان أبيض ورسم فوقها أثناء ما كنت في إجازة صيفية، فتم اغتيالها بالفرشاة وبالجهالة العمياء.

من الرسوم التي كانت متوفرة في حينه، تصاميم "ألفرالتو" للبريد المركزي التي كانت آية في الجمال، وتصاميم "كنوز" أبنية جامعة أهل البيت في الأعظمية، التي ورد ذكرها في صدر هذا النص، من أعمال معماريي الحكومة في حينه "مايسن" و"ولسون" و"جاكسون" و"كوبر"، رسوم كلية الهندسة في باب المعظم، وجامعة آل البيت في الاعظمية، وبوابة وسياج وزارة الدفاع في باب المعظم، والنادي الأُولمبي في ساحة عنتر في الأعظمية، والبلاط الملكي، ومعهد الفنون

الجميلة إضافة إلى رسوم الميناء الجوي في البصرة، والمطار في بغداد الذي سمي لاحقاً بمطار المثنى. لقد كتبت بحثاً سريعاً لمجموعة هذه الأبنية ومهندسيها نشر في مجلة نثار المعمارية في عددها الوحيد في كانون اول 1966. الزميل الناقد المعمار الدكتور خالد السلطاني منحها حقها في البحث ووثقها خير توثيق.

ويبدو أن هذه الكنوز المعمارية طالتها يد الاغتيال، ففي رسالة متوجعة تسلمتها مؤخرا من الزميل الناقد خالد السلطاني تبين أن : "البلد فقد ذاكرته طيلة عقود من الجهل والتجهيل لكل ما تم في السابق. والأنكى من كل ذلك فقدان الوثائق عن إنجازات الفترة الماضية لتكوين انطباع حقيقي عنها. لقد أتلفت جميع الوثائق ولم يبق شيء يمكن الإعتماد عليه."

ويواصل صديقي الناقد قائلا: "ذهبت إلى المركز الوطني وهي المؤسسة التى تشكلت بعد دمج المركز الهندسي والمعماري مع مركز الإدريسي (المباني سابقا)، ويرأس هذا المركز الآن أحد طلابي القدامى، من أجل الحصول على بعض الوثائق العائدة إلى تصاميم العشرينيات والثلاثينيات والتى أعرف جيدا أن الإدريسي يمتلك أرشيفا مهماً وواسعاً لجميع الأبنية سواء في صيغة المايكرو فيلم أو مخططات ورقية. وماذا تتصور وجدت؟ لا شيء ! نعم لا شيء، فكل الوثائق تم تمزيقها أثناء التغيير بصورة منتظمة.. وبمهنية عالية، بمعنى أن الإدريسي أو المركز الوطني لا يمتلك الآن أية وثيقة لمخطط معماري أو هندسي.

للعلم "الإدريسي" هو التسمية الجديدة لمديرية المباني العامة، أو كما كانت تسمى مديرية الأشغال، فالتغيير شمل حتى اسم المؤسسة. هل هذا التغيير يبتغي الإرتقاء بالكفاءة المهنية؟ وهل أن (الأشغال) أو (المباني) لغة مستوردة؟

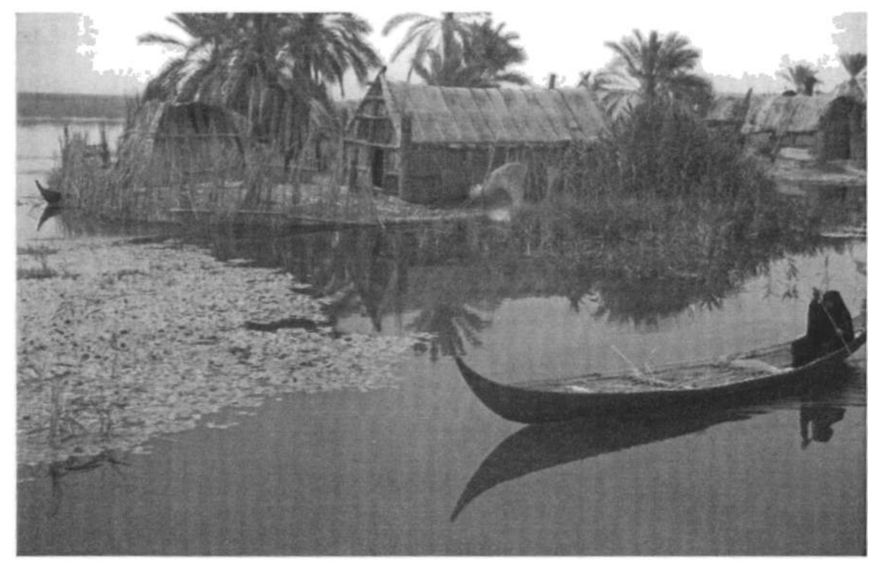
كتابة التقارير والبحث أخذت بعض الوقت مني خلال فترة العمل في مديرية المباني، منها تقرير مهم عن طرق الإنشاء في الأهوار.

في المنطقة الجنوبية من العراق ترتفع مستويات المياه الجوفية وقد تصل



لحد عشرين سنتمتراً تحت مستوى الأرض، والصفر في بعض الأحيان، كما في الأهوار. في كثير من المواقع يصل مستوى المياه إلى مستوى التربة السطحية، فالرطوبة المنسابة إلى الأعلى بالخاصية الشعرية من جوف الأرض عالية جداً.

طُلب مني القيام بزيارة وتقويم مبنى إداري واقتراح بعض الحلول. كان هذا التكليف أشبه بالمكرمة نظراً لجمال المكان. واسطة النقل زورق محلي زوّد بماكنة قديمة، لعلها ماكنة دبابة من مخلفات الجيش. الزورق بطابق أول مسقوف وسطح واسع، أخذني من القرنة إلى "المْدَيْنة" ومنها إلى "الجبايش"، قبل إعادة تسميتها، وقبل ربطها بالطريق البري الترابي المنشأ من طمي مياه الهور.



بيئة اهوار العراق

السفرة الثانية من "المِجر الكبير" جنوباً حتى "الصحين" والقرى المجاورة. في الجبايش، مستوى المبنى كان تحت الماء، وكان علينا أن نخوض في مياه الهور، على الرغم من أن المبنى شيّد حديثاً، على غرار أبنية مديرية المباني الأخرى. كان من الكونكريت المسلح والطابوق واللبخ بالإسمنت

(الطرطشة باللبناني) والدهان بالإملشن. لا اعتبار للبيئة المميزة السائدة. كان بناءً مزرياً وعدائياً.

في منطقة تتنقل فيها بالمشحوف[21] تحيط بك من كل صوب البساطة والبراءة الطاغية حد التوحش، يقوم بعض المهندسين بتشييد أبنية بالكونكريت المسلح!

لكن ما العمل؟ هل تترك الأهوار في حالتها البيئية المتخلفة غير الإنسانية؟ هل نتفرج ونقوم بنزهات سياحية، أم نربط المنطقة بشبكة طرق خدمية؟ أسئلة مهمة.. بيد أن السلطة لا تفكر عن طريق الأسئلة، وأين ما مدّت يدها قضت على الأصالة والتفرد، بل وقضت على بيئة كل موروث ريفي ثابت وحي، حتى الطيور والحيوانات وطرق بناء الصرائف [22]. حتى الأسماء قضي عليها كما هو الحال مع الجبايش، فاسمها اليوم تغير إلى "الجزائر".

أعددت تقريراً عن نتائج هذه الجولة، اقترحت فيه حلولا سريعة للاستجابة لبعض المتطلبات كتوفير ولو سقوف واقية فقط، وأرضية داينمية من البردي تتحرك إلى الأعلى والأسفل مع تغير مستوى الماء الموسمي. عالج التقرير بناءً واحداً، وحسب ما أتذكر كان مستوصفاً صحياً لم أتمكن من زيارته، وذلك لأني تركت "المباني" وتفرغت بالكامل إلى "الاستشاري" في الشهر الرابع من عام 1970.

مفاجأة في وزارة الشباب

في الزمن الذي كان فيه الزميل محب الدين الطائي نقيب المهندسين وكيلا للوزارة، طلب أن أرافقه إلى وزارة الشباب قرب مبنى مصرف الرافدين في السنك، وهو إحدى أعمال المكتب الأخيرة. استقبلنا وزير الشباب، وكانت مفاجأة أن يكون طه ياسين رمضان هناك بوصفه وكيلا. كان وزير الشباب



آنذاك هو صاحبنا الشاعر شفيق الكمالي. من بين الحضور كان سالم الجسار من رواد الرياضة في العراق، ومن كبار موظفي الوزارة، ومن مدرسي دار المعلمين الإبتدائية في الأعظمية التي جاء ذكرها سابقاً، ووكيل الوزارة، فائز عوني بكر صدقي وهو من زملاء الثانوية. سخر رمضان في كلمته من موظفي الوزارة الكبار الحاضرين، لعدم موافقتهم على تشييد نوادي رياضية نموذجية في جميع أنحاء القطر بمدة أقصاها ستة أشهر وبكلفة 20.000 دينار عراقي فقط! ما الذي يحدث؟ دائما هناك ما يجب أن تتذكره وتوضحه لنفسك أو للآخرين. والحال كنت قد أَطلعت قبل فترة قصيرة من الوزير شفيق الكمالي على تقرير هندسي رياضي عن نواد نموذجية لوزارة الشؤون الاجتماعية الكويتية، قمت أنا نفسي بتحضيره في المكتب بتكليف من وزارة الأشغال الكويتية.

والآن ها هو الوزير وكالةً يطالب بتشييد مثلها للمحافظات العراقية. كلفة النادي الكويتي الواحد يزيد عن المليون دينار كويتي وبفترة إنشاء تتجاوز الثلاث سنوات، مع فترة زمنية إضافية لتحضير الوثائق الخاصة بالمقاولة. تحركت من أجل بيان رأي مخالف، إلا أن محب الدين الطائي، وبنظرة خاطفة تنم عن الإنسحاب الكلي والاستسلام السريع، أفهمني عدم جدوى الإعتراض. منذ ذلك الحين تركت الوزارة ومديرية المباني ووزارة الأشغال والعمل، وكل الدوائر الرسمية وشبه الرسمية، وإلى الأبد.

كان إصراري على العمل بأجور يومية، برغم ضغوطات المسؤولين، ساعدني وسهَل استقالتي، وكانت آنذاك (من سابع المستحيلات). تغير الحال بعد عام 1991، أي بعد فرض الحصار على العراق من جراء غزو الكويت، وانتفاء حاجة الدولة إلى مهندسين، إذ أصبحوا عالة على الدولة المحاصرة، عندها سُمح للمهندسين بالاستقالة.

أشعر هنا أن عليَّ تقديم بعض الإيضاحات عن مشروع نوادي الكويت الذي أعترف أن له أهمية في مجمل دربي المهني. بسبب هذا المشروع تكررت الزيارات إلى الكويت، ثم إلى الخليج، الذي لم أكن على اطلاع عن أحواله. الجديد في المشروع أنه وضع المكتب في تنافس مباشر مع المكاتب العالمية، ما جعل المكتب في وضع يستوجب مضاعفة الهمّة، وبزّ المنافسين العالميين، والخروج من الصبغة المحلية، و"وصمة" الانتماء للعالم الثالث. المشروع نموذج للنوادي الرياضية المزمع إنشاؤها على مستوى الكويت، النموذج الأول في الشويخ، نادي الكويت، والآخر القادسية، والثالث العربي، ثم كاظمة وخيطان. الجهة المنفذة للمشروع وزارة الأشغال، والمنتفع وزارة الشؤون الإجتماعية، دائرة رعاية الشباب، وكان المسؤول عنها عبد الرحمن المزروعي، وهو مثال الإداري الجيد. عندما يجري الحديث عن ملاعب كرة القدم، يستشار أحمد السعدون رئيس إتحاد كرة القدم آنذاك، وهو شخص مهذب ملم بمفاصل الحركة الرياضية، وأصبح في ما بعد رئيساً لمجلس الأُمة الكويتي، ولفترات متعددة.

في المكتب ارتأينا الإستعانة بخبير رياضة، ملم ومتمرس وعلمي، فخطر على البال زميل في المدرسة الثانوية، هو المعلق الرياضي الأستاذ المعروف مؤيد البدري، العائد مؤخراً من أميركا بعد حصوله على الماجستير في التربية البدنية. اجتمعنا في المكتب، فأظهر مؤيد خصاله الأخلاقية العالية، إذ اعتذر عن التكليف لأنه لا يريد منافسة أساتذته، وهم ما زالوا على أتم الإستعداد للمساعدة ولديهم الوقت الكافي، وخصّ منهم أكرم فهمي رئيس اللجنة الأولمبية العراقية. وبالفعل استعان المكتب بخبرته الواسعة في الأقوى والأسرع والأعلى والأبعد.

أول سفرة إلى الكويت أصابتني بخيبة كئيبة، فمنذ ذلك الزمن بدأ معي هاجس البحث عن النسيج العمراني وعلاقته بنمو المدينة الطبيعي. تقدم



مدينة الكويت نموذجاً لنمو متسارع، فعلى الرغم من أنها كانت في الستينيات قيد التعمير، ولا تقارن بنسيجها الحالي، من ناحية الحجم، إلا أن النهج في التعمير القديم ما زال قائماً. إنه نهج وضعه المكتب البريطاني "مونوبريو" في سنة 1952، في مقترح التصميم الهيكلي، ولاحقاً كما في تحاليل "سابا شبر"[23] المدينية الجدية الشاملة، والتي حاول في كتاباته وتخطيطاته الجميلة أن يؤطر ويمنهج محددات نسق خاص بها.

الموروث في الكويت لا يوازي ولا يتناسق مع الأهداف الواسعة التي وضعت للمدينة. المدينة توسعت وانتفخت، وكانت أول المدن النفطية التي قدم الأديب عبد الرحمن منيف وصفاً لها في "مدن الملح"[24]. أنا شخصيا صنفتها كـ"مدن الصدفة". الكويت انتفخت وتورمت وولدت أحياء/محافظات جديدة، ودوّارات تلي دوارات، بسبب توفر الإرادة والدفق المادي الهائل. مدن الصدفة تنمو أيضاً بدفق بشري، من جراء أحداث غير متوقعة، حروب ونكبات طارئة، كما في المدن الملحقة ببغداد، الثورة والشعلة، أو ليماسول بعد الحرب القبرصية في سنة 1974، أو عمان بعد حرب 1948. ذكرتني مدينة الكويت في حينها بأوائل الستينيات، وبالمجسمات التي كنا نصنعها لغرض دراسة البنية المدينية خلال أيام الدراسة. ترتيب السالب والموجب في بنية المدينة، (فسح مفتوحة ومنشآت مغلقة) بلوكات بحجوم وارتفاعات متباينة، الغرض توفير أمكنة مريحة، تسندها بنية تحتية جيدة. مدن تفتقر إلى الذكرى والإلهام، لا تساعد في ترعرع المبدعين المنتمين للموروث، وخلق أجيال منتجه رائدة. إنها مدن مستحدثة بنسيج لا يمت بصلة للتراكم المعيشي الأصيل والمعتقد الخاص، تولد على السطح، وما تجاهر به هو العولمة الزائفة، "كنتاكي" و"برغركنغ" و"بيتزاهت"[25].

في زيارتنا إلى الكويت، رُحب بأكرم فهمي من قبل الرياضيين المسؤولين في رعاية الشباب من كويتيين ومصريين، فهو معروف لهم من الدورات الأولمبية. كانت متطلباتهم متكاملة : ناد نموذجي، مع ستاد للمتفرجين مدرج يتسع لـ20.000 متفرج، صالة مغلقة، ومسبح أولمبي قياسي. المواصفات الفنية العالمية متوفرة إلا أن التصرف والممارسة مختلفتين. وهنا كان دور أكرم فهمي وإضافاته. لقد قمنا بتحضير وثيقة للتصميم والتشغيل والإدامة، أخرجت بشكل جيد، وفي حلّة معمارية لم نستعملها سابقاً، وطبعت طباعة فاخرة في مطبعة صديقنا يحيى ثنيان، وبتنفيذ طباعين أصدقاء عملوا بسرعة هائلة واشتغلوا حتى في عطلة العيد الأضحى. هذه الوثيقة اعتمدت من قبل مجموعة النوادي، وهي نفسها التي طلب طه رمضان تنفيذ نظيراً لها في المحافظات، مع وضع الملح العراقي عليها، وهو التنفيذ بعُشر الكلفة وبربع المدة. النتيجة هي أن محافظات القطر من دون أندية محددة إلى اليوم، والشباب العراقي موزع على أرجاء آسيا، ومن ضمنهم شيخ المعلقين الرياضيين مؤيد البدري الذي يعمل في نادٍ رياضي قطري.

الطباعة الفنية كانت اكتشافاً. في مطبعة ثنيان هناك فنيون محترفون عرفونا على إمكانات جديدة في العرض وتقديم أفكارنا. لقد طبعنا "بروشورا" للمكتب بحلته واسمه الجديدين: "الاستشاري العراقي". استخدمنا تقنية الطباعة والتصوير في توثيق المشاريع بالتعاون مع الفنان الفذ والمصور الخبير عيسى حنا، زميل الفنانين الرواد جواد سليم وفائق حسن وخالد القصاب. لقد تدربت وتعلمت على يد عيسى على أنواع الأفلام الصناعية مثل "الهالف تون" و"اللاين فلم" و"الكوداليث"، وهو ما فتح لنا آفاقا جديدة في تحضير وثائق التصاميم، رسماً وطباعة. وكانت عودة حميدة لعالم التصوير الفوتوغرافي الذي تركته موقتاً بسبب ضغط العمل المعماري. الغرفة المظلمة في دار عيسى، مع جهاز



تكبير وأحواض بدائية، لها ذكرى خاصة عندي. كنا نستعمل جدران الغرفة لطباعة وتظهير الصور ذات الفورمات الكبيرة. في ما بعد عملت بغرف تصوير أكثر تجهيزاً، كتلك التي أسّستها لاحقاً في أثينا مع جودي كفاديا مصممة غرافيك، ثم في بغداد لاحقاً قبل الهجرة الأخيرة. وثمة غرفة في دار صديقي ليث الكندي في أم الربيعين، وهي مخزن ملحق بالمطبخ، مجهزة جيداً، تركت بعد الهجرة. هذه الغرفة كادت أن تسبب توقيفي من قبل الأمن، إذ كان هناك جهاز لطبع الصور من الشرائح الموجبة والتحميض الأوتوماتيكي استوردته مع التعهد بإخراجه بعد الإنتهاء من أعمال شارع حيفا، إسوة بجميع المكائن التي استوردناها للمشروع في حينه، وقد استوردت حسب قانون خاص، لتصادر بعد الإنتهاء من العمل. لم يخطر على بالي أن المخابرات كانت تتعقب الجهاز. في يوم مفزع دخلوا المكتب في بناية حسيب صالح في السعدون، مستهدفين الجهاز الذي نسيناه تماماً. ليث كان قد تغرب في لندن. الرعب مخيف ولابد لي من أن أعترف، بوضوح هذه المرة، بجبني. أعضاء المكتب وعلى رأسهم شريكي وعضيدي فيصل ابراهيم فياض الجبوري مسؤول ومدير المكتب إلى يومنا هذا، طلبوا مني عدم الوجود في المكتب لفترة إلى حين العثور على الجهاز. تغيبت، ووجدوا الجهاز في دار ليث، عفّروه بالتراب، لتأكيد خزنه مع العُدد الأُخرى المهملة. في النهاية أُغلق الموضوع وانتهى بدعوة غداء كباب لوكلاء المخابرات، واختفى الجهاز، وأنا على يقين من أن أحدهم كان طامعاً به.

كان التصوير الفوتغرافي والرسم ملجأين لذت بهما عندما كانت العمارة تستحيل إلى مشكلة، فلا عميل يتدخل في قناعاتك، ولا زمن محدد ضاغط يجبرك على قطع تسلسل عملية الإبداع. الرسم والتصوير هو نوع من تفريغ الشحنة وإزالة التوتر. يبدو أن طاقة المعمار فيّ لا يكفيها تصميم عمارة لوظيفة ما، بل تبحث عن فضاء آخر لتصريف القلق والإنفعال والإحتجاج والتعبير عن اشتغالات الروح. سأعود اليهما بالتفصيل لاحقاً.

مدن

فتح مشروع نادي الكويت آفاقاً جديدة في مناطق الخليج العربي. زرت قطر في منتصف الستينيات، لم تكن آنذاك هي التي نعرفها اليوم، فالفندق الوحيد، دوحة بالاس يعود لأحد الشيوخ، مريح، بخدمات قليلة جداً، الكهرباء بانقطاع دائم، الرطوبة النسبية عالية، ودرجة الحرارة تقارب الخمسين. كنت أتمتع بقيلولتي في التاكسي المبرد، شقاء ولكن من دون ضجر أو ملل. البحرين كذلك، هي أحسن حالا بفندق تقليدي جميل، فندق دلموند، أظنه ما زال قائماً، اتخذته مقراً لفترة عند التهجير القسري من بيروت في عام 1976 خلال الحرب البشعة، قبل الانتقال الى أثينا.

مدن الخليج يُستثنى منها عُمان، ولحدٍ ما البحرين، وجزء من دبي في الشندقة والبستكية[26]، لها نمو غير عادي. لقد تم تهديم قسم منها وإعادة بنائه، ولحسن حظي كنت قد صورت بالتفاصيل هذه الأجزاء. على الرغم من أن الجزء الأعظم من هذه المدن حديث ومستورد، إلا أنها ما زالت تومئ بانتمائها، غريبة في كثير من بنيتها، ربما للبذخ العام في مكوناتها، أو لانقطاع النسيج (وأي نسيج؟)، حيث توزعت في الصحاري كالواحات، مجاورة لمياه الخليج. مدن مستهلكين، بإنتاجية خلاقة ضئيلة. على الرغم من ذلك ما زلت أشعر بنوع من التواصل معها، وبإمكاني التكلم بلغة موروثها ومفاصل أصولها.

على العكس من مدن أخرى عملت فيها، في أفريقيا أو أرمينيا أو حتى قبرص التي أحمل هويتها.

في كل سفرة عمل إلى مدينة، أُصاب بنوع من الرهبة، أو الترقب غير المستحب. أنا مخوّف على نحو دائم من عدم التواصل مع أي مدينة أحطّ فيها، ومن ثم ينعكس هذا الخوف على عملي المعماري. الإنطباع الأول منغّص، لأنه يستمر إلى حين اكتشاف المدينة والتعرف على مكوناتها الذي قد يطول ويقصر.







مقارنة بين نسيج مدينة دبي في الستينات ونسيج ابوظبي في الالفية

أرى أن التعرف والمعرفة يبدأ من التعايش. حدث هذا في أنقرة وفرانكفورت، ثم في هجرتي الأولى إلى بيروت ست الكل، ثم إلى أثينا بعد التهجير القسري من بيروت، وليماسول بعد التهجير اللاحق من بيروت. كنت أُصاب برهاب خشية من أن أعيش على هامش حياة المدينة، مع رغبة جامحة للإلمام ببيئة جديدة عليَ، ثقافة أُخرى بعيدة كل البعد عن ثقافة مكان الترعرع، مستهدفاً الاستزادة والتعلم والعمل. لعلي أقنعت نفسي بأنني اعتدت الترحال والتهجير والإنتزاع من بيئة استسغتها وتعاطفت معها إلى بيئة عليَ أن أتعرف عليها. خلتني اعتدت وتخلصت من تلك الفوبيا بعد تجربة السن. لكني كنت أعود الى نفس التجربة مع ألم التكيف المتعب. حدث هذا عندما طلب مني القيام ببعض الأعمال الاستشارية في كل من "برازافيل" الكونغو في أوائل التسعينيات، و"يرافان" أرمينيا، في عام 1998 مع الفارق الكبير بين المدينتين. ولقد فهمت من التجربتين أن الحالة تنتابني عند الإضطلاع بمسؤولية ما وليس عند السياحة والاستجمام .

في حالة "برازافيل" أو برازا كما يحببونها، دُعيت من قبل البروفسور "باسكال لوسوبا" رئيس الجمهورية، لترميم وتوسيع قصر الشعب الذي كان مقراً للمندوب السامي الفرنسي أيام الاستعمار، وبعض المشاريع الأخرى.

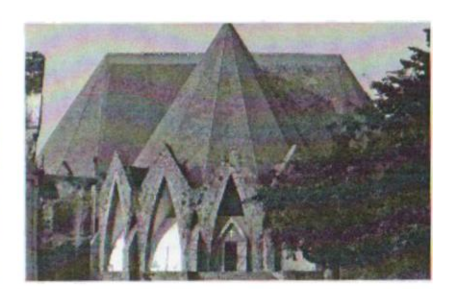
كانت هذه الرحلة الأولى إلى أفريقيا التحت صحراوية. بدأت حالة الرهبة ما أن حطت طائرة الخطوط السويسرية في مطار "ليبولدفيل" للتزود بالوقود، بعد تحليق ساعات عدة. المطار بناء جديد، لكن المدرج شراكة ما بين الطائرات والبشر والأطفال والحيوانات. غابات كثة، داكنة الخضرة، وأرض حمراء قانية، وعلى الجملة كانت عناصر البيئة المكونة للمكان لا خبرة لي فيها. ارتحت قليلا عندما تأكد لي أنني سأصل إلى برازافيل في أواخر الليل، ما يعني أنني سأرى المدينة من خلال ما يشبه المرشح الفوتغرافي. كان الجو ماطراً وأسود معتماً، الإضاءة ضعيفة جداً. ما توقعت أراحني. في المطار وجدت أحد موظفي القصر اسمه "آنج"، ثخين جداً بقطر وارتفاع متساويين، يزيد قليلا عن الياردة، ينادي على "مسيو لأرشيتكت"، السيد المعمار، وهو اسمي في الكونغو، ولازمني في ترحالي وتجوالي. علمت لاحقاً أنه من تأليف "مدام موناري"، سكرتيرة الرئيس وكاتمة أسراره، وحاملة أختامه، وله فيها مآرب أُخرى. فالخلاسية الجميلة جداً، صعب عليها تلفظ اسمي، فأبقت على مهنتي فقط، إلا أنها لم تنس أن تضيف كلمة "لا كراند"، الكبير، "لا كراند آرشيتيكت": كان هذا تكريماً!

نزلت في فندق "أمبو سوفوتيل"، المطل على نهر "الكونغو" العرمرم، وكالرصافة والكرخ في بغداد، في الجهة المقابلة كنشاسا، الشبيهة بمنهاتن بأبنيتها الشاهقة. في الليلة الأولى، وبعد منتصف الليل وأنا في غرفتي سمعت وشوشة، طلّيت من الباب مستطلعاً، فإذا بحارس عسكري يجلس في مدخل الغرفة. سألته عن سبب جلوسه، فقال لحماية الأرشيتكت. الحماية ممَن؟ أجابني من بنات الليل! لم أرتح، حذرت منه، وأنا المصاب بالفوبيا من الأمن والشرطة، أكثر بكثير من بنات الليل.



تبين لاحقاً مدى هجومية البنات في الفندق، فعددهن يربو على المئة. كيف يمكن أن يكنّ مصدر إزعاج؟ حُذِّرت حتى من ولوج المصعد مع أيّ واحدة منهن. فيهن بعض الجميلات جداً، متفرنسات في قيافتهن وتلوينهن، على الرغم من خلفيتهن السوداء الطلساء. باريس لهن الأُم العطوف، مدرسة ومصدر إلهام في شغلتهن التي تحتاج إلى كثير من الإبداع والتفنن، في الملبس والمظهر والتواصل والاقناع.

المدينة "برازا" كالعجوز التي هرمت وتغضنت وفقدت جمالها. عدم إنصاف الدهر لها بادي المعالم. الاستعمار خطط وبنى، طبعاً من قوت إبن البلد، وهذا خرّب وأهمل. آثار الجمال بادية على كثير من أبنية المحتل، خاصة أن المدينة أصبحت في حينها مقراً لإذاعة فرنسا الحرة في النضال ضد النازية.



الكاثدرائية



عمارة للمستعمر



نصب الحرية



طرادات الكونغو

أبنية مثل البريد المركزي ودوائر المالية ومحطة القطار وبرج ألف إيراب المتعدد الطوابق. كانت الكاتدرائيات متعددة، فلكل طائفة كاتدرائياتها وكنائسها، وقسم منها جميل، ولاسيما الكاثوليكية، وهي عمارة قد تصلح للمحاكات في تصاميم النصب في برازا. من الأبنية التي تجلب الإنتباه، من تصميم معمار فرنسي، إسكان عمودي بعمارة استوائية صرفة، شفافة، تسمح بحركة الهواء والتخلص من الرطوبة الزائدة جداً، بدون شبابيك، بل بمشبكات متحركة، تطبيق عملي حرفي أكاديمي لما تعلمته في مجال أبنية المناطق الحارة في المدرسة في لندن.

كان البشر في الشوارع بكثافة واضحة، بينهم نسبة غير صغيرة من الأجانب المقيمين، وأكثرهم من الفرنسيين. من الواضح أن أكثرية السكان من دون عمل، إما يتسولون أو ينتظرون فرصة للحصول على النزر القليل، بأي طريقة ممكنة، بالحلال أوالحرام. جلب إنتباهي كثرة المعوقين المتسولين، أحدهم كان مكعب الشكل، وكأنه تقولب في صندوق، موضوع فوق كرسي بأذرع وأياد طبيعية، قيل لي، عسى أن تكون بعيدة عن الحقيقة، أن أهله قولبوه وهو رضيع بغية الإستفادة منه في أعمال الجدية. عجباً، ماذا لو حاولوا استنساخ هذا المخلوق لإنتاج متسولين للتصدير؟

الإتصال الوحيد مع "كنشاسا"، في الجهة المقابلة من نهر الكونغو، يتم عبر عبّارة ضخمة ألمانية الصنع، أو عبر غطاسين مهربين يمشون في النهر تحت الماء، يستعينون بقصبة للتنفس: غواصة بشرية. البوليس يتربص على الجانبين.

العبور الآخر بواسطة مشاحيف أو طرادات، كما ندعوها في أهوار جنوب العراق، وفي بندقية إيطاليا بالجندولا.

النهر يؤدي دوراً مهماً في حياة الناس. السمك يباع على قارعة الطريق، أسماك شبيهة بالأفاعي الضخمة. التماسيح تربى في أحواض خاصة، تأكل



قبل بلوغها الحجوم الفتاكة، لحومها بيضاء فيها رائحة سمكية غير مرغوبة "زفرة". مما يؤسف له أن النهر بات مكباً للفضلات، بما فيها فضلات أوتيل السوفوتيل الفرنسي، محل إقامتي.

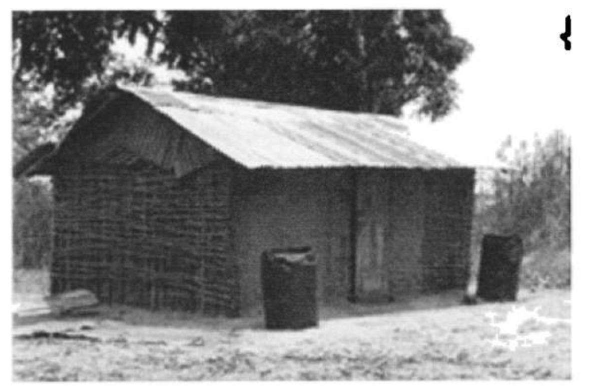
في المساء تنعدم الحركة كلياً، ما عدا المواخير المكتظة، فهنا يسود الخوف من الخطف والتسليب والاغتصاب. العسكر في سكر أبدي، من دون رواتب، فاعتاشوا على السلب. صديقة فرنسية تمارس الطب في برازا حذرتني من المجازفة، ونبهتني من الأيدز المتفشي. قالت إن العلاج الوحيد القادرة على المساعدة فيه هو عمل أشعة أكس فقط، ومن ثم إرسال المريض إلى جنوب أفريقيا للعلاج، وهذا غير ممكن، وأنا العراقي غير مرغوب فيه هناك أيضاً. قضيت في هذه المدينة مدداً مختلفة، زرت فيها بعض المناطق النائية مع الأقزام والغورلا والبايثون الجبارة، والقردة الملونة اللذيذة الطعم حسب ما ادّعوا، والتي تذوقتها من دون معرفتي.

كنت بصدد تحضير منهاج لتطوير الريف، لهذا زرت الريف، ولبيت دعوة عشاء أقامها لنا رئيس بلدية "اويسو": 3 درجات تحت خط الإستواء، بلاد الغوريلا. كانت القرود الصغيرة الملونة هي الطعام الرئيسي وأذاقني رئيس البلدية لحمها على أساس أنه "بيف" وليس شيئاً آخر كما قالها بالفرنسية.. وكانت لحمة قاسية كأنها جلد مدبوغ محضَّرة بطريقة فريدة، "مطبخ كونغولي"، أسوة بالمطبخ الإيطالي أو الفرنسي : يبقر القرد "القوزي" المسكين ذو الألوان الزاهية، ويشوى بصورة فجة، ويوضع على طاولة مثقوبة من وسطها بحجمه، وجهه إلى الاسفل، وجلده وفروته الزاهية إلى الأعلى، وتحته نار للشواء، يقدد لاحقاً بعد شيِّه. مسكوف أفريقي، لكن أين هو من المسكوف العراقي الفريد؟

العمل في الكونغو بطيء، وبطيء جداً حد الإزعاج، معدات العمل غير متوفرة، ما اضطرني إلى أن أشحن كل ما يحتاجه العمل في سفرتي الثانية، كما أن

أصحاب العمل في جهل مطبق، وفساد مطلق ومفضوح، كعراق اليوم، على عينك يا تاجر. وزراء يتحدثون بلغة فرنسية، أنيقون، بساعات ذهبية ثمينة جدا، بيد أنهم وزراء بالاسم فقط، تموقعوا بالمحاصصة القبلية، يستثنى منهم موظفو القصر فهم بكفاءة عالية، استوردوا مع الرئيس من باريس. الرئيس في واد والوزراء في واد آخر، لذا كان من السهولة إطاحة نظامه بانقلاب سريع، فالجيش والشعب منقسمان وساخطان، همهم جميعا ممارسة الجنس بنهم، وشرب الكحول بنهم أكبر.





عمارة محلية نقابة الفنانين — سكن نمونجي في ريف الكونغو

أمتلك مجموعة من التخطيطات التي خطَها وزير الأشغال لإدخلها في تصاميمي، وهي مجموعة نادرة من السذاجة المؤذية، (مثل المناظر المؤذية) أحتفظ بها للتذكر، واستعادة الشقاء الذي يعانيه المعمار في مهنته: محنته!

يرفان أرمينيا هي من مدن الترحال (وراء ممارسة العمارة)، وليس من مدن التجوال (للراحة والاستجمام)، وقد دُعيت إليها للقيام بتصميم والإشراف الدوري على مجمع لسيارات المرسيدس، يحتوي على عدة أبنية، إضافةً إلى مشاريع أخرى من الأعمال الاستشارية، ومنها تصاميم حضرية ذات نوعية محببة لي نظراً لمقياسها المديني، والتي كثيراً ما أعطتني الاكتفاء المهني، شبيهة بمشاريع سابقة، كمشروع تطوير منطقة الـ"كلي



علي بك" في كردستان العراق، ومشروع إسكان "قسري" في قضاء "جومان"، قرب "حاج عمران" لإسكان العائلة البرزانية الكريمة عندما كنت في "الاستشاري العراقي"، وتخطيط منطقة مكرن وحديقة الحيوان في الخرطوم[27]، أو مدينة العينت في سلطنة عمان خلال وجودنا في أثينا من الفترة 1976 إلى 1980 مع زميلي وصديقي عبد الله صبار، وكما في تخطيط الكرخ وشارع حيفا وتطوير مدينة الثورة بعد الثمانينيات. مشاريع بقياس تتعامل مع المجموع، مع الإنسان ضمن المجتمع.

"يرفان" عاصمة أرمينيا المعزولة، جميع طرقها الخارجية الرئيسية مغلقة تقريباً ما عدا طريق بري إلى جورجيا المستعمل، أما الثاني فبعيد جداً، بوابة تؤدي إلى شمال إيران، ومن ثم إلى طهران، وبواسطته تستورد البضاعة والسيارات من دبي، طريق "ناغورنو كراباغ" مع "أذربيجان" مغلق بسبب الحرب، الطريق المؤدي إلى تركيا قريب جداً إلا أنه مغلق، تقف متوجعاً في نهايته عند سفح "أرارات"، تتطلع إليه بشغف ودهشة، ممنوع العبور نحوه، تذهب إليه في الخيال، خيال القصة الأُسطورة. جبل "أرارات" اسم يُعتقد أنه يرتبط بالبلد الذي رست فيه سفينة نوح بعد الطوفان، وهي المنطقة التي تحيط ببحيرة "فان" في أرمينيا القديمة (جزء من تركيا الحديثة). يعتقد كثير من الآثاريين أن السفينة كانت قد رست على جبل "ماسِيسْ" الذي يدعى اليوم بجبل أرارات. غير أن الترجمات التي تمت باللغة الآرامية للقصة تتحدث عن سفينة رست على جبال كردستان التي تقع إلى الجنوب الشرقي من بحيرة فان. قد تكون هناك أوجه شبه بين جبال كردستان العراق وبين تلك الجبال، وقد أسعفني الحظ بالعمل في البيئتين، إذ تعتمر قمة جبل "بيرة مكرون" في شمال العراق هو الآخر غيمة صيفاً وشتاءً.





جبل بيرة مكرون



ويرفان وارارات في الافق

في الطريق الى أرارات هناك معلمان متناقضان، الأول المقر الرئيس للحبر الأعظم للطائفة الأرمنية، في مجمع "أيتش ميازدين"، وفي المجمع أبنية متعددة كثير منها موسع وجديد، إلا الكاتدرائية، فهي آية في الجمال المعماري، مشيدة في القرن الرابع عشر بحجر أسود داكن وبزخرفة داخلية. لا وجود لبذخ الصُرح الدينية للديانات والمذاهب الأُخرى، لا رسوم فريسكوية ولا أيقونات من ذهب أو مُعلقات إضاءة كريستال. إجلال نابع من حجم المكان وبساطته، زد عليه التراتيل الدينية، الخليط من المقام العراقي والكلاسيكية العالمية. هناك أخذ كل شيء بتلابيبي. عند وجودي في يرفان كنت أحضر القداسات كل يوم أحد للاستماع.







برج اخر نحت جديد وأخر عمره خمسمئة سنة في ايتش ميازدين



المَعلم الغريب الثاني هو المفاعل النووي، مفاعل أكل الدهر عليه وشرب، توأم للمفاعل السيء الصيت شرنوبل، محكوم عليه بالغلق، لخطورته. ما زال يعمل لحاجتهم الماسة جداً للطاقة بالرغم من خطره. عند مقارنته بالمفاعل الذي عرفته في مدينة "هاناو" الألمانية أثناء تنقلي بين دارنا في "أُودن والد" ومدينة فرانكفورت، يتبين مدى تهالك هذا المفاعل وخطورة الاستمرار في تشغيله. المثقفون في البلد ظلوا يحتجون ضده.

وصلت إلى مطار يرفان ليلا بصحبة مجموعة مهندسي "دايملر بنز" (المرسيدس) الألمان. المشروع موضوع البحث هو تصميم مجمع كبير لسيارات المرسيدس في "ماسيف"، "جيرفيج"، شمال يرفان. أخذنا طائرة خطوط "الكروس" السويسرية، سفرة ليلية طويلة، لم أر في حياتي مدرج هبوط بهذا القدر من الحفر والتعريات، كأنه لم يبلط أصلا. الطائرة في هبوطها نطّت وترجرجت محدثة أصوات كأنها على وشك التفكك. اكتشفت بعدها أن جميع شوارع يرفان هي على هذا النحو.

في المطار عمارة "دورانية" أكثر من أن تكون دائرية، سوفيتية قاسية الملامح والتفاصيل، إضاءة ضعيفة، شرطة جوازات روس شبه نيام، اللغة الروسية هي السائدة، الروس هم المسؤولون عن أمن المطار، روسيات لا يمتن بأي علاقة بروسيات شواطئ ليماسول المشوقات الفاتنات السابحات المتشمسات. كنت بصحبة شباب ألماني متحضر ومجهز، ألمان كالعادة، والكل يتكلم اللغة الروسية بطلاقة، ساعدوني بالترجمة لفك عقدة الباسبورت العراقي ذي المكانة المميزة التي أخرتني لفترة من الزمن عن أصحابي، مع العلم أن مُمول المرسيدس، النائب في البرلمان وشريكه فهد الباشا ابن المناضل ابراهيم باشا، السوري المولد، بعثا من يستقبلنا ويسهل أمورنا. المطار في كل سماته عدواني، مظلم يذكّر بوجع وبرهبة أيام "الكولاغ"[28]. خرجنا من المطار الذي يبعد عن المدينة

نصف ساعة بسياقة رجراجة، وحواجز تفتيش، مع بقشيش إجباري كل 200 متر: تلك كانت طريقة شرطة المرور في الحصول على رواتبهم. الدولة براء من الراتب، عيب عليها، فساد إذا قدمت لشرطتها راتباً، فعلى الشرطي أن يجد من يعيله، والسائق المسكين هو نوع من الممول الذاتي. يعم ظلام دامس مطبق، تستثنى منه أكشاك بيع الكونياك الأرمني الشهير والفودكا المحلية المضاءة بشراهة، بسطات شغالة على مدى الليل والنهار، للمدمنين على الفرفشة والتسطيل.

نزلنا في فندق أرمينيا، كلاسيكي قديم ومتميز معمارياً، الأثاث رث وقديم، فيه نوع من الأصالة، طاولة الاستقبال في كل طابق، تواجهك أمام المصعد، وهي من مخلفات العهد السوفياتي. "أخوك الكبير" في رعايتك على الدوام، أين المفر؟ مجبر على تسليمه مفتاح الغرفة عند خروجك. خلع المعطف عند دخولك شبه إجباري للتفتيش النظري عن بعد. الفندق يطل على ساحة دائرية أكبر من أن توصف بالكبيرة، مبلطة بالإسفلت فقط، لا يجرؤ سائق سيارة على تجاوز خطوط السير المرسومة بالأبيض، والتي تدور حوله. التبليط الوسطي للاحتفالات فقط، خالية من مرور العربات والبشر، على الرغم من عدم وجود حواجز أو أرصفة. مقابل الفندق من الجهة الثانية يوجد متحف للفن الحديث، وهو من المتاحف الغنية، وترتيبه الرابع في الاتحاد السوفيتي، ويضم مجموعة جيدة من الأعمال الفنية للرسامين الأرمن. كنت مطلعاً على بعض أعمال الفنانين الأرمن من المحدثين أمثال "ساريان" و"أراكليان". قضيت أوقات رائعة في المتحف لاحقاً على الرغم من الرطوبة والبرودة والعتمة، فهو غير مدفأ، تحرس قاعاته نسوة نيام تجاوزن سن التقاعد، عملهن الآخر هو إضاءة الصالة عند دخول الزائرين.

من الدوار الماموثي يبدأ الشارع الطولي الرئيس في يرافان المسمى "أبوفيان"، مثل شارع الرشيد سابقا، أو شارع الحمراء المتجدد في بيروت: مقاه ومطاعم ومخازن، مبلطة بالبازلط الأسود الأرمني المشهور.





رواق متحف يرفان



ساحة فندق ارمينيا العملاقة نحو شارع ابوفيان

على الرغم من معرفتي المقبولة بأحوال الأرمن بوساطة معارفي العراقيين الأجلاء، إلا أنني لم أكن أُقدّر مدى حبهم للفنون والفنانين. دار الأُوبرا هناك هو مبنى ضخم، دائري، صمم في 1962 من قبل "الكسندر تامانيان"، رائد في العمارة الحديثة، يتوسط ساحتها تمثال رائع للموسيقار الأرمني "خاجودريان"[29].

من الأبنية الأُخرى المؤثرة، مسرح "ينكباروف"، سمي باسم مهرج أضحك الأرمن في وقت الضيق، على الرغم من مآسيه الشخصية [30]. يجلّه الجميع، وبإسمه ثمة بولفار مهم في وسط المدينة. في معرض الرسم الذي أقمته في بيروت في سنة 2000 عرضت جدارية من 15 لويحة لوجوه مهرجين مهداة إلى ينكباروف.

معالم كثيرة وجميلة. مدينة منظمة على الرغم من المستوى المعيشي تحت المتوسط، تتميز بكثرة النصب، وبعضها عنيف يفتقر للحس الإنساني. بعض الأبنية صناعية السمات كما في مجمع "ماسيف". سكن عمودي، أكثر من عشرة طوابق، أبنية مكررة بدون إنصاف، مسبقة الصنع، وبعد الخصخصة أصبحت لا تطاق، فهي باتت من دون صيانة، والدولة أوقفت تزويدها بالبخار، فلا تدفئة ولا ماء حار في مدينة تصل درجة الحرارة فيها في بعض الاحيان

إلى 30 درجة تحت الصفر. الدولة الاشتراكية كانت تزود سكان يرفان بالبخار للاستعمال اليومي، في التدفئة والماء الساخن. خدمة توقفت بعد"الاستقلال". شبابيك الأبنية كدار الأوبرا الجميلة من دون زجاج، لعدم توفر مبالغ للصيانة بعد خصخصتها، مصاعدها متوقفة. "سيبوه"، صديق من أصل لبناني يسكن في إحداها، ينزل من شقته صباحاً ويصعد لها ليلا.



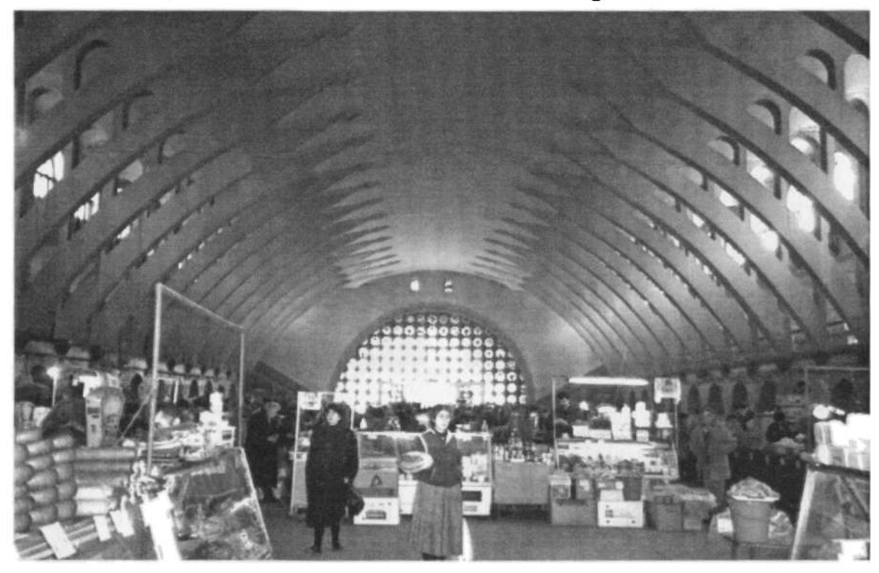


فن وعمارة من مخلفات النظام السوفيتي

أهم ما تتميز بها يرفان، الفسح السالبة، الساحات المفتوحة، مساحات واسعة في وسط المدينة، قسم منها مبلط والآخر مشجر بأناقة تتخللها مياه وأعمال فنية، المخطط الهيكلي من تحضير تامنيان نفسه، 12متراً مربعاً من الساحات المفتوحة للفرد الواحد من سكنة المدينة. معارفي من الأرمن وخاصة المعماريين منهم غير قانعين بهذا الرقم، فقد عقدوا مقارنة بين مدينتهم بمدينة "باكو" المخصص فيها 20 متراً مربعاً من الأمكنة المكشوفة للفرد. (أفكر: ما المخصص للفرد في مدننا وخاصة بيروت المختنقة بالكونكريت والألمنيوم؟) الشوارع عريضة جداً، تامانيان كان متأثرا جداً بـ"هاوسمان" باريس[31]: شعاعية مركزها ساحة الجمهورية وشوارع "أميريان" و"تيكران" و"أبوفيان" أضلاع الشعاع، وأُخرى مركزها ساحة "الفيرنساج"، تحت نصب أرمينيا، كما ملتقى بولفارات المارشال "بركاميان" و"ماشتوت"[32] و"سايت نوفا".

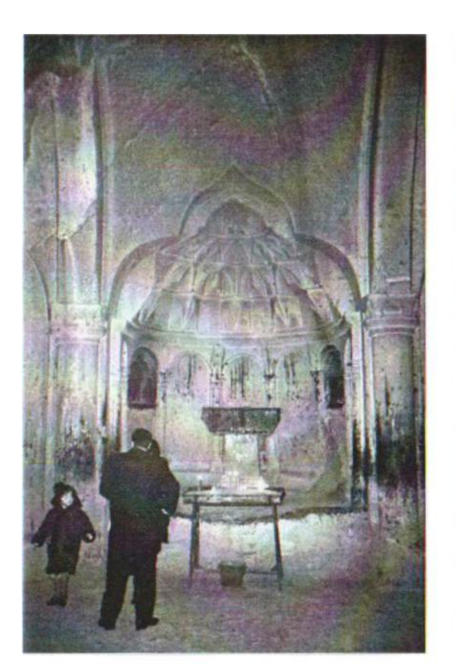
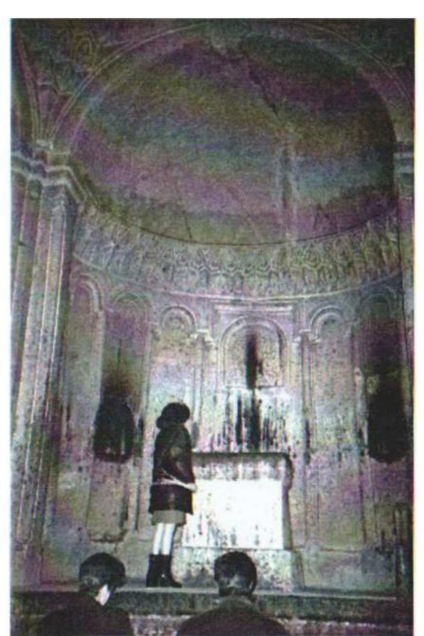


من مخلفات النظام السوفيتي، أسواق عامة موزعة على المناطق كما في سوق ماشتوت ذي العمارة الفريدة المزخرفة بالحديد الصلب، أو في سوق ماسيف قرب مشروع المرسيدس. السوق المركزي الرئيس الحديث المشيد بالكونكريت الأملس ذو الطابقين، كبير جداً، أجمل وأضخم ما فيه أكشاك الباسطرمة والسجق التي تشغل حيزاً بقدر ساحتين لكرة القدم.



اسواق يرفان العامرة بانواع الفودكا والباسطرمة والكونياك الشهير

يطول الكلام عن أرمينيا وكنائسها، السفر في ربوعها ممتع ومتنوع، إلا أنها جرداء ما عدا مناطق "كارني" على الطريق إلى "كيغارت" الكنيسة[33]. في هذا الطريق ومروراً ببحيرة "سيفان" توأم فان في داخل حدود تركيا الحديثة. مررت بقرية لأصحاب الجاموس، الجاموس الذي يقال إنه وصل العراق من الشرق بصحبة السومريين. ما جلب إنتباهي أن ساكني هذه القرية كانوا يدوّرون فضلات الجاموس "الجلّة" ليعيدوا استعمالها، بعد تجفيفها في الشمس، في الوقود والبناء، بالطريقة نفسها المستعملة في جنوب العراق.



مخطط كنيسة كيغارت هكذا نحتها الايمان داخل الجبل



الهوامش

1 - فنان هولندي 1944-1972.

2 - الاستخدام المعاصر لمكونات روح المكان، أو ما يميز مكاناً عن الآخر، الترجمة التي استعملتها أكاديميا لتسهيل الاستيعاب : جنّي المكان.

3 - كتاب موسوعي حول العمارة في العراق من تأليف رفعة الجادرجي.

4 - سهل السنوي، رئيس قسم الجيولوجي في جامعة بغداد، وكاميران قرداغي مستشار مام جلال رئيس جمهورية العراق، من طلاب كلية بغداد اليسوعية، طلب منهما ترك المدرسة لآرائهما السياسية، التحقا بثانوية الأعظمية.

5 - مدن إسكان لذوي الدخل المحدود، الأولى في الرصافة، والثانية في الكرخ شيدت في بداية الستينيات.

6 - الإثنان رفاق المدرسة الابتدائية، الأول التحق بسلك الخارجية، والثاني تدرج في الإعلام بدءاً من جريدة والده مؤسس صحيفة "الحرية" إلى أن انتخب نقيباً للصحفيين. توفي قبل نحو 3 سنوات.

7 - إله القمر ومركز عبادته مدينة أور.

8 - ناظم رمزي، مصور وفنان وصاحب مطابع. له الريادة في فن الطباعة الحديثة وأدخل الحديث من مكائن التصوير والطباعة في العراق.

9 - شخصية فذة وكفء، هو الآن في نيوزيلاندا. لم يخذل أحداً يوماً، وهو الوحيد الذي استمر إلى الثمانينيات مع شيرزاد.

10 - الناشر دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن 1991.

11 - طريقة البناء بالطابوق بعد تعديله ونجره، الفواصل بقوالب مصنعة عمودياً وأفقياً، اتقن هذا العمل اليهود العراقيين أحسن اتقان.

12 - كانت الهندسة المعمارية مقتصرة على المهندسين المدنيين والبنائين، لحين عودة الرعيل الأول من المعماريين. مكاتب المدنيين استمرت في مزاولة عملها إلى فترة قريبة، الأستاذ عبدالله إحسان كان يدرس العمارة للقسم المدني في كلية الهندسة .



13 - في أيام السلام بعد اتفاق الحكم الذاتي تبوأ الصديق محمد محمود وزارة إعمار الشمال، واستقر في المنصور، صممت داراً له ولوالدته.

14 - من ولادة برلين 1908-1999 حاصل على جائزة شنكل للعمارة لمساهمته بتصميم الملعب الأولمبي في برلين قبل إجباره على الهجرة، خطط مدناً في الهند.

15 - من القوس وهو العقد الطاق.

16 - القوالب الزاحفة تستعمل في تشييد الجسور وسايلوات الحبوب المرتفعة للاستمرارية في العمل، القوالب تزحف على سكة مع العمل دون رفعها وإعادة نصبها.

17 - مهندسة معمارية 1921 رائدة في العمارة العراقية الحديثة من أصل أمريكي، زوجة نزار علي جودت، لها عدة تصاميم أهمها بناية الهلال الاحمر العراقية في السعدون.

18 - معماري مصري شهير 1900-1989، مؤلف كتاب "عمارة الفقراء". أي عمارة هذه تعلن عن فقر البشر؟ هي في الحقيقة عمارة الريف، لأنها تعتمد على التشييد بالمواد المتوفرة في الريف، أصبحت مؤخراً عمارة الأغنياء، تقليعة للبناء بالمواد الريفية.

19 - "تاك، ذي اركيتيكت كولابرتف"، المكتب الهندسي الذي أسسه والتر كروبيوس في بوسطن، قام بتصميم أبنية عديدة في العراق والخليج، منها جامعة بغداد وشيراتون بغداد والبصرة.

20 - اشتهرت باسمها الجديد من جراء احتلال بغداد، وبعد سقوط التمثال الصنم الذي أقيم في وسط الساحة، وكان اسمها ساحة الجندي المجهول الذي أزيل.

21 - زوارق من زمن سومر ما زالت مستخدمة، الجندولات الفينيسية شبيهة بها، لها أسماء حسب اختلاف تصاميمها: المشحوف والكعد والطراد والشختور والهيلة.

22 - الصريفة أكواخ بسيطة تشيد بالبردي والقصب سائدة منذ آلاف السنين في أهوار العراق الجنوبي.

23 - مهندس من أصل فلسطيني ولد في مدينة القدس في سنة 1923. عمل في بلدية الكويت من سنة 1960 حتى سنة وفاته 1968.

24 - رواية عربية للروائي عبد الرحمن منيف، خماسية، تعد واحدة من أشهر الروايات العربية.

25 - مطاعم أميركية للوجبات السريعة، لها تصاميمها المتشابهة والمفروضة من شنغهاي إلى جدة.

26 - الشندغة عند فم خور دبي، وهي موقع دبي الأصلي حيث بدأت دبي نموها، والبستكية



على الخور في بر دبي. المدينة القديمة تتميز بعمارتها وأبراجها الهوائية وزخرفتها الجصية.

27 - مواقع مشاريع تخطيطية في الخرطوم مع الزميل عبد الله السوداني. جهزنا تصميمين أساسيين للتخطيط الحضري للمنطقتين.

28 - في الإتحاد السوفيتي قتل ستالين الملايين من البشر في معتقلات الكولاغ وسحق أبسط أنواع الحريات.

29 - موسيقار أرمني 1903-1978.

30 - ليونيد ينكباروف 1935 - 1972 من أب أرمني وأُم روسية، بدأ حياته ملاكماً، مثّل في السينما فيلم "في الطريق إلى الحلبة"، يحكي قصة حياته قبل التهريج.

31 - جورج أوجين هاوسمان 1809-1891 مخطط مدني ارتبط اسمه بإعادة تخطيط باريس، كلفه نابليون الثالث القيام بإصلاحات تخطيطية للمدينة.

32 - مؤلف ومكتشف الحروف الأرمنية.

33 - كنيسة كيفارت في أرمينيا مبنية ضمن مغارة كبيرة في قلب جبل شاهق، حفرت في القرن الرابع الميلادي.


مكتبة
الفكر الجديد

هناك بعض المشاريع، بصرف النظر عن قيمتها وأهميتها، تضعني تحت ضغط نفسي أكثر مما اعتدت عليه. كنت أسحب العملية التصميمية إلى الداخل، إلى حياتي النفسية، متوحداً معها، باحثا عن حل أكثر ملاءمة، بالرغم من أنه قد لا يكون الأفضل. كان هذا يؤثر تأثيراً غير مريح على حياتي وعلى محيطي المباشر، ولاسيما مجموعة المكتب والأصدقاء، والأسوأ أنه يؤثر على عائلتي.

من المشاريع الكبيرة والمهمة في "الاستشاري"، والتي شوّشت الجميع في المكتب، هو مشروع مجلس الأُمة الكويتي[1]. ولّدت العملية التصميمية للمشروع ضغطاً شديداً علينا، لأننا ودعنا في المشروع أهدافاً مرتفعة: مستوى خيالي من التفرد والإبداع. هذا الهدف - أعترف - وضعني شخصياً في موقع ضيّق خالٍ من المتعة التي اعتدت أن أحياها عند ممارسة عملي، ما أثر على استجاباتي. بيد أن ما زاد هذا الشعور ثقلا هو إعادة التقديم والتفاضل التي جرت بين المكتب والمعمار الدنماركي المعروف "أوتسن"[2].

تزامنت هذه الحالة مع تردي الجو العام في بغداد. كان الجو الذي ابتغيه هو بيئة متمدنة متحررة، خالية من القيود المحددة لأبسط حقوق المعمار، كالقراءة والسفر والتصوير، وحتى العبث. على العكس من هذا كانت هناك سلسلة من الممنوعات: ممنوع السباحة في مناطق معينة، ممنوع المرور في شوارع معينة، "الأخ الكبير" يراقب ويتدخل في كل مفاصل الحياة، في السفر، في المأكل والملبس والعمل ونمط الحياة.

الوطن في مأزق

الوطن المؤسسة بدأ يضيق بأبنائه ومحبيه، اللباس الرسمي الخاكي أو السفاري الأدغم، القيافة الخاصة بالمؤسسة، أصبح هو السائد ويميز من يرتديه مباهياً أو مضطراً، وهو على أية حال رمز سلطة، وكثيراً ما يساء استعماله. الوطن والانتماء لم يعد مكاناً، لم يعد أرضاً وسماءً، بل مجرد ذاكرة. التغرب أصاب الداخل. إن السلطة مهما كان مصدرها، دينية أو دنيوية، عسكرية أو مدنية، تذبح الوطن عندما تصبح فوق العقل، وخارج أي مساءلة. في الحياة هناك حوادث تقع لك قد تكون تافهة في مجراها العام إلا أنها مهمة في محصلتها، وعند تراكمها، تأخذ حجماً كارثياً ماموثياً (كاتاكليزمياً)، إنه تغرب وتيه شاملين وقاسيين. شعور موجع بالإحباط والعدم.

في يوم ما استدعيت الى مديرية السفر والجنسية، فوجدتني قبالة ضابط شرطة بنجمة واحدة يتمتع بالوسامة. طلب مني إبراز شهادة الزواج، وعندما سألته عن السبب، لعلمي بوجود نسخة في إضبارة إقامة زوجتي، وافقني بأنها موجودة، لكنه يريد أن يتأكد من أنها غير مزورة. سؤالي الذي استفزه، وهو المنتفخ ببزته الدغماء، هو : أرجو إعلامي إذاً عن سبب وجودها في بغداد لما يزيد عن العشر سنوات، ولها طفل عمره ثمانية أعوام؟ أجابني: لا أعرف! عندها ارتفع ضغطي، وتركته من دون أن أزيد. بيد أنني بسبب نوبة احتقار حزين لا يخلو من تحدي، صممت أن لا أزوده بهذه الشهادة. بعد يومين سألني سكرتير المكتب، علي الشهابي والد الفنان المسرحي الصديق كنعان علي، مستغرباً لماذا أهنت عسكرياً خلال واجبه الرسمي؟ كان هذا الشرطي قد اشتكاني بارتكاب جريمة، وهي إهانة عسكري خلال القيام بواجبه، لوزير الداخلية سعدون غيدان، وهو ذو علاقة قريبة من أبي كنعان. تهمة مثل هذه عقوبتها غير محددة، فهي تتراوح ما بين عدة أشهر أو عدة سنوات وقد تصل



إلى الإعدام. ومن حسن حظي أن الوزير أجرى تحقيقاً، وهناك من كذّب المشتكي من الموظفين الحاضرين حينذاك، وانتهى الموضوع بسلام وأفلت بجلدي الرقيق.

في حرب تشرين أول 1973، تحركت القطعات العراقية الى الجبهة للمشاركة، مروراً بمنطقة المنصور، وأنا المتحمس وقفت على الرصيف أودعهم وأنخيهم، رقراق العين، فإذا بشخص يطلب مني أن أُعرّف نفسي. استغربت جداً، حيث لم يطرق سمعي هذا التعبير قبل تلك اللحظة، سألته: ولماذا لا يعرّف هو نفسه أولا؟ أجابني بأن ظروفه لا تسمح بذلك. استغربت: ومن قال لك أن ظروفي تسمح لي بذلك؟ سألته. أصرّ فزدت إصراراً ولم أمنحه متعة التعرف على "ماتا هاري" الفحل[3]. طلبت منه وأنا أرتعش غيظاً التوجه إلى مركز شرطة المنصور، قريب من محل سكناي في ذلك الوقت، فوافق. لحقت به، إلا أنه وصل قبلي، مخالفاً السير دون المرور بفلكة المنصور، كما يفعل المواطن العادي المحب للنظام، لكن لما وصلت المركز لم أجده. طلب مني مدير المركز أن أهدأ قليلا، وأنسى الموضوع. أردت معرفة سبب هذا الإرهاب الفكري، بيد أنه أخبرني أن المدعو أكبر منه مسؤولية، ولا يسعه عمل شيء: "أُستاذ إحسبها عليّ" قالها مودعاً. في صباح اليوم التالي، طلبني أبو كنعان من موقع عمله الصباحي في الجامعة المستنصرية ، معاتباً وممازحاً لقيامي بالشغب في منطقة المنصور في الليلة الماضية، وقال إن هنالك شخصاً يود الإعتذار، فعرّف بنفسه خالد الراوي مدير ذاتية الجامعة، واعتذر لتصرفه كونه كان في الواجب، وهو الحزبي المسؤول عن أمن المنطقة، وأنني كنت موضوع شكّه. لكن ما أردت معرفته هو لماذا وجدني جاسوساً إسرائيلياً خطراً من دون الألوف المودعة للقطعات، هنا جاءني الجواب الطامة: "وجدتك قلافة لا تشبه العراقيين." أي أنني ذو بنية جسدية صحية، وكل عراقي يجب



أن يكون متهالكاً جوعاناً يشع بؤساً، ولا يقوى على الوقوف، وبخلافه يعتبر من جنس بشري آخر. لم أجبه، قبلت اعتذاره، متألماً يائساً، متأسفاً على فقداني عراقيتي عند المسؤولين، مع العلم أنني في صباح ذلك اليوم كنت قد ذهبت الى مديرية التجنيد، ملبياً استدعاءً لدورة ضباط الاحتياط السادسة عشرة، دورتي، من خريجي بعض الأصناف، ولم أُسوَق لعدم وجود اسمي تحت أي صنف، بسبب إعارة خدماتي في حينه إلى مديرية الإسكان.

الحادثة الأُخرى عند دعوة كبار رواد العمارة من قبل مجلس الإعمار في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي، أمثال "فرانك لويد رايت" لتصميم أوبرا بغداد في أم الخنازير، و"ولتر كروبيوس" لجامعة بغداد في الجادرية، و"ألفار آلتو"[4] للبريد المركزي، و"له كوربوزيه " للمدينة الرياضية، و"جيو بونتي" الايطالي[5] لتصميم بناية مجلس التخطيط على نهر دجلة والمجاورة لجسر التحرير من الجنوب. كنت شخصياً أعتقد بقصور تموضعها بهذا الأسلوب، وهي بهذا المقياس الضخم، فالنهر بالنسبة لمدينة بغداد أهم من المبنى، وتسلط الأخير عليه ظالم جداً، كما هي حالة عمارة الدفتردار في الوسط التجاري للمدينة. المعمار أنهى التصميم في سنة 1958، والبناء استغرق أكثر من عشر سنوات. عند الانتهاء من تشييد البناية جرى إضاءتها قبل أن يتسلمها المجلس، وبطبيعة الحال نحن المعماريين بين ناقد سالب ومؤيد موجب، فرحنا وابتهجنا بالمنجز. في مساء صيف حار، والمبنى مضاء بلونه الأحمر الحني، الغريب عن بيئة بغداد، قررت زيارة الموقع للإطلاع والتعلم، ولكن ما أن وطأت قدمي مكاناً قريباً حتى جاءني صوت عسكري يصرخ بي: "قففففففف مكانك." كان جندياً يحمل رشاشة تعادل ثلاثة أرباع حجمه، عراقي كما يريده الحزبي المسؤول عن أمن المنصور. لم أتوقف ونزلت من السيارة أُطالب بحقي المعماري بالاستمتاع والاستفادة. كرر



العسكري الأمر وصاحَبه سحب أقسام الرشاشة إستعداداً للصلي. حاولت تهدئته وإفهام هذا الجندي البسيط مبتغاي، فزاد خوفاً على المبنى وعلى أمن العراق وازداد عناداً ووعيداً وتهديداً، متخذاً وضعية الرمي، فلم يبق لي غير الانسحاب مهزوما ناعلا طيشي المعماري. لم أكرر المحاولة، ولم أطلب من الدبابة الأميركية التي وقفت على الجسر قصف المبنى في أول عبورها إلى جهة الرصافة من صوب الكرخ في 9 نيسان 2003 بل تساءلت: أين ذاك الجندي المغوار ورشاشته؟

في صباح أحد الأيام، لعله نهاية عام 1971، وكان إحسان شيرزاد مستوزراً، ولا يحضر إلى المكتب، ورفعة خارج العراق، فكنت المسؤول الوحيد في المكتب، أعلمني جواد بوجود من يطلب مقابلتي في الطابق الأرضي. نزلت، فإذا بشخص بهندام جيد يطلب مني الحضور ومرافقته إلى الأمن العامة المجاورة للمكتب. صعدت ثانية أخذت مفاتيح السيارة والسكائر، وسلمت المفاتيح لأبي غازي، مسؤول الإدارة. ذهبت مشياً، أنا الشجاع المقدام. وصلت الباب الرئيس، ومن هناك الى غرفة، ثم إلى غرفة، وإلى محل للانتظار. انتظرت خائفاً، وطال الانتظار، عرفت لاحقاً أن هذا التصرف هو جزء من التكنيك الاستجوابي، إلى أن ظهر أحدهم من أحدى الأبواب ودعاني: تفضل استاذ! سألني عن علاقتي بالأندلس، وهل زرت إيران سابقاً، فأجبته بالنفي، على الرغم من أنها أُمنية لم تتحقق. السؤال التالي هو الذي أنقذني: ما علاقتي بالشيخ خليفة حاكم البحرين؟ عندها اتضح اللبس، وارتخيت، فلا علاقة لي بالشيخ، أما علاقتي الهندسية بالبحرين فمؤكدة. كان مكتبنا قد قام بتصميم دور عرض سينمائي في قطر والبحرين. في البحرين صممنا دارين، الأولى سميت الأندلس والثانية أوال. المهندس المقيم في البحرين وممثل المكتب هو الزميل سامي علوش، كان قد أرسل تلكساً يسأل المكتب

المشورة يقول فيه إن افتتاح الأندلس (وهنا يقصد دار العرض) في كذا يوم وبحضور الشيخ نفسه، فيرجى إعلامي بالحل. كنا متفقين على أن محل جلوس الشخصيات سوف لن يفي بالغرض إذا حضر الشيخ نفسه في افتتاح الدار، لقصر قامته، وعندها ستحجب رؤية الشاشة عنه. أرسلت تلكساً لسامي برفع كرسي الشيخ مؤقتاً لغاية الانتهاء من الافتتاح. كان تبادل هذه الرسائل وبهذا الأسلوب وضع مديرية الأمن العامة في حيرة ومعمعة من التخمينات. ولأنهم لم يحلوا اللغز، قرروا اعتماد خطة الهجوم، لذا استدعيت للتحقيق. أفهمت المحقق بتفاصيل الموضوع، وطلبت من المكتب هاتفياً جلب صورة من العقود الهندسية الخاصة بدار عرض الأندلس. خابت آمالهم، وفقدوا صيداً يقتاتون عليه، فأخلوا سبيلي آسفين. وكم كنت ممتناً لعدم وجود سامي في بغداد، وإلا كان في خبر كان. لاحقاً اكتشفت أن تاريخ افتتاح الأندلس هو نفس تاريخ احتلال إيران للجزر العربية الثلاث، واستجوابي من قبل السلطات الأمنية كان سيعجل في تحرير الجزر من المغتصب الأجنبي!

كان وزير التخطيط العراقي في بداية السبعينيات هو جواد هاشم. تعرفت عليه حين طلبني بواسطة مدير المباني العامة للقيام بمشروع تعهدت الوزارة بتنفيذه وإبداء الرأي فيه، وهو تعميم تصميم مدرسة للمرحلة المتوسطة، ومن ثم توسيعها إلى الاعدادية، على أن تكون سريعة التشييد ورخيصة الكلفة: 17.000 دينار. صممت ثلاثة نماذج ونُفذت، وعُممت على مناطق العراق الثلاث، شمال وجنوب ووسط. بسبب هذا المشروع بات الوزير يطلب المشورة في أمور معمارية/ ثقافية عديدة. أنا المتشكي على الدوام من قحط الثقافة، طلب مني تحضير آراء خاصة بتأسيس قناة تلفزيونية ثانية. في الوقت نفسه طلب مني وزير البلديات حينذاك إحسان شيرزاد تحضير مقترح في الموضوع نفسه. فرحت واعتقدت أن الفرصة توفرت لعرض آراء عديدة توزع بين المقترحين ومن دون إخبارهم،



لذا قمت بتحضير مقترحين مختلفين متوخياً الحصول على الحد الادنى منهما، تضمنت عرض أفلام من دون مسخها من قبل الرقيب، ومسرحيات، وموسيقى كلاسيكية عراقية وعالمية، ومطالعات في النقد، ودوريات وكتب، ومناقشات حرة في جميع المجالات، مع التقليل من البرامج العادية المبتذلة واقتصارها على القناة الأولى. أخذت المقترح إلى وزارة التخطيط، وعندما قرأه الوزير رماه جانباً وطلب مني ساخراً أن أفيق من سباتي العميق. تساءل: هل يتجاوز عدد المثقفين في العراق مائة الف شخص؟ فليتركوا البلد إن لم يتوفر لهم الجو الملائم، (روحة بلا ردة)، هم قلة قليلة، ونحن نريد مخاطبة المجموع العام.

سألته: ماذا عن نخبة الأساتذة في الجامعة والمثقفين في المواقع الريادية، فهم بحاجة الى الإستمرار والمواكبة والإغناء...

جاء رده حاسماً: من دونهم نحن نريد تنوير الشعب، تنوير العامة...

أفحمني. كان يكرر غسيل الدماغ على طريقة مزرعة الحيوانات لـ"جورج أُورويل"[6]. كان هذا السلوك يتمم توجهاً ساد منذ نحو خمسين سنة وما زال، أوصلنا إلى ما نحن عليه الآن في عصر الظلام والتخلف. فالمتعلم، ولا أقول المثقف، مهجّر، يكافح صامداً في أصقاع القارات، ونحن ما زلنا نتوجه نحو الرخيص والتافه المبتذل والرديء الغث.

وزير البلديات قرأ رؤوس أقلام المقترح مراراً، والحيرة واضحة على وجهه، لا يريد أن يرفضه ويعرف أن ما في اليد حيلة. شاكراً لي جهودي واحتفظ بالتقرير.

كان الوضع العام يتردى على مدار الساعة. فمرة أبو طبر[7]، ومرة صدور قانون الزواج بالأجنبية، والشروط ألا إنسانية لإقامة زوجة أجنبية في بغداد[8]. لم يعد هذا التوجه يقتصر على الموقف الرسمي فقط بل شمل الوضعية العامة أيضا: الأجنبي يضطهد، جذام ينبغي الابتعاد عنه.



في هذا السياق سمعت زوجتي ما لا يليق من فم طبيب أسنان عند مراجعتها له في عيادة مدينة الطب، فهو خريج الجامعات الإنكليزية، وسليل عائلة معروفة، وكان عضواً في نادي العلوية، ولم يعرف أن زوجتي تتكلم العربية بطلاقة. أشارت إليه في واحدة من زياراتي للنادي بعد الحادث، فما كان مني سوى السلام عليه بحرارة وعرفته بنفسي، الزوج المكرود، بدا مرتبكا إلى حد أنني ندمت على فعلتي الخبيثة التي لم استسيغها.

إبني في مدرسة المنصور التأسيسية النموذجية كان بسن التاسعة، لكنه يضطهد يومياً من قبل مراقبة الباص المدرسي كونه "قلافة" من نسل آخر! بأي برنامج كان عليّ أن أنجب أولادي؟ لقد اختلط الجنس الآلوسي بالجنس الآري، ربما بعد مئات السنين من التزاوج ضمن الأُسرة الواحدة، وعشرات من المتخلفين عقلياً (في أسرة الآلوسي عدد من المتخلفين عقليا، منهم من شخَص طبياً ومنهم من يرفض التشخيص، وثمة عشرات من العمات العازبات)، لم تحتمل مراقبة الباص الحريصة العزباء الجرم الكبير لولدي، وهي لا تعرف حكايتي بتركي بنات العمومة، وانتهائي بعدم المحافظة على نقاوة الدم العراقي الفريد من نوعه.

عساها الآن تحافظ على النقاوة باضطهاد هذا الآلوسي الصغير عقاباً على الجرم الذي ارتكبه والده الخائن.

وهن في المفاصل المهنية

في ما عدا هذه الصغائر المتراكمة، راح العمل الاستشاري الهندسي الأهلي "الخاص" تبدو عليه علامات الوهن والتدهور، إذ قامت السلطة بفتح مراكز هندسية يمتلكها القطاع العام، كالمركز القومي للاستشارات الهندسية، والدائرة الهندسية في القصر الجمهوري، ومكاتب الجامعات الاستشارية. لقد



تصرفت هذه المكاتب كأنها هي الوحيدة الحريصة على المستوى الأخلاقي والمهني والوطني الأمثل، لذا كانت لها اليد الطولى في المنافسة، البعيدة عن المهنة في كثير من الأحيان. المؤلم هو أن زملاء باتوا ملكيين أكثر من الملك نفسه، وقسم منهم حاربوا الممارسة الخاصة التي تدربوا هم بمكاتبها.

والحال أن شركات المقاولات لم تنج من هذه الحملة، فتأسست شركات حكومية استولت على أعمالها المهمة. لم تكن هذه الشركات بحاجة إلى الدخول بمنافسة وتقديم العروض التنافسية، ما دامت هي الوحيدة التي تحافظ على "مصلحة البلد"، وأي تدخل من قبل الاستشاري للحفاظ على الجودة في تطبيق المواصفات والمعايير يعد تبذيراً للمال العام، هذا إذا لم يتهم بجريمة التخريب الإقتصادي، وعقابها شديد يصل الى الإعدام.

لابد من الإعتراف أن الوضعية تدهورت بالكامل، فحتى المكاتب الأهلية، وحسب اعتقادي المتواضع، راحت تخل بالمستوى المهني الرفيع. فعلى الرغم من كفاءتها الهندسية، وقيامها بإنجازات فريدة على مستوى المنطقة، من حيث الكفاءة والحداثة، دخلت مرغمة بتنافس لا يخلو من جشع مهني أكثر منه مادي. أقول هذا لأني لم أر معماراً أصبح مليونيراً من أتعاب مهنته الاستشارية فقط، فهي لا تغني، وإلا لكان أساطين العمارة أمثال له كوربوزيه وفرانك لويد ورايت بليونيرية!

أنا اؤمن بأن ما يسعى إليه المعمار هو أن يسد حاجاته، وعمله مع نتائجه وسيلة لا غاية، واسطة تسد الحاجة، مع سد تكاليف التنوير المستمر، مثل الحصول على الكتاب والموسيقى والتجول في العالم للحصول على الخبرة والمتعة. بالنسبة لكثير من الناس يعدّ هذا البذخ بعينه، ولاسيما بوجود الجياع في كل أركان المعمورة. والحال أن المعمار، في حقله المتطور والمتغير، يعاني من جوع معرفي وعطش ثقافي موجع، والمطلوب منه الإبداع والمواكبة

والتبشير بآفاق خلاقة جديدة. إن التصحر الثقافي والمعرفي للمعمار الجاد هو انتحار بطيء. التصحر والكبت المعرفي كان يتفشى كالطاعون في العراق. ونتيجة ذلك نعيشها اليوم، فالمرأة في أسوأ حالاتها، والمتعلم مضطهد ومشروع اغتيال بطلقة مكتومة، الإعلامي يضحَى به على مدار الساعة، والمدن والمراكز الحضرية اختفت أو تريّفت. المجتمع بأسره بات في تدهور مستمر.

لقد اتخذت المنافسة المهنية شكل التكتلات. اجتمعت المكاتب في كارتل مركزي، لتنظيم شكل المنافسة لحرمان الغير وتوزيع الأعمال فيما بينها. الكبار جميعاً ومنهم الاستشاري العراقي وتجمع مكية (سعيد مظلوم وهنري وفؤاد عثمان) وهشام منير ومهدي الحسني وقحطان عوني وقحطان المدفعي وإحسان بربوتي. كنت أحضر أكثر الاجتماعات نيابة عن رفعة ممثلا للاستشاري العراقي، وذلك لسفره المتكرر، فكنت ألمس لمس اليد أن العلاقة ما بينهم غير صحية إطلاقاً. أنا من جيل أحدث من هذه الأسماء التي أكن لإنجازاتها الإحترام إلى يومنا هذا. بيد أننا مهما قلنا تبقى التجربة هي المحك. قال هذا إحسان بربوتي في أحد الإجتماعات ساخراً، وهو دائم السخرية والتهكم: "كفاكم. تجادلوا وتنابذوا على الأقل بغياب معاذ، فهو من جيل آخر لا يكنّ سوى الإحترام للكبير، فحافظوا على هذا الإحترام. فيما بيننا الكل يعرف وعلى علم بتفاصيل وأسرار ممارسة الآخر للمهنة."

بيد أن الحالة العامة كانت قد تجاوزت السيء والجيد، فالجميع اُضطهد من قبل السلطات، والعديد منهم ظلم ودخل السجن، الكل هجّر أو هاجر، ماعدا هنري زفوبودا الذي قاوم حتى وفاته عام 2006، والسبب أنه متفرد بالصبر، ومن دون طموح حتى ولا القليل منه، قانع بنمط حياته الفريد في المأكل والملبس، بعيداً عن البذخ، ومطلبه الوحيد من أصدقائه المقيمين في الخارج هو تزويده بالجبنة الجيدة والسكاريللو والكتاب. كان يمتلك دار سكن



على نهر دجلة في أبي نواس ورثه من والده الآثاري المعروف، عمل منه دارين، يسكن في واحد ويؤجر الثاني، لم يتملك أي واسطة نقل حتى مماته. كان يزورني كل جمعة، وهو يوم التجمع الأسبوعي للأصدقاء في بيتي في الصليخ. يأتي سيراً على قدميه من منتصف شارع أبي نواس حيث داره، إلى داري في نهاية الصليخ، أي مسافة تزيد على الستة كيلومترات!

لقد بات الوضع في المكتب غير ملهم بالنسبة لي، ولعلي ملام حين وضعت نفسي من دون قصد أو رغبة في موضع وسطي بين الجميع، نظرا لعلاقتي الجيدة مع الكل، في حين كانوا متوترين بين أهداف عديدة غير مترابطة. لقد انتهى بي المطاف إلى أن أخسر لذة العمل.

إذن، الوضع العام، وضغط المكتب المهني، وأصفاد مشروع مجلس الأُمة الكويتي، وما شابه، وضعني في تساؤل: إلى أين وإلى متى؟ تسلل إلى داخلي شعور بعدم الإنتماء الكلي، وبالتالي الخوف من عدم مواصلة العطاء، والإكتفاء بالعمل ليس إلاّ. كنت أتساءل: هل سأكرر الجنون والطيش المهني ذاته؟ هل سأتحمل السفر فجراً إلى أربيل للإشراف على المشاريع والعودة مساءً للعمل، كما كنت أفعل في بعض الأحيان؟ أو الذهاب الى الكويت بالطائرة العراقية المسافرة الى البحرين والعودة مساءً عند هبوطها في الكويت في طريق عودتها للإلتحاق بالعمل؟ هل سأقوى على قيادة السيارة إلى أقاصي الجبال للإشراف على المجمع السكني للعائلة البرزانية الكريمة[9]، وتحمل الطقس البارد المثلج والممطر بطيب خاطر. عندما اتخذت قرار ترك العمل قلت لمحمد حسن مخزومي، أبي حسن[10]، الذي جاء يثنيني عن قراري : إن ما أستهدفه هو أن أبقى مخلصاً محترماً للمهنة، وللزملاء كبارهم وصغارهم. لم أرِد أن أُشوّه الصورة. الأفضل هو ترك كل شيء قبل الإختناق والإخفاق. أيدني أبو حسن صاغراً وتمنى لي كل الخير.

هذا القرار اتخذ بكل تمعن ورويّة، وبسببه سافرت في نيسان 1974 إلى قبرص، وبعدها إلى باريس، مختلياً بالنفس لمدة، متمعناً، محللا، مستشرفاً المصير. وجدت تشابهاً بين حالتي وحالة "ايكاروس"، وهي التحليق بأجنحة شمعية واهية غير أجنحتي[11]. ما من مخرج آخر، سواء كان مهنياً أوعائلياً، سوى الهرب إلى الأمام والبحث عن أجنحة تخصني.

كنت بالتأكيد أضع مصلحة العائلة في المقام الأول، وابني بوجه خاص الذي كان من الضروري وضعه بأجواء صحية متمدنة وواعدة. العائق الأصعب هو الوالد والوالدة وقد شاخا ومرضا، فكيف لي أن أتركهما وأنا وحيدهما؟ أقنعت نفسي أن بإمكاني زيارتهما باستمرار. لم يخطر في بالي أنني لن أعود ولفترة ليست بالقصيرة، كما أنني وضعت داري في عهدة أختي الوحيدة، وإلى يومنا هذا.

حوادث مثبطة

ما أدرانا بالحياة؟ بعد شهر من إنتقالي لبيروت توفيت الوالدة. في هذا الشهر باتت بيروت صنو بغداد الحبيبة التي كنت أتردد عليها بالرغم من انتقال الوالد والعمة العتيدة للسكن معي، إلى أن منعت يوماً من الدخول وأُوقفت على الحدود العراقية الكويتية.

في إحدى السفرات، وبعد الانتهاء من بعض الأعمال في الكويت، أخذت التاكسي إلى البصرة عن طريق العبدلي، نقطة الحدود من الجهة الكويتية، وصفوان نقطة الحدود من الجهة العراقية. أُوقفت من قبل ضابط الجوازات، وهو ينظر إلى جواز سفري ضاحكاً مقهقهاً، فأعلمني بكل إستهزاء بعدم إمكاني دخول موطني. لماذا؟ سألته مرتعباً فقال: " أستاذ زُلوفك! " وماذا بها زُلوفي؟ قال لا يمكن معرفة أين تبدأ لحيتك - وهي كثة آنذاك - وأين ينتهي



شعر رأسك، ممنوع التزلّف، هذا هو القانون. ما العمل؟ الحلاقة.. ولا بديل عن الحلاقة. هذا هو القانون. أعلمته أنني سوف لن أسلمه رأسي، ولن أحلق. فأجابني ببساطة :" لن تدخل." طلبت منه إرسالي مخفوراً إلى بغداد بوصفي مخالفاً لقوانين وشرائع وادي الرافدين العريقة فرفض. لا عودة إلى الكويت، ولا دخول للعراق، فالسمة لسفرة واحدة. استمرت مسخرة تعنت هذا الضابط الحريص على تطبيق القانون، وعناد المواطن الساعي لممارسة أبسط حقوقه من التاسعة صباحاً وحتى الساعة السادسة مساءً. جلست خارج المركز الحدودي، في المنطقة الحرام وبيدي الكتاب رفيق السفر الدائم، محاولا كتم غضبي. تناص واقعي لفيلم الحدود لدريد لحام [12].

تفرفصت مع رفيق السفر إلى أن جاء الفرج عن طريق نداء من الضابط البديل: تفضل أُستاذ هذا جوازك ومع السلامة، وسفرة سعيدة إلى بغداد مع الإعتذار. شكرته، وكفرت بجوازي وانتمائي، وبقيت أعلن جهاراً بأنها سفرتي الأخيرة إلى بغداد، إلى أن خُيّط الفم وشُلَّ اللسان، بواسطة نداء تلفوني من شخص ادّعى أنه يتكلم من القصر الجمهوري، عاتباً عليّ، فما حدث هو تصرف شخصي غير مقبول. المتكلم لم يعرّف نفسه إلى يومنا هذا، فشكرته على حسن ظنه، وصمتُ عن الكلام المباح وغير المباح.

القرار النهائي أُتخذ برويّة: تجديد ماكنة العمل، غسل وتشحيم، سيرفس شامل، وهذا صعب تنفيذه من دون القيام بالتغيير في كل شيء: أجواء العمل، وظروف المعيشة، والوجوه، لا أقول وجوه الأصدقاء، وإنما الوجوه ذات العلاقة المباشرة بالعمل والمهنة، وإن أمكن نوع العمل ولغته. بداية متجددة، لذا كان لزاماً تبديل محيط العمل وظروفه ومحدداته وأُطره السابقة، والبحث عن نمط عيش غير خانق، مبهج، متمدن، وحر، يفسح المجال للإبداع والتطور، ومن ثم التقدم في الحياة من دون وجل.

خيارات

كانت الخيارات متعددة، منها الثوري والجذري: ألمانيا، المملكة المتحدة أو حتى الولايات المتحدة. ومنها السهل والمتوقع، حيث مجال العمل أوسع والمعارف أكثر: بلدان الخليج. الخياران ناقصان، فليس العمل هو الديدن الوحيد، كما هو في الخليج، ولا التحرر أو الإنقطاع الكلي هو المرتجى الأهم، كما هو في الغرب. لم يبق سوى، كما يسميها نزار قباني، ست الدنيا[13] بيروت، التي على الرغم من كل ما تحويه من منغصات الحروب، هي الخيار الأفضل. هي المدينة التي قد تعطيك المساحة المطلوبة لأكثر الأهداف، والمهم سوف لن تطالبك بهويتك، ولا بالتنازل عن مكونات ذاتك، كما هو الحال في دول الغرب وخاصة ألمانيا. بيروت صنو بغداد تشدك إليها، وترفض أن تبقيك على الهامش، فهي الحانية المضيافة والغنية، إن كانت بالأصدقاء أو بالتحرر الملتزم، وبتنوعها الثقافي، أو بما توفره من امكانات في مجال العمل والإنتاج، في الوقت نفسه لا تطلب منك التنازل عن هويتك أو معتقدك، والمهم جداً توفر التعليم المثالي لابني.

السفرة الأولى عن بلدي لم تكن مؤلمة كثيراً مثلما نعانيها اليوم، للإعتقاد السائد بظرفيتها، أو وقتيتها، فالبلد موجود والعودة ممكنة، لا قطيعة في الأُفق. في مارس 1974 شددت الرحال إلى بيروت، وباشرت العمل في اليوم الثاني من وصولي.

في السفرة التأملية إلى قبرص، قبل أخذ القرار الجهنمي بـ"الهجولة"، التقيت مجموعات من المعارف، زملاء العمل من العراقيين، منهم المصور وسيم الجوربه جي، هو اليوم رجل أعمال كبير، والناقد الفنان وضاح فارس، والخزافة نهى الراضي صديقة العمر الأقرب، والطالبة حين ذاك زهاء حديد[14]. ومن غير العراقيين الزملاء: المعمار اللبناني حسان الترك، ومحيي



الدين يسن، والمهندس الفلسطيني المعمار فريد خورشيد، ومخطط المدن المعمار السوداني عبد الله صبار. هذه اللقاءات ساعدتني على التأقلم حال انتقالي، وكأن بيروت ليست تلك المدينة الغريبة عني.

من المصادفات أنني التقيت فريد الذي كان في الكويت، عندما تعاون مع المكتب الاستشاري العراقي في تصميم مبنى جريدة القبس، وساعدنا في الإشراف على موقع نادي الكويت الرياضي، أول مقاولات النوادي الكويتية النموذجية. خلال لقاءاتي به نوه بوجود أعمال كثيرة في الخليج، وتسجيله في الكويت غير كاف للقيام بتلك الأعمال، فعنده رخصة عمل مسجلة في بيروت، ومن الممكن استعمالها للتوسع والممارسة في جميع أقطار الخليج. كان قد فاتح عبد الله صبار الذي كان مقيماً معه في الكويت، وصفاء الكليدارالذي ترك الاستشاري العراقي، وهو صديق فريد من "دنفر-كولارادو" أيام الدراسة. فاتح فريد هذين الصديقين بموضوع تأسيس المجموعة الجديدة، وكان صفاء على علم بقراري بترك الوطن جغرافياً. لذا وجدتهم كانوا قد درسوا، ومن دون علمي، موضوع المساهمة معهم، إن ارتأيت ذلك. أكثر من هذا حضروا عرضاً بديلا لي في حالة الموافقة بالانضمام اليهم. لم أجد في حينه أي ضير في المحاولة. الهم الأوحد الضاغط كان الإنتاج، سقف بحجم طاولة الرسم. كان فريد محملا بالأعمال الجذابة معمارياً، مثل مدينة رياضية، ووزارة المعارف في سلطنة عمان، ومبنى البنك العربي الأفريقي على كورنيش دبي، وبالطبع الاستمرار بالإشراف على نادي الكويت ومبنى جريدة القبس. ما شجعني زيادةً على الانضمام إليهم هو إلتزامهم بتوزيع المسؤوليات، وكان موقعي المثالي هو تسلم مسؤولية المكتب في بيروت الذي سيكون الجهاز المركزي المهني الداعم لجميع المناطق التي ننوي تأسيس حضور مهني فيها. إعتقدت أنه موقع مهني مثالي نظراً للحالة النفسية التي كنت عليها في حينها.

منغصات

كان "الاستشاري العراقي" يعني لي الكثير، فهو بيئة مهنية خاصة عملت فيها ما يزيد عن الثلاث عشرة سنة، وتركها كان موجعاً، ولاسيما أنني بنيت عليها آمالا كثيرة. وها أنا على حين غرة أغادر هذه البيئة لتصبح ذاكرة مجردة، بحلوها ومرها. إنه تغرب مهني إضافي لا يقل قساوة عن التغرب الجغرافي. لم أر رفعة بعد تركي الاستشاري إلا ثلاث مرات، الأُولى في بيروت بعد خمسة عشر يوماً من تركي المكتب، فقد طلب من الزميل حسان الترك مسؤول مكتبه في بيروت تحضير اجتماع معه. التقيته في أحد المحلات، ومعه وريقات، طلب مني التوقيع على إحداها. سماها تسوية. تساءلت عن السبب فأعلمني أنه هو وإحسان ونصير (أخوه محامي المكتب) قرروا دفع مستحقاتي من المكتب، وهي كذا، رفضت التحدث عن المال، ولم يكن هذا في بالي. كانت تسوية.. لكن مع من؟ مع الذات؟ لقد تركت المكان بملء إرادتي، وما تركته هناك لا يعوض بأموال الدنيا. هذا فضلا عن اسكيتشات قريبة جداً من نفسي، وقد فهمت أنها اختفت وأُتلفت بقدرة قادر[15].

كان المبلغ عن 13 سنة من العمل لا يعادل مخصصاتي الشهرية السارية الآن في بيروت. ما سر هذه المسرحية؟ قال إنه قرارهم، وكان على عجالة لكي أوقع على قصاصة حسابية مهمة، والتنازل. لم أقرأ ما كتب وما كان يهمني ما كتب. وقعتها بعجالة. أردت التخلص من هذا الموقف الرديء. هممت بالمغادرة، إلا انه أعطاني مغلفا صغيراً إضافيا، عرفته حالا إذ كان بخط يدي. كان ذلك كتاب الاستقالة الذي سلمته له قبل شهرين، ولم يكن قد قرأه ولم يفض المغلف لحين تسلمته منه، ربما لعدم أهميته. غادرت مرتعشاً مهرولا، خوفاً من خيانة عواطفي بفقدان السيطرة عليها. بالمناسبة، وللمقايسة فقط، علمت في ما بعد أن المفاوضات مع سامي علوش ممثل المكتب في الخليج استمرت أكثر من



اسبوع في سبيل تسوية مستحقاته، وجاءت حسب ما أرادها. تبسمت مع نفسي متأسفاً على الزمن المهني الرديء.

المرة الثانية التي رأيته فيها كانت في بيته في حالات شمالي بيروت، مع مجموعة من المهندسين اللبنانيين الذين طلبوا مني مرافقتهم، وشعرت في حينه أن لا ضير. هناك شعرت بأنني كنت مخطئاً، إذ كان من المبكر التصرف بصورة طبيعية. بعد سنين زارني، وقبل اختفائه الاضطراري والاضطهادي. اتصل في شتاء 1978 في أثينا وطلب دعوة مجموعة من المعماريين في شقتي لكي يطلعهم على بعض الأعمال، وكم كانت دهشتي ودهشة المعماريين اليونانيين أن الأعمال اقتصرت على التصوير الفوتوغرافي، ولا علاقة لها بعمارة المكتب التي كنت مطبلا ومزمراً في الترويج لها. لم ألتق برفعة لحين خروجه من وراء القضبان، وأصبح مسؤولا "مستشار" في أمانة عاصمة بغداد، على الرغم من قيامه بزيارة سريعة إلى اثينا خلال غيبتي عنها في رحلة له لم أعرف سببها.

مكتب في شارع ليون

سقف العمل المهني الجديد في بيروت كان بحجم كاف. كان المكتب في شارع ليون، المتفرع من الحمرا، شقة سكنية بغرفتين ونصف وصالون، لا إلهام ولا استلهام، بلا ألوان ولا عنوان، بإضاءة داكنة. السكرتيرة جاكلين تعشعش في المدخل، بلباس يصلح لحضور توزيع جوائز الأوسكار، مع أضابير قليلة، كل منها معنون باسم البلد. الصالون، المرسم، بثلاث طاولات رسم من النوع الميكانيكي، غرفة أُخرى مقفلة عائدة لشريك سابق لفريد، وغرفة المنام الأخرى في الشقة عائدة لفريد وأوراقه الخاصة، ونصف الغرفة الأخرى للكتلوكات. فريد يتنازل لي عن الغرفة خلال سفره الدائم، لم أتجاوب مع هذا المكان البتة.

لكن لا بأس، فقيمة الدار بساكنيه: تذكرت هذا المثل في بداية الثمانينيات عندما زرت "الاستشاري العراقي"، ولأول مرة منذ تركي له، فوجدته كئيباً معتماً، ملتحفا بطبقة من الغبار، بينما كان عوف "المعتر" وحده يصول ويجول. ليست تلك البيئة التي المني تركها في حينه. المهم أنني في بيروت أردت الحفاظ على مستوى إنتاج مهني مقبول، ولو في "مايكرو" بيئة غير محببة، إلى حين تأهيل المكان لكي يفي ويصبح بيئة غير مملة.

في المرسم كان هناك "أزدغيك منديليان" مهندسة معمارية خريجة يرفان، وهي أول معماري اشتغلت معه في بيروت. علاقتنا المهنية الراقية والأخوية استمرت إلى حين تقاعدها مؤخراً، وما زالت تمر علينا في قبرص بين الفينة والأُخرى، راقية في أخلاقها ومبادئها التقدمية. الطاولة الثانية شغلها سيروب وسوسيان، عمله في المكتب السبع صنائع، كل شيء، بما فيها الرسم الهندسي مهنته الأصلية. كان لي خير عون في التأقلم والتبيّرت. لقد وفر المطلوب بنزاهة وبشفافية، بلغة محببة خليط من الأرمني والعربي اللبناني، اضطر إلى ترك بيروت خلال الأحداث القبيحة لرفضه التورط في الحرب المدمرة حينذاك، وهو الذي كان مسؤولا عن ناد أرمني في الأشرفية. الطاولة الثالثة تعود للزميل بابكين وكان يشتغل في مكتب آخر بدوام كامل.

تسلمت مسؤولية "المحل" بموجوداته المنقولة وغير المنقولة، المهنية وغير المهنية، مع تخويل معنوي ومادي بالتصرف الكامل وبحرية مطلقة. بالنسبة لي كان الهدف الذي أصبو اليه واضحاً، وهو تأسيس بيئة مهنية صحية غير مملة، ونتاج مهني متميز إن أمكن، ومن ثم ربحية معقولة ومريحة للجميع. كانت مسؤولية غير متعبة. البرمجة واضحة، الاستهلال بمسح الموجود، من مشاريع، أضابير، مواد إنتاج، قرطاسية وما شابه، السوق وما يوفره من دعم ومساعدة إنتاج، مصورين، رسامين، معماريين واختصاصات أُخرى.



وجدت من دون أي دهشة أن بيروت قد تكون المدينة المثالية، وهي تفوق بغداد بكثير، وتوفر جميع مستلزمات الخدمات الهندسية وبكفاءة عالية، وهي جاهزة، لا تحتاج إلى كثير من الوقت للتعرف عليها واستكشافها. تعرفت وزاملت مجموعة مخلصة وكفء ساعدتني كثيراً على التأقلم وتحمل الغربة والفراق أنا الذي لم أعتد عليهما بعد. منهم المصور رافي صاحب "فوتو فنشنك" الذي ذهب إلى المجهول خطفاً ولم يعد، والمصور أبو حمدة، والأهم كوكو من برج حمود وشريكه علي من الجنوب أصحاب "سيتي ستيشنري" في نزلة شارع جان دارك في الحمرا. ما زلت أمرّ للسلام عليهما إلى يومنا هذا. هناك أيضا الشهير أنطوان حبيقة، أحسن من يعمل المجسمات ممن صادفتهم، قد يكون بمستوى الألمان الذين عملت معهم في ألمانيا. التحق أنطوان بي في الهجرة الثانية إلى أثينا من جراء الأحداث القبيحة في سنة 1976: الأحداث نفسها التي ألهمت العراقيين في بشاعتها وقساوتها في بداية الألفية الثانية، فبزّوا أخوانهم اللبنانين في الخطف والابتزاز وتثقيب الرؤوس والنحر على الهوية.

شهر واحد سكنت نزل "الكافليير"، شمرة عصا من المكتب، "تست" للدراسات الفنية. الاسم المسجل والموثق في المحاكم. لم أتفاعل مع هذا الإسم المباشر السهل ابداً، يخلو من أي شاعرية أو خيال. شهر واحد واشتقت إلى الديار ومن فيها. شددت الرحال إلى بغداد الحبيبة، على الرغم من إلحاح العمل. العود الأول كان مؤثراً، لم أجد أحداً في المطار، سوى سيفي، ابن أختي، بلا بشاشته المعهودة ولا مرحَباً بحرارة، السبب؟ أجابني أنهم ينتظرون في الأعظمية، فهمت الحالة، سألته عن الوالدة ؟ كان الوالد هو المريض، هي في الإنتظار. في هذه الساعة المتأخرة بعد منتصف الليل، تأكدت جدية الوضع، فذهبت مباشرة إلى دار "هيبت خاتون"،

فقضيت ساعتين معها، استخلصت مني وعداً بعدم السفر ثانيةً من دونها، "رجلي برجلك". ذهبت إلى بيتي في المنصور على أمل الاستيقاظ مبكراً، إلا أنني تأخرت حتى الساعة التاسعة صباحاً، وكانت هي قد دخلت في غيبوبتها. لم تدم غير يوم واحد. نكثت هي بالوعد، إلا أنني وفيت بوعد آخر قطعته لها مسبقاً، هو أن أقبرها بيدي مع أُختها التي توفيت في شبابها عند الولادة، فتم لها ولي ذلك. بنت هذه الأُخت، اليتيمة منذ الولادة، والتي قامت هي بتربيتها ورعايتها توفيت بعد تخرجها من دار المعلمات.

الام والخالة والبنت جميعهن قبرن في لحد واحد جوار الشيخ معروف المتصوف المعروف.

قضيت شهر الحداد في بغداد لترتيب الأُمور، من أجل انتقال ما تبقى من عائلتي إلى بيروت، ثم تجهيز فرع المكتب في بغداد الذي أملت في أن يكون أكثر من فرع، على الرغم من عدم وجود الأعمال. ولترعرعي المهني في بغداد توقعت "الجود بالموجود"، أي ما يكفي لسد حاجة التأسيس، وفي الوقت نفسه الانطلاق منه إلى المناطق الأخرى من الخليج، كتحضير تصاميم القرطاسية بالمقاييس والإسم الموحد للمناطق أجمع، وللمنتسبين في مختلف مواقعهم.

من بغداد إلى دبي لإكمال التأسيس هناك. كانت تلك سفرتي الأولى لها، وهي ليست مثل دبي اليوم. كانت جميلة بمقياس مديني عطوف. ثمة الديرة، والخور الضاج بحركة أليفة. كلفنا بتقديم الاستشارة لمبنى البنك العربي الأفريقي، ومبنى لمقر البنك مع مكاتب وشقق للتأجير، مقره الرئيس في القاهرة. السفرة إلى دبي أتاحت لي الفرصة للتعرف على إمارة تختلف عما عرفته في قطر والبحرين والكويت التي عملت فيها.







اصالة عمارة دبي في الشندغة والبستكية

استكشفتها وصوّرت القديم منها بتفاصيله، الشندغة والبستكية والمحلات المجاورة في برّ دبي. الجميرة هي اليوم غابة نواطح، وكانت سابقاً أرضاً خالية، وعدداً من الفيلات الموزعة على شاطىء مثالي للسباحة والتفرد، والتمتع بالهدوء. أين منها جميرة اليوم ذات العمارة الصاخبة، والكثافة الكونكريتية/المزججة الغريبة عن مدننا؟

الدهشة كلها كانت في التسوق وأنا القادم من بغداد وطوابير الانتظار للحصول على الأوليات، ناهيك عن الألكترونيات والأجهزة الأُخرى، وصولا لتجهيزات ومعدات التصوير: هَوَسي الأبدي. الكاميرات بأنواعها متوفرة في السوق، النايكون التي قرأت عن ميزاتها كثيراً وجدت "لقطة" منها، وعدداً محدوداً من نوع النايكون الـ"أف 2 اس بي"، التي أصبحت ملازمة لي إلى يومنا هذا، على الرغم من مرور 38 سنة على إقتنائها واستعمالها بإلحاح، فهي كالروز رويس أو المرسيدس، أو سجاد الكاشان العجمي، تتجوهر بالاستعمال. هذه الكاميرا لو تكلمت أو سجّلت ما مرّ عليها، لسطرت ملاحم جمة. صورت مشاريع، ووجوهاً وأزياءً، وأجساماً بضّه، وأخرى ملحلحة، ورقصاً فولكلورياً، ورقصات باليه من الطراز الكلاسيكي والحديث، مدناً

وأبنية، رسوم فنانين، منحوتات من جميع أنحاء العالم. هذه الآلة لم تتمكن الرقميات الحديثة من إزاحتها أو مشاركتها محبتي.

أين أنا من بغداد التي لا تسمح السلطة فيها بالتصوير؟ تملّك آلة تصوير كتملّك جهاز ارسال لاسلكي، وامتلاكها يعني التجسس بعينه. في دبي أنا خارج نطاق السلطة، حر في اقتناء ما أُريد، واكتساب صداقة الأجنبي الخبير الخطير، الهندي صاحب جنة أدوات التصوير، على شاكلة مخازن جنة الأطفال، أزوره وأتفحص معروضاته يومياً خلال وجودي في دبي، لاحقاً جهزت المكتب ونفسي بأحدث وأحسن أدوات التصوير التي ساعدتنا كثيراً للارتقاء بمستوي إنتاج وإخراج وعرض المشاريع.

مهنياً وجدت أن الإنقطاع التام عن الدرب الذي آمنت به، وكنت أسير عليه منذ تخرجي غير ممكن. لماذا؟ لأنه جزء من المسيرة، لأُكمل المشوار إذن، بظروف ومؤثرات مغايرة، وبيئة أُخرى، نتاج تأثير وتفاعل متبادل بين الذات والمحيط الجديد. كل شيء مختلف، زماناً ومكاناً، إلا أن التراكم المهني هو نفسه، لذا كان عليَ الإستمرار بالدرب الذي مشيت عليه خطواتي الأولى. الإيمان والإلتزام بقيم العمارة والمدرسة والفكر الذي انتميت إليه وآمنت به بصدق وإخلاص. القيم التي تستلهم هاجس المكان، مع مواكبة المرحلة والحالة الإنسانية السائدة. الإرتفاع بالمحلية إلى مستوى العالمية. محاولة فهرسة الإنتاج المعماري الخاص للمنطقة ضمن التراكم الحضاري البشري، مساهماً في تقدم وراحة وسعادة الإنسان أينما كان. إن مساري انبثق من الإنتماء للمنطقة وللبيئة بكل مكوناتها، من معرفة تفاصيل مكونات الذات، والوقوف احتراماً أمام إنتاج السلف، والخزين المميز له، إضافة الى إلمام تام بمجريات المعاصرة الفاعلة في تكوين الذات، لذا فرضتُ وبتسلط، هذا التوجه على المؤسسة الجديدة. من يرغب ويؤمن فهو معنا في العمل الجديد،



وإلا توجد أعمال وافرة في مدارس أُخرى موازية محترمة ومختلفة. هذا القرار الداخلي أشغلني لفترة، إلى أن تأكدت من صوابه. في البداية كان ضغط التغيير لأجل التغيير، لذا جاءت تجارب بيروت وبغداد مترددة، كما في بنايات مقرات النقابات العمالية في محافظات العراق، أو البنك العربي الأفريقي في دبي، فالمشروعان فيهما شيء من الإستعارة "البوستيش".

لم يستغرق وضع مكتب الحمرا على طريق الإنتاج طويلا، فقد كلف المكتب بمشاريع تقديم الاستشارة لمشاريع متنوعة وفي مناطق مختلفة من الخليج. مع العمل تكاثر الرسامون، والبركة بالشباب العراقي المنتظر أوراق الهجرة للتحرر من جور بلدهم. كما جاء زملاء اعتمدوا على وجودي في بيروت: الفريد مرقص، والفريد برشي، وأرشام ولسون، وأديسون، وهؤلاء كانوا في "الاستشاري العراقي" في فترة ما، ولا يحتاجون إلى تدريب. قسم منهم ما زال على اتصال بي. ألفريد بات رجل أعمال كبيراً، ولم أتمكن من تلبية دعوته لزواج ابنته. أرشام الذي قضى 90 يوماً في السجن للاشتباه باسمه ومهنته، يعيش الآن في شيكاغو حسب آخر اتصال، وأسس محلا لبيع الأغاني العراقية، وبعث لي مجموعة من التسجيلات النادرة من المقامات وأغاني لزهور حسين وسليمة باشا، مع كارت أعمال تضمن عنوانه ومهنته: الرسم الهندسي، وإقامة الحفلات الموسيقية، وتدريس ضرب الطبلة.. كل هذه المهن في كارت واحد.

ساعدتني كثيراً هذه المجموعة الكفء المخلصة في تسهيل الانتقال إلى الجو المهني الجديد، والاستجابة للمسؤوليات الجديدة.

قضيت سنة مهنية حافلة. أضفنا في بيروت مكتباً بتصميم داخلي مقبول نسبياً، في بناية جرمقاني في تلة الخياط، مع مكاتب في بغداد ودبي والكويت والدمام وعُمان. المشاريع في السنة الأولى متنوعة: في سلطنة

عُمان مشروع مبنى وزارة معارف، وملعب نفذ المدرج منه فقط، وفندق مطرح، وتخطيط مدينة لصيادي السمك في العينت نصلها من بحر المضيق في الخليج، وجامع لآل السلطان باسم الحاج عبد الأمير الذي غُدر به في بيروت في فندق "الهوليداي إن".

لقد تقاسمنا العمل، ثمة من يريد تأسيس وتثبيت مكاتب الخليج، وأنا أريد تأسيس وتقوية مكتب بغداد. هناك من ينتظر أوراق هجرته الى مكّته الجديدة، أو إلى الخليج باحثا عن فرصة للحصول على فتات الثروة النفطية.

في الخليج يستوجب أن يكفلنا متنفذ محلي. الكافل في عُمان كان الحاج النبيل علي السلطان، مثال الرقي والأصالة في السلوك، لم أجد لضيافته مثيلا لها في الخليج. والحال لابد من ذكر بعض مواقف الحاج علي: فعند العمل على إنشاء فندق مطرح الجديد الذي تملكه العائلة، دعاني للعشاء في بيته، إعتذر مراراً وتكراراً لاضطرارنا العشاء في الفندق بعد البيت، لوجود الأهل جميعاً خارج السلطنة. لم أفهم سبب الإعتذار، فأعلمني بأن تناول الطعام خارج البيت غير مضياف، لذلك دعاني إلى البيت أولا ثم الفندق. خلال ترددي على الخليج في الأربعين سنة الماضية لم أُدع الى بيت خليجي إلا مرة أو مرتين، في الكويت والبحرين فقط، وفي بيوتات نصف عراقية. في الكويت، الشقيقة الصغرى، كنت أقوم بإشراف هندسي على موقع دار في السالمية على شارع الخليج لأحد الاغنياء. كنت أزوره صباحاً على جناح العراقية في توقفها مستغلا سفرها الى البحرين. كانت زيارات متعددة إلا أن الطائي الكريم لم يخطر على باله تقديم استكان الشاي، ناهيك عن الغداء قبل العودة إلى بغداد على نفس الطائرة عند عودتها من البحرين. إهانة لا غير، كرم عربي أصيل. البركة في "الجلو كباب" الايراني اللذيذ مع تمّن "صدري" من



"رشد" مدينة الرُز والشيوعية في إيران، في محلة الشرق مطعم شعبي غير أن صاحبه في حيرة من أمره، منتظرا أن تسفر الأحداث عن اتجاهها، لذا وضع صورة الشاه الإمبراطور بملابسه العسكرية إلى جوار السيد الخميني بعمامته النجفية السوداء.

في مسقط القديمة يعمل الحاج علي من مكتب في طابق علوي لمبنى تملكه شركة "تاول"، شركة العائلة. يشرف المكتب على خليج يؤدي إلى الميناء، ومنه على الداخل والخارج من الناقلات والبضاعة المشحونة إليه. مكتبه أشبه ببرج المراقبة. في المكتب يقدم الشاي على الطريقة العراقية "قوري واستكانات" يسكبه ويقدمه بيديه. أحرجني جداً وهو بمثابة الوالد، عندما حاولت مساعدة نفسي رفض سائلا إن كنت سأدعه يقدم الشاي في بغداد بنفسه عند زيارته؟ شخصية أصيلة ستبقى في الذاكرة. العمانيون عاملوه حاكماً وقاضياً في فض مشاكلهم الشخصية، لنزاهته وحكمته. في إحدى المرات وصلت "السيب"، حيث المطار وسمة الدخول منتهية المفعول، فاستفسر موظف الجوازات عن اسم الكفيل، فأدخلني، وأنا العراقي الخطر، مشروع لفوضى، مرحباً عندما علم أن كفيلي هو الحاج علي.

تأسس المكتب في مُطرح المحاذية لمسقط القديمة، ستوديو مع غرف للنوم وسيارة لاستعمال الجميع. المطبخ بإشراف سوداني نوبي، على معرفة ما تشتهيه نفسي من ملوخية وما شاكل. عيبه أنه مسطول على الدوام بعد الخامسة مساءً.

في دبي العمل جيد بداية الثورة العمرانية : بناية للفطيم، وأُخرى لجمعة الماجد في دبي، وثانية كبيرة في الشارقة، وإسكان قرب المطار لآل "المكتوم" والبنك العربي الأفريقي على الخور في الديرة، ومعمل للمياه الغازية، "سفن اب". استأجرنا المكتب في بناية الكويتي في دبي، عملت فيه رسامة شابة قريبة

جداً في مظهرها من "الأم تريزا"، ومعها "كوبال" المبتسم دائماً والملم بقلي البيض صباحاً فقط!

في الكويت تختلف الحالة، فالمكتب مجهز أصلا: شقة للسكن واسعة في شارع السور مجاور وزارة الخارجية حينذاك. المكتب واسع وقريب من السكن والمركز. سيطرة فلسطينية تامة، رسامون ومراقبون في مواقع البناء، أصدقاء أحباب. الكويت تختلف، نعرفها جيداً، ولنا مجموعة من الأصدقاء اللبنانيين والعراقيين. عبث وشغل منهاج حافل، حتى حضور مباريات كرة القدم في نادي الكويت الذي كان قد تم تنفيذه، وافتتح في نهاية 1974. لم أحضر افتتاحه لشعوري أني من "الخوارج"، على الرغم من قيامي بزيارته قبل الافتتاح لإعطاء التوجيهات النهائية. انتابني الشعور نفسه عند افتتاح ملعب قطر الرئيس الذي كنت قد اشتغلت عليه بمساعدة "اوف آراب"[16] في لندن لتسقيف المقصورة بـ "سبيس فريم" بباع يجاوز 90 مترا[17].

في الدمام السعودية، تأخر سفري إليها لفترة لحين انتقالنا إلى أثينا.

وفي بغداد اقتطع صفاء جزءاً من شقة في عمارة حسيب صالح، مجاورة للاستشاري العراقي، بيئتي السابقة، على الرغم من أنني كنت أُفضل الابتعاد. لا بأس فأنا لن أكون موجوداً إلا لفترات متقطعة. هذه الغرفة ذاتها، واصلت الوجود إلى يومنا هذا على طابقين تمثل مكتبي على الرغم من الحضور النائي[18] من خلال العضيد الزميل فيصل الذي لابد من أن أتحدث عنه.

في إحدى سفراتي إلى بغداد، عام 1975 كنت أجلس وحيداً في المكتب. فإذا بشاب وسيم ذي حضور مميز يطل عليّ محيياً. عرّف بنفسه، فيصل إبراهيم فياض الجبوري، خريج عمارة في تلك السنة: "أريد الإلتحاق بك،" هكذا فاجأني. أعلمته بواقع الحال وبتصحر العمل، وأنا نفسي أنتظر الغيث، ولا علم متى يأتي التكليف بأي عمل. جوابه أدهشني: "لا يهمك أنا معك في الانتظار!".



لم يبق لي غير أن أرحب به. منذ الثمانينيات وفيصل الآمر الناهي في المكتب، يحل ويربط وأنا المنفذ، يستشيرني بالكبيرة والصغيرة. عاني ما عانى هو وعائلته من أجل العمل. مرّ بأيام العوز والحروب والحصار والخطف وهو على العهد باق يمارس العمل من دون تلكؤ، منتج بمستوى مهني، بواسطته ثبت وجودي في بغداد برغم البعد والفراق.

في صباح اليوم التالي لالتحاق فيصل، زارني الزميل علاء جليل، المهندس المسؤول في الاتحاد المركزي لنقابات العمال، الذي تعرفت عليه عندما صممنا مجمع المقر العام لاتحاد عمال العراق، الواقع الآن ضمن المنطقة الخضراء. أعلمني أن رئيس نقابات عمال العراق محمد عايش عضو القيادة القطرية (19) يريد تكليفي بعمل جديد. زرت المقر مساءً وكان في البتاوين في جمعية الشبان المسيحيين سابقاً، و لجنة المبنى كانت مجتمعة. بعد الترحيب والسؤال عن بيروت وعن عملي، راح محمد عايش يشرح العمل المطلوب تقديم الاستشارة عنه: أبنية لمقرات مجمع النقابات لكل محافظات القطر، وكانت 14 مقراً. طلب تحضير برنامج وجدولة زمنية وتخطيطاً لتدفق السيولة والكلف، وتقريراً مفصلا لعرضه على المجلس.

في صباح اليوم التالي كان فيصل في جو العمل، وقد تم تحضير مقترح النماذج للمقرات المزمع تشييدها، وكانت ثلاثة، للشمال والوسط والمنطقة الجنوبية. وأقولها للتاريخ أن محمد عايش، حتى وعند وجودي سابقاً في الإشراف على المبنى المركزي، أقام معي علاقة مهنية مثالية، وكثيراً ما كنت أستفسر منه عن رأيه بموضوع ما، بوصفه صاحب العمل، وكان جوابه دائما هو: "المهندس هو المسؤول، الخيار والقرار لك". كان لا يتحرج من أن يكرر على مسامعنا أنه مجرد عامل كهرباء.

الأبنية التي شيدناها من تلك الفترة ما زالت موجودة لكن متهرئة



باستعمالات مختلفة. وأنقل لكم تقويماً نقدياً عنها:

"... نموذجاً يعمم على غالبية محافظات العراق بغض النظر عن اختلاف المواد وتنوع التضاريس الموقعية . إنه نموذج لمجمع إتحادات مهنية ، معالجة واجهاته تعكس نزوع المعماريين العراقيين وقتذاك إلى تثبيت العناصر المحلية الشائعة، كجزء من مقاربة معمارية هي في الواقع صدى تأثيرات الإتجاه الإقليمي الذي ساد في الستينيات ضمن المشهد المعماري العالمي. لا تزال لغة المبنى "الأربيلي" محتفظة بنكهتها التجديدية رغم قدم المبنى ورغم التحويرات الى طرأت عليه جراء تغيير شاغليه، وغياب تام لمفهوم الصيانة عندنا. إنه يذكرنا بتلك الفترة التى أظهر فيها المصممون العراقيون اهتماما عميقا ومتفرداً، قياسا بما كان يمارس تصميميا في المنطقة، لجهة تجديد عناصر الموروث البنائي المحلي ومسعاهم في تأويله وفق تأثيرات مجرى العمارة العالمية واستحقاقاتها[20].

التحق بالمكتب عدد من المهندسين منهم: نبيل قزاز، وفرخنده الكليدار، ونعمان منى ومنان طاهر، وأشود. ثم توسع المكتب وسجّل في نقابة المهندسين العراقية بدرجة إستشاري. وبوجود صفاء في بغداد لم يحتاج المكتب إلى من يقوم بالرعاية واتخاذ القرارات الآنية السريعة. هاجر هو الآخر إلى بيروت، في نهاية 1975، وكان مجبراً لأن زوجته إيرانية الجنسية، والإيرانيون أصبحوا في موقع قد يكون أسوأ من غيرهم من المقيمين في العراق.

اضطررت قضاء بعض الوقت في الوطن ممتناً، ولاسيما أن الوالد والعمة العتيدة شاركاني السكن في المنصور[21]. قضيت صيف 1975 في بغداد بصحبة الوالد والعمة، مستمتعاً بلياليها العبثية مع أصدقاء العمر من الجنسين. إلا أن ضغط المكاتب الأُخرى، المركز والفروع أجبرني على العودة، وكان هذا يؤرقني. بيد أن الحل جاء بالمصادفة، ولم يخطر على البال.

قبل الذهاب إلى لندن للدراسة في 1963 سكنت في دور الجادرجي



في المنصور (سبعة دور صغيرة متلاصقة، أزيلت وهي الآن سوق). ركزت في إشرافي الموقعي عند تشييدها على واحد منها لغرض السكن لحين إكمال البقية. في النهاية شغلت هذه الدور المصغَّرة الشاعرة عاتكة الخزرجي، والدبلوماسي الصديق عماد العمري، والاقتصادي صلاح الشيخلي سفير العراق الحالي في لندن، والشاعرة رباب الكاظمي زوجة حكمت الجادرجي وكريمة الشاعر المعروف الكاظمي[22]. في الدار المقابل سكن ولم يسكن، صاحبي لاحقاً المهندس عيسى العزاوي وزوجته الفنانة نائرة آل كتّاب. أستخدم هذه الجملة الغريبة لأن عيسى عاش متخفيا هارباً من بطش السلطة وهو اليساري النشط. بدت الدار كأنها مسكونة بالأشباح. لم تتمكن السلطة من القبض على عيسى، وظهر على الملأ عندما تبدل الوضع وعاد إلى عمله. تركت هذه الدور بعد إنجاز الدار في الحي العربي، بعدها لم أر عيسى إلا في المناسبات، أو من خلال العمل، فهو رئيس مهندسين في مديرية الحبوب، فإذا به يطل عليّ في ذلك الصيف في المكتب، ويعلمني بصوته الجهوري الباريتوني، بأنه ترك الخدمة. لقد طفح الكيل،لا يتحمل العمل في بؤرة فاسدة، وهو الآن متفرغ ويود الإلتحاق بالمكتب: ألف أهلا وسهلا ومرحباً، فهو معروف باستقامته وكفاءته، وكان بعمر وخبرة تلائم المجموعة الشابة العاملة في المكتب. ما لم أكن مطلعاً عليه عن عيسى هو ثقافته الواسعة والمتنوعة في التاريخ الإسلامي والفلسفة، وطبعاً في السياسة التي لا ناقة لي فيها ولا جمل. ما زلت على صلة به إلى يومنا هذا في المهنةً والصداقة. عمل في المكتب إلى أن اضطر إلى الهجرة (وما في حد أحسن من حد)، إلى الخليج عن طريقنا في أثينا بعد أن علم أن وجوده في بغداد غير مرغوب فيه ويعدَ مجازفة كبيرة. في بغداد كان أبو صارم خير عون لشباب وصبايا مكتب بيروت، وعندما ساءت الأحوال الأمنية انتقلوا إلى بغداد، لإعداد مركز آخر غير بيروت: هيهات ايجاد بديل لبيروت!

الخروج من بيروت

في بداية العام 1976 ساءت الأحوال الأمنية إلى درجة أن بعض الطرق في بيروت أصبحت غير "سالكة وغير آمنة"، حسب نشرة أخبار الحالة الأمنية من إذاعة لبنان، المعدة من قبل الإعلامي الشهير شريف الأخوي[23]. لم أجد أي صعوبة في التنقل اليومي من تلة الخياط حيث المكتب، والحمرا حيث السكن، ومعي عدة التصوير. مرة واحدة فقط وأمام سينما "السارولا"، "مسرح المدينة" اليوم، لم أسمع أمر القفففففف التي خبرتها في بغداد، فقوصني قناص مصري، نصف أعمى تساعده قعور قناني زجاجية في النظر، يقف على حاجز "المرابطون" فدخلت الإطلاقة من الحاجز الخلفي للـ"باسات"، وتوقفت في المقود. كنت محظوظا أكثر من زميلي وصديق العمر مصطفى الجاف، فقناصه كان كفء ومبصر، عمل من جسم مصطفى النحيل منخلا. إحدى الرصاصات استقرت ولبدت لفترة في مكان قصي من كليته إلى أن تقدم مستوى الجراحة في الولايات المتحدة فأخرجوها. تساقطت الشظايا بكثرة في شقة السكن الواقعة في سطح البناية، إحداها طاشت في حوض الأسماك: طوفان جديد.. "بيروت حريق والشقة غريق" والسمك ينطنط مفرفحاً.

تحت ضغط العمل المطلوب في الخليج وجدت للشباب "كامباً" ثابتاً أسوة بالفرق الرياضية، فقد بات التنقل بين منطقة وأُخرى مجازفة كبرى. كنا نعمل في الكامب ونأكل وننام بشقق مخدومة في نزلة شارع الجان دارك في الحمرا "شقق حداد المفروشة"، وبهذه الطريقة كنا مطمئنين على وجود الجميع أحياءً، فلا سبت أسود أو إثنين أحمر، ولا خطف على الهوية في التنقل. التعليمات كانت أن كل واحد مسؤول عن مشروعه، فضلا عن ذلك تسلّم الجميع تذاكر سفر لاستخدامها إن ساءت الحالة إلى درجة لا تطاق، والإلتحاق ببغداد.






ما تبقى من اسواق بيروت وتكية ابن عراق الدمشقي والامام الاوزاعي محروسة من صواريخ الاهل

سافرت إلى بغداد في الطريق إلى دبي، وما أن مرّ أسبوع أو أقل حتى اتصلت العمة العتيدة من البيت لتعلمني بوصول الشباب من بيروت، ثم وصلت رسالة من الخطوط الجوية اللبنانية تخبرنا بمقدم الشباب والصبايا.

عثر أبو صارم، عيسى العزاوي، وفيصل بهمتهما العالية على محل مثالي لسكنهم: فندق جديد قرب مستشفى السامرائي، في ساحة الأندلس على مسافة قصيرة من المكتب، ملائم أو هكذا اعتقدوا، بمطعم ومشرب في الطابق الأول. تألفت المجموعة من ديكران، وأزدغيك، ومنير منصور وزوجته سامية، ولأنهم لبنانيون كانوا أكثر تحررا في ملبسهم ومأكلهم ومشربهم. بالرغم من ذلك لا شيء عادي، أو ظننت أن الأمر كذلك، والمهم أنهم اندمجوا بالعمل أسوة بزملائهم البغادة. لم أعلم أن المساكين كانوا يعانون ويقاسون في حياتهم خارج المكتب، وخارج حلقات الأصدقاء والمعارف. كانوا على نحو ما في سجن، فالبيئة المحيطة والجو العام في المدينة غير مرحب بهم، واعتبروهم فرجة، كأنهم جاؤوا من المريخ أو من كواكب "درب التبانة"، ما أثّر مباشرة على طريقة تصرفهم.

بعد مدة قصيرة غادر من الجماعة منير وسامية الى الكويت واستقرا فيها لفترة طويلة. (حاليا يمارس الأول المهنة من مكتبه في الكورة في شمالي

لبنان). بدوري توجهت في آب 1976 إلى أثينا لتأسيس المكتب المركز البديل لبيروت.




هكذا تركنا بيروت في منتصف السبعينات

سنتان غنيتان انقضتا في بيروت، كانت مثالية على الرغم من الحروب القبيحة. في بيروت المتناقضة هناك تسهيلات كبيرة وعناصر الجمال الآمن جنباً إلى جنب مع الخطر المخيف. بيد أن الحالة كانت تسوء بحيث كان من الأجدر إيجاد مركز للإنتاج يوضع في خدمة جميع المناطق. البدائل المتاحة كثيرة، فمن الشركاء من اقترح الكويت، أكثر المكاتب تجهيزاً بعد بغداد، والأخيرة أصبحت هي بدورها غير صالحة للخدمة المهنية، حتى بالنسبة لنا نحن أبناءها. شخصياً كنت أقف ضد خيار لندن وبقوة، خوفاً من فقدان الشخصية، ولطغيان برودة الدم والجو الإنكليزي. استقر الرأى إذن على خفة دم وحرارة جو أثينا.

أثينا الإغريقية

من الكويت تفرق الجميع. أخذت بدوري درب "أثينا بولس" مؤمناً بجدواها التام. وكيف لا، وهي عاصمة الاغريق، واسمها من إسم آلهتها "أثينا"، آلهة الحكمة والحرفة والعدالة والاستراتيجية، آلهة أسلحة الحروب الاغريقية!

أثينا هذه قد تكون هي المدينة الفاضلة.



الهوامش

1 - مسابقة معمارية 1973-1974 لتشييد مبنى مجلس الامة الكويتي بين مكاتب عالمية معروفة.

2 - يرن أوتسون معمار دانماركي 1918-2008، أشهر أعماله دار أوبرا سيدني في أستراليا.

3 - ماتا هاري هولندية ألمانية 1876-1917، وهي أشهر جاسوسة في التاريخ الحديث.

4 - ألفار ألتو معمار فنلندي 1898-1976، ويعتبر من أهم معماري العمارة الحديثة. أهم أعماله قاعة البلدة للفنون - هيلسنكي.

5 - جيو بونتي 1891-1979، أحد المهندسين المعماريين المشهورين صمم برج بيريللي في ميلان.

6 - قصة مزرعة الحيوان للكاتب جورج أورويل، قصة للهجاء السياسي عن أربعينات القرن الماضي. ردة فعل عنيفة تجاه النظام الشيوعي.

7 - سفاح روّع بغداد ظهر في أواسط السبعينيات واشتهر باسم أبو طبر لأنه يستخدم الطبر(الفأس) في قتل ضحاياه.

8 - ونص على أن زوجة العراقي الأجنبية الراغبة في الإقامة في العراق ينبغي عليها الحصول على الجنسية العراقية.

9 - وزارة إعمار الشمال كلفت الإستشاري العراقي بمشاريع عدة، منها خطة تطوير محور كلي علي بك -جنديان في محافضة أربيل، كذلك مشروع إسكان للأسرة البرزانية في قسري في قضاء جومان، حيث كنت في هذا المشروع على اتصال دائم بكاكا إدريس ابن الملا، (أكبر من كاكا مسعود عمراً).

10 - نقيب المهندسين، أستاذ الهندسة الإنشائية، والد الصديقة العزيزة الأستاذة جالة.

11 - إيكاروس هو بطل الأسطورة الأغريقية القديمة الذي صنع لنفسه جناحين من الشمع وبهما استطاع التحليق عاليا بيد أن الشمس أذابت الشمع فسقط في البحر.

12 - فيلم سوري، سيناريو محمد الماغوط ودريد لحام، أنتج في 1982، يسخر من مشاكل حدود العرب.

13 - قصيدة للشاعر نزار قباني مطلعها ياست الدنيا يا بيروت - من باع سوارك المشغولة بالياقوت.

14 - مهندسة معمارية من أصل عراقي، مهمة جدا في حركة العمارة المعاصرة، صديقة قبل



أن تصبح المعمارية الأولى في العالم.

15 - تخطيطات أولية لمجمل المشاريع التي تم تنفيذها والتي لم تنفذ، أخبرني الزميل فارس حازم نامق بانها أزيلت بحجة إعادة ترتيب المكتب.

16 - مكتب انكليزي قدير متخصص في الهندسة الانشائية.

17 - منظومة إنشائية مسبقة الصنع، متكونة من مقاطع حديدية تلتقي في عقدة مكونة، متوالية الأهرامات، تمكن التسقيف بباعات كبيرة جدا .

18 - مقالة في في مجلة "ايربن لاند" الاميركية، عدد آب 2004، بقلم وليام برانتلي. هو من أطلق هذه التسمية.

19 - أحد الحزبيين الذي جرى تصفيته في 1979 بعد توجيه تهمة الخيانة العظمى بحقه والطعن بنضاله وشرفه وطرد أقاربه حتى الدرجة السادسة من وظائفهم في دوائر الدولة.

20 - الناقد خالد سلطاني ، "تداعيات، في الطريق الى معبرة ربيعة"، جريدة المدى2007/7/7.

21 - خلال وجودي خارج العراق انتقل الوالد والعمة العتيدة للسكن في دار الحي العربي، خلال عملية النقل فقدت مجموعة من رسوم الوالد أكثرها لورود في أصص وحياة جامدة، خسارة كبيرة حزت وجداني إلى يومنا هذا.

22 - الشاعر العراقي الشيخ عبد المحسن الكاظمي 1871-1935.

23 - خلال الحرب اللبنانية قام بتكوين غرفة للاتصالات كاملة التجهيز في المديرية العامة لقوى الأمن الداخلي تخبر الناس عبر الراديو بمسالك الطرق الآمنة، ويحذر من غير السالكة وغير الآمنة.



كانت الحالة في بيروت غير واعدة وتدعو لليأس. الحل هو تأسيس مكتب متكامل، بعدّته وعديده، له صفة البقاء. في حزيران 1980 اُتخذ القرار بالإنتقال جملة وتفصيلا إلى أثينا. شددنا الرحال من الكويت إلى دبي ومنها إلى أثينا.

أثينا الحديثة، المدينة والناس، اختلفت عن أيام تصعلكت فيها في مرحلة الدراسة. لعلّ هذا الإنطباع الأول جاء خوفاً من أجواء عمل لم تكن معروفة بعد. كان فريد "في انتظاري بفندق "كراند بريطانيا"، في ساحة البرلمان، "سانتغما"، الدستور، مركز الإحتجاج والإضراب شبه الدائم. الفندق فخم وجميل جداً، تذكرت زيارتي الأولى لأثينا أيام النوم في الحدائق والساحات قبل ما يزيد عن خمسة عشر عاما. قارنت زياراتي الأولى الممتعة غير المسؤولة، وزيارتي الحالية التي ملؤها القلق، والرهبة من تحمل المسوولية، وإمكانية الإخفاق. ما أجمل أيام الدراسة والتصعلك، واللاأُبالية و"الفوضى الخلاقة".

قرارنا المهم هو استحداث محل لمارسة فعل العمارة والتخطيط، على أن يكون متقدماً، فنحن الآن في أوروبا، وفي بلاد تعد مهد الحضارة الغربية. الأعمال متوفرة وفيها نوع من التحدي، أهمها مبنى سفارة دولة الإمارات في مسقط، وسفارتي دولة الكويت في البحرين والخرطوم. منذ البداية توجهنا نحو مستوى جديد من المشاريع، فضلا عن بيئة العمل التي جهزناها جيداً، ولاسيما توفير كادر متميز. اكتشفنا أن الهجرة والانتقال باتا جزءاً من توقعاتنا.. حروب تلي حروباً، احتلالات تلي احتلالات، والتأقلم أصبح روتيناً. الأصعب هو الفراق بعد تأسيس صداقات جديدة. الإنسان يتعلم ولا يتعلم. هناك لذة التولع ثم التوجع ثانية والتألم القاسي في الفراق والهجرة ثانية. الجميل في كل هذا

هو تخزين وإثراء ذاكرة جديدة فقط، صفحات جديدة لا تقدَر ولا تثمّن، نقتات عليها في تغرّبنا و"هجولتنا" عندما تتحول الحياة كلها إلى شوق نحو حيوات جميلة خلاقة.

في البحث عما يؤسس له، وفي شهرنا الأول، نزلنا في فندق جميل جداً فوق صخرة تتوسط أثينا وتسمى "ليكافتوس"، تضم فضلا عن الفندق ديراً وكنيسة لـ"مار كوركيس"، الذي حسب اعتقاد المؤمنين به أن له قوة وقدرة على شفاء الميؤوس من شفائهم. بيد أن جمال السكن فوق الصخرة ينغصه جموع الناس الزاحفة إلى الصخرة المبتلين بالتشوه والعوّق. والحال أن النزول من الصخرة إلى وسط المدينة ممتع وخلاب، على العكس من تسلقها في أواخر السهرة أو بعد يوم مجهد، بسبب الارتفاع وزحف المحتاجين لرحمة القديس سيراً لزيادة الثواب.

بدأنا من غرفة صغيرة في حي "كولونايكي" تحت الصخرة، احتوت على هاتف وتلكس وخدمات مكتبية أخرى. المنطقة مليئة بكاليريات الفن والمودة والاثاث. من هذه الغرفة القوقعة تمت مقابلة واختيار الكوادر المطلوبة والمكملة لكوادر بيروت الأصليين، المنتظرين في مكاتب الخليج. صباحاً كنا نقابل الإغريق واختيار الأنسب شكلاً وكفاءةً. من حسن الحظ عثرنا على مديرة أعمال أكثر من سكرتيرة، يونانية/كندية، "انجيلا"، تمتلك المواصفات المطلوبة، ساعدت في الترجمة والبحث والتعامل مع أحفاد "ارسطوطاليس ويوليسيس".

لابد من ذكر الأوائل اللذين التحقوا بنا، فبالاضافة إلى أنجيلا، كانت هناك في السكرتارية "كرستينا خلاسي" من "فولوس"، في التصوير والتصميم الغرافيكي "جولي كفاديا" خريجة كلية العمارة في البندقية، بنت أخو الشاعر اليوناني الشهير "نيكوس كافاديا" من جزيرة "كافالونيا"،



المعمار "كوستا سوكارس" من يونانيي الإسكندرية خريج ميلانو، "زوتوس" خريج لندن يسكن أثينا، "نيكو ايكونومو" معمار وزوج جولي خريج البندقية، صعلوك ثوري تعشعش الحشرات في لحيته الكثة، و"دمتري" الإنشائي خريج "البولي تكنيك" الجامعة الأثينية المشهورة بمقاومتها للدكتاتورية العسكرية، يساعد "جورج كفوري" المهندس الإنشائي الأقدم من بلدة الكفور اللبنانية، والذي استوردناه من سويسرا محل إقامته. فضلا عن هذه الأسماء كان هناك أبناء الوطن المنتظرين سمة دخول بلاد العم سام، "شوقي سارة" للميكانيك، "عماد البنا" من بغداد للكهرباء، والرسامون العراقيون المعهودين وزوجاتهم الجميلات. هذه المجموعة إضافة إلى مجموعة أخرى التحقت لاحقاً بعد العثور على المكتب.

المكتب الجديد في "ليوفورس سنغرو"، بولفار جديد يربط البحر بأثينا التاريخية. وجدنا مبتغانا فيه، فهو حديث، مساحته 400 متر مربع، ومقسَم حسب الطلب. هذا البولفار تحتله معظم مكاتب أثينا الحديثة، وقد فاتنا عدم التدقيق باستعمالات البولفار في الليالي الملاح.

المكتب حديث مع أبنيته ويشرف على البحر من جهة الجنوب وعلى "الأكروبولس" من جهة الشمال الغربي، هذا إذا سمح لنا التلوث بالرؤية الواضحة. أثينا تعتبر من أكثر مدن العالم تلوثاً، فضلا عن تلوث ضوضائي ليس له مثيل إلا في ليماسول. في هذا البولفار اكتشفت تلوثاً جميلا غير مزعج، جديداً عليّ، وهو الكتابات و"الغرافيتي" على الجدران، والكثير منها سياسية. جئنا من ديار يختفي فيها كل من يكتب أو يقرأ أو يقف عند غرافيتي سياسي. هناك حسب ما أعلمني أحد الأصدقاء الشيوعيين ما يزيد عن 15 حزباً شيوعياً جميعها لها فسحة لعرض وجهة نظرها، حتى "الأناركية" منها[1] ويالها من فسحة للتخبط واللخبطة. الدعاية الانتخابية



المنسقة جداً جلبت إنتباهي، فهي طاغية لمصلحة شخصية فذة تدعى "فيكي"(بـ فاء مثلث التنقيط). كان الشارع وعلى جهتيه يدعو وبإصرار إلى التصويت إلى هذه الـ"فيكي"، ويبدو أنها من حزب بأيدولوجية جديدة. تبين لاحقاً أن الشارع يتحول في الليل إلى منطقة لبيع الهوى، وهناك نحو 200 من عارضات الهوى، أغلبهن "مدغوشات" حسب التعبير العراقي للزيف، "مثليون" من متحولي الجنس، منتفخو الصدور، متبرجون بزيادة ملفتة للنظر لإخفاء ما تبقى لهم من رجولة، ما عدا واحدة غير "مدغوشة" وهي ملكة الاغريق في القباحة، و"فيكي" إحداهن/أحدهم، وهي مرشحة/مرشح لتمثيلهم في النقابة. كانت ديمقراطية أوروبية حقة!

خلال أكثر من شهر بقليل، أي بزحف بسيط في الموعد، توالى مجيء اللبنانيين على رأسهم أزدغيك، والعراقيين وعلى رأسهم نبيل قزاز، ومن ثم الشركاء بعد تنعمهم مع عوائلهم بعطلهم الصيفية.

استكشفت منفردا مدينة جديدة، هي خزين وخليط من الجمال والثقافة، حديث وقديم. كانت فترة بحث واستكشاف جميلة، نغَصها الإجتياح الإسرائيلي البشع لجنوب لبنان وتهجير ظالم لأهله، والقلق والتفكير المستمر على ما ستفضي إليه الحالة.

تقدمنا لم يقتصر على المكتب والعمل، وإنما شمل النمط المعيشي. وللمرة الأولى وبعد معاناة لسنين طويلة، تم تجهيز غرفة مظلمة للتصوير والتجريب، بديلا لمطبخ شقة بيروت، أو لغرفة عيسى حنا في بغداد. من دون أن أنكر إنجازات الماضي أقول إن ما تم في مطبخ سكن بيروت عند تحويله عند الحاجة إلى غرفة مظلمة للتصوير جاء جيداً، وأخص بالذكر أعمال طبع وتظهير الصور التي صورها وحيدي في جنوب فرنسا لأعمال الفن الحديث، والتي استعملها كـ"بورتوفوليو" لغرض قبوله في "رزدي"، "كلية رود أيلاند



النصميم"، الصعبة المنال[2]. ومثل غرفة عيسى حنا البدائية في بغداد التي أنجز فيها توثيق الكثير من الإنتاج المعماري، آخرها توثيق شارع حيفا الطيب الصيت والسيء الصيت حسب موقفه وموقعه منه. في أثينا وللمرة الاولى، أنشأنا غرفة مظلمة جديدة مجهزة بمعدات حديثة متكاملة، وتديرها إنسانة لطيفة وكفء اسمها "جولي".

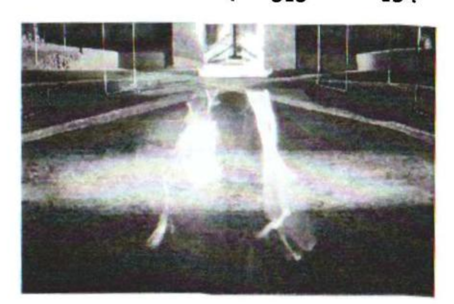
للمرة الأولى يجتمع الرسم والنحت في استوديو مخصص للعمل الفني الخاص. وبدلا من الزوايا الصغيرة من غرف البيت، كان الاستديو الجديد المجهز بالكامل في سطح الطابق الثامن في منطقة "كالاماكي"، يشرف على مارينا لليخوت وقبور شاخصة للجنود الإنكليز، مقبرة تبدو مشتلا للورود ولا تثير خواطر الحزن والتشاؤم، كما هي حالة مقابرنا غير الدارسة. الرسم والنحت بدأ يأخذ منحى أكثر جدية، وهذه المرة ليس من أجل الهروب وتفريغ شحنات التوتر من جراء العملية التصميمية فقط، وإنما للبحث في الفورم والمادة واللون. هذا الإنتاج عرض بعد فترة قصيرة في أول معرض شخصي في "غاليري بولي بلانو" في "كولوناكي" في نهاية السبعينيات.

كان التاريخ وجمال البحر المتوسط يتزاوجان لخلق بيئة فاتحة لشهوة الإبداع والخلق، يصاحبها أحداث ثقافية حرمنا منها، فهي ممنوعة إما بسبب الجهل والإنغلاق والتعصب الأعمى وإما بسبب الحروب العبثية. في مهرجان الفن في صيف أثينا المقام سنوياً على مسرح "هيردتس اتيكوس" في "الأكروبوليس" تعرض روائع الموسيقى والرقص الحديث، كلها باتت مواضيع للتصوير: باليه "بيجار" و"الهاركنز" مدرسة نيويورك للرقص الحديث، وأخرى لـ "رافي شانكار" "وميكيس ثيودوراكيس".

ما زلت أحتفظ بشرائح تصوير توثق هذه الأحداث. وبفضل المثقف المغربي الكبير الأستاذ محمد بن عيس، أتيحت لي الفرصة بزيارة مدينة



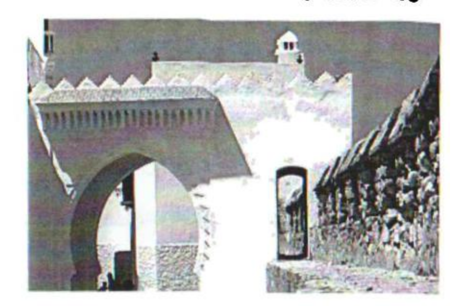
"أصيلة" الثقافية، فصورت وسجلت رقص "الكناوة" المغربي، ومجموعة من تجريدات عزيزة جداً.



موريس بيجار



وباريس باليه في اثينا



مدينة اصيلة المحافظ عليها



رقص الكناوة المغربي

سنوات أثينا كانت ابداعا مع عبث وإنتاج فريدين. تنوعت المشاريع وكثرت: سفارات من مثل سفارة دولة الإمارات في مسقط، وسفارة الكويت في البحرين والخرطوم، ومقترح لسفارة قطر في مسقط، ومشروع أعده إلى اليوم مميزاً رأيته منقولا، باستعارة مشوهة، في استعلامات بوابة القصر الجمهوري في بغداد، في عدد من المرات التي استدعيت فيها للقصر في ثمانينيات القرن الماضي.

ثمة مشروع مهم وكبير أدخلنا في عصر جديد من تحضير وثائق الإنشاء، وهو مشروع ورش وزارة الكهرباء في الكويت. إنه كبير بحيث لا يمكننا السيطرة عليه وبرمجة تحضير وثائق انشاءاته، لذا استعنا باختصاصي



البرمجة والإدارة، وتلك كانت بداية للتعاون مع المكتب الألماني "راينكه"، وبشخص المبرمج "مانفرد موللر"، الذي سنرى مدى العون الذي قدمه لنا في مجال اختصاصه. وتلك كانت بداية البرمجة الميكانيكية الألكترونية التي عدّت بدائية بمقياس يومنا هذا.

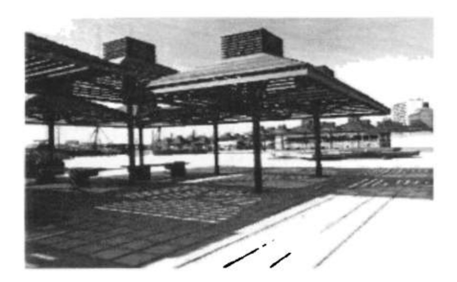
مشاريع كثيرة منها ما يستحق التوقف عندها، تعبر عن معتقدي المهني بوضوح، أخص منها بناية المصرف المركزي في صلالة، ومركز الدراسات المصرفية في الكويت، ومسابقات بلدية الدمام وبلدية أبوظبي، وجامع عائلة السلطان في روي، في سلطنة عمان، وأبنية جمعة الماجد في الشارقة، ومعارض الفطيم في دبي، والمركز الثقافي في صلالة، ومشاريع أخرى مشابهة.

عند الزيارة الاولى لدبي كان الخور الفاصل بين برّ دبي والديرة يختلف عما هو عليه الآن، على الرغم من تفرده بخصوصية مميزة في مدينة اليوم. في حينه، وقبل ردم مساحة كبيرة منه في نهاية الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي، كان أكثر إلهاماً: حركة دائمة، مساحة مائية وسطية في مركز المدينة، بأبعاد إنسانية خيالية لا تحصى في تعدد الاستعمالات. الـ " داو"، سفن كبيرة نسبياً، خشبية محلية الصنع تنساب بحركة رشيقة، صالحة لاستعمالات متعددة الأغراض: السكن، الطبخ، الإغتسال، التعبد، الشحن، التجارة المحلية والخارجية حتى حدود الصين والشرق الاقصى. أخبرني أحدهم أنهم في السابق كانوا يكدسون صواريها باللؤلؤ والماس والذهب ويشحن إلى الصين، لصياغته وتقليد الماركات الشهيرة من الحلي والمجوهرات.

حركة "الـداو" المستمرة، ومن خلفها برّ دبي وهوائيات دور منطقة الشندقة والبستكية التراثية، أضفت ديناميكية وأبعاداً محببة للمدينة، أكسبتها جواً من الإلفة المحببة.

في السبعينيات طمر شاطئ جهة الديرة، وعرّض الكورنيش، وما استحدث من الأرض المطمورة كُلفنا نحن بتحضير التصميم الحضري له: مشروع نموذجي في التعامل مع المدينة وموروثها، ما زال قائماً مع تحويرات بسيطة. ربما احتفظ المشروع بتلك الخصوصية، بأصالة محلية وبمقاييس إنسانية، وبالأخص بعد فقدانها في المناطق الجديدة في الجميرة، وامتداد جبل علي، ومدينة الإعلام.





الجزء للطمور من الخور في اوائل السبعينات و بعد تاهيله في نهاية السبعينات

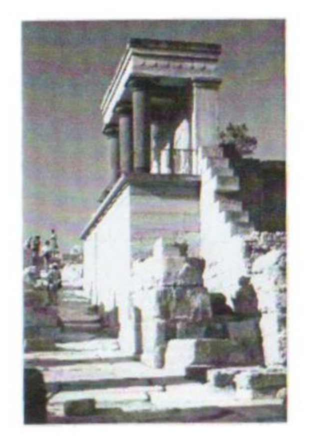
على مبعدة من أثينا، وفي الجنوب الشرقي منها، بنحو الـ50 كلم تقع "كيب سونيون"[3] التي تضم معبد "بوسيدون" إله البحر. من هذه النقطة انتحر "أجيوس"، وعلى اسمه سمي هذا الجزء من الأبيض ببحر "ايجة". لقد رأى السفن بأشرعتها وراياتها السود بقيادة ولده "تيسيوس" عائدة من كريت (بالعربي "قريطش")، فاعتقد أن ولده فقد في الحملة ضد الوحش "منتور"، نصف الإنسان ونصف ثور، الموجود في كريت لدى ملكها "مينوس". "تيسيوس" الشجاع ابن "أجيوس" تبرع بقتل الوحش للتخلص من القرابين البشرية التي كان على أثينا تقديمها له سنوياً. العقدة التراجيديا كانت في نسيان "تيسيوس" استبدال البيارق السود بلون آخر، حسب اتفاقه المسبق مع والده "أجيوس"، من هنا اعتقد أن ولده قد قتل، فانتحر الوالد رامياً نفسه من صخرة سونيون حزناً على ولده دون معرفة حقيقة انتصاره..

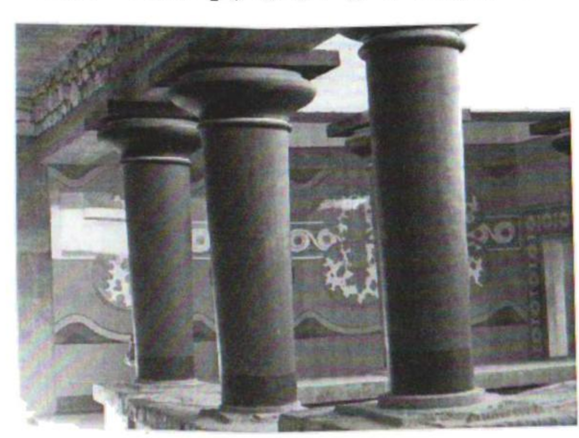






كيب سونيون ومعبد بوسيدونس موقع تراجيدية اجيوس

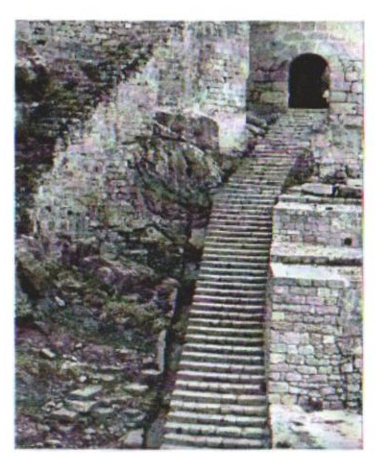


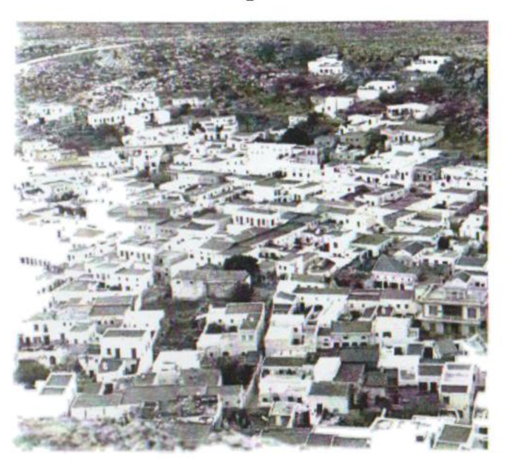


قصر كنوسوس من تصميم دايدلوس 1900 ق م في اراكليون كريت حيث للملك مينوس

الطبيعة الخلابة والأسطورة وعمارة المعبد وغروب الشمس في أفق المتوسط وطبق سمك "الماريذة"، السـاردين، مجتمعة تؤلف موقعا قد يكون الوحيد في هذه الأرض، من حيث الجمال والتأثير. تحت هذا المعبد يقع نزل بسيط يمتد داخل البحر الابيض المتوسط. عندما يسود التوتر والتشنج خلال عملية الإبداع والتصميم، تدعو الحاجة إلى الشحن والتجلي والتسلطن مع احد المساعدين او المساعدات والتحليق في أجواء الإبداع. كثير من المشاريع التي صممت في مكتب أثينا كانت من نتاج هذا التوحد والتعبد مع هذا الجمال.

أربع سنوات ما بين جمال الطبيعة والتاريخ والصحبة الجميلة والعمل المبدع، ترافقت مع التعرف على مطبخ الإغريق التركي المنبع، "إمام بايلدي" و"فاصوليا بلاكي" وأنواع الدولمة وبالطبع أسماك وصدفيات الأبيض. الاطلاع على كنوز الموسيقى والرقص الرجولي الإغريقي، موسيقى "الرومباتيكو"، خليط من المقام البغدادي والـ"سيرتاكيس" بآلات البزوكي والليرِ.

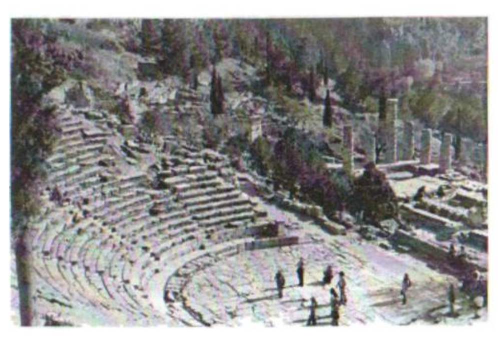




اكروبولس جزيرة رودس وتحته منظر نسيج للدينه الاغريقي



كنيسة جزيرة ميكونوس



مسرح مهرجان ابيداوروس بولوبونيس للفنون

بين البحر والطعام نحاط بأساطير هائلة، وعدد كبير من الآلهة الموزعين على امتدادالجُزر، أو في معابدهم مجتمعين في "دلفي"(4).



في جنوب غربي جبل "بارنسوس"، تعرفت على الآلهة اليونانية وأنا أنشد النشيد السومري حسب ما أسعفتني الذاكرة:

سبحان الآلهة التي أعرفها وتعرفني

سبحان الآلهة التي تعرفني ولم أعرفها

وسبحان الآلهة التي أعرفها ولم تعرفني

وسبحان الآلهة التي لا تعرفني ولم أعرفها.

مضيفاً من تأليفي : والتي سوف لن أعرفها.

جميلة كانت الحياة في أرض الإغريق، بشرط أن تعيش في داخلها ولا تحوم حولها.

من أوائل المشاريع المناطة بمكتب بيروت كان ملعب للشرطة في مسقط. بعد نوادي الكويت، كان هوس الملاعب الرياضية قد ازداد، وهذا الملعب أنموذج على هذا الهوس. لكن عليَّ الاعتراف بأن تطور تصميم الملاعب الرياضية في العالم المتقدم بات حثيثاً، فالملاعب تضم مفردات تصميمية متنوعة الوظائف والحجوم، ومؤخراً أضيف اليها التقدم التكنولوجي في مجال التوقيت والإعلان والاتصال والعرض الألكتروني. الألمان كانوا الرواد في تطوير عمارة الرياضة منذ تشييد مدينتهم الرياضية المشهورة لأولمبياد 1936. كان "شبير"، معمار هتلر المسؤول الأول عن تشييدها في حينها، أما المدينة الأحدث فهي ميونخ الأولمبية في السبعينيات، ودراستها كانت ضرورية في ذلك الحين لأي محاولة تصميم مرفق رياضي. العبقري وراء هذا العمل هو الهير "فراي أوتو"[5]، معمار/مهندس، أول من استعمل ضغط الكابلات الفولاذية بدلا من شدّها المتعارف عليه، وتمكن من الحصول على باعات خيالية، تزيد في بعض الأحيان عن المئة متر من دون إسناد وسطي. عند دراسة إنجازه بإمعان بعد دعوتنا من وزارة الشؤون الإجتماعية

والعمل في عُمان لتقديم مقترح تصميم لمدينة رياضية، ارتأينا استعمال هذا النظام الإنشائي. من الناحية الشكلية كان عملنا يحاكي، إن لم يكن متطابقا، نظام وشكل بيوت الشعر البدوية والخيم والسرادقات العربية، لذا كان القرار الطبيعي في اختيار هذا النمط من الإنشاء السوبر حديث لورثة البادية الأصيلة، هو تكرار خيمة بأبعاد 45 متراً مربعة الشكل لتغطية أية مساحة من الملعب يحتاج إلى تغطية، حماية من المطر أو الشمس الحارقة.

عند انتقالنا الى أثينا دعينا لتقديم تصميم مدينة رياضية لمدينة أبو ظبي، عندها وجدت أن من الأنسب مفاتحة الأستاذ "فراي أوتو" بالموضوع وطلب المعونة منه، وكم كانت دهشتي عند زيارتي له في "شتوتكارت" في معهده للأنظمة الإنشائية الخفيفة الأثقال، مقدار اعتماد تصاميمه على نظام رفع الخيمة البدوية وبيوت الشعر، فضلا عن دراسات وشرائح فوتوغرافية لأنواع الخيم البدوية، وبيوت الشعر. في مختبره توجد موديلات ومجسمات لكل مشروع على حدة، بمقاييس كبيرة الغرض منها قياس مدى تحمل هذه الكابلات للشدّ والضغط عملياً وواقعياً، وتقاس بواسطة آلات و"كيجات" صغيرة تشد على الكيبلات. من المشاكل الكبيرة التي واجهته في تصميم المدينة في ميونيخ، هي أحمال الثلوج عند سقوطها بكثرة في فصل الشتاء، عندها اعتقد مطمئناً أنها بمقدار أو أقل من أثقال ذرات الغبار التي ستتراكم فوق الخيام في مشاريع المنطقة.

جميع المقترحات في استعمال عبقرية السلف للخيام غير المشعرة المستحدثة باءت بالفشل، إلى أن قرّر الأخ الثري الكبير السعودي استعمالها في ملعب الملك فهد، ومطار جدة الدولي، وفندق الإنتركونتيننتال في مكة. توالت الخيام في الخليج وإلى اليوم هذا، تستعمل في محلها أو في غيره: مطرب الحي لا يطرب.. الخيام المصنّعة غدت علامات تمدن مدن النفط المالحة.



التافه من الحياة الاجتماعية متفشي بين العرب والأجانب في أثينا.

هؤلاء ومن دون مقارنة، أغنياء هجّرتهم حروب بيروت. قسم كبير منهم مازال يمارس أعماله من أثينا وضواحيها، همّه الإحتفالات، عيد ميلاد، زواج وخطبة. عند المآتم يعودون إلى الوطن. هناك من يؤجر يختاً للإحتفال، أو يشترك بناد راق لليخوت في "فوليرميني"، أو فندق "استير" الفخم المجاور له، أو في نوادي" كفيسيا"، الضاحية المترفة المجاورة لأثينا. أكثر العرب في الخارج متشرنقون، قريبون من بعضهم البعض، ولا يميلون إلى استكشاف الأصيل، ليس كما يفعل عازب مثلي، بعد أن فضّلت رفيقتي الإلتحاق بوحيدها في بيروت لأنه أصر على العودة الى مدرسته الانترناشنال كولدج "آى سي" الراس بيروتية، غير مكتف بمستوى المدارس المصاغة كالقالب لعرب الهجرة المتمكنين. لقد أصرّ على العودة على الرغم من اشتداد القتال والطرق غير الآمنة أو غير السالكة - حسب تصنيف نشرة أخبار شريف الأخوي أشهر من لعن الحرب وأسبابها.

من خلال هذه السفاسف الاجتماعية تعرفت على مهندس هولندي، زوجته وبناته اندرجوا تحت تصنيف نساء الاحتفالات المترفة، ويمثل إحدى الشركات الأميركية العملاقة، "درافو" ومقرها "بيتسبرغ" المدينة المحافظة. يمثل "شتوب" وهذه هي كنيته، الشركة في المنطقة، الا أن تمثيلهم في الخليج والعراق غير فاعل، وقد يكون معدوماً تقريباً.

كان لـ "شتوب" عائلة جميلة ويخت عامر، وتطورت علاقتي به من صداقة عابرة إلى علاقة مهنية، فاقترح علينا التعاون مع شركته العملاقة للعمل سوية في المشاريع الهندسية الكبيرة. هذا التعاون لم يغر أو يدغدغ الجوع المهني المعماري، كما دغدغ غيري من الزملاء، لاختلاف المشاريع التي نسعى تقديم المشورة الهندسية لها وعدم تصنيفها ضمن مشاريع الحلم. نحن نشترك في

تقديم المشورة إذا ما تم التوصل الى صيغة ما من التعاون المهني. الرغبة في التعاون في البداية كانت خجولة جداً، إلى أن جاؤوا بمقترح فذ، كبير علينا، هو أن يشترونا بالكامل، مع الإحتفاظ بالكوادر لفترة معينة ويضمنهم الشركاء، مع وضع نوع من صيغة الإندماج بمكتبهم الهندسي الإستشاري المدعو "غبز اند هل" الموجود في نيويورك. من هنا جرى دعوتنا لزيارة المكتب في نيويورك للإطلاع على ما يخبئه الدهر والزمن المهني من مفاجآت.

زيارة نيويورك في ذلك الوقت كانت مجازفة كبرى، قبل أن تصبح المزار المقدس لعراقيي التغيير والتخلف والإصلاح الرجعي، فالولايات الامريكية المتحدة من الدول الممنوع زيارتها أسوة بإسرائيل وإيران، والمنع مسجل بخط واضح وبإملاء خاطئ، وتلك ميزة ما يكتب في الباسبورت العراقي إذ أن 90 ٪ من أسماء العراقيين كتبت بإملاء غير صحيح، وهات يا مشاكل في مطارات وبنوك العالم.

لاحقاً، أدركت أن المخابرات تغاضت عن هذه الزيارة ولم تذكر. كان التعرف على عاصمة العالم الجديد "المدينة التفاحة" تتجاوز المخاطر، ففضلا عن التعرف على المدينة، تعرفت على ما هو أهم وهو كيفية عمل المكاتب الهندسية العملاقة باستخدام حاسوب عملاق اشتري من شركة لوكهيد للطائرات، يصمم ويرسم ويحسب ويحضر المواصفات الفنية ويطبع المشاريع الهندسية. في منتصف السبعينيات كان هذا أعجوبة، وأول اتصال بدماغ غير دماغ البشر.

راقبت ولمدة أسبوع تصميم جسر حديدي، يدعى "فِنك تراص"، مشابه للجسر الحديدي العراقي في الصرافية.. وهو الجسر الذي تكسر من دوس أرجل الحبيب حسب منطوق أغنية جسر الحديد. عندما شيّد هذا الجسر شاهدت وضع ركائزه من دار عمي أمين مقابل كلية الحقوق، وكنت بعمر تسع سنوات في نهاية الأربعينيات. في "غبز اند هل" نجحوا بدغدغة حواس ومشاعر



في حب التركيب واستخدام التقنية. تمت المفاوضات بنجاح، فقد خُمن سعر الشراء، بمعادلة وضعها أهل الاختصاص، مجاهيلها حجم الأعمال المناطة، وحجم الأعمال المتوقع الحصول عليه، والديون السالبة والموجبة، ورأس المال، والقيمة الدفترية، كلها مع عدد سنين الممارسة، مضروبة بمعامل عددي، مع سعر الإسم الناضج المسجل، والناتج هو قيمة المكتب الفعلية التي على أساسها يتم البيع والشراء. إن تحويل المهنة إلى سلعة ذات سعر عمل غريب. لم أتوقع قيمتنا المهنية الغالية والعالية حقيقة. بعد زيارتنا لمدينة "بيتسبرغ" الجميلة، وزيارة عمل فرانك لويد رايت، القريب منها، المعروف بالدار الشلال[6] تم الاتفاق على كل شيء، بيد أن مساحة غامضة تقع في الظل أرّقتني، ورفضت أن تعلن عن نفسها. إلى أن بان ما بان، وتلخّص بطلبين أصروا عليهما في الشروط، وهما: الأول عدم شمول الأعمال الهندسية في المملكة العربية السعودية في الاتفاق، وكانت هي السوق الأكبر لما توفره من فرص عمل هندسية كبيرة لنا نحن الطرف الثاني. الشرط الثاني، والذي لم يدمج في الشروط صراحة، هو تسلم الألوسي لمكتب بغداد والإقامة في ربوع وطنه، وهو مبتغاهم المهم. رفضت هذا الشرط حتى على أشلائي. مستحيل تطبيقه، لكوني كنت قد عينت غيابياً، وبالضد من إرادتي ومن دون علمي مهندساً في وزارة الصناعة، مديرية الأبنية الخفيفة. إن إعادة التوظيف قسراً يتم لجميع المهندسين من موظفي الدولة المستقيلين بعذر أو بدون عذر، وتم بأمر "الأخ الاكبر" لتنفيذ الخطة الاقتصادية الإنفجارية. لكنني لم أكن موظفاً أبداً..

في تلك الخطة نفذت مشاريع كثيرة، بيد أنها من ناحية مآلها المستقبلي كانت أهدافاً للقصف الدقيق في الحروب اللاحقة، خاصة أبنية الصناعات الخفيفة التي تطايرت في أول غارة صاروخية استهدفت الوطن، والتي لم يستثن منها سقفاً واحداً لم يقصف أو يفجر أو يفخخ أو يسرق.

إذاً فقد فشل الدمج والبيع وذهبت أحلام الغنى السريع من دون رجعة، وذهبت معها، صداقة شتوب وعائلته الجميلة ويخته العامر. وعادت حليمة إلى عادتها القديمة.. إلى مكتب أثينا الذي بدأ بالإنهيار.

على الرغم من أجواء العمل الحميمية والانتاج المميز والحياة الرغدة، لم تدم السعادة طويلا. الجميع كان يتذمر باستمرار، كباراً وصغاراً، مشاركين مالكين وموظفين، محليين وغير محليين. الجميع في شكوى ولهم مظالم خيالية. يبدو أن في الأجواء الحلوة ما يغذي هذه الحالة، لعله جمال الطبيعة والعمل ببيئة كهذه. النساء وكيدهن العظيم، الزوجات المقيمات في أثينا وخططهن بالانتقال، لشعورهن الدائم بعدم دوام الحالة الحلوة هذه، ورغبتهن بحياة مستقرة. لقد تقرر هذا على الرغم من كفاحي وإصراري على الصمود والبقاء في أثينا. لقد تقررت العودة إلى بيروت للإدارة فقط، ثم التشرذم مهنياً، بين أصقاع الصحاري الخليجية، قبل أن تدخلها واحات الكونكريت والزجاج والنخيل البصراوي المستورد. الزوجات أردن لاحقاً العيش في مدن العولمة: لندن وواشنطن.

انتقال إلى مسكن آخر يعني بيع الأثاث أو تضييعه. إلى متى هذه "الهجولة"؟ في انتقالنا الى أثينا لم نتمكن من نقل أثاث بيروت غير القليل الذي تمكنت رفيقتي أم وحيدي من نقله. أنا لم أزر بيروت إلى أن غادرت منظمة الصاعقة الفلسطينية/السورية رأس بيروت. أخواننا السوريون كانوا في حرب مع إسرائيل والعراق الشقيق على حد سواء. لقد يئست من الحصول على السيارة فإذا بأحد السماسرة يجلب "الباسات" بـ 1500 ليرة، مع العلم أنني كنت قد سلّمته الدفتر وملكية السيارة، لذا فقد عادت معي إلى الديار، أما "الغولف" التي استوردت بعد أن فقدنا الأمل بعودة الباسات، فقد نسفت في بيروت بعد العودة.



هناك بالطبع عوامل موضوعية لمغادرتنا أثينا، فالعقلية الإغريقية لا تشبه عقليتنا، وكان من الصعوبة التأقلم معها ومسايرتها. إنها عقلية مغايرة ولا أقول مخالفة. أمثلة بسيطة تعكس هذا: ففي جميع اللغات بالعالم تبدأ مفردة الرفض بحرف النون: نو بالإنكليزية، وناين بالألمانية، نيت بالروسي، ونع الكردية المعاندة، ونا بابا الهازئة بالعجمية، ونيه مع الهز بالأوردية، إلا اليونانية، الـ نا تعني نعم. الإغريقي هو الوحيد بالعالم يهز رأسه إلى الأسفل عند نطقه بـ نا، وجميع شعوب العالم تهز رأسها إلى الأعلى رافضة عند تلفظها بالنو. الهندي فقط يهز رأسه في جميع الأحوال.

في صباح يوم جميل غادرت مبكراً إلى العمل، حاولت تشغيل السيارة فلم أوفق برغم تعدد المحاولات، فإذا بجارتي تطل عليّ من البالكون وتنادي: "آلوسي، آلوسي" لتخبرني مع ابتسامة خبيثة، ببشرى استحالة اشتغال سيارتي مهما حاولت. استفسرت عن السبب، فجاء الجواب وبكل بساطة هو أنني نسيت إطفاء إضاءة السيارة عند العودة من المكتب في الليلة السابقة. جارتي لم يخطر في بالها لفت انتباهي قبل نفاد شحنة البطارية، الأدهى أنها لم تجد أي خلل في تصرفها.

الإضرابات متكررة في اليونان إلى درجة مزعجة. النقابات تطالب وإلى يومنا هذا بكل شيء. في إحدى سنوات العمل في أثينا اشتغلنا 190 يوماً فقط، لذا كانت كلفة العمل عالية جداً. في أحد أيام الإضراب كان علينا التقديم إلى مسابقة مهمة جداً، وكنا قد أنجزنا أكثر من 95٪ من العمل، ولم يتبق إلاّ القليل لغرض شحنها إلى الخليج. وتقديراً من الموظفين، وما تربطني بهم من صداقة، هي بالنسبة لي أهم من الشغل ذاته، دخلوا عليّ بوفد متسائلين في حيرة واضحة : ما العمل والمسابقة يجب أن ننهيها والنقابات دعت الى الإضراب يوم غد؟ الجواب كان: "أنا متفهم لمحنتكم، إن أضربتم فهذا

شأنكم وهو مفهوم، أما إذا قررتم الاشتغال وإنهاء المسابقة فسأكون شد
وممتنأ. فالقرار يعود لكم." في اليوم الثاني، انتظرت متوقعاً الموافقة
رجائي، لكن خيبتي كانت كبيرة. لا فائدة من الأصدقاء ولا من الزملاء . ة
على المسابقة وكلفتها السلام. في اليوم الذي تلاه باشروا العمل. د
عليّ "جولي كافاديا"، وهي الأقرب لي من الجميع، ومسؤولة الغرفة المذ
في المكتب، عبوسة خجولة وسألتني: ألا تريد أن تعرف سبب قرارهم ب
الاشتغال؟ سألتها: ما هو؟ اعتقدوا أنني كنت متقصداً بالجواب المعسول،
الخشن، وهي محاولة مني لاستغلال صداقتهم. من هنا قرروا عدم الوقوع
الفخ الذي نُصب لهم. تفكير مخالف وقد يكن معوجاً.

أوصلتني جولي إلى المطار مودعة، وطلبت المعذرة عن أي تصرف
منهم. وأوضحت قائلة إن تلك التصرفات هي نتاج عقدة متأصلة فيهم، سـ
"عقدة الأفندي"، وتعني عدم الثقة بكل أجنبي مهما كانت متانة العلاقة به،
أفندي في النهاية. ما زلت أعاني من هذه العقدة في قبرص اليونانية.

توسلت جولي أن أنساهم جميعا، وأغفر لهم عقدهم، لعلمها ا
بوجع الهجرة والتغرب مرة أخرى. كيف والخزين تضخم، والوجع يز
جولي التهمها السرطان بالكامل ورحلت بدون وداع، علّمتني تذوق الموسـ
والرقص الـ"زرباوي" الرجولي والشعر اليوناني.

عدنا ورجعنا، كما يقول "ت.س.اليوت" (في الرباعية الرابعة،
كدنكك" بما معناه(7) :

وستكون غاية تقصينا
أن نصل المكان الذي منه انطلقنا
وأن نعرفه للمرة الأولى..

في هذه القصيدة ندور ولا نسير، فهي حلقة مفرغة، نكرر الاستكشـ



وينتهي لنبدأ من جديد دورة تشبه غيرها.. نستكشف من جديد بداياتنا.

أحياناً تتكرر العودة بصيغ أخرى. هل العودة إلى ذلك الجزء المتعلق بالثقافة الهيلينية هو سبب وجودي في قبرص؟ هل هو امتداد لمحاولة التحاور مع آلهتهم مجدداً؟ أم يضاف اليها العودة إلى ما تخزّن في الذاكرة من المخلفات المعرفية العثمانية الثرة، والتواصل بلغتين؟ وهل مشاركة الجزيرة بالمعرفتين العثمانية والهيلينية يعد سبباً لحمل الهوية البديلة؟

أحتاج الى منظَر "فرويدي" أو "يونكي" لسبر الأغوار[8].

الهوامش

1 - حركة سياسية فوضوية تدعو لمجتمع بلا رؤساء، مناهضة للدولة أو للحكومة وتشكك في كل الاحزاب السياسية، مع رفض لكل الديكتاتوريات.

2 - مدرسة للفنون والتصميم، تأسست 1877. إحدى أقدم مدارس الفنون الأمريكية تقع في بروفدنس، ولاية رود ايلاند.

3 - موقع معبد بوسيدون، إله البحر. يتألف في الأصل من 34 عموداً، 15 منها ما زال قائماً اليوم.

4 - اعتبرها القدماء مركز العالم وأقدس من جميع المواقع المقدسة. سكنت قبل 1400 ق.م

5 - مهندس ألماني 1925- رئيس مركز الابنية الخفيفة في شتوتكارت، معظم أعماله تصب في استعمال مبادئ تشييد الخيام. أهم أبنيته المدينة الأولومبية في ميونخ.

6 - في أواخر الثلاثينيات استطاع رايت في دار الشلال نقل الصور التعبيرية بالاسود والابيض لتأثيرات الظل والظلال الأفقية بإسلوب عبر فيه عن مفهوم التضاد الحاد مع البيئة المجاورة.

7 - توماس ستيرنز إليوت 1888-1965 أميركي حائزٌ على جائزة نوبل للآداب 1948، كتب الأرض اليباب والرباعيات الأربع. أصبح أحد الرعايا البريطانيين.

8 - عالمان في التحليل النفسي.



عدت مجبراً مهدود الحيل. كان ذلك في منتصف تشرين الثاني1980، بعد غياب طويل. استغرقت السفرة إلى بغداد من عمان نحو عشرين ساعة بواسطة سيارة ألـ"جي أم ألـ" .. وأين منها سيارات اليوم الـ"جي أم سي" ذات الدفع الرباعي المكيف؟[1] كان كل سنتمتر مربع من جسمي يئن ويشتكي. لا بأس.. من أجل بغداد الحبيبة، فهي بلادي وإن جارت، مثلما أنشد شريف مكة وحاكمها، قتادة في 597 للهجرة في رائعته التي مطلعها:

بلادي وإن جارت علـيّ عزيزة ولو أنني أعرى بها وأجـوع

ألـ"جي أم أل" كانت باصاً، بل هي جمل حديدي، ذو مقاعد حديدية صلبة، بطانته ومقاعده معدنية تزقزق، والطريق وعرة، والنوم بعيد عن عين مرزوق. الأجواء العراقية مغلقة في وجه الطيران المدني. الخطوط الجوية في إجازة. الطائرات العراقية جاثمة تبكي حظها العاثر في مطار عمان، وكأنها في سبات، غير دارية بأنها ستنام نومة أهل الكهف. حتى الطائرات تهاجر ويشملها التغرب، وتضطهد صنو كل ما هو عراقي. منها من هجع في تونس، ومنها الأسيرة التي أعيد تدويرها وتعميدها بقراءة البسملة بالفارسي، وجرى استعمالها بين طهران وغيرها من المدن الإيرانية. في عمان كانت مركونة في ركن قصي، مغبرة وكأنها مجذومة، في معزل عن طائرات البشر الأُخرى.

حرب الخليج كانت قد شغّلت رحاها، حيث أقلعت ماكنة الخراب لتسفك، "سفاكية"[2]، دماء خيرة شباب الوطن وشباب الجار اللدود الأزلي. تلتهم كل شيء. حرب مدمرة استغرقت ثماني سنوات طويلة جدا، سأُعايشها، بصواريخها وجنائزها وقصصها المأساوية، مع الأرامل والثكالى والأيتام. حرب أقسى ما التهمت وأفنت، قيَم الانسان المسالم، قيَم الوداعة والأمان.

العودة هذه المرة لم تكن مؤثرة كما هو متوقع، فالتغيير كان غير متوقع، على الرغم من سماعي به، فهو يفاجئ و"يسطر". لولا الإحساس الداخلي لتصورت بأني أزور قطراً غريباً للمرة الأولى. وجدت التغيير في "اللبوس"، بيد أنه "لبوس" يعتاد الفرد عليه بمرور الزمن، ليكتشف بأنه مجرد لبوس خارجي غير مؤثر على الجوهر الطيب.

عند وصول الركام الحديدي الناقل إلى الرطبة، إحدى مداخل العراق الغربية الرسمية المعترف بها، طرق إلى سمعي نبرة غريبة، "شاي يا بيه". لهجة مصرية خفيفة.. وأين؟ على الحدود العراقية الأردنية المتمصرة حديثاً. شرطة المسافرين والكمارك هم من العراقيين، أما بقية الخدمات فتضطلع بها الجالية المصرية الضيفة على العراق. هذه الجالية ستحتل، وعند استمرار المعارك، عمقاً استراتيجياً واجتماعياً مهماً، كقطاع خدمي تفشى في مرافق وجميع متطلبات الحياة، بدءاً بالرعي والفلاحة، وفي عمالة المسطر[3] وانتهاءً بتدفئة فراش المحرومات في بعض الأحيان.

أفقت على نداء "شاي يا بيه". أين منه "جاي عمي؟" بثلاث نقاط تحت الجيم. الجلابية غير الدشداشة، وسعر الشاي بـ 250 فلساً بدلا من 5 فلوس قبل التضخم. حساب التضخم بات غير معقول، لكن ياريت بقي على تلك النسبة غير المعقولة إلى يومنا هذا! ساعدني أخوتي في العروبة والتاريخ بإنزال أمتعتي، ثم أعادوها بعد التفتيش الدقيق من قبل مسؤولي الكمارك الأفذاذ. أمام ضباط الجوازات عدت إلى مشكلة "القلافة" والجسد الممتلئ. من يمتلك جسدي لابد من أن يكون أجنبيا.. وماذا عن لحيتي الكهنوتية الكثة؟! على الرغم من "قلافتي" الأجنبية والبعيدة جدا عن بنية جسد الصعاليك. كنت أكن كل الإحترام لصعاليك بغداد العباقرة، أمثال جان دمو والحصري والداغستاني، وزعيمهم



الشاعر الكبير حسين مردان، والرسام العظيم أستاذي فاضل عباس مدرس الرسم في ثانوية الأعظمية.

وصلنا ساحة المتحف العراقي العظيم بعد العصر، ومن هناك استقلت سيارة أجرة إلى داري في الحي العربي في منطقة المنصور. أول ما استرعى انتباهي إزالة الفلك من الشوارع (ما يسمى في الخليج بالدوّار). لهذه الفلك في العراق تاريخ مشهود، فعند تسلم الزعيم عبد الكريم قاسم السلطة، تحولت أكثر التقاطعات إلى فلك دوارة. بسببها أطلق عليه تندراً كنية "عبد الكريم فلكة"، لكثرتها وتكرارها. هل كانت لتأمين الحماية؟ بها يتم الاستغناء عن إشارات المرور غير المرغوبة للزعماء عامة. أشك في أن الزعيم كان سيتوقف في الإشارات المرورية إن وجدت. إنها جزء من خطة أمنية شاملة ستردع المعتدي والإرهابي، وتشوش على صواريخه العابرة، وتحيد عنا أسلحته الكيمياوية. ها نحن أمام تقاطعات بتصاميم جديدة وبإشارات مرورية ضوئية حديثة. كل تقاطع مصمم بحيث يلائم مسار وحجم الحركة المرورية في منطقته، ثم تبين بعد لأي أنها للأمان، لحماية رئيس الجمهورية والمسؤولين، وهم أهداف رئيسة متحركة ومشاريع تصفية ليس في بلادي فحسب بل في بلاد المنطقة أجمع، ولا ينبغي عرقلة سير مواكب المسؤولين عند مرورهم بالسرعة الصاروخية، والفلك معرقلة ومخففة للسرعة. لم يستورد بعد الأسلوب الجديد، أي الحواجز الكونكريتية، فهذه جاءت بعد "التحرير". في هذه التقاطعات تبذير كبير بالإشارات المرورية الضوئية، ولم تكن معروفة بالعراق على نطاق واسع. أتذكر وجود إشارة واحدة فقط في بغداد عند تقاطع جسر الصرافية الحديد مع شارع الإمام الأعظم. في هذه الحالة نصف عدد الإشارات الضوئية قد يفي بالغرض، والباقي تبذير صريح. اتضح لاحقاً أن هذه الزيادة هي نوع من الخزين الاستراتيجي للإشارات

الضوئية، عندما بات الإقتصاد الضاغط يشرخ الشباب العراقي إلى نصفين، نصف يبني ونصف يقاتل تحت شعار مستعار من المسرح اللامعقول وهو: "يد تبني ويد تقتل!"

في التاكسي التهمت عيناي التفاصيل الجديدة الغريبة. كلي رهبة وأنا التقي بالحبيبة القاسية، وأظن أن سائقي كان في حيرة وهو يختلس النظر بالمرآة الأمامية بين الحين والحين غير مصدق: من أين جاء هذا المجنون الأجنبي الذي يتكلم العراقية بطلاقة؟

وصلت الدار. العمة العتيدة كانت في الانتظار، وحيدة تقاوم بصبر أيوبي. عندها أكتشفت، أن الدار، والعائلة الذكرى، والعمة، والكل، هرموا، لفترة فقدت التوازن. ها أنا في بيتي الحقيقي، بين كتب ولوحات رسوم والدي، على الرغم من عدم وجود أهلي ساكني الدار السابقين[4]. أين الأهل؟ الوالد ورفيقة العمر وبكر وحيدي و"يونيه" مرافقته والكلب المخلص الوحش "فيليبس"، الذي أصر بعد الهجرة بأيام معدودة على الانتحار، وفاءً أم خيبةً بأهله الذين هجروه؟ شعور مريح أن نعود الى البيت، وكأن الدور في أثينا وبيروت تفتقد حنان الانتماء إلى البيت بمعناه العميق. وكأن إقامتي كانت طوال هذه المدة في فنادق أو في شقق سياحية... أي سكن عشوائي من نوع آخر.

الفراغ كبير في الديار. لكن لا بأس. سأعتاد. بغداد ما زالت تتنفس، ودجلتها الحاضن يزيد من حنانها، وكثير من الأحبة في الانتظار. مهما تكن الملابسات المستحدثة والمنغصات الدخيلة، إلا أن الحياة مستمرة، والعراقي معتاد على الطقوس السادية المتفشية ...

بغداد الحروب عليها مسحة من حزن يختلف عن حزنها الأزلي الدائم الجميل المتأصل فيها، الملهم والمحفز. هذه المرة الحزن يصاحبه ألم إضافي، إحساس مهيب من الوهلة الأولى، تؤكده العتمة من جراء الغارات الإيرانية،



والتي تبين في الأيام اللاحقة، أنها محدودة التأثير. صافرات الإنذار ترعب أكثر من فائدتها، في حين أن الطائرات لا ترهب، والأطفال يلوحون لأعمام وأخوال اليوم، طياري الجار عند المرور فوق سطوحهم. لكن هناك توجساً وتيهاً. الحرب حتى لو دامت ليوم واحد فهي ظالمة قاسية، طاحونة جروش، زائدة عن اللزوم وغير مبررة، فكيف إذا كانت على شاكلة هذه الحرب التي تبدو بلا افق، جارشة الحي والجامد، الأخضر واليابس، الظاهر والباطن؟

موعدي المنتظر مع مستشار أمانة العاصمة كان صباح اليوم التالي في الساعة الثامنة صباحاً في قسم التصاميم في متنزه الزوراء. المبنى جديد وغريب، وهو الوحيد في هذا المتنزه - معسكر الوشاش سابقاً.

في اليوم التالي ذهبت متلهفاً متردداً وجلا، على الرغم من العلاقة القريبة بالمستشار رفعة الجادرجي[5]. كنت قد تركت دوائر الدولة غير مأسوف عليها، فأين أنا منها ومن روتينها، وأنا المتنعم بمحترفاتي المتوسطية في أثينا أو بيروت؟

وقف السكرتير قرب المدخل، بدا مستعداً وتحت الإنذار. تبين لاحقاً أنه ضابط أمن الدائرة. كل دائرة رسمية لها ضابطها وحاكمها وبعبعها. الدائرة كانت في حالة غير طبيعية من السكون المطبق على خلاف دوائر الدولة الأخرى، واتضح كل شيء بعد فترة قصيرة، فأمين عاصمة بغداد سمير عبد الوهاب الشيخلي[6] كان في جولته المعتادة للقسم وللمستشار، والمرافقون والمنافقون والمهرولون راحوا يستعرضون حرصهم على القيام بالواجبات غير المناطة بهم أصلا. نزل الموكب من الطابق الأول إلى بوابة المدخل، محل الانتظار. وجاء الإنقاذ من قبل المستشار الذي استقبلني بطريقته المعهودة والمتوقعة دائماً، خاصة بعد سنوات طويلة من عدم اللقاء: "ها معاذ" والذال مخففة قد لا تسمع، تحية "حارة" متجمدة تحت الصفر. الأمين الذي أعرفه



بالاسم فقط، لم يتصور أن "الجندلة" الواقف أمامه هو العاصي المطلوب. حيّاني بأحسن من تحية رفعة، لكن باللغة الانكليزية. تغير سلوكه عندما أُخبر بأن هذا الملتحي، الصحيح البنية، هو فلان، وأتينا به من بيروت على الرغم من أنفه.

كان هذا حقيقيا فقد كنت مرغماً بالعودة، ليس لعدم الرغبة في العمل في بغداد المفضلة، الـ "يوتوبيا"، وإنما لأن مكتب بيروت كان ينفذ مشاريع معمارية مختلفة متميزة، تمتد من الخرطوم الشقيق الأكبر وحتى الكويت الشقيقة الصغرى. والحال كنت خائفا من الإقامة الإجبارية ومنع السفر الروتيني في البلد الأُم، وقد فرض فعلا وطبق بعد سنة من العودة. كنت وجلا من أن تتحول مدينتي الأم الفاضلة الى باطلة، "ديستوبيا"، فالرجوع كان على أثر رسالة شفهية وصلت من المستشار تقول: "سيكون من الصعب والخطر العودة لاحقاً، ولفترة طويلة من الزمن عند عدم تلبية هذه الدعوة."

قبلها كان المكتب قد دُعي للاشتراك بمسابقة معمارية مغلقة بين مكاتب عراقية مختارة، وهي إيجاد الحلول والأفكار المعمارية لشارع في مركز بغداد الكرخ، بمنهاج عمل ومتطلبات معينة عريضة، أملاها التصميم الأساسي لمدينة بغداد المعمول به منذ النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي، والمجهز من قبل مؤسسة "بول سيرفس" البولونية. لم تحز هذه الدعوة اهتمامي، لاعتقادي أن العمل في بغداد ما زال مبكراً، فالقوانين والحقوق غير سليمة ولا إنسانية وغير متمدنة، وحقوق الإنسان ما زالت غير محترمة. أسباب هجرتي الأولى ما زالت قائمة، فضلا عن أن منهاج العمل للمسابقة لا يوازي التوقعات لمدينة ذات منزلة خاصة في ذاكرتي وقلبي. المطلوب بناء عمارات متفرقة للسكن بكثافة تليق بمركز مدينة بغداد وحسب



متطلبات التصميم الأساسي لمدينة بغداد. المشروع هو امتداد لمشروع تقوم أمانة العاصمة بتشييده من قبل قسم التصميم لتسعة أبنية شاهقة، مكونة من 15 طابقاً وفي الشارع نفسه.

لم تحظ المسابقة بأي اهتمام من قبل شباب المكتب الذين اضطلعوا بالمهمة، والتصميم المعد كان كارثة. المكتب لم يفز بالمشروع، بل حصل فيصل على عتاب وعشرة آلاف دينار مكافأة أسوة بجميع المشاركين. بسبب هذا الإهمال، كتب فيصل بدوره رسالة مصاغة بحذر يعاتبني فيها عتاباً مؤثراً مبطناً بخيبة أمل. لو لم تكن ثقتي بفيصل عالية، واثقاً من دوافعه، لكنت أحسست بنوع من الملامة. لحسن الحظ، وربما لسوئه، أُعيدت مسابقة الشارع نفسه لكن لجزء آخر متمم. عندها وعلى مضض، أخذت الموضوع بجدية تامة، على الرغم من اعتراضي وعدم الموافقة عليه من الناحية المهنية وعلى منهاج العمل وموقعه، فضلا عن الإقامة شبه الدائمة في بغداد التي شرحت موقعي منها سابقاً. عليّ أن أضيف إلى اعتراضاتي ما يأتي : صعوبة الإنتاج، نقص في مزاج الإبداع المعماري. نحن حديثي الانتقال من أثينا وبصدد إعادة تشغيل المكتب الرئيس ثانية في بيروت، وحابلنا مختلط بنابلنا، كما كان ضغط المكاتب الفرعية في الخليج قوياً، وهي تطالب بالإسناد والإسراع في تقديم المعونة. المهم وعلى الرغم من كل هذه المثبطات، اكتسب المشروع الأولوية في البرمجة الكلية، وجُند جميع من له القابلية على المساعدة، وصولا إلى بكر وحيدي وهو ما زال في المرحلة الثانوية من الدراسة. توجّه فيصل ومعه المعطيات الجديدة إلى بيروت عن طريق دولة الكويت، الجارة الهاشة والباشة سعادةً لاندلاع حرب الجوار، وتوجه آشود، من مهندسي مكتب بغداد عن طريق عمان. عمل الفريق على الاستجابة للمتطلبات بقدر ما يتعلق الأمر بتقليل الضرر. تم تحضير مشروع

لا يمكن وصفه بالجيد، بل هو بدرجة مقبول، واقعي مع لمسات بغدادية. لقد تخلَصت من تأنيب الضمير بغض النظر عن النتيجة النهائية.

كان المنهاج غير مقنع بالكامل، وبدأت أتحايل وأناور عليه تخطيطياً وبصياغة مقاربة، مع فيصل والزميل والصديق مخطط المدن عبد الله محمد صبار. جزء من المناورة هو سخريتنا التي تجسدت بشعار يتناغم مع موسيق الجاز الخلفية السائدة في المكتب في تلك الايام: بغداد صارت نيويورك صلَوا على النبي! على أيةِ حال تم تحضير المشروع بمستوى وبسرعة قياسية، وتمكنا من ذلك لتوفر العدة والنوعية في بيروت، مع توفر الاندفاع نظراً للإحساس الفريد نحو المنطقة والمدينة، ولاسيما المنطقة، فهي سكن الأُم حتى زواجها وانتقالها إلى الصوب الثاني الرصافة. الكرخ كانت سكن الخال حتى وفاته، موقع أحد الآبار الأولى والمناهل الثرة.

كانت المسابقة تمريناً من أجل تحضير الحلول والأفكار المعمارية، ووفرت فرصة فريدة وخبرة مفيدة. التصميم الجديد أخذ بالحسبان أقصى الممكن، والنتائج كانت جيدة عرفناها بطريقة غير رسمية. لقد تلصص فيصل وطلب أن نتهيأ. البشارة لم تدغدغ الحواس، فلا انفعال أو تأثر، لا في السلب ولا في الإيجاب، فهذا واحد من عشرات المشاريع التي فزنا بها أو وصلت إلى حد التكليف ولم نسمع عنها من أصحابها ثانية، ولأسباب مختلفة، منها من لم يعجبهم لون عيوننا غير الخليجية الصقرية الحادة، أو لاختلاف فيما بينهم على توزيع عمولة الكفيل، والقبول بها كان حسب إعتقادي "خطأً" لا يغتفر، والعذر غير المقبول هو الجهل التام. إن هذا النوع من التصرف السائد اليوم، كان غير معروف في بغداد على المستوى الهندسي بعد.



لم أكن متحمساً لعلمي بمقدار التعقيد والمناورات غير المهنية التي تصاحب مشروع كهذا، مضافاً إليه الرغبة في الابتعاد عن مركز القوى المسيطرة، الجشعة والحاسدة.

ما زاد في التوجس والتشوش المهني هو قيام الحرب بإيقاعها الصاخب الشديد، وتسلم رفعة الجادرجي موقعاً مهما جداً في أمانة العاصمة، هو مستشار لأمين بغداد. العمارة - الممارسة جمعتنا ثانية رفعة وأنا بعد ست سنوات من التباعد والانفصال المهني. كانت سنوات مليئة بالأحداث المهنية وغير المهنية، أهمها تغير القيادة السياسية التي أخذت منحى حاد وقاس متمثلا بتغير رأس السلطة على الرغم من عدم تغير النظام والكثير من رموزه. رفعة نفسه ابتعد عن الممارسة الفعلية للعمارة[7]، لأسباب عدة آخرها تغييبه في زنزانات القسوة. فيما يخصني شخصياً، كان الابتعاد ملائماً ومريحاً، تمتعت به بتحرر مهني لا سلطة فيها لأحد على ممارستي المهنية، ولا حتى من صاحب العمل.

أول مقابلة لي كانت في غرفة المستشار: غرفة بالية مهلهلة، هي بالتأكيد أحسن من الغرف الأخرى التي تنقل فيها في السنتين الأخيرتين. من هذه الغرفة ستدار مشاريع جبارة ويكلف المستشار معماريين مشهورين.

أخبرني رفعة بأنه مكلف من أعلى المراجع بتجميل وتنظيم بغداد خلال السنتين القادمتين لاستقبال زعماء الدول غير المنحازة (ايجابياً) في مؤتمر قمتهم المزمع عقده في بغداد. شارع حيفا أحد هذه المشاريع الواجب إعمارها، كونه في قلب العاصمة، وقد ترك هو وشارع الجمهورية على حالهما، والإثنان يعدّان مثالا على إهمال الدور التراثية، ومثالا حياً على سلوك السياسيين اللامبالي إزاء مدنهم، وهذا المؤتمر السياسي ذكّرهم بإعادة النظر بإهمالهم الطويل.



المستشار بدوره أعلم أمين العاصمة بعد تحريره من أقبية القسوة، بأن صاحب المشروع الفائز بالمسابقة هذه، وهو على معرفة قريبة جداً به، قد يكون من القلة الذين يعتمد عليهم في تسليم ما يعدوا بتسليمه، إذا ما وعدوا. من خلال هذه الوشاية الحميدة/ المؤذية، أصروا على أن أعود إلى بغداد في الحال من دون تأخير أو مماطلة، وعند التلكؤ فعلى بغداد والأهل والذكريات السلام. أخبرني المستشار بهذه التفاصيل، فزاد الوجل، ليس لتعقد المشروع وإنما لتعقد نمط الحياة والسلوك في بغداد ودوائر سلطتها الرسمية. الهروب والهجرة كانت بسببها، والحذر كان منها، ومن "الأخ الكبير"، وعيونه الساهرة على كل شيء ما عدا أمن البلد والمواطن المظلوم. أية مسؤولية هذه لا تقبل التهاون ولا أي خطأ حتى لو كان بسيطاً جداً؟ زميل مهندس أعزّه جلب انتباهي لهذه الحقيقة وعاتبني لعودتي وتورطي، ثم ذكّرني بمهندس زميل مشترك أعدم لارتكابه خطأً عند تشييد أحد مرافق المطار الجديد.

على الرغم من الشك، إلاّ أنني كنت أفكر، في نوع من الخلاص، بنظافة العمل بأوجهه كافة، والجودة، وعدم التبذير، ونظافة الضمير والنزاهة، وكان هذا ديدني بالطبع. كنت أعي أن كابوس الأخ الأكبر الذي سيراقبنا سيكون ملازماً لنا في جميع مراحل العمل، وتوقعت مجموعة المهرولين من الزملاء، الوشاة وكتّاب التقارير. من هنا تعهدت مع نفسي على عدم المساومة على القيم المهنية.

أطلعني المستشار على المشاريع الفائزة الأُخرى والتي تبين لاحقاً أن فوزها لم يأت لما تحويه من أفكار أو معايير أساسية ملائمة للشارع، وإنما لمقبولية التصاميم معمارياً بوجه عام، لذا أعلمته بتحفظاتنا عليها جميعا وبضمنها مشروعنا الفائز. أخبرته كذلك أن من الواجب إعداد



الخطوط العريضة لإجراء التعديلات الجذرية عليها، والأخذ بالحسبان الجيد من المعايير والانتقادات التي ظهرت من خلال عملية اختيار الفائزين. من هنا طلب مني أن أجتمع بالفائزين الآخرين لتوحيد وتعميم المعايير الفائزة، ومن ثم عرض التصورات في كيفية أسلبة العمل والمقترحات المستجدة في اجتماع تال.

درست الموضوع والتصاميم وزرت المكتب عصراً، وللمرة الأولى بعد سنين من البعد تعرفت على وجوه جديدة. هاجر الكثير من الكادر الأصلي، فمنهم من التحق بمكاتب المناطق، ومنهم من التحق بي في بيروت وأثينا في إنتظار هجرتهم الأبدية عبر الأطلنطي. تداولت مع فيصل معرفة مقدار ما يسعنا تقديمه وبمستوى جيد، مع الإستعانة بكل الخبرات المتوفرة في المكاتب الملحقة إن كانت في مركزنا ببيروت أو في الجزيرة والخليج.

لم نكن على بينة من تفاصيل حجم العمل الفعلي المطلوب تقديمه بصيغته الجديدة، وكان الشعور بوجه عام متقلباً. كانت هناك منطقة رمادية غير واضحة وغير مقبولة، وثمة سؤال راح يلحّ عند تحضير التصاميم المعمارية في بيروت: من له الحق في اتخاذ قرارات تخطيطية بأهمية أن تغيّر وجه المدينة؟ إن التصميم الأساسي لمدينة بغداد، ويعود تاريخه إلى منتصف السبعينيات، تطرّق إلى المعايير بعمومية، ومن دون تفاصيل تبرمج الإعمار والتطوير.

التصميم الأساسي المعتمد غير استراتيجي، ويشتمل على تنطيق وتعيين الاستعمالات المختلفة في الكرخ والكثافات السكنية، وحدود مواصلات وحركة مرور بأنماط مختلفة، من دون تعيين تفاصيل دقيقة. طمأنت نفسي بأن دوائر أمانة العاصمة لابد من أنها تحتفظ بتفاصيل أُخرى إضافية للنسق المعماري، بمقاييس ومعايير تلزم المصمم اتباعها

في اتخاذ القرارات التصميمية، لغرض التنسيق على مستوى المدينة ومركزها الكرخي أولا، وفي حالتنا على مستوى الشارع بجانبيه وبطول 3.8 كيلومتراً.

التصميم الأساسي لمدينة بغداد

الطامة الكبرى أن التصميم الأساس لم يتطرق إلى ما سوف يسببه هذا الشرخ/الشارع في البنية والنسيج، ومصاحباته من تأثيرات غير معروفة وغير متوقعة على بنية الجيرة، والبنية الإقتصادية والإجتماعية. هذا التشابك من المجاهيل والمتغيرات، جعل التعقيد في الواجبات المهنية عملية تستهدف قبل كل شيء تلافي الأخطاء وتجنب تشويه البنية المدينية والإجتماعية.




مركز بغداد الغربي للتبقي من شارع حيفا قبل التطوير

في اليوم التالي قضيت مع فيصل ساعات على جهاز التلكس العطّال والبطّال، ولفترات متقطعة نظراً لانقطاع الكهرباء بين الحين والحين، ثم ساعات أخرى في التشاور مع الكوادر التي يمكن الاستعانة بها من ضمن كوادر المكتب أو من خارجه من الاستشاريين المتعاونين معنا.

وحسب الموعد في اليوم التالي، كانت غرفة المستشار تستقبل الزميل خالد الجنابي وكيل أمين العاصمة، ومدير المركز القومي للاستشارات الهندسية الزميل عبد الحسين الشيخ علي، ورئيس القسم المعماري في المركز المعمار القدير صديقي هنري زفوبودا المسؤول عن أحد التصاميم الفائزة. ثم حدث غير المتوقع، عندما أطلعنا المستشار على كتاب موقع ومختوم، يطلب فيه تقديم المقترحات في كيفية القيام بتنسيق وإدارة المشروع/الشارع بطوله وبكل أقسامه. توسعت المسؤولية إذن: تخطيط وعمارة وإدارة وبرمجة. طبعاً كان المفروغ منه هو تشييد الشارع في المدة المحددة والمعروفة للعراقيين أجمعين، زمن لا يقبل المناقشة، موعد منزّل ومقدس لا يقبل التلاعب به، وهو موعد انعقاد المؤتمر. كان هذا الطلب، الزمن ، شبه مستحيل. كيف لنا اتخاذ قرارات تصميمية وتخطيطية؟ كيف لنا اتخاذ قرارات استراتيجية تحتاج إلى أشهر من البحث وجمع المعلومات والتحليل والاستنتاج لغرض الوصول إلى نتائج كاملة وصحيحة ودقيقة؟ والحال كنّا ضمنياً نعرف أن الحصول على

المعلومات والاحصائيات شبه مستحيل في بلدنا المستور حديدياً. توجيه الأسئلة ممنوع منعاً باتاً. من يسأل يجلب الشك.

المعلومات الأُخرى متوفرة في خزائن الجهاز المركزي للاحصاء. يحافظ على الاحصائيات في قاصات محكمة لا تشبه إلا قاصات البنك المركزي العراقي، وحفاظاً على المصلحة العامة لا يتسلمها إلا من هو بدرجة وزير فما فوق، فكيف لمكتب أهلي القيام بهذه المهمة؟

كان للمكتب حينذاك مشاريع أُخرى مهمة جدا في أماكن ثانية متعاقد عليها ومسؤول عنها، مثل مبنى وزارة التخطيط في الكويت، ومبنى السفارة الكويتية في الخرطوم، والمركز الثقافي في صلالة-عُمان، وغيرها من الأبنية، وقسم منها بوشر العمل الفعلي بها وتنتظر، وهي تتطلب الكثير من الحضور والإشراف، أي تستدعي سفراً وتنقلا متواصلا. كل تلك المشاريع من السهل برمجتها والتوفيق ما بينها، أما إدارة وتنسيق وتنفيذ حيفا الكرخ فهو أمر يتجاوز واقعه الفعلي في أي لحظة من لحظات العمل، ما دام من يخطئ فيه إنما يمسّ أمن الدولة ويضع اقتصادها في خطر.

في كل الاحوال كانت قناعتنا هي أننا من دون معرفة بمنهاج واضح، ومعرفة بالنتائج المترتبة على تلك القرارات السريعة، سوف لن نطوّر كرخاً، ولن نعالج مشاكل قائمة في المنطقة، ولن نعوّض عن صوب أزيلت موروثاته نهائياً.. صوب تراثي قد يندر تشخيص مثيلا له في المنطقة وفي المدن العربية برمتها. إن اشتراكي في تشويه محلات الأجداد ستجعل عظامهم تتحرك في لحودهم بتربة الشيخ جنيد التي لا تبعد عن موقع المشروع إلاّ قليلا.

أُعلم المستشار بوجود خلل علمي ومهني، وهو عدم وجود تخطيط حضري جاهز مفصل ننتقي منه المقاييس والاستعمالات والأُطر التصميمية المعمارية، كالمواد ونوعية البناء، ومواقع وكيفية توفير البنية التحتية. الأدهى



والأصعب كيفية امتصاص هذا الماموث الشرخ المدعو شارع حيفا، الذي إذا لم يعامل بطريقة خلاقة فسيضخِّم الخلل في نسيج المحلات الأصيلة المعروفة والمتجانسة ونمط عيشها التاريخي.

كان المستشار أدرى من الجميع بصحة هذه الادعاءات، إلاّ أنه كان في موقع بخلفيات ومنهجيات أُخرى، وهي أن يحسّن بغداد قبل انعقاد مؤتمر عدم الإنحياز. ويبدو أن برنامجه كان جزءاً من وعد ضمني قطعه قبل إخراجه من تلك "الظلمة"!

على نحو ما، حشر الجميع في مواقعهم الرسمية وغير الرسمية في زاوية ضيقة جداً. المهنيون من أمثالنا، وغير المهنيين، الاداريون، الأجراء، وكم من العاملين بات عليهم أن يقرروا قدراً ما من انتمائهم للمدينة والمنطقة. كان يكفينا تنفيذ الجزء أو أي قسم فاز بالمسابقة، على الرغم من عدم القناعة التامة به، وهو موقف فيه شيء من الجبن لكنه مأمون. بهذا الموقف وضعنا المسؤولية والكرة في ساحة الأمانة فقط.

هذا ما عرض بوضوح على المستشار خلال ذلك الإجتماع، واكتفى بصمت بدا كأنه تعبير عن درب شبه مغلق. كان المستشار قد سلَّم التكليف بسطور قليلة واضحة مركزة: إحراج محسوب ومقصود في عجالته، إلى أن طلب الفيلسوف الصديق هنري الأحمر (لقبه بالاتفاق مع مصطفى الجاف) من السيد المستشار وقتاً مستقطعاً. بدأنا الإثنان في رحلة تمشي في ممرات الدائرة، آملين أن يحل التمشي المشاكل الفلسفية العالقة، كما كان يفعل مشائيو الإغريق. ابتدأ الأحمر وهو سليط اللسان في بعض الأحيان، بهجوم لغوي صاعق، كوننا نحن المغتربين أفسدنا الآخرين، بعد أن أفسدتنا مشاريع الخليج، وابتعدنا عن واقع ونمط حياتنا الأصيل. رحنا نفكر بطريقة نفطية، بعيدا عن جذورنا الشعبية. قال أيضا إن أمانة العاصمة ستنفذ ما عليها تنفيذه



سواء اعترضنا أو لم نعترض، صاغرة، مطيعة وليس في يدها حيلة. الأولوية للتنفيذ، لا بديل لغير التنفيذ، وستتكرر الأخطاء، وتزداد بمرور الزمن، بيد أن التشييد سيتم في جميع الأحوال. الكبير أعطى أوامره ومشى، ولا يوجد "زلمة" واحد قادر على عدم التأييد والتنفيذ، ناهيك عن الاعتراض، او اقتراح البديل. ما البديل؟ الآن يعني الإنتظار والتريث في التشييد لحين الاستكشاف والبحث، ومن ثم إعداد التصميم الحضري للمنطقة، ثم المباشرة بالتنفيذ، هذا يعني تأجيل مؤتمر عدم الإنحياز سنتين لحين الانتهاء من إعداد التصميم؟ كل ذلك لأن الاستشاري المعمار البطران يعتقد أنها الطريقة المثلى والوحيدة في تشييد الشارع. أصر هنري بأن هذا هو الجنون بعينه. لنتعقل، ونحاول تقليل التشويه، وتلافي القرارات الخاطئة، ومحاولة إيقافها إذا ما اتخذت. إذا كان بالإمكان تقديم هذه الخدمة المهنية، فهو نجاح كبير بحد ذاته، ونكون قد أنقذنا ما يمكن إنقاذه، ونكون بذلك قد تحاشينا إضافة تخريب آخر من نوع جديد، وفي النهاية تستفيد المنطقة والناس في الكرخ.

كنت ما أزال متمسكاً بالمبدأ: لماذا العجالة والضغط الخانق في حين أن المخطط الهيكلي الأساسي لمدينة بغداد قبع في الانتظار[8] بعد اعتماده قبل أكثر من ست سنوات خلت؟ لم أقتنع مهنياً في حينه، وما زاد من عدم القناعة أنني كنت أحاول مع زميلي عبد الله صبار تقديم المشورة بالاشتراك مع شركة إنكليزية لتصميم منطقة حولي في الكويت، وقبلها مع اليابانيين في مشروع آخر مشابه، وهو وضع موديل رقمي للمخطط التفصيلي العمراني لمنطقة الشرق في الكويت. كيف يمكن التصرف مهنياً بازدواجية: الكويت الشقيق النفطي الصغير يتبع أحدث الأسلبة، في حين يرتجل ابن الدار ويلفلف العمل في أهم بقعة من عاصمته بغداد الحاضرة؟ كان المستشار مقتنعاً بوجود تخريج يرضي تطلعات الجميع، المهني كما نرغب، والسياسي



والإداري كما يرغبون، من هنا طلب الاستمرار، والاكتفاء الآن بوضع المنهاج للتعديلات على المشاريع الفائزة الثلاثة، حسب مداخلات لجنة التحكيم، وتعميم المقاييس المعمارية للفكرة الفائزة على الآخرين المنتخبين، وطلب أن يطلع عليها قبل المباشرة، وترك المسألة/المشكلة له.

عصر ذلك اليوم وضعنا المقاييس المعمارية الأولية المطلوبة بكتيب لا يتجاوز الصفحات العشر، يبين نمط وأبعاد الممرات وأروقتها القوسية، محاكاة لشارع الرشيد وشارع غازي/الكفاح المعمدة الأروقة، خلافاً لشارع الملكة عالية/الجمهورية، المغطى بامتداد المبنى في الطابق الأول للتظليل، وما يسمى بلغة الزملاء في مصر وبعدهم في الخليج بالكابولي، ونحن بالعراق نسميه "الكانتليفر"، من لغة "الصاحب" الانكليزية. أظهر الكتيب المدلول الهندسي السائد للأبعاد وتناغمها، وهو المدلول الواجب التقيد به عند وضع التصاميم(البعد التصميمي الأصغر 90 سم)، وتم تعيين ارتفاعات الطوابق، ونوعية المواد، واستبعد اضطرارياً الطابوق المحلي المفضل عندنا لندرته[9]، فضلا عن تحديد مسؤولية مواقع الأجزاء على المكاتب الثلاثة وحسب تقسيم المستشار. هذا الكتيب أصبح في ما بعد الدليل التصميمي، زودت به لاحقا المكاتب السبعة التي اشتركت في تصميم الأبنية والأجزاء المفردة، واستمر العمل به حتى بعد الانتهاء من التصميم الحضري الذي أنجز لاحقاً.

من أهم الأُطر الذي يحددها هذا الكتيب، رفع جميع الأبنية السكنية في الشارع على أعمدة أو أروقة واستغلال الفسح الأرضية كفسح لعب للأطفال، توقعاً لعدم توفر المساحات اللازمة خارج حدود المواقع. كان هذا التوقع في محله وظهرت ضرورته عند تحضير التصميم الحضري، ما ساعد على لم شمل المحلة الواحدة المشروخة بإستحداث الشارع. أكد هذا اللم توقيع موقع الأسواق المقترحة في مواقع محلات التسوق القديمة. وكم شعرت بالجذل

عندما اكتشفت لاحقاً عند نبش أرشيف الخرائط القديمة في أمانة العاصمة، مسحاً موقعياً لصوب الكرخ أجري من قبل مساحين في سنة 1880. كما وجدت أن حركة المرور والأزقة الأصلية في الصوب متعامدة على مجرى النهر، وجميعها تنتهي إلى الشاطئ، على خلاف اتجاه شارع حيفا الجديد الموازي لمجرى النهر. برفع جميع الأبنية، تبقى الحركة من تحت المباني ممكنة، من دون إعاقة الحركة واتجاهاتها الأصلية من الشاطئ وإليه. هذه الفرحة لم يعرفها الأساتذة أصحاب الشهادات العليا المعد السكن لهم، بسبب إصرارهم على التصرف كمستوطنين غرباء عن المنطقة. هذا التصرف أدى إلى المساومة على التوجيه التخطيطي الإجتماعي الإنسيابي المهم بوجه عام[10].

بات اللقاء اليومي في غرفة المستشار صباح كل يوم تقليداً، أشبه بالدوام المدرسي، والمتأخر عن الحضور لا يعاقب بل يُسأل عن السبب، ربما خوفاً من الهروب أو التخفي أو الإخفاء، والأسباب عديدة: أمين العاصمة نفسه مشروع إخفاء أو اختفاء!

زاد عدد الحضور حسب متطلبات العمل: وكيل الأمين، ورئيس المركز القومي للاستشارات، وهنري الأحمر. بهذا المعنى كانت عدد الأوراق والملفات التي توضع موضع نقاش تزداد ويجب مناقشتها وإيجاد الأجوبة المرضية لها. كان المستشار على علم بكثير منها، وبعضها كان يستدعي الاتصال بمجموعات مهاجرة. التحرش جاء من المستشار، إذ طلب تسليم جوازات سفرنا للتجديد واستحصال الموافقة على الخروج. عندها تدخل الأمين وطلب من "شناوة"، مرافقه وسائقه الذي ينافس أحد مصارعي الـ"سومو" اليابانية في ضخامته، الواقف على الدوام في باب الغرفة مستعداً، أن يتسلم ويتبع الأصول للحصول على جواز متعدد السفرات مفتوحة زمنياً. الأُصول المتبعة لا يعلم بها إلاَ الراسخون بالعلم. كان هذا أكثر من حلم جميل، فجزء من



الكابوس العراقي الذي يلازم الجميع منذ الستينيات هو استحالة الحصول على جواز سفر: انتهت إحدى المنغصات المؤرقة.

عودة للأفكار الرئيسية

لكن المنغصات المهنية مستمرة. فعند إعداد التصاميم الأولية في بيروت اختزنت بعض سلبيات منهاج المشروع في المواقع الرمادية من المخ، وظلت تدور وتوشوش في الرأس وتؤرق. فالأبنية التي شيدتها أمانة العاصمة هي بلوكات متوحشة، مستعارة من مدن المصادفة الجديدة "مدن الصدفة"، غير الحديثة. تلك المدن تأسست ونمت إما من جراء اكتشاف ثروة نفطية، وإما ثروة عن طريق الغزو، وإما من جراء هجرة جماعية كما في مدن عمّان بعد حرب الـ 1948، وليماسول في حرب 1974، وفي مدينتي الثورة والشعلة في بغداد (بسبب البحث عن التحضر والخدمات وفرص العمل). أكثر مدن الخليج نمت بسبب نعمة النفط. كانت أبنية أمانة العاصمة خوازيق غريبة في سماء بغداد، أبنية بارتفاعات شاهقة نسبياً 15 طابقاً، تسعة منها قبالة جامع الشيخ صندل، ومجاورة لمحلتي الفلاحات والفحامة ذات الأصالة في نمط التخطيط. هكذا إذن: نسيج جديد مديني غريب جداً عما يحيطها، هذا التشويه أضيف اليه التشويه الأُفقي الذي شمل سماء وأُفق بغداد، وسيماؤها كان في أُفقها المتميز. كانت المآذن والقباب المنحوتات الملونة الوحيدة في مدينة السلام. والحال هو النحت الفني المديني الوحيد المعلن عنه بصراحة واضحة في مدن "الإسلام والعرب" [11]. لا أصنام للتخليد تزال بعد كل تغيير واستلام سلطة، ولا أساطير مختلقة وحوادث تاريخية معاد صياغتها بالبرونز أو الرخام المستورد من كرارة-إيطاليا. في مدننا الحواضر لم يحدث أي تناقض بين فعل العمارة والعمل الفني كما حدث في الغرب حتى منتصف



القرن الماضي، إذ حدث التناغم عندما تطور النحت وابتعد عن التجسيد وتوجه نحو العمارة والتجريد.

كان أفق مدن المنطقة صافياً قبل السباق المحموم بين الرياض ودبي وكوالالومبور وشيكاغو ونيويورك وشنغهاي في الفوز بملامسة السحاب. الغلبة لحد الآن للمدينة الداينصور: البركة بـ "برج خليفة"!

في صوب الرصافة من بغداد اعتدنا التشويه المديني، بعد تشييد بناية الدفتردار الملامسة لشاطئ دجلة، وبناية غرفة تجارة بغداد، والبريد المركزي، ومصرف الرافدين الزجاجي الذي تناثر زجاجه في سماء بغداد بعد إصابته بصاروخ طائش من الجار. تلك النماذج كانت جزراً من الأبراج التي توصف بالحديثة حسب التصنيف المعماري البسيط، يضاف إليها أبراج المياه المرفوعة والتي كانت منسية في الفهرسة المعمارية قبل اكتشافها من قبل مؤسسة الأغا خان في الكويت والسعودية، وعمل منها إضافات معمارية وكرّم مهندسوها بجوائز مالية ثمينة لحسن الأداء والتشويه.

أبراج المياه العراقية أصبحت مشكلة عويصة لا يمكن التخلص منها، بعدما تحول خزن ماء الشرب منها الى أحواض أرضية لأغراض استراتيجية، كما هو حاصل الآن في الخزان الجاثم في كمب الأرمن قرب ساحة الطيران الذي يبدو إضافة قبيحة تعارض تموقع نصب الحرية في ساحة التحرير. أما الشواهق الأُخرى، أي الأبراج الحديدية الأُخرى فهي من المحرمات، لأنها تعود لمجموعات رسمية متعددة، والمستعدة لكسر رقاب من يعتدي على كرامة البلد وخاصة من أبنائه. أبراج عديدة: برج للمخابرات، وآخر للاستخبارات، وآخر للأمن العام، وآخر للحماية الخاصة. كل له برجه العاجي الذي يعتقد أنه لا يمس. أحد هذه الأبراج في متنزه الزوراء الذي ألبس عمامة مشابهة لعمامة أبي جعفر المنصور، ووظف كمطعم دوّار- دارَ ولفَ لأيام معددودة وداخ



وانسَطل، ولم يتمكنوا من إدامته. هذه الأبراج لا تشوه بيئة المدينة فحسب بل سمعتها. ما العمل؟ في الرصافة جرى التعايش معها، تماما مثلما تعلم البغدادي التعايش مع كثير من منغصات الحياة والذوق السمج. في الكرخ، ونحن الآن بصدد دراسته، كان في صلب القرارات المصيرية أن أبنيتها الحديثة احترمت النسيج حتى نهاية الستينيات.





ابراج للمياه في الكويت والسعودية وللمانيا

فالمتحف الوطني، ومحطة القطارالعالمية، والقصرالجمهوري، والمجلس الوطني، والسفارة الأميركية القديمة[12]، قدمت حلولا عمرانية فذة جرى امتصاصها بكفاءة وجمالية داخل النسيج المتميز. كنت أفكر: لنحافظ على الكرخ ونسيجها المديني، وننسى ونتغاضى عن التشويه الذي أحدثته بناية "جيو بونتي"، وزارة التخطيط، وفندق منصور ميليا المتعددة الطوابق. لقد عدّ "باك منستر فولر"[13] بناية وزارة التخطيط جريمة بحق نهر دجلة من ناحية توقيعها متعامدة مع النهر وملاصقة له، وذلك في محاضرة ألقاها في السفارة الأميركية في منتصف الستينيات. ما زال هناك متسع من الوقت لإيقاف التشويه. لنقل إن الشامخات النواطح التسع أحسن بكثير

من ثمانين بعبعاً شامخاً على امتداد الشارع كله، فيما لو نفذ شارع حيفا حسب القرار المتخذ.

عند تحضير المشروع لغرض المسابقة في بيروت تحدينا وخالفنا المنهاج، تجرأنا وأنزلنا الإرتفاعات قليلا، إلى تسعة وثمانية طوابق، وحتى بعد هذا الإجراء لم تكن هذه الارتفاعات مقبولة حسب أفكارنا.

لقد صمم الاستشاري أن يواصل التحدي، وهو الفائز بالمسابقة، وكان في موقع يؤهله تنفيذ ما يجول في البال، وهو إمكانية الإستمرار في تقليل الارتفاعات بإسلوب متغير دايني تتراوح بين ستة طوابق ونصف، وأربعة طوابق، بارتدادات وحركات تؤكد وتحاكي النسيج الديناميكي الخلاق السائد في سطوح دور صوب الكرخ، مع الحفاظ على الكثافة السكانية التي توفرها الأبراج الدخيلة، أي الكثافة ذاتها المقترحة في التصميم الأساسي لمدينة بغداد، وهي 650 شخصاً في الهكتار.

بما أن الجميع من أصحاب القرار مشارك في الاجتماع المصيري، وبحضور صاحب حق النقض، أمين العاصمة، ووكيل أمين العاصمة وهو مهندس وزميل، وكذلك رئيس المركز القومي للاستشارات، وبالطبع المحامي الأول، المستشار، وجدت أن الفرصة مؤاتية ومناسبة لطرح هذه الهواجس الملغمة المقلقة، والانتهاء منها ونحرها وتفجيرها "على قبلة" - كما نقولها بالعراقي، أي التخلص من هذه المنغصات أجمعها ولمرة واحدة وقبل الارتباط بالعقود المهنية المقيدة.

ردة فعل الأمين حول مقترح فقرة الارتفاعات الدخيلة وتدجينها كان فيه شيء من الليونة غير المتوقعة. ومن دون الإلتزام بشيء محدد أجلَ البت في الموضوع لحين الانتهاء من إجراء الرسوم المعدلة، واطلاعه عليها. الليونة من قبل أمين العاصمة كانت بسبب أهمية الفقرة الثانية، وهي الأهم: البرمجة



الزمنية. فلا دراسة تخطيط حضري ولا هم يحزنون، على الأبنية أن تكون جاهزة خلال 24 شهراً لا غير! لا بأس ولكن السؤال الملح، وبالأهمية ذاتها، هو طبيعة استعمالات بعض الأجزاء من الشارع المطلوب تشييده. استعمالات متصلة بالمراكز الأُخرى المقترحة في التصميم الأساسي، والمتجاورة مع المنطقة، والمعرّفة استعمالاتها. في تلك المنطقة كان هناك مقترح إنشاء مركز حكومي في جنوب الموقع، ومركز مدني يتقاطع في وسط الموقع عبر جسر الشهداء.. كيف نصمم ونشيد من دون معرفة المستعمل المستغل منها؟

بدأ جدل مهني لا يخلو من عناد في محاولة إيجاد حلول تقلل التبذير والخطأ، لينتهي الأمر إلى ما يأتي: الأولوية للتنفيذ، وحسب ما تمليه المصلحة العامة وسمعة البلد بين العالم غير المنحاز، وبالتوازي مع تنفيذ الأبنية المباشرة بتحضير أسلوب عملياتي مرن يأخذ بالحسبان إجراء دراسة التصميم الحضري للمنطقة خلال فترة التنفيذ، أي "الجزء الكرخي" من مركز المدينة، على أن تصمم الأجزاء الواقعة على تقاطع الشارع والمتداخلة مع استعمالات أُخرى معروفة ومقررة من قبل التصميم الأساسي لمركز مدينة بغداد. تصمم التقاطعات المتداخلة مع الشوارع الأخرى، بمرونة قصوى بحيث يمكن تدويرها وتنفيذها خلال المراحل المتقدمة من التشييد، استجابة للاستعمالات والاحتياجات التي ستكتشف من جراء الدراسة التفصيلية الميدانية للمنطقة، التي يجب أن تكتمل قبل الإنتهاء من تسليم الأبنية من قبل مقاولي الإنشاء، ليتسنى لهم تنفيذ المتطلبات وتوفير الإحتياجات المكتشفة.

بعد الانتهاء من تنفيذ القسم الجنوبي من الشارع تم تلبية إحتياجات هذه المكتشفات، إذ خصص للأبنية الحكومية مبنى لوزارة العدل، وآخر لوزارة الحكم المحلي، وحسب متطلبات التصميم الحضري.

تلك هي حلول وسطية مقبولة مهنياً، تمنع أي تشويه وتوقفه. المهم بالنسبة لنا دراسة المنطقة ومن ثم معرفة ما تتطلبه من خدمات واستعمالات مكملة ملحقة وخدمية: مدارس وعيادات وأسواق وما شابه، والتعرف على مستوى البنية التحتية ومدى صلاحيتها إن وجدت.

عند موافقة الجميع تم التكليف الرسمي برسالة كتبها المستشار متكونة من سطرين فقط، على الرغم من أن تحرير المادة جرى من قبل محرر مختص، وهو صحفي مشهورملحق بمكتب المستشار. لقد صيغ التكليف بلغة مباشرة يتكون من 25 كلمة، يتضمن القيام بتقديم خدمات مهنية لمشروع تطوير شارع حيفا بأكمله.

اكتشفنا لاحقاً، بعد وضع اللوجستية التنظيمية، أن المشروع يحتوي على ما يفوق الستمئة فعالية رئيسية مترابطة ومتشابكة، تعتمد الواحدة منها على الأُخرى. لابأس... فالمهنة وحاسوبها اللوجستي قادران على الحلحلة والتفكيك وتعيين مواعيد المباشرة والانتهاء من كل الفعاليات الواجب تنفيذها.

المحنة كانت في علاقة المشروع بالجانب الإنساني، أي بالبشر اللابدين في الكرخ، اللذين ينتظرون التهجير والتعويض بفارغ الصبر للخلاص من البنية المتدنية، والهياكل المهترئة، ومن ثم الهجرة إلى منطقة أقل كثافة بالسكان، ومجهزة بالخدمات.

تساؤل مشروع قبل البدء بالتفاصيل: من سيسكن هذا الشارع المركزي في المدينة مستقبلا؟ إنهم الكرخيون الجدد الذي تم تعيينهم. أساتذة الجامعة من حاملي الشهادات العليا، ومن لا يملك داراً. لا بأس عسى أن تكون هذه الشريحة الاجتماعية المتقدمة، المحفز الذي سوف ينقذ الجزء الأكبر من منطقة الكرخ ذات البنية الأصيلة اجتماعياً وتخطيطياً. إنهم في جميع الأحوال من صنف المحرومين، أصدقاء ومعارف وأقرباء وأهل، فالتعليم لا



يوفر لهم الدخل اللازم لامتلاك دور سكن خاصة بهم. هؤلاء إذن، مع سكنة الكرخ الحاليين، هم أصحاب الشأن، وأي قرار تخطيطي يجب أن يكون لصلحتهم، هم فوق مصلحة الجميع، حتى فوق مصلحة الأمانة، ومصلحة الأخت المتكبرة المتفرعنة: السلطة.

ودعوني أقول جهاراً إن اختيار الأمانة كان مثالياً وموفقاً، لحاجة الأكاديميين لإسكان جيد يليق بهم، في موقع مثالي يتوسط الجامعات الثلاث، المستنصرية والتكنولوجيا وجامعة بغداد، ومراكز البحث. موقع يوفر لهم سهولة الوصول إلى مواقع جامعاتهم. لقد اتخذ قرار أمانة العاصمة قبل شمولنا بالفريق المطوّر للمنطقة، وهذا القرار من بين الأسباب التي شجعتنا على الموافقة وتقديم ما يمكن تقديمه من خدمات مهنية.

قبل أن تكون الكرخ تراثاً عمرانياً جميلا وفريداً من طابوق وخشب مزخرفُ هي نمط معيشي فريد زاخر بالأصالة والعطاء بقيم متجذرة منذ مئات السنين. تلك القيم ألهمت الأديب الكبير عبد الرحمن منيف في ثلاثيته الموسومة ب"أرض السواد"، وألهمت يوسف العاني في مسرحيته "الشريعة". فمن نحن؟ كيف لنا ونحن في عجالة من أمرنا، أن نجازف بالتغيير؟ لقد بات هاجسنا المؤرق تلافي التشويه والتخريب إن لم نتمكن من الاضافة ولو قليلا.

في برلين ولاسيما في "بوتسدامر بلاتس"(14) التي مسحت بالأرض بواسطة طائرات قوات التحالف في الحرب العالمية الثانية، استغرق البحث والتحليل ما يزيد عن العشر سنوات من أجل اتخاذ القرارات الاستراتيجية الصحيحة من قبل المخططين، والتي هي ما بعد التخطيط العمراني والمنشآت. قرارات ينبغي أن تأخذ بالحسبان اتجاه التطوير ومواكبة العصر ومقوماته الحياتية، ومتطلبات سعادة إنسان منتج صالح وخلّاق. ميدان "بوتسدامر

بلاتس" الذي يطلق عليه وسط برلين الجديد، بعد إعادة بنائه خلال تسعينيات القرن الماضي، أصبح قبلة العالم المتمدن في تفرده بتوفير الأجواء الفنية والمعمارية والحياتية المتقدمة.

الكرخ في حالتنا أكثر تعقيداً لتفرد المدينة بخصوصياتها المتوارثة وهي شاخصة لم تمسها صواريخ البشر بعد. ماعدا شرخ شارع حيفا التي تسلمته معاول السلطة الجرّارة، كانت المنطقة متروكة لفترة طويلة من دون تطوير ومواكبة الزمن.



نسيج سكني سائد في الكرخ



نسيج سكني من اعالي الفرات



شارع موسى الكاظم في الكرخ



مجسم للشرخ في نسيج الكرخ للديني

في بداية السبعينيات، وفي تحضير مسابقة مجلس الأُمة الكويتي، تم الإستعانة بمهندس معماري إنكليزي مشهور اسمه "باري بوينر"، إختصاصه علم تحليلي إحصائي جديد ولغة معمارية جديدة، هو استعمال تحاليل لوجستية



معينة في إيجاد الحلول الفضلى للمشاكل التخطيطية واستعمالات الأحياز. لقد ساعدنا هذا المهندس وتعلمنا منه الكثير في حينه.

في أثينا لاحقا، وفي الاتجاه نفسه، أُنيط بنا تقديم الخدمات المهنية بالاشتراك مع مكتب ألماني في تحضير وثائق التنفيذ للورشة الرئيسية لوزارة الكهرباء في الكويت. المشروع بحجم كبير جداً حتم علينا الإستعانة بمكتب ألماني اختصاصه وضع البرمجة والآليات والأسلبة الفنية في حل المشاكل، وتقديم الخدمات بطريقة علمية ومأمونة. هذا العلم توارثته مكاتب البرمجة الألمانية عن أجدادهم العسكر البروسيين، وهم اختصاصيون في الإدارة والتخطيط اللوجستي. وقد تعلمنا من هاتين التجربتين أن الاستعانة باختصاصيي البرمجة حاجة متطلبة في تحضير المشاريع المعقدة، والسيطرة على الكلفة، والمساعدة في إدارة إنتاج وثائق التعهد وتوزيع المهمات لكل مشروع حسب متطلباته.

لقد كان المكتب الألماني "راينكيه كونسلت" الذي استعنا به في مشاريع الخليج المعقدة من أثينا هو نفسه الذي اتصلنا به لغرض المساعدة في البرمجة والسيطرة على الكلفة، ووضع الهيكل التنظيمي للقيام بتنفيذ المشروع على أتم وجه. المهم في المرحلة هذه، وقبل المباشرة بتقديم الخدمات، معرفة حجم العمل وتهيئة الكوادر والإختصاصات المهنية المختلفة، ومعرفة مدى الحاجة لها منذ اليوم الأول ولحين الإحتفال بانتهاء وتسليم المشروع وتصفية الحسابات النهائية.

الكرخ قد تحتاج من ينتمي إليها وتفضّله على غيره لغرض تقديم الخدمات الهندسية والتخطيطية الأكمل لها، وكنا نمتلك الانتماء والمعرفة، إلا أنها غير كافية من دون معرفة تفاصيل خصوصيتها علمياً.

الكرخ هي الجهة الغربية من بغداد، إذا اعتبرنا دجلتها محور المدينة الرئيس. والحال أن بغداد أخذت شكلها الحضري قبل اتساعها العشوائي من

انسياب دجلة وتصرفه الأهوج في بعض الأحيان. أيام الفيضان في الربيع عند ذوبان الثلوج في الأعالي، يغمر النهر أجزاءً كبيرة من بغداد، إلى أن أقيمت منظومات الخزن والسدود المحلية، وتدخل الجار التركي الحديث سليل بني عثمان، ليروض النهر والعراقيين وأشقائهم السوريين، بعد الاستيلاء على حصتهم من الماء. من يدري لعلهم لا يريدون أن يتكرر المثل العصمنلي/التركي: "بغداد غريق واسطنبول حريق." لقد أحبّوا بغداد موت إلى يومنا هذا، وكما يقول مثلهم الآخر في حب بغداد، ثاني مدن الإمبراطورية العثمانية: "بغداد كبي ديار أولماز وأنّا كبي يار اولماز" - أي لا توجد ديار كبغداد ولا يوجد حنان كحنان الأم. ومن الحب ما قتل!





الوالد بكامرته الاكفا برونتو في الثلاثينات فيضانات دجلة

تقع الكرخ في الجزء الجنوبي من بغداد المنصور المدورة، وهي أعلى مستوى من رصافة بغداد، والكثير من أهل الرصافة يلجؤون إلى الكرخ هرباً في أيام الفيضان. الجسور بينهما اليوم متعددة، بينما كان هناك جسر واحد أيام زمان ألهَمَ الشاعر البدوي ابن الجهم المتوفي في سنة 863م الذي تشذبت أخلاقه، وتهذّب في زمن المتوكل في بغداد الراقية، أي أنه "تبغدد"، وخَلّد النهر الخالد أصلا، وجسرها ومهاواته، برائعته التي تزيد على الخمسين بيتاً تغزلا ببغداد وما فيها من جمال، ومطلعها:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري



للكرخ - الصوب، خصوصية في لَكنة أهله البغدادية المحببة، في تصرفاتهم، وفي ملبسهم ومأكلهم. في المأكل تشتهر المنطقة بالطرشي: "حنانش" أشهر مُخلَّل في العراق، وباجة "ابن طوبان" معروفة للبغادة الذواقة. كما اشتهرت الشواكة، وهي أكبر محلة في المشروع، بالكباب الفريد المشهور باسم المحلة. كما أنها مشهورة بالسمك وصياديه المعروفين على مستوى العاصمة برمتها، وعلى رأسهم دعبول، لذا تتمركز فيها علاوي السمك، أي الأسواق المتخصصة في بيع أسماك النهر.

الكرخ بسبب ارتفاع مستواها، تواجه شواطئها الشرق، محمية من قساوة شمس غرب بغداد، الحارة في الصيف، ما حدى بأهل الكرخ باستعمال شاطئ دجلة بطريقة مغايرة عن تلك التي لإخوانهم أهل الرصافة. إرتباطهم بالنهر أقوى من ارتباط أهل الرصافة، ما عدا أهل الاعظمية ولو بدرجة أقل. لذا نرى تعدد الشرائع (جمع شِريعة) وهي المنافذ الى النهر، مورد الماء والمكان الصالح للنزول إلى النهر. فهناك شريعة باب السيف، وشريعة الشواكة والكريمات، والسويدي، وخضر الياس، والست نفيسة، والقُمرية، ومجموعها ١٤شريعة، في حين أن عدد الشرائع التي تقابلها على امتداد الشاطئ أقل، بالرغم من أن امتداد شاطئها يبلغ ٥ كليومترات. في الوقت التي تمثل هذه الشرائع محلات رسو الزوارق، ومنافذ للعبور الى الضفة الأخرى، وأسواقاً لبيع السمك النهري، فهي سواحل لمزاولة السباحة والرياضة على الشواطئ الرملية، بأنواعها المختلفة وأهمها المصارعة. أبطال العراق في السباحة هم كرخيون ومعاظمة. على شواطئ النهر الرملية المجاورة للنهر في الكرخ تصنع الزوارق البغدادية، "البلم" كما يسمى في بغداد، زوارق فريدة بتصميمها، خشبية بشكل إنسيابي جميل، صناعة رائجة إلى اليوم.



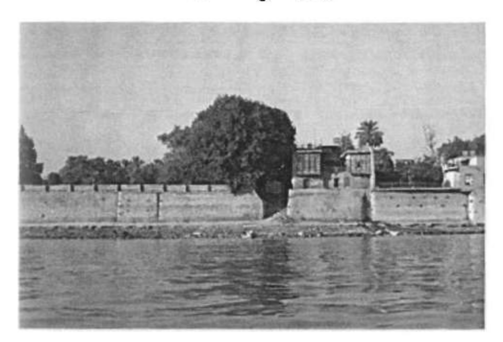
شاطيء دجلة في الشواكة



صناعة القوارب في التكارتة



الشبوط قرب راس الجسر



شاطيء السفارة البريطانية

بسبب وجود مقامات كثير من المتصوفة، كـ"الخضر"[15] (في خضر الياس) والشيخ معروف، وبالطبع إمام المتصوفة الحلاج، وخالع خرقته وقطبه الشيخ الجنيد في الشالجية، ومدرسة القمرية، وجامع براثا الذي يقال أن الخليفة الراشد الإمام علي بن أبي طالب زاره بعد قتاله للخوارج في النهروان، ومقام الشيخ عماد الدين صندل، محل ولادة الشاعر الكبير ابن الرومي، وسكن المنطقة شيخ البهائيين "الميرزا حسين المازندراني"، وابي الحسن علي بن محمد بن بشار الزاهد و تسمى المحلة باسمه، والكثير من علماء التصوف. تحتفل الكرخ ببعض الأعياد والمناسبات الدينية بطريقة تختلف عن احتفالات الرصافة، فيوم المحيا[16] "غاي فوكس" بغداد[17]، وليلة زكريا[18]، مواكب عاشوراء كذلك لها خصوصيتها في الكرخ، وبالأخص موكب آل النواب، عائلة الرسام الشاعر الكبير مظفر.



يرقد بجوار الشيخ جنيد معظم السلف من الأهل ومن ضمنهم الوالد والعمة العتيدة، ويرعاهم بقبته الآجرية المتواضعة العلامة محمود شكري الآلوسي أبو المعالي، المتوفي في عشرينيات القرن الماضي. وهي قبور تتبع النمط التراثي السائد في العراق، ذات القوس المدبب، والمرتبة بنسق باتجاه موحد، وتقع في الركن الشرقي من المقبرة الكبرى. الجميع في اصطفاف، حتى (دادي نادر) مربية جيل من العلماء، العراقية الأفريقية، ومُعينة أبو المعالي محمود أفندي، وشاهد قبرها يعلن عنها النادر الآلوسي، وهي نفسها التي تعرفت على تلامذة الإمام الآلوسي، ومنهم الرصافي، والعلامة محمد بهجة الأثري، و"لويس ماسينيون"[19]، و"مس غيرترود بيل"[20].

لم تكن معرفتي بالمنطقة علمية تحليلية، بل معرفة ناتجة عن الانتماء والتجذر ليس إلا. في ما بعد تعلمت أن أربط ملاحظاتي ومعارفي بالقراءات، وبمقاييس المهنة، مع إدراكي التام بسعة وعمق المخزون الواجب استكشافه، والرهبة في مواجهته. كانت رغبتي بالاستمتاع قوية فيما كنت أواجه الكرخ التي عرفتها مدركاً أكثر مما مضى عمق مشكلاتها في حاضر مرتبك.

في الأيام الأولى من التكليف، حصلت على الموافقة اللازمة لحمل عدّة التصوير. بدأ المسح الموقعي مشياً، تمشيطاً دقيقاً للتعرف على ما استجد خلال سنوات الغياب. لم يعكر هذه التجربة غير أزيز طائرات الجار، أزيز للاستعراض فقط، وكأن لاهم لطياري الامبراطورية الفارسية إلا أن يسجلوا الحضور مستغلين مجرى دجلة المسالم، لعدم وجود مقاومة جوية طوافة. المقاومة تركزت فوق الأبنية العالية، لذا تجنبها الطيار الإيراني، واستغل منخفض مجرى النهر للاستعراض وكسر حاجز الصوت المزعج، مع ازعاجات المقاومات المنتشرة فوق الجسور. المنغص الثاني والأكثر ازعاجاً هو تدخل البشر عند اكتشافهم لحامل عدة التصوير: كان هناك الطفل الذي يصرّ على

تصويره، ويردد ويلحّ "عمي صورة"، وعند إهمال طلبه يتحول الى منغص للمتع ومعيق للتصوير. وهناك البالغ "المشورب" الذي يحذر وينبه، متحدثاً باسم المصلحة العامة: "عمي ممنوع التصوير." وفي كثير من الأحيان يردد بالانكليزية "نو"، وهي الكلمة التي يتقنها العراقيون على مختلف مشاربهم. واقع الحال أن مجرى حياة العراقيين يدور حول كلمة الـ (نو) هذه، فهي تأكيد على الحرمان والتعنت والمنع، كالنع الكردية العنيدة. المشاكل تزداد عندما يكبر الجمع ويصطف ويستعد على شكل رهط عسكري، عندها يضطر العم العراقي/الأجنبي إلى تقمص شخصية العصبي والقاسي لغرض إخافة وتفريق المظاهرة. لا لوم على الأطفال. في سنوات عمرهم المعدودة لم يروا كاميرا ولم يتعرفوا يوماً على من يحملها، فهي على رأس قائمة الممنوعات، كالقرص اللاقط للفضائيات، وحتى راديوات الأف أم، والجوّال والأنترنيت في فترات لاحقة. تقتصر معرفة الأطفال المساكين بالتصوير عبر ذلك المصور الشمسي صاحب الكيس الأسود، وسطل الماء، الموجود قرب مديرية السفر والمحاكم وكاتب العدل. الأطفال معذورون، ولكن ماذا عن الكبار والشباب والكهول؟ بينهم وعدة التصوير عداوة متأصلة، تهيجهم وتغضبهم. منهم من يسأل عن سبب التصوير، هذا إذا كان على درجة مقبولة من التهذيب، ثم يحذر:"حجي ممنوع" أو أستاذ ممنوع! لكن خوفك من هذا المتبرع المتلهف على الحفاظ على أمن الوطن، وخاصة كون بلده في حالة حرب، فهو يسأل عن هوية صاحب الكاميرا وهدفه. في قبرص لم يحدث طوال خمسة وعشرين عاماً أن سألني أحدهم عن هويتي. والآن ها أنا أجدني أعود الى منابع الشك الشعبي، والاضطهاد الفكري، والتهديد المتواصل. الكابوس سيستمر وسوف لن يقتصر على التوثيق وجمع المعلومات فقط، ولكن سيواكبنا لثماني سنوات، وفي مفاصل العمل كله.



بعد أشهر اعتاد الصغار والكبار وتصالحوا معي، وفي بعض الأحايين مارسوا دور الدليل في المناطق المخفية الأصيلة ذات الصلة بالمشروع التي تستوجب الفهرسة، وبعضهم تبرع بعد معرفة الغرض من التوثيق الفوتوغرافي، ليقودني الى أماكن تستحق التصوير والتوثيق.

من يحب بغداد الخالدة، يعرف أن لها وجوهاً حضارية عدة. فهناك الفنون والأدب، والابداع في النمط المعيشي، لتفاجئك بعبث مقلق أو حلو. والحال أن أهلها عابثون بامتياز، لكن من دون مجون أو فحش. لقد كانت هذه المدينة نوّاسية بامتياز قبل أن تغتصب وتُخصى وتصاب بالجهل والتخلف والخوف من قبل تجار السياسة والدين. وعلى الرغم من مسحة الحزن الجميل الذي يغطيها، فهي لا تنام ليلا. أصوات البستات العراقية وقراءة المقام في الزوارق والمقاهي يتردد صداهما على الشاطئين، وفي الجزر الصيفية المؤقتة التي تظهر في الصيف وتختفي عند ارتفاع المناسيب في الشتاء والربيع. شواطيء دجلة لا تهجع، نهاراً للرياضة، وليلا للكيف، وبلغة الاغريق "كيفي". الكيف المغربي لم يكن معروفاً في العراق. المجون ساد في أوساط حديثي النعمة في العقود الأخيرة الذين هم من مستهلكي فنون الغجر ومجونهم الرخيص، فضلا عن الردح والهز والرعش الذي انتشر بين شباب اليوم المتخنث. كان الغجر يخيمون خارج المدينة في الخمسينيات، وعندما كنت في كلية الزراعة في أبي غريب كنا نزور مضاربهم خارج المناطق الحضرية، للفرجة فقط: هؤلاء جلبوا الى المدينة اللغة الماجنة الدخيلة.

بغداد قبل الحروب لا تنام ولا تهجع، هناك كثرة تتعبد وتزهد وتتصوف، ومجموع كبير قارئ ومتتبع، وهناك من يعبث بالتقاليد والأعراف.

في فجر أحد الأيام وعند عودتي إلى الدار في المنصور، بعد سهرة عبث، مررت بالشارع العتيد، فإذا بالديناصورات الآكلة لسنين غنية تحوّل

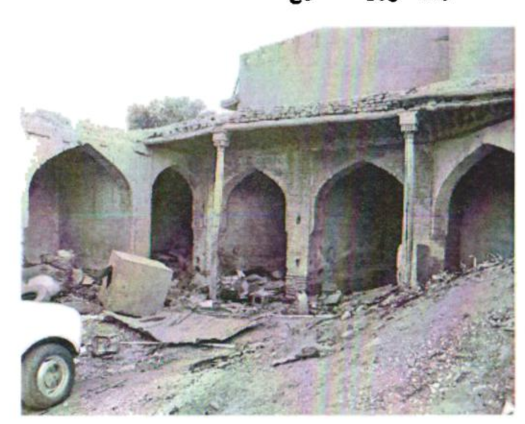
الأبنية الى أنقاض. الليل الدامس في الشواكة تحوّل إلى نهار من
الإضاءة. حركة دؤوبة للوريات القلابة تحمل الأنقاض الناتجة من التس
كيف لسكنة المنطقة النوم بين هذه الضوضاء وغبارها؟ العناصر المع
ذات القيمة الجمالية تنتقى بدقة وبأعين خبيرة. علمتُ لاحقاً أن الأنقاض
بمزايدة قبل الهدم، لذا انتعشت تجارة المواد الإنشائية المستعملة، ولا
الطابوق المحلي غير المتوفر للفرد العادي، فضلا عن مكونات البناء الت
التي وصلت إلى حد التصدير للكويت الشقيق.





هكذا ازيل موروث الكرخ





عناصر من تراث معماري للبيع والتصدير



الديناصورات تتحرك وتهدّ بإشراف مختصين في التهديم من أمانة بغداد، بقيادة مجيد طبانة. توقفت عندهم للاطلاع على ما ينتظرنا من معمعة ضروس. قمت بواجب السلام، وبالطريقة البغدادية المعتادة، بيد أن الجو امتلأ بالشك. وجوم بدأ يغطي على هدير صوت المكائن وأنين الأبنية عند سقوطها وتلاشيها. جاءني سؤال من قبل رئيس فريق العمل: "تفضل أستاذ!". لا بأس، فمن حقه معرفة هوية هذا المجنون الذي يستمتع بغبار الأنقاض وهديرالمكائن بعد الواحدة فجراً. عرّفت بشخصي، وأنا أدرك صعوبة التصديق في أيام الحروب، فكيف وأنا في ساعة متأخرة وبسيارة مؤجرة بلون غير محلي، أخضر معدني فسفوري استعملت من قبل مستأجرها السابق لنقل الأغنام، فكانت "تتضوع" برائحة تزكم الأنف.. سيارة لا تتلاءم وسائقها المهندس الاستشاري. رئيس فريق الهدم لم يكذب خبراً وراح على الفور يتكلم بجهاز يشبه جوّال اليوم.. كان جهاز اتصال داخلي خاص بموظفي أمانة العاصمة يتصل ببدالة مركزية تعمل على مدار الساعة للتواصل بين جميع موظفي الأمانة بكل دوائرها. الجميع كان تحت الإنذار بسبب ثورة الإعمار، قبل استقبال زعماء دول عدم الانحياز في اجتماعهم الموعود. بواسطة هذا الجهاز كان الأمين يسترق السمع على كل صغيرة وكبيرة. تكلم المسؤول مستغرباً وشاكياً ومخبراً بوجود من يدعي بأنه فلان، وهو الاستشاري المعين للمشروع. مرّت لحظات ثم جاء رد المسؤول: " نعم سيدي"، واستطرد قائلا لي: "الأمين يطلب منكم الانتظار لخمس دقائق وسيكون معنا، لديه ما يود إعلامكم به".

أي ورطة أدخلت نفسي بها بعد الساعة الواحدة فجراً؟ بلاوي مثل هذه لا تدخل ضمن العمل الاستشاري.

قضيت منتظراً لمدة أطول بكثير من الثلاثمئة ثانية الطويلة في حديث مصطنع مع فريق الهدم يخص علم الهدم والأسلوب المستعمل في شق

الشارع وكيفية تعويض أصحاب الدور المحظوظين حسب اعتقادهم.

طلّ علينا الأمين بسيارته المرسيدس السوداء، والغبار من أمامه ومن خلفه. تبادل السلام بشفافية وصميمية، وقام بتعريف استشاري الشارع إلى رهط العاملين، ثم طلب من سائقه مصارع السومو، شناوة، بجلب جهاز الاتصال من السيارة، واتصل بجميع مسؤولي الأمانة يعلمهم فيه بتعميم اتخذه في التو بتعيين استشاري لشارع حيفا والكرخ، ابتداءً من هذا اليوم، ويمنحه مسؤولية كلية ومطلقة في كل ما يتعلق بإنشاء وتنفيذ المشروع، وعليهم تلبية كل متطلباته، وإبداء كل المساعدة عند طلبه، وعدّ طلباته كأنها طلباته هو الأمين. لم أسمع سوى، نعم سيدي، وتأمر سيدي الأمين، وبعد أن أقفل الجهاز الجوال، التفت مستفسراً فيما إذا سمعت الرسالة أو بالأحرى استوعبتها؟ أعاد المضمون مع كلمة "بشرط"، واستطرد بما معناه العام أن الخطأ أو السهو غير مقبولين، والجريمة الكبرى هي تأخير تسليم العمل في وقته المتفق عليه: لكم كل الصلاحيات، بدون معوقات وبدون روتين، وعليكم يوم الحساب والكتاب!

لم أكن أعلم ما المخفي والمتوقع. الأمور تغيرت، تخويل كهذا في هذا الليل المغبر، ومن أمين عاصمة بغداد المرتدي زيه الخاكي والمسدس بخصره، بحراسة مصارع السومو بعينيه الصقراويتين الفاحصتين، يجعلني مستعداً لتنفيذ الأوامر بحذافيرها من دون تردد او تفكير. أجواء "كافكاوية" كهذه كفيلة بإفاقة النائم من غيبوبة. أين المفر؟ حسن، علينا الحذر، فأرض السلف هذه تبدو اليوم غير مرحبة بالخلف، ولاهي مدينة مرشحة لاحتواء الرقاد الأبدي إلى جوار الشيخ جنيد. لكن ما خفف الأمر، هو أن حجم المسؤولية أصبح جلياً وواضحاً. فعلى الرغم مما تضمنته هذه الواقعة من خطورة لما فيها من تهديد ووعيد مبطنين، بيد أنها أكدت عناصر الثقة المهنية لتنفيذ مشروع فريد ومميز بحجم وهدف قلّما تتاح الفرصة لمعماري القيام به. المثير أن هذا التخويل جاء



في وقت مبكر، لكن في وقته، أي قبل تحضير الأمور التعاقدية، وبسببه تمت صياغة البنود التعاقدية.

ابتعاداً عن العواطف الزائدة والتشجيع المعنوي غير المقصود، احتوى هذا التخويل على توضيح مقدار الجهد المهني المطلوب كمّاً ونوعاً وزمناً. هذا الجهد توضّح وأصبح من الواجب أخذه بالحسبان عند تحضير بنود العقد، وتضمينه بوضوح وبصراحة ما يحمي الفريق الاستشاري من تقصير دوائر الدولة وروتينها المعتاد ومشاغبة موظفيها ومعوقيها، وعيون مخبريها، ومخططات ذوي الأطماع المشفّرة المخفية في كثير من الأحيان.

حطّ في بغداد الألماني المنتظَر الذي سنستعين بما ورثه من أجداده الألمان في علم البرمجة والإدارة اللوجستية الهير "مانفرد موللر". كنا قد اشتغلنا معا بمشاريع عديدة وكان خير عون، علماً وتصرفاً. سفرته لم تكن شاقة كسفرتي العتيدة، إذ تطورت حركة النقل بين الجوار والعراق على نحو لا يصدق والعراق يخوض حربه "مدافعا عن البوابة الشرقية للوطن العربي". حط مانفرد في "أوتيل بغداد"، فالفنادق الفخمة ذات النجوم البراقة لم تكن مكتملة بعد. قبل مجيئه إلى بغداد كنا قد زودناه بكافة المعلومات بالتلكس، واسطة الاتصال المعتمدة حينئذ، بظروف وأولويات المشروع ومعطياته المعروفة وأهدافه المعلنة. لذا وصل بغداد محتاطاً ومجهزاً ومحملا بما يحتاجه المشروع من قرطاسية وأوراق وكليشهات، ومستعداً حتى بعدّة خاصة بالمستلزمات التي فرضتها الحرب، أتذكر منها فوانيس تشحن بالكهرباء وتعمل عند انقطاعه، وإضاءة تلبس في الرأس للكتابة والقراءة في الأيام الحالكة السواد، وحقيبة إسعافات أولية. وعلى ما يبدو كان قد اتصل بالدوائر الألمانية المعنية طالباً النصح فشجعوه على السفر مع التعليمات المفصلة. في ما بعد تبين أن هذه الدوائر الألمانية المعنية في موافقتها على السفر،

تكون قد أمنت وضمنت الشخص المسافر على جميع الأصعدة، لذا كانت لها سطوة على الاستشاريين الألمان في السماح لهم بالاشتغال والمشاركة أو عدمها. بيدهم الفيتو، وقليلا ما اضطلع شخص ألماني في عمل خارج بلاده من دون حصوله على الموافقة المسبقة هذه.

وُضِع "مانفرد" بالصورة وزوّد بحزمة تعليمات، منها عدم الخروج ليلا، وعدم إظهار آلة التصوير التي عادة لا تفارقه في ترحاله وعمله! زودناه بقائمة أرقام تلفونات الطوارئ، أسماء وعناوين من يستعين بهم إذا دعت الحاجة، اسم المشروع والدائرة والاستشاري المشارك. إذا كان صاحب الدار يتوجس لأنه في ورطة مستمرة مع زبانية النظام، فكيف بالغريب الضيف الفاقد اللسان والاتجاه. كل هذا جديد بالنسب لمانفرد، ففي الأماكن التي عملنا فيها معا لم ندخل في تفاصيل مثل هذه. لا بأس سيتعلم ويعتاد ويقاوم كما يقاوم أهل الدار.

معرفتي التاريخية بالمستشار تبيح لي القول إن له أفكاراً جاهزة، مترسخة، منها ما أوافقه عليها بحدود معقولة. إنه، على سبيل المثال، يعتقد أن بإمكانك الحكم على مقدرة شخص، وعلى كثير من أخلاقياته، من لباسه. القضية تخص الانطباع الخاص بمانفرد الألماني، فهو بعيد كل البعد عن الملبس الجيد ومواكبة المودة وعالم مصممي الأزياء ومنتوجهم، حذاءه "ملبوس" لأكثر من عشرين سنة، جدد كعبه للمرة العاشرة وما زال معتزاً به، ألماني محافظ جداً في كل شيء. وكنت على شبه اليقين بأن مانفرد سوف لن يعطي الإنطباع الأول الجيد، وسوف لا يعلن أو يفصح عما يحمله من كفاءة وقدرة فريدة في مجال عمله. في صباح اليوم التالي وبعد أن عرضنا على المستشار طريقة وأسلوب عمل مانفريد الحاضر بما يلبي متطلبات العمل وبالفترة الزمنية المحددة، وهو أُسلوب عمل لم يجرب في العراق (نظام المسار السريع) تغير المستشار. لم ير من مانفرد ملابسه !



كان نظام البرمجة الذي يعمل عليه الألماني فيه كثير من الاختصارات والتداخلات في المراحل والفعاليات التحضيرية، أي أنه يجمع عمل جميع الفرقاء في آن واحد دون تسلسل الواجبات، دون انتظار فريق لحين انتهاء الآخر من واجبه أو دوره. لقد أحصينا من خلال شبكة جهزناها مسبقا مجموعة من الفعاليات المهنية زادت عن الستمائة فعالية بحجوم مختلفة، ما يعني القيام بتنسيقات متعددة. والحقيقة أن ما أنقذنا من مشكلة عويصة حسّاسة مثلما أراحنا وأسعدنا هو استنكاف استشاريي الإدارة والتنسيق عن اختيار استشاريي الأعمال المختلفة وتركها وتعقيداتها للأمانة والمستشار. إنها فعالية قد تجلب القيل والقال والمسبات والافتراءات نحن في غنى عنها في بلاد الإنصات والاتهامات العشوائية. واجباتنا تجاه الاستشاريين المنتخبين تقتصر على تدقيق عقودهم الهندسية والواجبات وحسن القيام بتقديمها مع رفع التقارير الفنية الأسبوعية. كان المستشار قد اختار مجموعة من الاستشاريين بجميع الاختصاصات لتقديم الخدمات المكملة، كالهندسة الإنشائية والكهروميكانيكية، وحتى المعماريين بالنسبة للأجزاء الأُخرى الثمانية من الشارع.

كان علينا الالتزام المطلق والصارم بشبكة الفعاليات من الناحية الزمنية، ومن دون الإخلال بتسلسل الفعاليات الأساسية الحرجة. وتوجب على جميع الفرقاء التجاوب والتعاون بكثير من الدقة والكفاءة والسرعة، وخلافه نقوم نحن إستشاريو الإدارة والتنسيق التصرف، اتخاذ القرار اللازم والاستمرار من دون انتظار الطرف الآخر مهما كانت منزلته، لتلافي التأخير في تنفيذ الفعاليات المرتبطة بالقرار. هذا البند صيغ للتأكد من أن دوائر الدولة، وبضمنها أمانة العاصمة، عليها تجاوز الروتين العثماني والكولنيالي المتوطن. ولقد سرّع هذا البند تعاون الجميع كفريق واحد. كان لأمانة العاصمة، ومصلحة المجاري، وإسالة الماء والكهرباء إسبوعَي عمل في التنفيذ، والإجابة على أي استفسار،



أو عرض رأي أو مقترح أو اتخاذ قرار مطلوب اتخاذه، وبخلافه يُتخذ القرار اللازم من قبل الفريق من دون الانتظار. كل هذه الإحتياطات أتخذت بعد ذلك التعميم الهاتفي في تلك الليلة الغبراء من قبل امين العاصمة، وهي باتت فقرة تعاقدية الغرض منها حث موظفي الدولة على تحريك عضلاتهم المعتادة على الخدر.

توضح شبكة الفعاليات حجوم الأعمال وتسلسلها، مع تحديد الكوادر المطلوبة واختصاصاتها، والالتزام بها بما يريح البال ويوجه العمل على مختلف المسارات والمستويات، لكونها تكشف كل أوجه وخفايا المشروع مسبقاً، ومن ثم تنجينا من المفاجآت غير المتوقعة. بيد أنها من جهة أخرى كانت السبب في إطلاق الكوابيس المخيفة، والخيالات التي تطفو مع فجر كل يوم. إن العمل تحت ظل سيوف الزمن والسلطة، يعاظم المشاكل في الرأس، ويجعلنا نشم شياط احتراقاتنا، وما كان سهل التنفيذ سيحتاج إلى تأكيدات مسرفة. المخاوف تتجسم وتتضخم، والعبء النفسي الذاتي يطغى ويتجبر. ينقلب المشروع كله إلى وحش كاسر مخيف.

على الرغم من كل هذا ظل المردود المهني والمعنوي بوزنه هو الراجح والمشجع الشاحذ للهمم.

في السنة الأولى من العمل كان من المنطقي المباشرة فوراً بالجزء السادس الذي أنيطت تفاصيله المعمارية بنا، وهو الجزء الأكبر من المشروع ويضم 750 شقة سكنية، وسيكون المثال الذي يستدعي من المعماريين العمل في سياقه، الأمر الذي احتاج إلى جهود كبيرة في أعمال التنسيق.

في الشهر الأول من العمل في بغداد راحت أعمال المناطق الخليجية الأُخرى تتعثر، وكان تعثراً مقبولا. كانت مسؤوليتي تستدعي المواكبة الموقعية للعمل، لذا أهملت مشاريع المناطق الأُخرى، وبدأ شركاء الخارج الأصليين بالتذمر من وجودي المتواصل في الأُم النواسية. اعتقدوا أنني تركتهم من



دون توزيع عادل للوقت على المشاريع الأُخرى خارج العراق. اعتذرت منهم مواصلا إدارة المشاريع من المدينة الأم، أي التفرغ لمكتب بغداد، وبالتحديد لمشروع الشارع ومنطقة الكرخ، بيد أنني كنت التقيهم في سفراتي المتكررة إلى بيروت كجزء من عملي في المشروع، تلك السفرات التي أباحها لي جواز سفري المفتوح.

كان جواز السفر هذا قد وضع ضباط الجوازات على الحدود في حيرة، فوزراء فقط من يحمل جوازات مشابهة. بالرغم من أنني منحت قوة إضافية فقد واصلت مراجعة دائرة سفر المنصور بعد كل سفرة للتأكد من صلاحيته، وعلى الدوام كان الجواب ليس هناك ما يشير إلى تحديد مدته، بل وسمعت ضابطاً يقول لي: "عمي الله يخليك روح لا تورطنا!".

تعددت السفرات عبر الصحاري إلى عمان وبيروت والعودة عن طريق الكويت لزيارة المشاريع، منها مبنى وزارة التخطيط الكويتية وهو في مراحله الانشائية الأولى. العودة من الكويت كانت أسهل من إعادة تجربة "جي أم أل" والسفر عن طريق عمان. في مكتب الكويت كان هناك على الدوام شباب عراقي يرغب بزيارة أحبَّته في بغداد، أتطفل وأُشاركهم سياراتهم مبتغيا فرصة للتسوق وسد الحاجات اليومية غير المتوفرة بالسوق العراقية، التي تعتبر صحراء قاحلة مقارنة بأسواق الكويت.

في إحدى السفرات وبالتحديد في صفوان، وفي مركز الجوازات ذاته الذي لم يسمح لي بالدخول إلى موطني قبل سنوات، وأصر أحد ضباطه البررة على أن أتخلص من مظاهر التخنث وحلق اللحية الكثة، تكرر شؤم متجذر في المكان كما يبدو.. إنه نفس الموقع الموشوم بالحزن والخزي الإنساني الذي بان في مجزرة حرب الخليج الثانية، عند الانسحاب من الكويت الشقيق الصغير، الإنتقام البشع الذي ما زال يشع باليورانيوم المنضب، ليس

من السكراب المرمي في الصحراء فحسب وإنما من عظام وهياكل البشر.

فبعد التمعن في الجواز، أعلمني الضابط المسؤول فرحاً مبتهجاً مهللا، أنه أسقط صلاحية الجواز وذلك لمرور سنة على إصداره، وعليّ مراجعة مديرية السفر. هل أصدر التعليمات لنفسه، أم هناك أوامر وتعليمات مشفرة تسلمها؟

إذن طارت الموافقة، و"ابتدا وابتدا المشوار"، وأي مشوار هو الحصول على موافقة السفر ثانية!

عند الانتهاء من إحالة الجزء السادس على المقاولين، تم استلام موقع العمل، ووجب علينا تأسيس مكتب في موقع وسطي بين مواقع الأجزاء الأُخرى، يقوم بالتنسيق وإدارة المشروع ومشاركة المهندسين الإستشاريين الدائميين واستقبال الزوار وغيرهم. في إحدى زيارات أمين العاصمة ووكيله للموقع، وهما من الحزبيين والعالمين ببواطن الأُمور، لاحظت حركة غير اعتيادية في الشارع. تبادل أُولي أمر أمانة بغداد النظرات فيما بينهم، واختلوا للتداول. في لحظة وبسرعة فائقة عاد الشارع إلى وضعه الطبيعي، وفي الحال طلب مني الأمين، وهو يدمدم مع نفسه بسيل من السباب، وضع اسم أمانة العاصمة على المدخل: "للتخلص من هؤلاء أولاد الكذا". ولقد تخلصنا منهم بالفعل في ذلك اليوم بعد وضع قطعة من خشب كتب عليها :" أمانة عاصمة بغداد- إدارة وتنسيق شارع حيفا".

يبدو أن المراقبة والتعقب من قبل السلطة السليطة كان قد بوشر به منذ فترة، ولكني لم أُلاحظ أو أشك بوجود هذه الملاحقة والتي سوف لن تنتهي حتى بعد الهجرة الأخيرة في بداية الـ 1989. لكوني مؤمن بانتمائي لم يخطر على بالي أنني سوف أكون تحت المراقبة الدائمة. كيف أشك باستقامتي ووضوح مقاصدي وعدم قدرتي الكاملة على مخالفة القوانين والتعليمات المعمول بها؟ لم أكن مؤمناً بصحة القوانين لكن للحذر المتأصل بنا نحن جيل الخوف والحذرمن



الإهانة يجعل من صفاء سريرتنا منهجاً من مناهج التفكير الباطني المخيف.

عند رجوعي في ساعة متأخرة، وجدت العمة العتيدة في الانتظار، وليس من عادتها السهر، لتخبرني بوجوب مراجعة المديرية العامة للسفر والجنسية، بناءً على اتصال هاتفي يستدعيني إلى المديرية. وحسب الموعد في الساعة الثامنة والنصف كنت عند الشخص المعني في مديرية السفر: تحيته كانت كيّسة مع شيء من الجفاء المرسوم. ابتدأ الوسواس والشك، عند طلبه الجلوس والانتظار، ليواصل عمله المعتاد. تجاوزت العاشرة وأنا في الانتظار. استفسرت أكثر من مرة عن سبب وجودي/احتجازي، وهو يهدئ بي، ويضيّف شاياً بعد شاي، وسيكارة بعد أخرى، إلى أن طلّ شخصان، بوجهين عبسين وبملابس مدنية مهندمة كأنهما كانا على موعد عشاء أو وليمة رسمية. عرّفهم بي من دون أن يعرفهما لي. من هم؟ إلى اليوم لا أعرف.. هل هم من الأمن العامة، أو من المخابرات، أو الاستخبارات، أو الأمن الخاص؟ بالتأكيد لم يكونوا من دائرة السفر والجنسية، فقد طلب ضابط الجوازات أن أرافقهما، وسلّمهما مفتاح غرفة مجاورة. رافقتهما إلى الغرفة وكانت عادية لكي أعدها زنزانة أو غرفة حجز، لكن ما جلب الشك وجود فراش للنوم وكرسيين. قد تكون غرفة نوم الضابط الخفر. جلست على الفراش وجلسا قبالتي على الكرسيين. بعد تقديم السيكارة، توالت الأسئلة عن دور الأجانب في المشروع، وهل أنا واثق من ولاء جميع العاملين للمشروع؟ عندما أخذ السؤال هذا المنحى، شعرت بالاطمئنان وأن لا شيء ضدي. لعلمي بمدى حاجة المسؤولين لإنهاء المشروع لجأت إلى نوع من الهجوم، وبينت لهم، وبنوع من الثقة لا أعلم من أين جاءتني، أن جميع العاملين في المشروع هم من المهندسين المختصين، والمشروع يحتاج الى مهنيين بكفاءة عالية، كما لم يدخل مكتبي أو المشروع أي من الفنيين من دون معرفة أمين العاصمة، وإن كان هنالك أي شك في صفحة أعمال العاملين فالأولى

بهم، هم الدوائر الأمنية، التأكد ومعرفة ذلك، وهو جزء من واجباتهم. لم أتجرأ وأستفسر إن كان واجباتهم تقتصر على اضطهاد أبناء البلد من أمثالي؟

ما اكتشفت أنها كلمة السر والسحر هو قولي: ينص العقد المبرم مع أمانة العاصمة، إعلامهم مقدماً بكل الكوادر وأدوارهم المهنية في المشروع، لإصدار الوثائق اللازمة لاستيرادهم، وللحفاظ على المستوى المهني المرتجى، والتأكد من إستحقاقات المكتب من أُجور. وبكل جدية وحدّية أضفت أن علاقتي هي بأمانة العاصمة فقط، وبقدر تعلق الأمر بالمشروع فأنا مسؤول تجاهها فقط. قلت هذا بعد أن طلبوا مني عدم إعلام أي أحد بفحوى هذا الاجتماع، فرفضت وأعلمتهم بإني أستثني أمين العاصمة، لأني "غير مستعد للتفريط بالثقة الممنوحة لي من قِبله". كان دفاعاً وتهديداً مبطناً ولا أدري ما هو حقا.. بيد أنه حقق فعله، وعدت إلى المكتب سالماً. وجدت أمين العاصمة بانتظاري حيث أخبره المستشار بموعدي في الجوازات. ما أن دخلت حتى خرجت مجموعته المتنقلة معه، من الوحش المستكين السائق ومرافقي وموظفي الأمانة العائدين للمشروع. طلب معرفة فحوى المقابلة بالتفصيل، وبصمت ومن دون تعليق، استمَع وترك المكتب مدمدماً غير مرتاح.

على الرغم من هذه المنغصات غير المهنية، واصلنا العزيمة والاندفاع والجو المهني الرفيع. سنة مثمرة بسفر دائم، وسنين أُخرى من دون سفر. لقد تم تحضير جميع وثائق التعهد للأقسام السبعة، وأحيل قسم منها بعهدة المقاولين الذين تم انتخابهم من جميع أنحاء المعمورة: الكوريون من الشرق، ومن الغرب ألمان غربيون وبلجيك، ومن الدول الاشتراكية اليوغسلاف. الكل مع عدد كبير دخلوا بتصفية تشبه المسابقات وضعت على شكل أسئلة للحصول على معلومات تخص تاريخهم الإنشائي والمالي، حجم الكوادر واختصاصاتها، حجم المكائن والمعدات التي في عهدتهم وأعمارها، وعدد المشاريع المشابهة



التي اضطلعوا بتنفيذها. هذه المعلومات قُيمت رقمياً وبالتالي تم الحصول على ميزان يكيل عددياً، وبعدالة دون التفريط بالجودة. من هذا الميزان تم تأهيل شركات ذات سمعة عالمية جيدة من دون قيل وقال في اختيارهم. الميزان هو الحاكم العادل بين الجميع. من يريد التدقيق والفهم ليتفضل. هذا المنطلق ديدنا في جميع قرارات المشروع، في انتقاء الأحسن والأنظف، لذا لم نحصل إلا على الأفضل والأكفأ. لا مجال للشعوذة والوساطات. أنقذنا لِحانا، ورقابنا، وأغلقنا باب الاجتهاد في المرحلة هذه، وفي جميع المراحل اللاحقة ولحين تسليم المشروع.

التكنيك الذي اتُبع للحفاظ على مستوى التكلفة المعقولة هو عدم ترك الأمر للمقاولين المدعوين في تقرير وفرض الأسعار، وانتخاب مقاولين على مختلف المستويات ومن مختلف الأُصول للتنافس. كان الألماني يسعّر عاليا، على النقيَض من مثيله الكوري أو اليوغسلافي، والأسباب معروفة، وهي كلفة الأيادي العاملة. عند وضعهم في مجموعة واحدة للتنافس على جزء معين، يضطر الجميع إلى استكشاف طرق تأهلهم للتنافس، وبالفعل لجأ المقاولون الألمان إلى الصين الشعبية للإستعانة والتبادل، ومقايضة الأيدي العاملة بالمعدات الألمانية الجيدة الصنع، مع التدريب عليها. النتيجة أن الجميع خرجوا "مطنشين"، ألماني عنده يد عاملة رخيصة، وصيني يحصل على معدات جبارة جيدة الصنع سيتملكها لاحقاً، مع تعليم وتدريب ألماني لكوادر صينية جديدة الإنفتاح. أمانة العاصمة تحصل على الجودة المستهدفة بأفضل الأسعار ومن دون اللجوء إلى تكتيكات المتعهدين الذكية، في تقليص الكلفة على حساب الجودة أو البرمجة.

الاستشاري مرتاح، معتقداً أنه وضع المشروع على الطريق السوي وبإمكانه الاعتماد على المهندسين، وبالتالي قضاء فترات بين الحين والآخر في بيروت مع العائلة. إنها أحلام يقظة!

آه..لا سفر ولا جواز ولا هم يحزنون. المخابرات اكتشفت طريدة جديدة تحلل مصروفاتها وكلفة إدامة كادرها العبقري الكبير. تساءلوا كيف أفلت منا وغاب عنا منجماً مثل هذا؟ عليهم وضع الأمور في نصابها، والإطمئنان على عزة الوطن، والتأكد من سلامته، ثم الموافقة على السفر. السيد سمير الشيخلي، الأمين المسؤول حزبياً عن مدينة بغداد، عضو مؤسس في جهاز المخابرات، لم يتمكن من حل الطلسم. الأمر الوحيد الذي أعلمني به هو أن القضية معقدة، فأنا تجاوزت على القوانين عشرات المرات، وسجّلت بحقي مخالفات متعددة عرفت قسماً منها: متزوج بأجنبية، وضابط إحتياط، أي عسكري سابق، وهناك الخدمة الإلزامية للخريجين، كما ينبغي عليّ أخذ الموافقة للزواج بغير المؤمنة. العمل في الخارج من دون موافقة عدّ مخالفة، وبمكتب أجنبي يعني مخالفة أخرى. موظف سابق (بأجور يومية) أي لا يحق له العمل خارج الدوائر الرسمية، ما يعني مخالفة رابعة أو خامسة للقانون. المهندس لا يحق له الاشتغال حتى ولا عتالا في الشورجة أو في أغورا سوق أثينا، إلا في الدولة فقط، تلك هي المواطنة لاغير. والمخالفة الكبرى هي فتح حساب في مصرف أجنبي، يلحقه تساؤل: من أين لي المال والأطيان للتنعم؟ إنه اكتشاف غريب .. فمن أين لمهندس معماري يعمل في الخارج أن يعيش؟! كأن التغرب والهجرة والتنقل هو من أجل الترحال المجرد أو (لإخصاء الكلاب) كما يقول المثل العراقي؟ من الممنوعات الأُخرى التي ارتكبتها هي زيارتي حليف اليوم، مع حفظ الألقاب الرنانة الطنانة: الولايات المتحدة الأمريكية.

لا سفر إذن. لكن لا بأس. بدأت بمشروع لابد أن ينتهي، وعليَّ، بدلا من تنمية مشاعر الأسى والإحباط، أن أستكشف المنطقة وأثبت إنتمائي لها، والتعرف على احتياجات الناس فيها. هناك 45.000 نسمة حشروا في صوب واحد وبكثافة عالية جداً. دراسة المنطقة تحتاج الى مسح موقعي، وكلما توسع



المسح ليشتمل على قطاعات كبيرة، نحصل على نتائج دقيقة وواقعية. هذه العملية ليست سهلة ولاسيما أنها الوحيدة لمنطقة في بغداد بهذه التفاصيل. في عام 2009 أعلنت مناقصات لوضع تصميم حضري لمنطقة الكاظمية، أي بعد مرور ما يزيد عن العشرين سنة. في العراق عدت الدراسات والتصاميم نوعاً من التبذير. كانت الأولويات تتغير، فهناك ما هو أهم وأجدى، وما نكاد نعرفه حتى يتغير. العراقي مشغول بالحروب وبالمقاطعة المفروضة عليه، مشغول يكافح لتوفير حاجاته اليومية.

عدم الحصول على موافقة السفر، وإنشاء الشارع كانا يسيران حسب الجدول والأسلوب المخطط له. قلت: لنتعرف على حالة الكرخ والكرخيين بتمشيط المنطقة بصحبة مجيد طبانة مسؤول الهدم والتهجير وظيفياً، وهي مسؤولية أهلته لمعرفة خبايا المنطقة. كان يعرف البيوت المهترئة، وبيوت الدعارة، الحمامات الرجالية والنسائية، الصناعات الخفيفة والمتوسطة، المراكز الدينية والتكيات، المراكز المميزة في الكرخ. كان لمجيد مسحه الميداني الخاص، فقد كان يعرف المستور وما خلف الأبواب الموصدة الساترة للعيوب والتعفن. لقد أضفت إلى إستكشافاتي مواقف موجعة ومحرجة ومحبطة عن طريق مجيد.



مسح التراث مع مدير الهدم



شارع الاردن الشريان الرئيس

إن أعمال التطفل والاستكشاف والتصوير والتسجيل تحولت وبسرعة إلى استقصاء تفصيلي والتعرف المنتظم على الحالة العامة، ليس من أجل

وضع الخطوط العريضة للدراسة الموعودة عن المنطقة فقط، وإنما لمشاركة الناس مجرى حياتهم، ولاسيما بعد أن اتضح نمط العيش الرديء الذي تعيشه بعض العوائل، وتدني المستوى المعيشي لها.

إن نسبة كبيرة من سكنة الكرخ الحاليين هم من خارج المنطقة. فالمتمكنون مادياً من السكنة الأصليين تركوا المنطقة وغيروا نمط معيشتهم في مناطق أخرى من بغداد، في الأعظمية والكرادة والمنصور والجادرية والحارثية لاحقاً، حيث الكثافة السكانية معقولة، والبنية التحتية متوفرة، والخدمات سهلة. ما تبقى منهم لم يسعفه الزمن في توفير ما يساعده مادياً على الانتقال. اليوم نراهم ينتظرون، وبتلهف، للتعويض عن بيوتهم المهدومة، أو ما يدعى التطوير، وبالتالي الهرب بالتعويض وبعائلاتهم إلى مناطق جديدة، وأحياء تنمو كالفطريات شرقاً وغرباً، أحياء محايدة باهتة لا لون لها ولا خصوصية، بل هي مجرد مأوى ينقصها أبسط القيم الاجتماعية والجمالية المتوارثة. هذا النقصان ينسحب على نقصان في قيم الجيرة المتوارثة. والحال لقد فقدت الجيرة في هذه التجمعات كل قيمها المتوارثة، وظهرت نتائجها بعد الاحتلال الأميركي بوضوح، إذ تعامل الجار مع جاره كعدو فقام بقتله وتهجيره وتخوينه، ثم قام بالنهب والسلب والذبح على الهوية والأهواء.

النمط المعيشي الحالي يختلف اختلافاً جذرياً عن ذلك الذي عرفته في بيت أخوالي. كان حجم الأُسرة يتناسب مع الدار المشغول حجماً وأصالةً. الأُسر الكبيرة ساكنة الدور التي تعرف اليوم بالتراثية هي بحد ذاتها لم تعد موجودة، ليس لاختلاف حجمها فقط وانما لتغير نمط معيشتها، المختلف كليا عما كانت عليه. دُورهم التي صنفت وتفهرست على أنها تراثية أصبحت أشبه بأطلال المعلقات، من دون أثاف وأوتاد، ذكرى تراثية تشد وتلهم، كشاهد لعمارة ما زالت شاخصة.





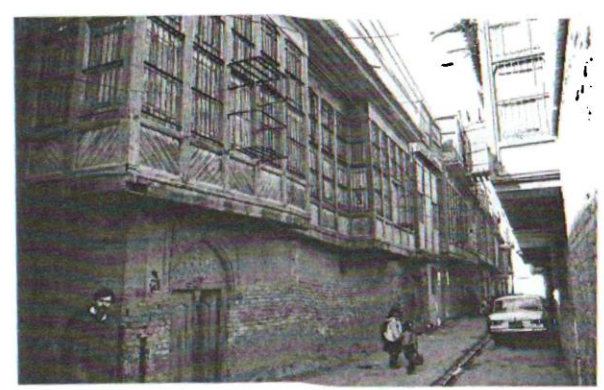

عمارة محلية في الكرخ بمستويين مختلفين من مستويات للمعيشة

بعد إجراء المسح الشامل أُشِّرت الدور بواسطة مؤشر ستنسل، صنعنا عدداً منه في إلمانيا من الحديد المغلون، كما عُلِّمت الدور بالدهان، وفُهرست حسب عمرها وقدمها وقيمتها الجمالية. كانت بأعداد كبيرة، متفردة تحتوي على مقدار من القيم الجمالية الأصيلة وفيها شيء من الإبداع في مفرداتها الإنشائية. مجموعها يؤلف النسيج المديني والذي يعتبر من أهم القيم الجمالية التي ينبغي الحفاظ عليها في مدننا الآيلة إلى الزوال. وللسهولة والإسراع في الفهرسة والتصنيف، ولتسهيل العمل على الكوادر المصنفة، أضفتُ شخصياً تعريفاً مباشراً يخاطب غير المختصين، وهو: "التراث المعماري هو مجموع مفردات ومكونات لا تمتلك الأيدي العاملة اليوم الخبرة أو الجلد أو التقنية لإعادة صياغتها وبكلفة معقولة". وفي سياق هذا التعريف ناشدت الحفاظ على التراث المعماري، لكن من دون تحويل هذه العملية إلى هوس تجريدي، أو تفكير متحفي. أين نمط المعيشة السائد حينذاك؟ أين الموديل الاقتصادي السائد حينذاك؟ لذلك وصفتها بالأطلال. لنعترف بأن الأحبة بما يمثلونه قد رحلوا، وعلينا تدوير ما تركوا من المنشآت الصماء، ومحاولة بث الحياة فيها بإعادة الروح لها وتدويرها واستعمالها لأغراض أُخرى غير تلك التي شيدت من أجلها. بناء ذكرى جديدة، ليس للأحبة فيها ناقة ولا جمل سوى الذكرى.

كنت أنتمي إلى المدرسة الداعية الى المحافظة على الموروث، وأنا من بيئة

ذات خصوصية. هذا ما تدربت عليه خلال الدراسة بوجه خاص على يد أساتذة مؤمنين بهذا الخطاب، أخص منهم بالذكر الخيّر البروفسور عبد الله كوران، أستاذي في الجامعة الذي يعتبر من أهم مريدي المعمار سنان[21]. في تجربة الكرخ تأكد لي أن إبقاء الموروث على ما هو عليه بمتحفية مجردة عملية غير معقولة وغير مقبولة، وبالتأكيد غير مجدية. إن الحفاظ عليه يجب أن تتحول الى عملية بث روح جديدة في نمطها، فعملية الإحياء لا تتم إلا بالتدوير. ليس من المعقول السكن في هذه الدور بالطريقة المعاصرة من دون إجراء تحويرات جوهرية عليها، او استعمالها لأغراض وبمتطلبات أُخرى مختلفة عن تلك التي صممت أصلا من أجلها. يستثنى من هذا الموروث ما هو مستغل منه حالياً بنفس النهج القديم الذي يستجيب للمتطلبات النفعية (الأبنية الدينية).





سكن نموذجي لاسر كبيرة الحجم

كان هذا رأيي الصريح.. اجراء التغيرات عند الصيانة بعد معرفة الاستعمالات الجديدة. المستشار كان على استعجال من أمره، وقرر أن الصيانة تتم في الحال، والاستعمال يتقرر لاحقاً، مبرراً الأمر بعدم معرفة كيفية التغيير وأسلوب الإنشاء ومواده، ولحاجة هذه الدور للصيانة لإنقاذها قبل اهترائها كلياً.



عند التدريب في "فرانكفورت على الماين" في أواخر الخمسينيات كنت أتساءل عند مروري كل فجر في طريقي للعمل، ما ستؤول اليه أبنية ذات تراث جبار، كبعض المصارف ودار للأوبرا التي دشنت في 1880. هذه التحف المعمارية لم تنج منها بعد قصفها من قبل حلفاء اليوم سوى الواجهة الكنز، وقد أُعيد تشييدها وافتتحت ثانية في سنة 1981، أي بعد مرور 100 عام على تشييدها، لكن بمخطط جديد، وبثلاث صالات عرض، الكبرى منها بسعة 2500 شخص، وبكل ما توصل الألمان في علم الأكوستك وتصميم القاعات الكبيرة. كانت منتهى الإعجاز في الإضاءة والصوت ومستلزمات تقنيات العرض. هذا المبدأ اتبع في أبنية كثيرة ولاسيما في مدن درسدن ولايبزغ وبرلين. هذا التدوير سمة العصر الحديث. في لندن جرى تدوير الأبنية والدور الكبيرة وحولت إلى غرف للإيجار "نزل" مع إضافة حمامات مشتركة لكل طابقين، ومن ثم حوفظ على النسيج والعمارة وقيمها الجمالية.





تدني للمستوى المعيشي في الدور التراثية

كانت بعض دور الكرخ المؤشرة والمفهرسة ذات حجم كبير، فهي مصممة لأسر كبيرة ممتدة يتجاوز عدد أفرادها عن العشرة أشخاص، مع ملحقات رجالية الاستعمال "كالديوخانة" وهي محل استقبال الضيوف من الرجال، أو ملحقات خدمية كبيت المطبخ، أو الاسطبل، كما في بيت خالي في دار الست نفيسة (بيت الوالدة/الخال استعمل في الست نفيسة كمدرسة،

ولمدة طويلة الى أن قص/أزيل في حملة تطوير الكرخ في منتص
الخمسينيات).

عدد أفراد العائلة المدينية/الحضرية في الكرخ الآن لا يزيد عن الخم
أفراد، لتردي المردود المعيشي للعائلة، ولقد تشاركت أكثر من عائلة في الس
بمنشأ واحد من تلك المنشآت المصنفة. ولقد حدث ما يشبه للعمال الوافدين ا
الخليج حيث يسكنون في غرف وشقق مشتركة، أو ما حدث للعمال الضي
في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية خلال فترة المعجزة الاقتصادية.
أكداس من البشر تتشارك بمرافق خدمية متهالكة، وهذا ما انتقده بشدة الم
العبقري الألماني "فاسبندر"[22] في مسرحيته، "القمامة المدينة الموت"، وا
عرضت في 1974 في الـ "تورم" في فرانكفورت ولأيام قليلة فقط، وم
لاتهامه باللا سامية. لقد فضح فاسبندر المستوى المعيشي لهؤلاء البشر الك
الذين عاشوا في عقارات مملوكة من قبل الطائفة الموسوية الألمانية المتنفذة.

الفرق في الكرخ أن الساكن عائلة كاملة محشورة في غرفة واحدة،
ذلك العامل الضيف الأعزب في فرانكفورت، والمالك هم أهل الكرخ الاصل
عوائل عديدة، تأكل وتشرب وتتناكح وتنام وتترعرع، في ماذا؟ في غرفة ب
15 متراً مربعاً.

تجرأت وسألت رجلا بلغته المقبولة: كيف "تتمتع" تمارس علا
الزوجية المعتادة؟ أجابني مع ابتسامة خجولة وساخرة، وتقريع كاذب للأو
واصفاً إياهم بعديمي الرحمة. "ليس في اليد حيلة"، قالها متباهياً بفد
ورعويته للعائلة الكريمة. هل هذا هو التراث؟ هل هذا هو العراقي الج
الجيل الجديد الذي نباهي به الأمم، أحفاد حمورابي وسنحاريب؟ أين الح
والحرمة في أخلاق العراقي والبغدادي الأصيل؟ ماذا ننتظر ونتوقع من
العراقي الجديد غير الإغتصاب والقتل والذبح والخطف والسرقة، وته



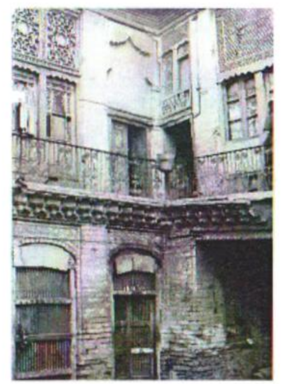
الجار؟ لقد بات خريج بيئة لا تعرف الخجل والإحترام والقيم، بل تعرف التلصلص والعادات الأخرى المجوجة.

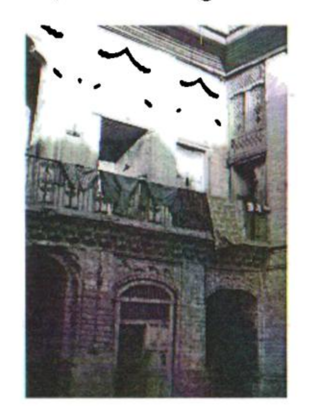
خلال عملية التصوير والتوثيق والفهرسة، دلني مجيد طبانة خبير الهدم، وصديقي الجديد، على دار جميل من الخارج، يحتوي على مفردات معمارية أصيلة في محلة الشيخ بشار. تمنيت عليه بأن نطلب من ساكنيه التصوير من الداخل، فنهاني بلطف، وحاول تأجيل الطلب، وهو على معرفة بهم. استجاب لإصراري فطرق الباب الخشبية المحفورة بمطرقة نحاسية جميلة طرقات متكررة. استغرق وقت حتى جاء الرد من الداخل، وفتحت الباب امرأة كهلة، كانت البؤس مجسداً، ناهيك عن أبعاد الشقاء غير المنظورة. كانت موشحة بالسواد. أعلمها مجيد بأننا من الأمانة، فرحبت بنا ترحيباً لم أسمع في حياتي أكثر سخريةً ومرارةً منه: "تفضل أستاذ، أهلا وسهلا، صور عيني، صور التراث." عبرت "المجاز"، المدخل المعقوف السائد في تلك الدور، تقودنا الهالة السوداء. باحة الدار، الفناء الذي نتغنى بفرادته المعمارية في دور المنطقة، أصبح بحيرة مغمورة بالماء الآسن النتن، اختلط ماء البلاعة الوسطية برماد التنور الموضوع على دكة جانبية من الفناء. بعد لحظات بانت بنتان، تخوضان الماء الآسن، عمر الكبيرة جاوز الثلاثين، والثانية أصغر منها عمراً بقليل. الأولى بلا أنف، ولا يمكنها الوقوف، فهي تحبو كالقردة، نصف زاحفة. الثانية منتصبة على إثنتين، وتتكلم بنبرة غير مفهومة، وبطبقة صوتية غريبة، وخمنت أن سقف فمها مفقود. سألتني الأم أهذا هو التراث التي تتشدقون به؟ واستمرت تقول: "صوّر عيني صوّر." العائلة بلا معيل، وهم يعتاشون على خبز الأرغفة وبيعها قرب جامع الشيخ بشار. رب العائلة قضى بالسفلس، وهذا ما أورثه لبناته. طفرت الدمعة من عيني ووليت هارباً، خجلا أحاول إخفاء كامرتي. لا تراث ولا تصوير ولا أصالة ولا هم يحزنون. ما رأيته هو إهانة للجنس البشري.



في منطقة باب الشيخ ثمة بيوت كبيرة الحجم وذات موروث معماري بقيم جمالية ثرة، وكان لابد من زيارتها واستلهام مفرداتها. زرت داراً هناك ووجدته ملجأً يضم 39 عائلة بالكمال والتمام: حالة لا تصدق من فوضى الحياة.

نعرف أن للباحة "الحوش" (وفي قبرص واليونان " الحولي" مأخوذة من التركية ومن اللغة الام بالتسلسل) قيمة معمارية أصيلة، ونعتبره معياراً معمارياً مميزاً للمنطقة على مر الزمن، من أور في جنوب العراق، وقبلها من أيام العبيد 3000 سنة قبل الميلاد وإلى يومنا هذا. إنه متميز بنسبه الجمالية، واستعمالاته الوظيفية، فضلا عن دوره المهم في توفير البيئة المناخية الملائمة. في دار الكيلاني تحول الحوش إلى محل للغسيل والطبخ الجماعي/المشترك، وفسحة للألعاب لعدد كبير من الأطفال، وممراً للرجال المتلصلصين في رواحهم ومجيئهم. يقال الجار قبل الدار، وأي دار؟ الشيء بالشيء يذكر، فالتلصلص كان عنوان لكتاب جميل جداً لصنع الله ابراهيم، الكاتب المصري الإنساني.







باحة الدار الفناء قيمة جمالية سائدة في دور المنطقة

عدت فزرت دار الكيلاني بعد إصلاحه وأعيد إلى سابق عهده: أي جمال معماري! لكن ما الفائدة منه؟ سيعود ويتهرأ ثانية إذا لم يتم استغلاله ثانية. سكناً؟ أين الأسرة التي تحتاج الى 39 غرفة؟ لذا من الضروري تثبيت



الاستعمال والإستغلال المزمع، ومن ثم الإحياء بالتدوير للإيفاء بمتطلبات الاستعمال الجديد. هذه الدار تصلح أن تدوّر لوظيفة معهد دراسي.

لقد انتظرت "فرانكفورت أوبرا" ثلاثين عاماً من الدراسة والتمحيص لغرض معرفة الاستعمالات ومن ثم المباشرة بالإحياء، هكذا الحال في برلين بعد محقها جوياً، وفي "بوتسدامر بلاتس" ومركز المدينة في كو دام، ودرسدن، ولايبزك.

في سولدير بيروت، تمت الصيانة بعجالة، لأغراض سياسية، من دون دراسة الجدوى الاقتصادية واحتياجات المنطقة بالتفصيل. الناتج جاء تمسرحاً معمارياً جميلا جداً. استثمار وربحية متدنية غير واقعية. طوابق من الأبنية غير مأهولة لكلفتها العالية، في حين أن نسبة كبيرة من سكان بيروت من دون مأوى لائق. باختصار بدا مشروعاً سياحياً لائقاً ببلد السياحة العربية.

السياحة العربية أخذت أبعاداً أخرى غير تلك التي عرفناها: سياحة آثارية، وسياحة دينية، وسياحة صحية، واستجمام، والحبل على الجرار. أستاذي "آرثر كورن[23]"، بروفسور التخطيط في مدرسة رابطة المعماريين في لندن، اختصر درس التخطيط في أول محاضرة من محاضراته، بتجنب عمل أي شيء مشابه لما حدث في "لوس انجلوس" الأميركية، والإبتعاد عن صناعة السياحة بكل أنواعها، فهي صناعة مشوهة لأصالة المدن.

في الكاظمية عدد من الدور تمت صيانتها بإسلوب جيد وأخاذ. قسم منها كانت بحجوم صغيرة وصيانتها لا تحتاج إلى جهد كبير. اقترحنا في هيئة الحفاظ على التراث، المؤلفة بمرسوم رئاسي وكنت عضواً فيها، تكريم المتميزين بتقديم هذه الدور لهم. بالفعل تمت مفاتحة ثلاثة من أصدقائي المشمولين بالتكريم، والجواب كان صادماً. فمحمد غني النحات الكظماوي النشأة، اعتذر وقال إن نمط عمله وطريقة عيشه لا تتناسب، لا مع الموقع ولا مع بيئة الدار، على الرغم من كونه ابن المحلة. الفنان الكبير شاكر حسن

المتصوف الناسك، تهرب. أتذكر جوابه: "رجاءً معاذ أنا صديقك فلا تورطني بإيراد ومصرف.. مرسمي ومحترفي يكفيني". أما أستاذنا الكبير العلامة علي الوردي فقد فاتحناه في إحدى ليالي الأربعاء المعهودة، يوم اجتماعاتنا الدورية الأسبوعية في دار الصديق الجليل أمين رؤوف الأمين، وأشرت إليه بفكرة تجهيزه بإحدى الدور الواسعة لاتخاذها مكتبة خاصة تليق به وبمقامه الفذ. فقال: " كلا ثم كلا سوف يسطون على مكتبتي". لقد أخذته الظنون بعيدا.

لاعلم لي بما حل بتلك الدور التي فشلنا بمنحها لمن يستحقها!

في شارع حيفا، في الشواكة على وجه التحديد، أحييت الدور التي تمت صيانتها، اولا لسعة حجومها، ولحداثة مخططاتها نسبياً: دور الظاهر، والشاوي، والسويدي، وتوفيق محمود، و"مارنكوز" الألماني، و"دولت" المعماراللبناني، والذي تعرفت على حفيدته في قبرص[24]. هذه الدور دوُرت في استعمالات جديدة، واحد منها تحول الى ناد للمعماريين. (إنه في يد أمينة!) والآخر شغلته دار المخطوطات، واستعمالات أخرى مشابهة ذات نفع عام. لقد عدَت صيانة الدور في شارع حيفا جزءاً قائماً بذاته، وعوملت بخصوصية، لذا استدعي استشاري إنكليزي بالإشتراك مع مكتب عراقي لصيانة الدور التراثية بمجموعها في الكرخ والكاظمية والمناطق الأخرى.

بوتيرة سريعة أنجزت الأجزاء الحديثة في الشارع برغم اشتداد أوزار الحرب الضروس. لقد أحيلت جميع مقاولات الأجزاء بالتتالي إلى المقاولين المنتخبين، إبتداءً بالسادس والثالث والسابع والخامس والرابع، ثم الثاني فالأول. تأخر الجزء الثاني لتأخر أمانة العاصمة في اختيار الاستشاري الفرنسي. الجزء الثامن نواطح السحاب التسعة محالة قبل تسلمنا للشارع ومصممة بمعايير معمارية مغايرة غير التي وضعت بالكتيب المحضَر من قبلنا.

إنها الشواهق الذي جاء ذكرها سابقاً.





دور الظاهر



دور السويدي

من خلال هذه الإحالات توالى اختيار المنفذين وهم من الكوريين والألمان والبلجيك واليوغسلاف، وحسب شروط العقود زودوا من قبل أمانة العاصمة بمواقع شاسعة شمال الكاظمية، بمسافة لا تزيد عن العشرين كيلو متراً، للسكن والخزن والترفيه، وللمعامل الانشائية. معسكرات خططت وجهزت من قبل المقاولين بأحدث مرافق السكن والترفيه وورش العمل.

ليس تحليل العطاءات عملية سهلة، وهنا جاء دور اللوجستيك الألماني وميزانه القسطاطي. كانت هناك لجنة مكونة من أمانة العاصمة والاستشاري وبإشراف وتعاون مباشر من وكيل أمين العاصمة الزميل خالد الجنابي (مقرب

من رئيس الجمهورية) وبمراقبتي اللصيقة للجميع. استعنا من مكتبنا في دبي بالزميل علي شديد، فلسطيني/اردني، مدير مكاتب الخليج، مهندس مدني قدير ذو أخلاق عالية، حائز على ثقة تامة مني ومن الجميع. كان الجميع يدخل الاجتماعات من دون أن تخرج ورقة منهم، إذ تقفل جميع الأوراق والوثائق لحين الاجتماع الثاني ولحين كتابة التقرير النهائي ومهره بالشمع الأحمر، وتسليمه إلى مكتب الأمين.

خلال التحليل لم تواجهنا أي مشاكل تفاوضية تذكر. لا تنزيل في الأسعار، المبازرة "من البازار" ممنوعة. تم تنزيل قسم كبير من أسعار المتعهدين، إما لأخطاء حسابية، وإما لعدم فهم عند التسعير. جميع الأعمال أُحيلت على المتعهدين ذوي الخبرة وبالأسعار المنافسة المقبولة والمتوقعة، ما عدا مشكلة أحد المقاولين الهنود. ففي الجزء السابع، كان الإنكليزي المصاحب للمجموعة هو صاحب أقل الأسعار، وكشف لنا عن المشاريع التي قام بتنفيذها في الخليج، وعلى خلاف باقي المقاولين الواضحة أعمالهم، جلب انتباهي في قائمته مشروع مجاري دبي، لعلمي بعدم وجود مشروع كهذا، ولاسيما أن مكتبنا هو من قام بالتخطيط والاشراف على شوارع منطقة "المتينة" في دبي. طلبت من معاون الأمين وقتاً مستقطعاً وبينت له شكوكي بالموضوع، فطلب مني وبصورة شخصية التحري والاتصال بفروع المكتب في الخليج، وكان قد تعرف على "علي شديد" مدير مكاتب الخليج، عند مساعدته لنا في تحليل العطاءات السابقة للأجزاء الأُخرى. لم تمض سويعات إلا وتوالت التلكسات السلبية: لا وجود لهذا المشروع الذي ورد بالقائمة. ووجهوا بالحقيقة، فاعتذروا وخلقوا أعذارا واهية، عندها استبعد "المستعمِر" و"المستَعمر" شركاء الفساد.

نعرف أن مشاكل تهيئة المواقع وتزويدها بالماء والكهرباء هي مشاكل إعتيادية، لكن ما أن وصلت إلى حدود الاتصالات، حتى بدت عويصة. في بلد



النشامى المحافظين على سلامة أوطانهم، من المستحسن عدم التقرب من كلمة إتصال وتخابر. المقاولون بمجموعهم، بجنسياتهم المختلفة، هم مشاريع خيانة وتخابر مع العدو. ألم يسلّم المهندسون الفرنسيون مخططات مفاعل تموز الذي دمرته إسرائيل بطائراتها، وعلى غفلة من حماة الدار؟ السلطة الحريصة ترفض، والمتعهدون غير مصدقين يهددون هازئين بعدم المباشرة في تنفيذ بنود العقود. وفي النهاية خصص الأمين من بدالة الأمانة موجات لهم.

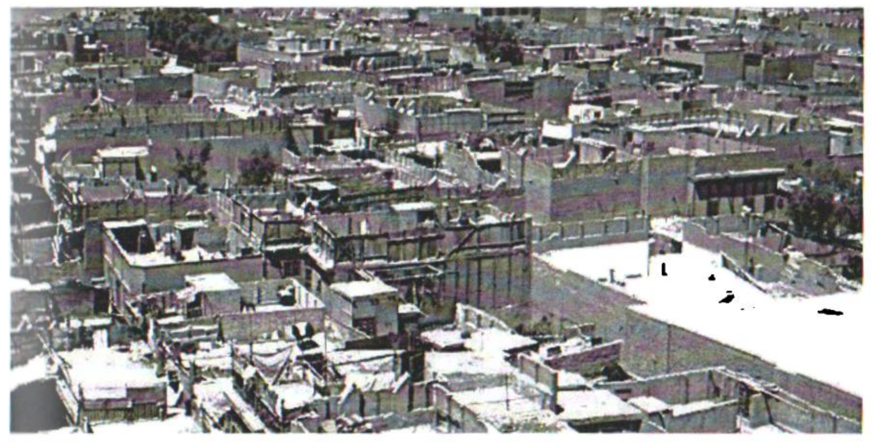
في الشروط العامة للمقاولات أخذ بالحسبان المشروع بأجمعه، وهو ضمن منطقة سكنية مأهولة بكثافة عالية، ما جعلنا نفرض شروطاً صارمة قياساً بأشغال أخرى في العراق النامي، ولعلها بصرامة العمل في ألمانيا، بدءاً بالكرينات وتوجهاتها، للمحافظة على سكنة المنطقة، فكان لبس الخوذة بألوانها إجباري وحسب تصنيف لابسها، إرتداء الأحذية المقاومة، تسييج جميع مواقع العمل، وفتح ممرات مسقوفة ومضاءة للمارة، حراسة مستمرة 24 ساعة في اليوم، وإشارات مرورية واضحة.

اتخذنا من الأسيجة الخشبية جدراناً لتدريب طلاب معاهد الفنون ليجربوا فنهم ويتدربوا على حساب الأمانة، وزودناهم بالمواد والألوان. (أفكر الآن أننا استبقنا تسييج بغداد بأجمعها، لعزل الجار عن جاره، في كل المناطق الساخنة، بجدران كونكريتية جرى الرسم فوقها لكسر صرامتها. عسى أن تزول كل الجدران في العراق وفلسطين ونيقوسيا).

اشتغل الكوريون في الجزء السادس بثلاث وجبات في اليوم الواحد. عملهم حوّل المنطقة إلى ما يشبه "الكسلة" حسب التعبير البغدادي، أو "الفَيست" باللغة الألمانية. النساء والأطفال باتوا ساهرين لساعات متأخرة من الليل المتوهج بالأنوار الكشافة، يتفرجون على المكائن العملاقة والعمال المجندين الكوريين. ثمة بعض المحمونات حاولن تحسين النسل، والهجرة

إلى كوريا حيث العيون المشروطة والأجوج والماجوج. لحسن الحظ لم تشهد "الشواكة" حيث عمل الكوريون والصينيون ولادة أجيال عيونهم "شرط السكين"، كما لم تشهد الكريمات والفلاحات حيث الألمان جيلا أشقر.

مشكلة واحدة عويصة واجهتنا عند ارتفاع الأبنية فوق مستوى سطوح الدور المأهولة، إذ أمكن للكوريين والصينيين التلصلص على سطوح الدور المجاورة ولاسيما في الصيف، حين تنحسر الأغطية الخفيفة عن البنات النائمات فتظهر سيقانهن البضة. برغم التهديد والوعيد لم نجد لهذه المشكلة حلا معقولا. إنها منغصات مبكرة للسكن العمودي في بيئة وتقاليد غير معتادة عليه. النتيجة هو حرمان البشر من التمتع بفجر بغداد الجميل الذي يصاحبه هديل الحمام وتغريد البلابل. لعل جلّ طيورنا مصابة الآن بسعال مشابه للسعال الديكي، فهي تسعل صباحاً بدل أن تغرد، فقد استنشقت غازات سامة من جراء علوم القتال والإبادة، فضلا عن التلوث والغبار الذي بات اعتيادياً، ولابد أن نأخذه بالحسبان عند إعداد التصاميم المعمارية. الحل هو صناديق زجاجية، وعلب مغلقة، مكيفة الهواء مع مرشحات صحيّة على مدار السنة.



سطوح الكرخ مكشوفة من جراء تبني الاسكان العمودي



حيوان أليف في الكرخ اختفى وأصبح من النوادر، ألا وهو الكلب العراقي الشرس الغدار الذي لا يؤتمن جانبه، إما خوفاً من الذبح وقد حذرته حاسته السادسة من أنه مشروع تحشية بالرز الكوري، وهي وجبة قوزي على الطريقة العراقية، أو أنه اصطيد حقا، فسلخ، ووضع على نار هادئة، وأُكل بلمح البصر. ذكرني بهذا المستر "تشونغ"، دكتاتور مجموعتهم، لعله برتبة جنرال في الجيش الكوري، في واحدة من ولائمهم الدورية التي يدعى اليها موظفين في أمانة العاصمة وجهاز الاستشاري وكبار مهندسيهم/ضباطهم، قائلا أن لا أخشى فالطعام خال من لحم الكلاب. كانت ولائمهم تضم اعتيادياً ما لذّ وطاب من الأسماك الكورية، وهو طعام جميع العاملين في الكامب، وبمستوى رفيع جدا مقارنة بطعام كامبات العمل العراقية الفقيرة التي تشتهر باليابسة والرز.

لقد جلب انتباهي، أثناء التجوال اليومي في المواقع بصحبة المهندسين، أن أطفال الشواكة ينادون الكوري بـ "علي بابا"، والمفروض العكس هو الصحيح، بعد أن تبين لي أن أي شيء يُترك سهواً خارج أسيجة العمل، المحروس ليلا ونهاراً يختفي من الموقع: مال الكافر حلال! والحال كان الكوريون ينعتون جميع أولاد الكرخ بـ "علي بابا"، أشهر ما في بغداد من شخصيات تاريخية بالنسبة للمتعلمين الكوريين!

في كثير من المشاريع وخاصة الكبيرة منها، تقع حوادث مؤسفة، تؤدي إلى فقدان عمال أبرياء. لم يكن مشروعنا مستثنى منها، إذ فقدنا ثلاثة من العمال في الموقع من جراء الإهمال، إثنان منهم من مصر، مصدر العمالة في العراق حينذاك، فقد انهال عليهم التراب في سرداب الجزء الخامس، ولم يتمكن المقاولون الكوريون من إنقاذهم فوراً، فطمروا وقبروا أحياء. والحادثة الثانية كانت لكوري سائق كرين جبار لامس ذراعها الطويلة سلكاً كهربائياً

للضغط العالي، ولوجود إطارات الكرين المطاطية العازلة لم يحدث أي توصيل، إلى أن نزل المسكين من الكرين، وأصبح جسمه موصولا، فتفحم في الحال ورمي على بعد أمتار يتصاعد منه الدخان.

في هذه الأثناء كانت المقولة اللامعقولة والقائلة "يد تبني ويد تحارب" قد أفل بريقها لدى المقاتلين، وتبين مدى عدم معقوليتها. فالحرب الضروس أكلت الحي والميت، المال والبنون. بعد أن نفد المال الاحتياط وتبدد، كان لابد من ايجاد وسيلة للاستمرار في تنفيذ المشاريع المتعاقد عليها، وبدلا من إيقافها ودفع الغرامات تفتق ذهن القادة على رهن الموجود حتى ذلك المدفون في باطن الارض. وبقدر تعلق الأمر بالمشروع، تغيرت ظروف العمل ومن ثم شروط التعاقد مع المقاولين. الحل هو أن يمولوا مشاريعهم وبشروطهم هم. المهم هو الاستمرار، وإنجاز الشارع. بيد أن التنفيذ تباطأ لحين ايجاد الممول المنقذ للأجزاء، عدا الجزئين الرابع والثاني. المقاول البلجيكي تقاعس عن توفير التمويل، ووجد أن هذه هي فرصته في جني أرباح إضافية، فطالب بالتعويض لأن صاحب العمل أخلَّ بشروط العقد. أصر الاستشاري لمدة عام على عدم استحقاقه للمبالغ التي يطالب بها، بيد أنه حصل على مبالغ كبيرة لا يستحقها، بحجة تجنيب البلد الدخول في تحكيم دولي وهو بأمس الحاجة إلى التأييد الدولي في حربه المستعرة. تبين بعد سنوات عدة، وبالمصادفة، أن جني المال الفاسد لعب دوره عند البعض من غير أعضاء المكتب أو الأمانة الذي ساعد المتعهد على تمرير ابتزازه.

بعد توقف استعادت الكرينات أرواحها واستمر العمل. كان الجميع على أية حال يحاول أن يتناسى مآسي الحرب ومواكب الضحايا الابرياء، حتى "الأخ الكبير" المتسلط، كان يحلو له أن يتابع التفاصيل عن قرب. في كل الأحوال كانت زياراته للموقع تقتصر على الاطلاع على المواد والهيئة النهائية، فإجراءاتنا منعت ذوي السلطة من ممارسة الفذلكات الهندسية.



كانت زيارته تتم في العادة على نحو مفاجئ وبسرية تامة للحفاظ علـــى سلامته، بيد أنها تزرع الخوف في النفوس، ولاسيما دخول الأمن الخاص إلى الموقع وتسلمه قبل الزيارة بمدة كافية، كما أن الثلة المرافقة قبيحة وعنيفة ومنتخبة لترهيب الرعية. هناك بالطبع الظواهر المصاحبة لظهور القائد، من تهافت ضعاف النفوس على رؤيته والتبرك بطلعته والحصول على عطف ورضا متخيلين. كانت هذه الزيارات تفهرس وتثبت تواريخها وكأنها أعياد رسمية، وتعرض في التلفزيونات سنوياً: هذا البرنامج الدائم هدفه خلق الأسطورة!

فيما عدا هذه الزيارات المفاجئة، كانت "الاستدعاءات" إلى القصر التي لا يمكن التهرب منها، فالراعي الذي كان على علم تام بما تقوم الرعية به من أعمال يجرب سطوته وتقديم براهينه بوصفه عارفاً بكل شاردة وواردة، فهو يدعونا ويجربنا ويضعنا في حالة سؤال علينا الإجابة عليه بهدوء وبدقة، طبعا مع الاستماع إلى نصائحه المتكررة في كثير من الاحيان، وقد تفاجأ أحياناً أن يسألك عما إذا كنت بحاجة الى أية مساعدة. ولن ينسى القائد أن يتكرم بإهداء ما سيصبح ذكرى عندك: صورتك وأنت في حضرته ترسل في اليوم التالي، بمغلف جلد، تصلك على ظهر دراجة نارية من درّاجات الحرس الجمهوري الخاص. ما الذي تفعله أنت بصورة؟ لكن لا، فهي كالطلسم، تبعد المنظمة الحزبية عنك عندما تطلب منك الحظور إلى اجتماعات تثقيفية، أو الاشتراك بمسيرات. الصورة تضعك في خانة أخرى من البشر!

زيارات أو دعوات القصر الجمهوري تجربة لا يحب الفرد أن تتكرر، فهي مرعبة وسخيفة. الدعوة مفروضة ولا يجوز حتى التفكير بعدم تلبيتها. في بعض الدعوات لا يعلم المدعو السبب ولا يجرؤ في السؤال عنه. في أحد الأيام أخبرتني العمة العتيدة، القائمة بأعمال السكرتارية في المسكن، بضرورة أن

أكون على بوابة القصر في الساعة الثامنة والنصف صباح اليوم التالي. السبب غير معروف، فبدأ الشك والقلق. أحد أمناء عاصمة بغداد دخل مرة القصر ولم يخرج إلاّ في كيس بلاستيك للموتى. حوكم وأدين ونفذ به الحكم بدعوى الرشوة. آخر أستدعي فكُرم بأنواط وأوسمة، مع مكافأة تسمى "مكرمة"، وهي سيارة تويوتا وحقيبة جلدية سوداء أنيقة تحتوي على عشرات الألوف من الدنانير: إنه تكريم أنموذجي.

وصلت بوابة القصر، وبحثت في صالة الانتظار الكبرى على من أعرفه من الزملاء، للتأكد من أن الاستدعاء مهني، وعليّ أن أسترخي، أو لعلي ألتقي بوجه صبوح أتفاءل به: كان جميع من في الصالة (عبس وتولى).

حسب الأوامر يتم خلع ما يمكن الإستغناء عنه، كل ملبوس ومحمول، إلاّ الثياب: الساعة، المنديل، السكائر والولاعة، القلم، النقود الورقية والمعدنية، المفاتيح والأوراق جميعها. هذه الخصوصيات توضع بمغلف ورقي بني اللون كتب عليه " الجمهورية العراقية القصر الجمهوري" مع تنبيه من قبل المتجهم العابس، بتسلم المغلف الرسمي عند الخروج. عندئذ يشعر المرء بنصف اطمئنان، فتلك إشارة من نوع سيميائي تعني أن هناك إحتمالا قوياً بخروجك سالماً. المتجهم على علم بما هو آت، لعله يعرف سبب الدعوة.

واسطة النقل من البوابة إلى مدخل القصر هي الـ"كوستر"، ميني باص، هكذا يدعى في مرائب بغداد، وهو اسم الموديل الياباني. الباص محكم الإغلاق. السائق يختفي خلف ستارة سوداء لا مجال لرؤيته، أو رؤية أي شيء من مقدمة الكوستر. الشبابيك الجانبية مغطاة بالستائر القاتمة ذاتها، وبجملة أنت في صندوق مغلق ومبطن يشبه الحاوية، ولا مجال لرؤية الطريق، مهما حاولت التلصص. يدور الكوستر في حلقات مفرغة ولمدة غير قصيرة من الزمن، لحين بلوغ مدخل القصر الجمهوري. المسافة لا



تتعدى بضع مئات من الأمتار، وما يجري هو تشويش فاشل، فالكل يعرف موقع القصر الملكي الذي أصبح جمهورياً في منطقة كرادة مريم، وقبل تحويل المنطقة من ملكية الى جمهورية، بمساكنها ومستشفاها" ابن سيناء" ومسبحها الأولبي من تصميم الإيطالي "تاني"[25]. لقد أممت هذه المنطقة بين ليلة وضحاها، وأصبحت جمهورية، ومن ثم تخضَرت لتصبح "المنطقة الخضراء": غيتو حكومي للعراق الجديد! (تأدباً تدعى من قبل موظفي الأمم المتحدة "الانترناشنال زون"، المنطقة الدولية، نقطة الارتكاز فيها، كعبتها السفارة الأميركية الجديدة، الأكبر في العالم).

دخلت القصر واستقبلت بوجوم وسكوت مطبق: تنفست الصعداء عندما لم يوصلوني إلى زنزانة فحص طبي كما في المرة السابقة. في الزيارة الأولى التي حصلت منها على صورة تذكارية، تم فحص اليد بتمعن من قبل دكتور جلدية متخصص. هذه المرة لم تفحص اليدين فهذا يعني أن صاحب الدعوة لن يصافح المدعوين.

بعد الانتظار لفترة قصيرة ظهرت الزميلة مودة العلاّق والزملاء خالد السلطاني ومهدي الحسني وإحسان فتحي. عندها شعرت بالاطمئنان فالاجتماع مهني. نودي علينا إلى قاعة صغيرة بدرجات، ثم حدثت نوع من الهمهمة المتعالية ونحن في حيرة من أمرنا، وكان هذا معناه أن الرئيس في طريقه إلينا. لقد تكررت هذه الهمهمة في جميع الاجتماعات أو الندوات التي يحضرها رئيس الجمهورية، كندوات تشييد جامع الدولة الكبير، ومؤتمر الحفاظ على التراث المعماري، وندوة نصب الشهيد، وندوة أمانة العاصمة الخاصة بتطوير شارع أبي نواس[26].

عند حضوره يتهيب الجميع، يصمتون، وعندما يهم بالسلام والتبسط يرتخي الجو لحد ما، فهو يبدو أقل شراسة من حاشيته. الدعوة ما زالت غير

واضحة الأسباب إلى أن نطق هو بالسر: توجيه المعماريين الذي يقومون بإعمار البلاد!

كان التوجيه بحد ذاته فناً من فنون اللامعقول: أن نأخذ بنظر الاعتبار ما ستقوله الأجيال اللاحقة وتذكره في تقييم العهد الحالي من خلال عمارته. إن تصميما أو مبنى يراد أن يبقى إلى ما يزيد عن 500 عام هو نوع من الآباد.

أكد هذا المعنى واستعان بالرسم بعد أن زوده، مهرولا، وزير تصنيع البلد العسكري، فطحل العلوم، بورقة وقلم، ليملي الرئيس على معماريي البلد قيَمه الجمالية الواجب اتباعها عند تصميم الأبنية. في الليلة نفسها ظهر في التلفزيون الحكومي الذي لا يوجد غيره، تسجيلا لزيارة القائد آثار بابل، وطلب من أحد عمال البناء في موقع تشييد بابل الجديدة التي شوهت بابل الأثرية القديمة، استعمال الطابوق "الخاص" بكثرة وفي كل "ساف" من البناء. استفسرت لاحقاً من مدير الآثار العام الصديق عيسى سلمان الذي كان يرافقه عن ماهية هذه المادة البنائية، فتبين أن هذا الطابوق نقش عليه اسم رئيس البلاد، تشبهاً بطابوق "نبوخذ نصر" الذي كان ينقش اسمه على طابوق البناء.

في استدعاء آخر مع مجموعة صغيرة من المعماريين، مررنا بالمراحل الترحيبية المعتادة، من بوابة القصر وحتى مدخل القصر. في القصر قادنا الحرس الصامت إلى قاعة مدرَجة صغيرة نسبياً، مع منصة لمتكلمين عدة، وشاشة عرض كبيرة. كانت القاعة مظلمة نسبياً، والجالسون على المنصة هم من الضباط العسكريين. في الخلف حرس متجهم كأنهم من كهنة "اسم الوردة"[27]. لقد منعوا المدخنين عن التدخين، وأعطوا انطباعاً عن مراقبة لصيقة. أجواء غير معمارية بالكامل. رأسَ الجلسة أحد معارفي من المعماريين كان من العاملين في شارع حيفا، عندما كان ممثلا للمركز القومي للاستشارات الهندسية بوصفه مسؤولا عن الجزء السابع، ثم منح رتبة عسكرية



كبيرة، واستمتع بصلاحية الرتبة، ليشغل منصب مهم في الدائرة الهندسية في رئاسة الجمهورية، وبعدها كوفىء وأصبح وزيراً للأشغال.

بيّن لنا الزميل رئيس المنصة سبب وجودنا نحن المعماريين، وهو إبداء الرأي بتصميم جامع في منطقة خاصة جداً، علمنا لاحقاً أنه يقع ضمن مجمع رئاسي.

الشباب المعماري من ذوي القيافة العسكرية والذين بدت عليهم الرهبة، وكأن الطيرعلى رؤوسهم، بدأوا بعرض مشاريعهم التصميمية المقترحة لتشييد الجامع. كانت التصاميم والحلول المعمارية والأجواء كلها لا توحي بأي شيء خاص بالعمارة لا من قريب ولا من بعيد، ناهيك عن الإبدا ع المعماري المطلوب من عملية تصميم الأبنية الدينية وما تحويه من رمزية خاصة.

توالت العروض بلغة غريبة غير معمارية، وكيف لا والشباب سوّقوا تصاميم لجوامع مستوحاة من مُعدات القتل وآلات الحروب والدمار؟ بعض المآذن ظهرت على هيئة رشاشات ومدافع وصواريخ، القباب على هيئة خوَذ المقاتلين، وفي أحد التصاميم بدا على هيئة خوذة قتال نازية الشكل القصيرة الجانبين.

هذه التصاميم دفعتني إلى الإعتراض بطريقة لا تخلو من حدة، إذ هاجمت الرمزية التي وصف بها هؤلاء الشباب مشاريعهم، مؤكداً على رمزية الصلاة لا الحرب.

رئيس الجلسة بدا عليه شيئاً من عدم الإرتياح، وحاول إيصال إشارة لي، بيد أنها كانت بموجة قصيرة جداً لم أشعر بها. لاحقاً، خارج القاعة، بيّن أن منبع الإشارات العسكرية في التصميم جاء اقتراحاً من الرئيس وتوجيهاته، بل كانت موجودة في دفتر الملاحظات الذي تسجل عليه تعليمات الرئيس. وفهمت منه ضمناً أنه لا يستغرب إذا ما كان الرئيس يعرف ما يدور، لوجود تلفزيون داخلي.

بعد هذه التجربة قضيت أسبوعاً من الكوابيس. كانت تجارب مماثلة تؤكد مخاوفي، فأحد أساتذة الاقتصاد في الجامعة نقد مقولة رفعها رئيس البلاد عن الإنتاج والعمل، وكانت النتيجة أن قضى في السجن بعض الوقت وجرى لومه بشدة. ما زاد من ثقل كوابيسي أن الصديقة ناصرة السعدون لم تخف عني طلبها في تخفيف نبرة النقد، فأحد الضباط الحاضرين هو من معارفها، وأعلمها بانطباعه.

.. لكن مرت الأيام بسلام، من دون حدوث ما ينغص. يبدو أن "الأخ الأكبر" لم يكن حاضراً!

كان لمشروع شارع حيفا نقائص عديدة بوجه عام: خلوه من المساحات السالبة التي توازن الكثافة السكانية الكبيرة المتوقعة، فقدان مواقف سيارات على المدى الزمني القصير والطويل، نقصان في الحدائق وساحات التفسّح. لعلهم نسوا هذه العناصر، لكن من المؤكد أن كوادر أمانة العاصمة على الرغم من خبرتها الواسعة لم تعمل خلال تاريخها الطويل بمشروع من هذا القبيل. من هنا قام مسؤول الانشاءات "التنفيذ" بإدخال تصميم الحدائق وتأثيث الشوارع وتنظيم أعمال الدوائر الأخرى المختصة، كالطرق والكهرباء وشرطة المرور بقدر تعلق الأمر بالتصاميم والتخطيط واختيار الأصلح من المواد كجزء من واجب الاستشاري، وخارج شروط التعاقد. اكتشفنا لاحقاً وجود قابلو "فايبر أوبتكس" سري عائد لوزارة الدفاع، كل هذا اعتبرها رئيس القسم ضمن تنسيق العمل التخطيطي المناط بالاستشاري.

حسب اعتقاد "كريستين آمان"، مديرة مشروع تطوير الكرخ، في كتابها الموسوم "الشارع كغرفة" أو كمحل، أي "غير المكان البطانة الداخلية للشكل" المعهود وهو أطروحة الدكتوراه، أن فسحة الشارع هو محل ومكان، له وظائف عدة، غير تلك المتعارف عليها، ويمكن استغلاله في تنظيم المدن.



للاتقان والاطلاع على أحدث ما يجري في البلدان المتقدمة، تمت دراسة أحدث عمل مشابه في ألمانيا بمدينة فرانكفورت/ماين. هذه المدينة مرت بإعادة تأهيل شامل، وبشارع توأم لشارع حيفا يمر في وسط المدينة، وهو شارع "تسايل". في هذا المشروع تم دراسة وتصوير وتوثيق أثاث وثوابت ومنصوبات الشارع من حاوية رمي الأوساخ إلى اسطوانة وشاشات الاعلانات، وكيفية تموقع الأعمال الفنية، وأسباب اختيار العمل ومنفذه.

شارعنا يختلف في مجتمعه وساكنيه، إذ يغلب عليه الطابع السكني، على خلاف الـ"تسايل" الذي يغلب عليه الطابع التجاري والترفيهي.

لقد تم وضع أسس للمنظومات المتنوعة، خاصة بحيفانا وكرخنا، كمنظومة للأعمال الفنية، ومنظومة للتشجير والمساحات الخضراء، ومنظومة للإشارات المرورية وغيرها، والأهم منظومة التأثيث وهي الأحدث في المنطقة. شمل التأثيث الثوابت والنواصب (غير ذلك المعنى الديني)، فهناك "البولارد"، أعمدة قصيرة لمنع وقوف السيارات على الأرصفة، وحواجز مزنجلة لمنع المارة من العبور عشوائياً، سلال المهملات، اسطوانات قائمة بارتفاع للإعلانات الملصقة، مظلات شرطة المرور، مظلات مواقف حافلات النقل العام، مساطب للجلوس في الأماكن المفتوحة.

في المنظومة الفنية تم اختيار ما يزيد على العشرين موقعاً، كل حسب ما يوحي من موضوع، بدءاً بوزارة العدل وكانت من نصيب النحات محمد غني، وشبكة صيادي الأسماك بالقرب من الطيوان من نصيب طيبة الذكر نهى الراضي، وموقع آخر قرب السفارة البريطانية للنحات اسماعيل فتاح، ونافورة عملاقة في ساحة آل الظاهر وسط الجزء السادس، وكانت من نصيب الصديق الأزلي العراقي/ القبرصي فالنتينوس، لم ينفذها ولم يصممها لانشغاله بعمل جدارية نادي الضباط الكبيرة الحجم. في الشواكة هناك نحت ذو طابع تراثي

من نصيب سهيل الهنداوي. الجزء الخامس لم نقم به لأن وزارة الثقافة قررت أن تصب نصباً كونكريتياً للثور المجنح النمرودي. الزميلة وجدان ماهر أنقذت الموقف كونها معمارية في وزارة الثقافة، فتآمرت معنا وأضافت معلقات في أروقة الجزء الخامس ما أضفى بعض الأجواء المعاصرة. في الست نفيسة قرب جسر باب المعظم اقترح إقامة نصب للمتصوف الثوري صاحب الطواسين الحسين بن منصور الحلاج القائل:

للعلم اهلٌ وللإيمـــــان ترتيب   وللعـــــلوم وأهـليها تــجارب

والعلم علمان منبوذ ومكتسب   والبحر بحران مركوب ومرهوب

والدهر يومان مذموم وممتدح   والناس إثنان ممنوح ومسلوب

كاد هذا الاقتراح أن يدخلنا في متاهات شكوك أهل الجهل، إذ جرى التحقيق بشأن الغاية من هذا المقترح، والقصد منه؟ أجبنا أن من اقترح الموضوع لا ناقة له في السياسة ولا جمل. عندما اطلعوا على السبب بطل العجب وتوقف الشك والتحقيق. حللوا رواتبهم الحرام. والحال كنّا قد اتفقنا مع اسماعيل الترك أن ينحت الحلاج أسوة بمنحوتة أنوريه دي بلزاك[28]، مع الفارق هو أن ينحت خرقة التصوف من دون جسد من البرونز بالحجم الطبيعي، سعادة في التحليق في سماء التخيل.. لم تكتمل.

في ساحة الطلائع، وفي موقع غير سليم وسط التقاطع، اختير من قبل الامانة، أقيمت نافورة كانت من نصيب الخزاف سعد شاكر: موقع بعيد عن تمتع الناس، إذ كان من الصعوبة الوصول إليه نظراً للسيارات المسرعة. تم ذلك على الرغم من قيام جريدة "الجمهورية" بنشر مقالة لي بعنوان (العمل الفني والواقع اليومي) محاولا ايقاف التشويه وتهافت الفنانين، جاء فيها:

"تتطلب أعمال التطوير والإدامة في المراكز الحضرية، وبخاصة في المدن القديمة، اتخاذ قرارات قد تكون في مقياسها المعماري (على الرغم من تناسقها



فيما بينها جمالياً) مجحفة في صرامتها على الفرد الاعتيادي، خصوصاً في تعامله معها من خلال تكرار عمله اليومي المستجد من خلال إجراء عملية التطوير. إن هذه الصرامة قد تؤدي بالفرد الاعتيادي إلى الشعور بالنقص، وبالذات عند عدم تعوده على التعامل مع المستجد من المقاييس المدينية، والتي تفرضها المتطلبات الحياتية المعاصرة. فنحن في تعاملنا معها أقرب ما نكون في تعاملنا مع آلة معقدة جديدة علينا لم نعتد عليها."

من هنا، ظهرت ضرورة تطويع مقاييس الأعمال التطويرية الكبيرة، وإعادتها إلى المقياس الإنساني للفرد الواحد، المتعامل معها باعتباره هو نفسه موضوع الارتكاز في أية عملية تحديثية. ويتم ذلك عادة بتأثيث الشوارع وتشجيرها وإغنائها بالأعمال الفنية.

إن عملية تأثيث وتشجير المناطق عملية متشابكة لها ضوابطها التصميمية والبيئية المعروفة لذوي الاختصاص.

إلا أن الأعمال الفنية، وبخاصة في مدننا المعاصرة، عملية جديدة وفريدة. وعلى الرغم من كونها عملية إبداعية، فهي تحتاج إلى دراسة وافية لموضوع العمل الفني ومادته وحجمه وموقعه ضمن منظومة تتوالف مع المنظومات الأخرى المكوّنة للحجم المكاني الذي يكون الانسان منفرداً أو بمجموعات جزءاً من هذه المنظومات بحركته وتصرفه اليومي.

إن توالف هذه المنظومات أشبه ما يكون بتوالف مقاطع حركات القطعة الموسيقية الواحدة.

وهذا المنطق يحتم علينا وضع معايير معينة في اختيارنا للمواقع والمواد والمواضيع، بل حتى في اختيارنا للفنان وأسلوبه الفني في العمل، لكي تكون عملية الاستكشاف للعمل ذاته إحدى جوانب التصرف الإنساني للفرد في مدننا الحديثة، ذلك أن ترك الاختيار للفرد بالطريقة والوقت اللذين يرتأيهما والفترة

الزمنية المستغرقة لاستكشافه العمل ومفرداته التفصيلية هي بحد ذاتها، عملية خلاّقة ذات أبعاد إنسانية، وهي على خلاف نقيضها في إجبار الفرد على تأطير رؤياه الفنية، وفرض العمل بمفرداته بطريقة قسرية قد تؤدي إلى مردود مخالف للمتطلبات أعلاه، وبالأخص إذا ما تحولت جميع الأعمال الفنية إلى نصب ذات قيم أخرى، فقد تفقد النصب المعنية قيمتها المعنوية المتوخاة من إقامتها أصلا. إن أكثر الفنانين في أعمالهم الفنية ميالون إلى قيامهم بتحديد الموقع والحجم والموضوع، بحيث يؤدي في النهاية إلى البطولية والتسجيلية في عملهم.

ولنا أن نتصور هنا، وفي سياق هذه الرؤية، أن معظم أعمالنا الفنية، حتى في بعض أقنية الأبنية، هي أكبر حجماً من أسد بابل، إن هذه الرؤية التي لا تكترث بالسلوك الطبيعي للفرد الاعتيادي، تستلب من الأعمال قيمتها الفنية وأبعادها التحضيرية والتثقيفية، فهذه الرؤية هي، في أساسها، رؤية سلبية حيث تفقد الموضوع انتماءه إلى المكان والمحيط. ذلك أن للعمل الفني بحد ذاته منطوقه الذاتي الخاص به والذي يتكامل ويتناغم مع حقيقة كونه واقعاً ضمن أطر ومنظومات متعددة ذات أبعاد وقيم قياسية مغايرة. فلماذا لا يكون العمل الفني مع الشجرة المجاورة والبناء المحيط وعلاقته بالعمل الفني الثاني المجاور له. كلها مجتمعة تتناغم فيها بينها متوخية خلق أجواء الغرض منها إسعاد وتنوير حياة الفرد؟ إنها كالسماد بالنسبة للنبتة إذا ما قورنت بمتطلبات الإنسان الروحية والفكرية من أجل عطائه ونتاجه المبدع.

فما أجمل أن يكون للفرد وللمجموع حس فني وتحاور عفوي يومي مع العمل الفني، يتلقاه ويترجمه، مطلقاً لمخيلته العنان، فيروضها ويدرِّبها على القيم الجميلة والنقاء الحسي، من خلال هذا التلقي السلس في اخراجه، المتشعب باستيعاب المتلقي له من خلال إثارة الأحاسيس الذهنية عنده.

ما الفائدة؟ توالت النصب وزاد التشويه. الكثير من الفنانين المحترمين



شاركوا في هذا التشويه. الكبير فائق حسن[29] خيّب الآمال إذ نفذ طلب وكيل أمين العاصمة الفني، وهو عمل لوحة عن الرئيس في مدخل مبنى أمانة العاصمة. لقد أغري بما يعادل الـ100 الف دولار ونفّذ جدارية أكبر من جداريته الجميلة في حديقة الأمة التي نفذها في نهاية الخمسينيات، جهة ساحة الطيران. (شوّهت عندما دهنوا حمامات السلام "الهدامة" بالدهان كي لا تحلق وتحرّض على حب السلام!).

المدلول الهندسي، أي البعد الذي اتبع منذ البداية في تصميم الأبنية، وهو الـ 90 سم المتكرر، طبّق على جميع المنظومات: في تثبيت مواقع الأعمال الفنية، ونقاط تثبيت أعمدة الإنارة، وفي تصميم ونصب الأثاث، والتشجير. لم يستوعب الجميع تناسب هذه الأبعاد بصورة مباشرة، وإنما بطريقة تجعلهم على إدراك بأن للشارع نظماً وأصولا ونهجاً واحداً متناسقاً. لم يتم أي اعتراض أو استفسار من أي من المعنيين أو الفنيين عن سبب استخدام هذه الأبعاد في التنسيق، لربما لعدم اهتمامهم أو فهمهم القصد من ورائها، الاّ مرة واحدة، وهذه المرة هي النخلات التي زرعت على أبعاد 5400 سم الواحدة عن الأخرى، وهي تمثل ما مجموعه ست وحدات هندسية قياسية المعتمدة لتصاميم الشارع من اليوم الأول وحتى في تحضير رسوم المسابقة في بيروت. تسّلمنا اعتراضاً شفهياً موجها إلى الأمانة، وحسب ما هو متبع من تقاليد أحال الاعتراض معاون رئيس قسم الإنشاءات إلينا للإجابة عليه. سؤال صريح مهني لا يتحمل أي شكوك. كل شيء في الشارع جديد يحتمل التساؤل والاستفسار. فجهزنا رداً توضيحياً عن معطيات تصميم منظومة التشجير. عند تسليم الرد لرئيس قسم الانشاءات صاحب التساؤل، رفض تسلمه، واقترح نشره في إحدى الجرائد، وهو في نأي عن التعامل مع هذا الاستفسار، بحجة أن السؤال موجه إلى الاستشاري. ولحسن الحظ لم يحظ

هذا الاقتراح باهتمام أحد. أهمل الجواب والسؤال، فالسؤال من قبل المعاون كان ملغماً، أو مفخخاً بلغة اليوم. ثم تبيّن لاحقاً أن السائل أو المتسائل كان "الأخ الأكبر" صاحب السلطة، رئيس الجمهورية، وهو العارف بزراعة النخيل المثمرة، حيث يجب أن تزرع بمسافات متباعدة.

مرت هذه الورطة غير المتوقعة بسلام. مرة أخرى أفلتنا من المصيدة في بلد الأحقاد، ولاسيما أن الرد تضمن شيئا من التسفيه الخفيف المبطن، جاء فيه:

"التشجير المديني له خصائص ومتطلبات تختلف عنها في زراعة البستنة، حيث أن هذا النوع من التشجير، إضافة لما له من قيم جمالية معمارية تخطيطية معروفة لذوي الاختصاص، هنالك خصائص يمكن أن تفرضها مواقع الأبنية واتجاهات حركة المرور. التخطيط الحضري للمنطقة موضوعة البحث مع استعمالاتها تفرض تكثيف زراعة النخيل وللأسباب التالية:

1- عمل حاجز صوتي ماص للضوضاء الناتجة من المرور وخاصة كون جذع النخلة من أحسن المواد الماصة بعد الفلين.

2- التظليل.. إن الانعكاسات الحاصلة من الإسفلت والأرصفة المبلطة (على الرغم من تشجيرها بأقصى قابليتها)، هذه الانعكاسات الضوئية (الاشعاعية) والحرارية في الصيف مزعجة جداً، لذا يكون النخيل وبكثافة، المرشح الضوئي والمهدئ لهذه الانعكاسات.

3- زراعة النخيل في شارع حيفا، على بعدين قياسيين الأول من ساحة جمال عبد الناصر وحتى ساحة النصر هو أكثف من النخيل من ساحة النصر إلى ساحة حماد شهاب والسبب في ذلك هو لوجود إنحناءات قوية بين الأول قد تكون أقصى ما تسمح به السلامة في المرور، نتجت هذه الإنحناءات عن تلافي تهديم بعض الدور ذات القيمة التراثية، إضافة إلى إغناء الشارع بتبديل المنظور والابتعاد عن الرقابة في استكشافات الأمكنة، إن ذلك لا يتم إلا بخلق جدار



تشجيري، وخير من يوفر هذا الجدار هو النخيل بجذوعه المتينة.

إن اتصال جمالية الشارع، بجانبيه هو المقصود من عملية التشجير، إلا أن استكشاف المار لهذه القيم الجمالية دفعة واحدة يؤدي إلى فقدان الرغبة في التمتع بهذه القيم بعد فترة وجيزة من الزمن، لذا تأطر كل اتصال جمالي ضمن إطار تشجيري، أوجب هذا المنطلق وضع النخيل بمدلول هندسي متناسق مع أرصفة وأعمدة وأروقة الأبنية بصورة شاملة، فهنالك تنسيق بين جميع أبعاد الشارع مبتدئاً من البلاطة الواحدة وحتى الأبعاد المقررة للنخيل. ينبغي أن لا يخفى على الجميع أن جميع العاملين في شارع حيفا استهدفوا ومنذ اليوم الأول بالقرار التصميمي الأول وهو إيجاد نمط للتطور الحضري تنفرد به مدينة بغداد، وأن ذلك لا يتم إلا بمحاولة الاختبار والتجربة والتقييم المستمر. إن هذا الفريق على علم بأن ما سيتم في شارع حيفا سيكون مثالا يحتذى به في تطوير المناطق المختلفة من بغداد."

مما يؤسف أن النخيل في الجزرة الوسطية تباعد، مات قسم منها من جراء الحروب المتكررة في الشارع، أو اغتيلت في الحرب الطائفية، أو شملها حصار المحرر/المحتل/المنقذ، للمنطقة المشاغبة في شارع حيفا، أو لم تدام حسب المطلوب.

على الرغم من قلة الساحات العامة إلاَ أنها أدت دوراً مهماً في إضفاء جو حميمي على الشارع، فقد توزعت ضمن المساحات الموجبة. في التصميم المعتمد من قبل رب العمل، كانت هذه الفسح واضحة ومثبتة، وموزعة بين المنشآت المختلفة، في نسق مدروس وحسب الحاجة. كانت مجاورة للجوامع، جامع أمين وجامع عطا والشيخ صندل، بين الأسواق كما في مشروع الجزء السادس، في وسط الأبنية كما في الجزء الثالث والسابع والخامس. مناطق مفتوحة، معرَفة أو محددة بالأبنية المشيدة، تكتسب حميميتها من المقياس الإنساني.



المبنى العتيد، والذي تم تأجيل القضاء عليه ببلدوزرات فريق الهدم في أمانة عاصمة بغداد، يقع في بؤرة أكبر فسحة/بلازا عامة في المشروع، في الجزء السادس، ويتكامل مع حدائق السفارة البريطانية الغنّاء، مجاور ومحدد بدور موروثة ذات قيم جمالية حميمية. بتهديم هذا المبنى قد تكبر المساحة وتضيف للجزء السادس من الشارع قيماً جمالية أخرى، وما يؤسف له أن جودته الانشائية ومساحته الكبيرة المتوفر استغلالها تعد خسارة إذا ما هدم. كانت هناك امكانية تدويره وتحويله إلى استعمالات يفتقد إليها الشارع، كمكاتب أهلية أو سوق داخلي، مدرسة أو مستشفى. بيد أن المعمار المسؤول عن الجزء السادس كان على استعداد للمساومة على الجماليات. فمن أجل المنفعة العامة وتكامل المشروع اقترح الإستشاري ومدير المشروع المحافظة على المبنى وتقديم المقترحات لأجل الحفاظ عليه وتدويره، وهذا الرأي رحب به الأمين، إلاّ أن المقترح قوبل برفض صارم من قبل رئيس قسم الانشاءات الذي بات المسؤول عن الشارع، بعد أن هاجر المستشار الفني رفعة الجادرجي والمسؤول الأول عن الشارع. كان الرفض بلا سبب مقنع، سوى وضع الفيتو على عمل الاستشاري. وهكذا هدم المبنى وأزيل من الذاكرة، ككثير من الموروثات التي لا نتذكرها الآن.

الفسحة الناتجة عن ذلك صممت وزُينت بأعمال فنية، وأحد الأعمال المقترحة كان على هيئة مسلة لم يتمكن النحات الصديق محمد غني من تنفيذها لانشغاله بنحت أهم وأكبر حجماً في مدخل وزارة العدل، وهو عمل لا يمت بمنظومة الشارع الفنية، ويناقض كل ما ارتآه الاستشاريون، بيد أن النحات والوزير قررا الأصلح لهما وأسهما بتشويه المدينة والمكان.

بسبب استدارة الشارع أمام السفارة البريطانية أضيفت فسحة صغيرة التزاماً بالمعايير المتبعة في تصاميم الطرق، أي هي تحصيل حاصل. عند



مفاتحة السفارة بالحاجة لمساحة خالية هي جزء صغير من الحديقة، قوبل الطلب بالرفض وكاد الأمر أن يتسبب بخلاف دبلوماسي بين الدولتين. زار القنصل أو القائم بالأعمال "المستر رانزي" مكتب التنسيق، ووضعناه بالصورة واطّلع على التفاصيل من تصميم الشارع إلى تصاوير السياج الجميل، وكيفية إعادة تشييده ثانية بعد تزحيفه بضعة أمتار، كما اطلع على المسببات الحقيقية، وكيفية توفير مدخل جديد وواضح للسفارة، فوافق بشرط منحهم مدة كافية.

لم أفهم سبب طلب هذه المدة إلى أن بدأت أعمدة الدخان تتصاعد من حديقة السفارة: دخان أسود وأبيض، وفي بعض الأحيان رمادي. بدأ كما يبدو حرق أضابير وأوراق سرية. ولارتفاع الأبنية المجاورة تم التلصلص واكتشاف كمية من الوثائق التي جرى إحراقها بعد أن أخرجت من مخزن مهلهل خلف السياج. ما زال لغز الوقت لم يحل، إلى أن ظهرت ناقلتان بأرقام كويتية، مع مقطورتين جبارتين، كل منها حملت مبنى صغيراً جاهزاً، واضطرت السفارة إلى طلب المساعدة في إزالة أبواب المدخل القديم وتوسيعه لإدخال هذه الدور إلى حديقة السفارة.

كنا على استعداد للتشجير والتخضير منذ الأيام الأولى للمشروع. مدير المشاتل في أمانة العاصمة زميل ضياء من عائلة المؤمن، عائلة كرخية أصيلة، عانى ماعاناه الى أن أكمل التشجير، فحرامي بغداد، لم يفوت حتى الأخضر بعدما انتهى من اليابس. تمكن المؤمن بكرخيته المعهودة من التخلص من حرامية الكرخ، بواسطة مهادنتهم، إذ خصّص لهم كمية معينة من الشتلات المتوفرة في مشاتل أمانة العاصمة، بشرط عدم المسّ بمزروعات الشارع: نجحت العملية، وازدهر الشارع وفسحه.

أول من أدخل نبتة الدفلى الى العراق هم الإنكليز: نبات مرّ، مرتع لحشرة دبقة صغيرة صفراء، مزهر دائماً، وبألوان حمراء أو بيضاء. ولمرارة مذاقه

لم يقترب منه الحيوان أو الإنسان، الماعز والخراف لا تستسيغه، والناس لا تزرعه ولا يسرقه أحد، خوفاً من الحشرة الدبقة. استعملت هذه النبتة كثيراً في شوارع بغداد، كجزر وسطية تمنع المارة من العبور من خلالها: جلبتم الدفلى يا مستعمري الأمس.. هاكم إياها ثانية!

في تلك البلازا الجميلة أحتفل بتدشين الشارع بعد الانتهاء من أعماله الانشائية. برغم اعتراض معاون أمين العاصمة الفني المهندس، وهو المسؤول الوحيد المباشر. كان سمير الشيخلي قد ترك الأمانة وبات وزيراً للداخلية، وتسلمها عبد الوهاب المفتي الذي لم يدم طويلا لتصفيته بتهمة خيانة الأمانة عند وجوده في وزارة الاشغال، ويقال إنه استدعي للقصر ولم يعد حياً، بل عاد أشلاءً.

والحال جاء اقتراح افتتاح المشروع في البلازا الجميل من قبل الاستشاري، ليس لوقوعها ضمن الجزء المصمم من قبله، وإنما هي الفسحة الوحيدة البعيدة عن ضجيج المرور، ومحاطة بمرافق المشروع الحديثة والموروثة. أيا كان الأمر فالتدشين عملية ممجوجة، يراد منها التباهي. والمتباهي شخص لعب أصغر الأدوار في الإنجاز. لقد كان سبب رفض الموقع ونقله إلى وسط الشارع، حركة لا تخلو من سماجة، الغرض منها عدم تأكيد الشأن المعماري الجيد للجزء المذكور. لقد تم نصب السرادقات وتمت التأسيسات الكهربائية في وسط الشارع العام بناءً على رغبة الوكيل الفني، لكن صادف أن مرّ أمين العاصمة المفتي وطلب إرجاع السرادقات إلى البلازا، وهو الموقع الطبيعي والاختيار البديهي، على الضد من إرادة الوكيل. بيد أن إنكار ما لا يمكن إنكاره استمر لما بعد الافتتاح، بسبب أنانية مهنية لا إرادية تتلخص بتجاهل دور جميع الاستشاريين في إنجاز المشروع، فقد نوّه بدور الموظفين العاملين العراقيين فقط، برغم استغراب الأمين وسمير



الشيخلي الأمين السابق صاحب القرار الأول في إنجاز المشروع. حتى الرُقم التذكارية المحضَرة سلفاً لتكريم العاملين أهملت ولم توزع الأصلية منها. لقد أرادني المهندس الزميل عبد الحسين الشيخ أن أتسلمها بعد توليه منصب الأمين، بيد أنها كانت قد نهبت لاحقا مثلما نهب الأخضر واليابس.

لقد جرت احتفالات ودعوات سخيفة بمناسبة الافتتاح، بينما الكوادر الجامعية التعليمية التي خصصت لها الشقق السكنية أصلا كانت بانتظار مرعب. الكثير منهم كان في حالة يرثى لها. إحدى الأكاديميات رابطت في الموقع لمدة طويلة من الزمن، بعيون دامعة. لها عدد من الأطفال وزوجها خارج العراق يحاضر في إحدى الأقطار العربية، ومالك الدار أنذرها بإخلائها ضمن مدة قصيرة، عاتبتنا بسخرية: ما لي واحتفالات امانة العاصمة!

الآخر هو بروفسور عائد من ليبيا، لم يتسلم استحقاقاته من ليبيا وعائلته محشورة في بيت قريب له، ينتظر الفرج، عاتب وتساءل ساخراً: هل الاحتفالات وشرب الممنوع وأكل الدسم في حدائق فندق الرشيد هو ما يعرقل التوزيع؟

تم تحضير معايير تترجم إلى نقاط رقمية لغرض اختيار المستحق. من يجمع نقاطاً محددة يدخل القرعة، وتباع له الشقة بسعر رمزي. من هذه المعايير: عدم تملك سكن، حجم العائلة، الشهادات والبحوث.

خارج هذه القيم الرقمية توالت "المكرمات": للكردي الجحش حصة[30]، وللسوري المعارض حصة، والمحظيات حصص، وللمظلوم من الأساتذة الذين حصلوا على نقاط محدودة، البحص المغلي.

الهوامش

1 - سيارات رباعيات الدفع، أميركية الصنع من جنرال موتورز، واسطة التنقل بين بغداد وعمان الأثيرة.

2 - مسلخ باللغة اليونانية شبيهة الدلالة في العربية: سفاكية!

3 - في البحث عن العمل يتجمع العاطلون في مناطق معينة، ومن يبحث على يد عاملة ينتقي منهم لأعمال غير دائمية: هذا التجمع يسمى المسطر.

4 - قسم من الكتب، والمجموعة انتقلت معي بين بيروت وأثينا.

5 - من كبار المعماريين العراقيين، ابتدأت الممارسة في مكتبه، علاقته المهنية والفكرية وصداقته منشورة في كتابه المهم "الأخيضر والقصر البلوري"، دار رياض الريس، 1991.

6 - أمين عاصمة، شاب كفء وحزبي من الكادر المتقدم، عمل وزيراً للتعليم العالي ثم وزيراً للداخلية.

7 - قضى عشرون شهراً في سجون وطنه الأم، سجل وزوجته الصديقة بلقيس شرارة كتاب "جدار بين ظلمتين" دار الساقي، 2003.

8 - وضعت خطة لتطوير بغداد حتى سنة 2000، واعتمدت في 1973 وحسب تصميم أساسي معد من قبل شركة بولونية.

9 - الطابوق العراقي المعمول ميكانيكياً، النظيف غير المشوي في الكوَر، الافران النفطية القديمة، انتاجه محدود لاستيلاء دوائر التصنيع العسكري على المنتوج بأجمعه. المقر العام لنقابات العمال الواقع في المنطقة الخضراء المشيد في 1974 لم يكس بالطابوق حسب التصميم الأصلي المعد في حينه، وإلى يومنا هذا.

10 - بعد سكن المشروع قدم الأساتذة الاكاديميون طلبا بعزل المشروع عن المنطقة، وذلك لتجنيب أولادهم من الاختلاط بأولاد الدور المجاورة ذات المستوى الإجتماعي المتخلف حسب زعمهم، وتم تلبية طلبهم هذا بتشييد مشبك حديدي عازل.

11 - هذه التسمية هي الأصح في وصف عمارة المنطقة، لأنها نتاج عرب فيهم غير المسلم ومسلمين فيهم غير العربي.

12 - صمّم البناء المهندس الاسباني الاميركي "خوسيه لويس سيرت" 1902-1983، ولد في



برشلونة صديق "خوان ميرو" ومصمم متحفه.

13 - مهندس مدني اميركي مصمم ومخترع، صاحب القبة الجيوديسكية 1883-1995.

14 - ميدان "بوتسدامر بلاتس" الذي يطلق على وسط برلين الجديد بعد إعادة بنائه خلال تسعينيات القرن الماضي.

15 - وهو الخضر من الأولياء الصالحين يستجيب لنذور النسوة.

16 - احتفالات ليلة النصف من شعبان يصاحبها استخدام الألعاب النارية والمفرقعات وإحياء الليل كله.

17 - هناك تقليد سنوي يتم في الخامس من نوفمبر من كل عام في بريطانيا للإحتفال بفشل مخطط "غاي فوكس"، وهي ليلة الأحتفال باشعال النيران.

18 - وتوافق الأول من شهر شعبان من كل عام، وتقوم النسوة البغداديات بتهيئة الصينية التي توقد فيها الشموع الملونة.

19 - "لويس ماسينيون"1883-1962، من أكبر مستشرقي فرنسا وأشهرهم، نشر "ديوان الحلاج" مع ترجمته إلى الفرنسية، كذلك "مصطلحات الصوفية" و"الطواسين"، تتلمذ على يد محمود شكري الالوسي.

20 - غيرترود بيل 1868 - 1926، باحثة مشهورة عملت في العراق مستشارة للمندوب السامي، مؤسسة المتحف العراقي.

21 - مِعمار سِنان 1489-1588. عاش في القرن العاشر الهجري في أوج العصر الذهبي للعمارة العثمانية وكان رئيس المعماريين وأشهرهم خلال حكم أربعة سلاطين.

22 - "راينر فاسبندر" مخرج مسرحي وسينمائي 1946-1982.

23 - ألماني من جماعة الباوهاوس 1891-1978 قبل هجرته الى انكلترا في العهد النازي.

24 - مهندس لبناني عمل في العراق في أوائل القرن الماضي عند تشييد قطار الشرق السريع.

25 - مهندس إيطالي كان موظفاً في مديرية السياحة العامة في الستينيات له مبنى يقع في ساحة التحرير.

26 - الناقد والكاتب الفرنسي "رولان بارت" المشهور بنظرياته في علم الدلالة واللسانيات، بيّن في إحدى نظرياته أن الأعمال الموهمة تؤدي بتكرارها إلى خلق الاسطورة. وعلى

هذا النحو خلقت الحاشية من الرئيس اسطورة.

27 - رواية بوليسية للكاتب الايطالي "امبرتو ايكو" تدور حول جرائم ترتكب باسم كتاب ديني يبحث في تحريم الضحك في الكنيسة.

28 - بلزاك 1799-1850 روائي فرنسي، إنتاجه غزير من الروايات والقصص.

29 - 1914-2003 من اكبر رسامي العراق.

30 - بعض العشائر الكردية المناوئة للبرزانية قاتلت مع الحكومة المركزية، نعت أفرادها بالجحوش، لهم حصتهم في العراق القديم والجديد.



اعتادت المدن الألمانية على إقامة معارض معمارية للتحديث ومراجعة النظريات السائدة في العمارة المعاصرة. ابتدأ هذا التقليد منذ مطلع القرن العشرين إذ أقيمت معارض دولية تدعى "الباو آوشتيلونغ" أو "بالإنتر باو". المعرض الذي أُقيم في برلين في مطلع العقد الأول من القرن الماضي ومازال يقام على فترات متعاقبة عدّ في حينه نقطة تحول ووقفة مهمة في تطور العمارة والتخطيط الحضري ولاسيما السكني منه، ليس في ألمانيا وحسب بل في العالم. معرض برلين للعمارة أصبح بعد السبعينيات مؤسسة لها استقلالية وسلطة تخطيطية فذة استقطبت عشرات المعماريين المبدعين وأفسحت المجال لعرض أفكارهم الجديدة ووضعها قيد التنفيذ. إنجازاتهم حوّلت المدينة متحفاً حياً لفن العمارة والتخطيط، ساعدهم في ذلك أن المدينة ضمت جواهر معمارية من تصميم "بيتر برنز"[1]، و"كارل فريدريك شنكل"[2] وغيرهم، فضلا عن تخطيطات هتلر المعمارية الخاصة بأبنية الرايخ الثالث السيء الصيت.

تتشابه برلين مع بغداد في استيعابهما المفرط للتجديد. في بداية القرن العشرين بدأت برلين التخلص من كثير من الأبنية المتهرئة وتشييد مجمعات سكنية مهمة من قبل "ميس فان در روه"[3]، ومعامل من قبل "بيتر برنز"، و"والتر كروبيوس". توالت هذه العملية إلى يومنا هذا. خلال الحرب العالمية الثانية جرى توجيه نمط التحديث إلى العمارة الصارمة المرافق لجنون العظمة، مثال على ذلك بناية الرايخ الثالث، والملعب الأولمبي 1936 المنفذان تحت إشراف "شبير" معمار هتلر وصاحبه في التصنيع العسكري، مع الفارق بين علمه وثقافته وبين جهل حسين كامل وزير تصنيع النظام السابق.

الهدف من جميع هذه المحاولات والحركات والمانفيستات الألمانية في

بداية القرن الماضي وما تبعها، هو توخي الحياة الرغدة الفاضلة.

في مطلع القرن الماضي تم تحديث بغداد جذرياً في شق شوارع طولية موازية لنهر دجلة الجاري من الشمال نحو الجنوب. افتتحت في الرصافة شوارع: الرشيد، والمستنصر، وغازي، والإمام الأعظم. وفي الكرخ افتتحت شوارع: الملك فيصل، والشواكة، وموسى الكاظم، وامتداد شارع المأمون (الأردن). وصل عدد الشوارع المستحدثة في سنة 1932 إلى ما يزيد عن 25 شارعاً، كما صممت واستحدثت في بغداد العديد من المناطق السكنية حضرياً بكفاءة عالية وبكثافة معقولة، وخدمات حديثة مواكبة، في السعدون والأعظمية والمنصور والكرادة.

بغداد قبل التحديث في سنة 1944 موازية لمجرى النهر



مؤسسة معرض برلين أصبحت مؤسسة دائمية، ديدنها إيجاد أفضل الحلول التخطيطية، وانتقاء المشاريع بعد إجراء مسوحات وقرارات تخطيطية مناطقية على مستوى المنطقة-المحلة وليس على مستوى المدينة، المبتلية حين ذاك بمناطق قُصفت ومُسحت، مقسمة بجدار فاصل غير إنساني مشابه في بشاعته اللا إنسانية لجدار القدس والضفة، وحديثاً لجدران بغداد الخضراء والأعظمية وغيرها من المناطق المأهولة.

بعد المراجعة والدراسة، رجوت بإصرار، من صاحبي "مانفرد" الألماني البروسي البحث عن جماعة لها صلة بتحديث برلين، ومن مؤسسة المعرض إن أمكن. تمكنّا لاحقاً من انتقاء مديرة مشروع وهي الدكتورة "كريستين أمان"، مخططة مدن تقدمية جداً، فاعليتها تساوي عشرة رجال، ولها كتاب في كيفية استعمال الشوارع كأحياز موجبة، يساعدها دكتور عمر أكبر مخطط أفغاني برليني فطحل هو الآن عميد مدرسة "الباوهاوس" في "وايمر" وما زال خير زميل وصديق. الإثنان عرّفاني بدورهما على معماري شاب يشع طموحاً وعمارةً "مانفرد سوندرمان"، أُستاذ في وايمر الآن. أتممنا فريقاً من جميع الجنسيات ممن لم نحصل على اختصاصه وبكفاءة من جامعاتنا في العراق، واتجهنا الى إنكلترا وايرلندا، وبذا حصلنا على فريق متكامل كفء متنوع المنابع.

حطّت المنتظرة في رحاب بلد الرشيد بصحبة المكوك مانفرد موللر. كانت سيدة في نهاية العقد الثالث، بملبس بسيط يخلو من كل أكسسوار، كل شيء طبيعي ينم على مدى جدية واحتراف الدكتورة مخططة المدن. من خبرتي الجيدة بالعنصر النسائي الألماني، كنت أقدر أن كريستين أمان بقدر مالها من أفكار متحررة وتقدمية من ناحية البيئة والخضرة ومبادئ التخطيط وحقوق الإنسان في ممارسة حياته بحرية ودمقراطية، هي محافظة في

تربيتها البيتية وعلاقاتها مع الزملاء والأصدقاء. إنها كأي متمكن بورجوازي في وسعه اعتناق الأفكار التقدمية. المهم أن الفرقة بمجموعها كانت مثالية للعمل في بغداد، وكنت واثقاً منذ اللحظة الأولى بأنها ستحظى بترحيب واحترام الجميع، وهي بتركيبتها تلك ستوقف الأصدقاء والزملاء والسلطة عند حدودهم، ولسوف لن تشجع على إطلاق خيالاتهم الواسعة غير المهنية. والحال تأقلمت الدكتورة بسرعة، ساعدها في ذلك معرفة لا بأس بها بعادات وأخلاق أهل المنطقة، ناتجة من زواج أختها الكبرى من عربي فلسطيني يسكن بيروت. كان ترحيب الأمين والمستشار بها ومنحها ما تستحق من احترام مهني سهّل الكثير من الأمور، فضلا عن معرفتي التامة بمفاصل التصرف الألماني المهني والإجتماعي، والأهم هو ما وفره لها فيصل مدير المكتب مما احتاجته من مستلزمات المعيشة في بغداد.

كان عتبة العمل مع مانفرد وكريستين وفيصل هو التجول في صوب الكرخ لتثبيت حدود الدراسة، أي حدود الجزء الممتد ضمن مركز بغداد الذي تم تثبيته في المخطط الهيكلي للمدينة. لقد وجدنا أن الدراسة التي ينبغي القيام بها محددة أصلا بمحددات واستعمالات تحيط المنطقة، ففي جنوب المنطقة هناك المركز الحكومي والقصر الجمهوري، وفي الشمال صناعات السكك الحديد في الشالجية، وفي الغرب مقابر قديمة بمساحات شاسعة، كالشيخ معروف والشيخ جنيد. بالطبع هناك النهر الخالد، دجلة الخير من الشرق.

بعد المداولة مع المستشار، وبعد أن أضيف جزء تاسع لأجزاء شارع حيفا الثمانية، وهو الجزء المستحدث إلى شمال الموقع في العطيفية لتشييد المسرح الوطني الجديد، لخدمة الكرخ والكاظمية، تم تحضير التصميم على شكل خيمة كبيرة، من تصميم "رولف كوتبرود"[4]. ما لم نتمكن من تحديده هو



حجم فعاليات الدراسة ومقدار المتغيرات، بالرغم من غربلتها بمنهاج شبكتنا الألمانية المعهودة. كانت المتغيرات والمجاهيل كبيرة جداً استحال معها تحديد المدة التي ستستغرقها الدراسة، أو حجم الكوادر اللازمة، ونوعية الإختصاصات المطلوبة لإجراء الدراسة.

وجدنا أن الحل الأمثل هو تقسيم الدراسة إلى مرحلتين: الأولى تثبيت واقع الحال والتعرف على خفاياه، إستكشاف مفصّل لكل مرافق وأوجه الحياة الكريمة منها وغير الكريمة في المنطقة، والتعرف على ما توفره وما تحتاجه من خدمات، لوضعها وجدولتها في مسار التطوير والتنمية. فمن خلالها يتم تعيين المطلوب من كوادر واختصاصات وجدولة فترات عملهم، وبالتالي تعيين ما ستكلفه المرحلة هذه.

المرحلة الثانية تأتي بعد تعيين الأهداف، وهي بحد ذاتها عملية معقدة، ولاسيما في بلد يحكمه الحزب الواحد بل شخص واحد، ومن ثم وضع الاستراتيجيات والأسس التخطيطية للتطوير، وبالتالي الانتقال إلى مراحل التنفيذ، وتعيين المشاريع الواجب تنفيذها، وإعداد أطقم التنفيذ مع الجدولة الزمنية، وتعيين الأولويات لغرض الوصول إلى الأهداف المرجوة.

تفرق الجميع بعد وضوح صورة الإمتحان القادم، وصاحب السعادة والعصمة الاستشاري المسؤول، ظل محجوراً عليه في المحجر/الوطن الكبير بدون جواز أو موافقة السفر، فيما كان منشغلا بالعمل والعبث في حياة مليئة بالجيد والغث من الأحداث.. حَجر قد يشابه حاجر "دانتي" "البيركاتوري" في كوميدياه الإلهية[5]. هذه الحالة وانتفاضة الأرض المحتلة سَجلتها في نهاية التسعينيات بمجموعة من اللوحات الكبيرة، سَميتها الحاجر، ثم في معرض شامل في بيروت في "الابروف دارتيست"، سميته الوطان، "نوستوس" الصرخة التي جاهر بها يوليسيس أو عوليس في الملحمة المعروفة الأوديسة



في القرن الثامن قبل الميلاد. نوستوس هو الاشتياق الموجع للبيت. الوطان على وزن الوجدان.

كانت هناك المستحقات الشخصية في الخارج، وهي مهمة: العائلة، وابني بكر بوجه خاص الذي كنت انتظر تخرجه من الإنترناشونال كوليج في بيروت، ووجوب التحاقه بمدرسة رود آيلند للتصميم في بروفدنس بالولايات المتحدة الأميركية.

في ساعة متأخرة من الليل بعد وصولي للبيت أخبرتني العمة الحارس الأمين، والمرافق الأقدم، أن المخابرات اتصلت هاتفيا، متمنية بصيغة الأمرالحضور في الساعة الثامنة والنصف صباح الغد في بوابة المخابرات الخضراء (غير خضراء اليوم) بداية مدينة المنصور. وكانت ليلة ليلاء بكوابيس مكعبة قضيتها بانتظار الفجر. خطر في بالي تحقيقات الجواز، إلا هنالك مئات من الأسباب الأُخرى المقلقة والمؤرقة. كانت الكرخ وحيفا أوسع من نطاق فهم واستيعاب أدمغة المخبرين الرخيصة المحدودة، فقد باتت غابة من الكرينات والمعدات العملاقة، واختلط الكوري بالألماني واليوغسلافي بالصيني. هؤلاء غير خطرين. الخطر هو العراقي ابن البلد الذي يشتغل معهم.

حسب الموعد، متهندماً بحلة رسمية أرتديها في المناسبات فقط، في فاتحة أو عزاء أو تشييع جنازة أو عرس وزواج، كنت في غرفة الاستعلامات، منتظراً مع بشر متجهمين عبوسين. رحت أتسلى بفكرة بائسة: لماذا لا يعينون محققات؟

لكن جاء من يدعوني: تفضل "أستاذ معاذ" كأنه على معرفة مديدة بي، مع ابتسامة صفراء للتطمين. دخلت مبنى جديداً ما زالت رائحة الدهان عالقة في أجوائه. ممر عريض على جوانبه غرف. في الغرفة التي دخلتها وجدت في وسطها طاولة أشبه بطاولة الطعام، وكرسيين متقابلين. تقشف



إداري مدروس، قد لا يوحي برياضة عنيفة صاخبة كالتي كانت في خيالي عن هذا المبنى الذي لعل واحدة من غرفه تستقبل الآن سيء حظ لن يسمع أحد صراخه.

بادرني: "أستاذ طالب موافقة سفر؟ انفرجت الأسارير. الباسبورت بيت القصيد. غير مهم، عساها من دون باسبورت فالأهم هو الخروج من هذا المبنى الكافكاوي الذي هو بلا شك من تصميم أحد زملائي في المهنة. فبعض الزملاء "بدون حسد" كان لهم الحظوة في تصاميم أبنية المخابرات والأمن العام.

توالت الأسئلة، وكان بين يدي مستجوبي إضبارة مجلد عامر، استل منه ما يقترب من لغة كشف الحساب: من أين لك هذا؟ ولم تسكن في خارج البلد؟ أخبرته بطبيعة عملي والأبنية التي قدمت الخدمات الهندسية لأصحابها. بدا مستغرباً عندما علم أن هناك من يحصل على قوته بعرق الجبين. وراح يسأل: هل صحيح أنت مصمم هذا الملعب، وتلك الوزارة في الكويت، سفارة هذه الدول في سلطنة عمان والخرطوم، بنوك وعمارات، في أنحاء الخليج؟ راح يعدد المشاريع مستغرباً. أعلمته بأدب أن هذه هي المهنة لا أكثر ولا أقل، فأنا لم أقم بعمل جبار، لم أفتح "جني قلعة" - تلك القلعة العصية على الاحتلال في العهد العثماني. هذا عمل كل مهندس يريد أن يكسب ما يكفيه من دون طمع أو جشع. لعله تساءل في داخله: إذن لماذا أنت هنا؟

استمر التحقيق لفترة من الزمن ودار حول موضوع واحد: حسابات المصرف، ومقدار الأجور المهنية التي يتقاضاها المهندس لتقديم الاستشارة الهندسية، تسجيل الأطيان إن وجدت، في كل هذا والإضبارة تنتفخ وتتورم بالمعلومات. في الختام "بق البحصة" ووصل إلى مبتغاه من هذه الأسئلة المبتذلة، معلنا نتيجة تشبه نتيجة البديهيات الهندسية: " إذن أنت لا تحتاج إلى أي تحويل خارجي بالعملة الصعبة!". شكرته على اكتشافه براءتي المعهودة.

سؤال واحد أرقني، كان صدقي بالإجابة عليه قد يودي بي للتهلكة. السؤال هو عن سبب الزيارة إلى الولايات المتحدة. السائل بالطبع بعيد عن بدايات إستعمالات الحاسوب في العمل الهندسي.. إنها الولايات المتحدة، العدو الصديق الراعي المحرر الحامي المحتل المستعمِر الغني، بلد الفرص وقبلة مهاجري اليوم. كل هذه الصفات تطلق على بلد واحد. غض الطرف عن الباقي وودّعني مصافحاً وهو ينظر إلى الجهة المعاكسة (المصافحة النموذجية لمجموع العراقيين). لم أجرُؤ على سؤاله عن مصير الموافقة. ما عليّ إلاّ الإنتظار إلى حين التحقق من أقوالي وبالتالي إكمال الملف المنتفخ أصلا.

الحاجة إلى السفر كانت ملحة، فبعض الزعران احتلوا الشقة في بيروت ما حدا بالصديقة نضال الأشقر، فنانة لبنان الأولى، باستعمال نفوذها وإخراجهم منها، ثم احتلت في النهاية وفقدت السكن في وسط حمراء بيروت إلى الأبد، كما فقدت الشقة "الروف" خلال حرب التحرير اللبنانية اللبنانية، إذ أصابها صاروخ مقاوم، صنع خصيصاً لمقاومة الأخ لأخيه، فرفع قسماً من سقف الدار وقتل نادر الفلسطيني ابن الخمسة عشر عاماً، وكان على وشك الهجرة إلى كندا. هاجر المسكين أبديا إلى محل قد يكون أحسن معاملة وأكثر ترحيباً بالشباب الفلسطيني.

جاء الفرج مصادفة، عندما احتج أمين العاصمة سمير الشيخلي في إحدى الجلسات على عدم معاملة العقول العراقية بالحسنى، وضرب حالتي مثالا على ذلك، فانبرى من أعلمه أن لا حاجة للموافقة لمن يحمل إقامة في بلد آخر، من هنا طلب مني مراجعة مكتب وزير الداخلية بصحبة الأوراق اللازمة. في صباح اليوم التالي، وفي مكتب وزير الداخلية، تسلمت رسالة مغلقة موجهة إلى مديرية السفر، لم أفتحها، ولم أعرف مضمونها، فكانت أشبه بحجاب حلاّجي فريد ذا مفعول فوري: تمت الموافقة، مع شاي، على حساب مدير السفر!



والحال كان الجواز العراقي وثيقة لا قيمة لها إلاّ للخروج من الحدود العراقية، بل هو يعقد المواقف، ويهرّب تأشيرات الدخول. وعلى ذكر التأشيرات، فأنا لم أزر القاهرة إلى يومنا هذا بسبب عدم الحصول على تأشيرة دخول بالباسبورت العراقي. سعيت كثيرا لزيارة أرض الكنانة، وحاولت مع مجموعة من المهندسين في قبرص الحضور لافتتاح مكتبة الإسكندرية، فرفض قبطان الباخرة بوصفي من كوكب أخر، غير مرغوب فيه. دعيت مرة إلى إقامة معرض رسم من قبل إدارة قصور الفنون، فجهزت حتى رقاع الدعوة ولم تصل التأشيرة إلى يومنا هذا، فقررت إلغاء المعرض وكان جواب السيدة الداعية مديرة قصور الفنون هو:"يا خبر أبيض!"

يبدو أنني سوف أزور مصر بجواز سفر قبرصي!

العودة إلى بيروت لم تكن حميدة، فبعد انسحاب اسرائيل احتلها الجيش السوري. وكان العراق في خصام حاد مع الجارة الشقيقة وصل الى مستوى استخدام السلاح الثقيل على الأرض اللبنانية.

في شارع حيفا، مقابل السفارة البريطانية، دور سكن بمستوى معماري مميز، تقرر الحفاظ عليها: دار السويدي، العائلة المعروفة في بغداد، وهو من البيكات السبعة حسب تعريف الأستاذ بطاطو في كتابه الفذ عن تاريخ العراق[6]، ودار الدكتور توفيق محمود، زميل العم إبراهيم عاكف في كلية طب استانبول في بداية القرن الماضي. (كنت قد حضرت في هذه الدار زواج ابنته في منتصف الأربعينيات على الدكتور المعروف قاسم البزركان)، دور الظاهر وهي مجمع بعمارة جميلة جداً، وهناك داران الأول يدعى دار "مارنكوز"، ومعنى الكلمة باليونانية والتركية (نجار)، لا أعلم إذا كان لها أي علاقة بـ"نكي مارنكو" الشاعرة/ الرسامة القبرصية المعروفة. جدها "نيكولاس" كان تاجر أخشاب كبير في فاموغوستا. وكانت أول من تعرفت عليهم في

سؤال واحد أرقني، كان صدقي بالإجابة عليه قد يودي بي للتهلكة. السؤال هو عن سبب الزيارة إلى الولايات المتحدة. السائل بالطبع بعيد عن بدايات إستعمالات الحاسوب في العمل الهندسي.. إنها الولايات المتحدة، العدو الصديق الراعي المحرر الحامي المحتل المستعمِر الغني، بلد الفرص وقبلة مهاجري اليوم. كل هذه الصفات تطلق على بلد واحد. غض الطرف عن الباقي وودّعني مصافحاً وهو ينظر إلى الجهة المعاكسة (المصافحة النموذجية لمجموع العراقيين). لم أجرُؤ على سؤاله عن مصير الموافقة. ما عليّ إلاّ الإنتظار إلى حين التحقق من أقوالي وبالتالي إكمال الملف المنتفخ أصلا.

الحاجة إلى السفر كانت ملحة، فبعض الزعران احتلوا الشقة في بيروت ما حدا بالصديقة نضال الأشقر، فنانة لبنان الأولى، باستعمال نفوذها وإخراجهم منها، ثم احتلت في النهاية وفقدت السكن في وسط حمراء بيروت إلى الأبد، كما فقدت الشقة "الروف" خلال حرب التحرير اللبنانية اللبنانية، إذ أصابها صاروخ مقاوم، صنع خصيصاً لمقاومة الأخ لأخيه، فرفع قسماً من سقف الدار وقتل نادر الفلسطيني ابن الخمسة عشر عاماً، وكان على وشك الهجرة إلى كندا. هاجر المسكين أبديا إلى محل قد يكون أحسن معاملة وأكثر ترحيباً بالشباب الفلسطيني.

جاء الفرج مصادفة، عندما احتج أمين العاصمة سمير الشيخلي في إحدى الجلسات على عدم معاملة العقول العراقية بالحسنى، وضرب حالتي مثالا على ذلك، فانبرى من أعلمه أن لا حاجة للموافقة لمن يحمل إقامة في بلد آخر، من هنا طلب مني مراجعة مكتب وزير الداخلية بصحبة الأوراق اللازمة. في صباح اليوم التالي، وفي مكتب وزير الداخلية، تسلمت رسالة مغلقة موجهة إلى مديرية السفر، لم أفتحها، ولم أعرف مضمونها، فكانت أشبه بحجاب حلاّجي فريد ذا مفعول فوري : تمت الموافقة ، مع شاي، على حساب مدير السفر!



والحال كان الجواز العراقي وثيقة لا قيمة لها إلاّ للخروج من الحدود العراقية، بل هو يعقد المواقف، ويهرّب تأشيرات الدخول. وعلى ذكر التأشيرات، فأنا لم أزر القاهرة إلى يومنا هذا بسبب عدم الحصول على تأشيرة دخول بالباسبورت العراقي. سعيت كثيرا لزيارة أرض الكنانة، وحاولت مع مجموعة من المهندسين في قبرص الحضور لافتتاح مكتبة الإسكندرية، فرفض قبطان الباخرة بوصفي من كوكب آخر، غير مرغوب فيه. دعيت مرة إلى إقامة معرض رسم من قبل إدارة قصور الفنون، فجهزت حتى رقاع الدعوة ولم تصل التأشيرة إلى يومنا هذا، فقررت إلغاء المعرض وكان جواب السيدة الداعية مديرة قصور الفنون هو:"يا خبر أبيض!"

يبدو أنني سوف أزور مصر بجواز سفر قبرصي!

العودة إلى بيروت لم تكن حميدة، فبعد انسحاب اسرائيل احتلها الجيش السوري. وكان العراق في خصام حاد مع الجارة الشقيقة وصل الى مستوى استخدام السلاح الثقيل على الأرض اللبنانية.

في شارع حيفا، مقابل السفارة البريطانية، دور سكن بمستوى معماري مميز، تقرر الحفاظ عليها: دار السويدي، العائلة المعروفة في بغداد، وهو من البيكات السبعة حسب تعريف الأستاذ بطاطو في كتابه الفذ عن تاريخ العراق[6]، ودار الدكتور توفيق محمود، زميل العم إبراهيم عاكف في كلية طب استانبول في بداية القرن الماضي. (كنت قد حضرت في هذه الدار زواج ابنته في منتصف الأربعينيات على الدكتور المعروف قاسم البزركان)، دور الظاهر وهي مجمع بعمارة جميلة جداً، وهناك داران الأول يدعى دار "مارنكوز"، ومعنى الكلمة باليونانية والتركية (نجار)، لا أعلم إذا كان لها أي علاقة بـ"نكي مارنكو" الشاعرة/ الرسامة القبرصية المعروفة. جدها "نيكولاس" كان تاجر أخشاب كبير في فاموغوستا. وكانت أول من تعرفت عليهم في

قبرص، هي والخزاف المعروف القبرصي/العراقي فالنتينوس الصديق منذ اوائل الستينيات، وصاحبي المعمار النيقوسي "فاسيلي يريدس"، وجميعهم زكوني للحصول على الجنسية القبرصية.

كانت تسمية دار مارنكوز غريبة، ولقد اعتقدت أنها سكنت لاحقاً من قبل نجار معروف من الزمن "العصمنلي"، لأنها شيدت من قبل مهندس ألماني على الطريقه البافارية بسقف مزخرف مائل لتلافي تجمع ثلوج/غبار بغداد عليه.

حداثة دار المعمار فهمي دولت من شرفة دار مارنكوز

كانت الدار غريبة الطراز لا علاقة لها بالمنطقة، وثمة قصص عديدة واقعية وقريبة من الخيال تدور بشأنها. فالمهندس الألماني هو من منفذي مشروع قطار الشرق السريع، الواسطة نفسها التي أقلتني في أوائل الستينيات في العودة من فرانكفورت إلى بغداد للإلتحاق بخدمة العلم. هذا المهندس جاوره

صديقه المعمار اللبناني الملقب "دولت"، وهي الدار الثانية، شيدت بطراز "آرت ديكو" وبمواد محلية مطورة. وكنا قد درسناها أنا والعتيد فيصل وأثرت على عملنا لاحقاً. الإشاعة في الشواكة كانت تقول إن دولت كان على علاقة رومانسية قوية مع زوجة المهندس الألماني.

المصادفة التي اختلط فيها الخيال بالواقع، أن إحدى المعارف "ريم" وهي من سكنة ليماسول لبنانية/موصلية الأصل من آل عجاج، عرفتني على أمها وكانت من آل دولت، تجرأت وسألتها عن علاقتها بدولت، المعمار اللبناني الأصل، الكرخي النشأة، من سكنة الشواكة، شارع حيفا اليوم، فأجابتني وأنا مغمور بالدهشة والسحر، بأنه جدها، وكانت قد زارت الدار في صباها. أخبرتني عن مدى ثقافة وأناقة المعمار جدها، وأكدت أن الألمانية لم تكن عشيقته وإنما تزوجها بعد أن انفصل عنها المهندس الألماني ولم يخلف منها. في اليوم التالي أعددت لها ألبوماً مفصلا لصور الدار التي كانت بحوزتي. دمعت عيناها عندما أعلمتها أن الدار مفهرس وسيحافظ عليه إلى الابد، إن لم يسقط بإحدى الصواريخ العابرة. والحال لابد من أن المفخخة التي استهدفت وزارة العدل مؤخراً قد أثرت عليه.

هناك كذلك دار سعدون الشاوي الذي هو تحفة معمارية أنيقة. يقع على النهر إلى جوار السفارة البريطانية. إنه معلق فوق النهر حيث الشريعة التي تستعمل، فضلا عن عبور النهر، مرفأ لصيادي السمك، وكان من بينهم دعبول السمّاك. في الشريعة نفسها محل لبيع السمك يسمى الطيوان يستعمل هذه الشريعة التي استعملها كذلك الصابئة المندائيون في شعائرهم الدينية[7]. هذا الدار صانته وحافظت عليه دائرة الآثار العراقية. في الشارع نفسه الممتد إلى النهر، ترعرع وعاش علامة العراق الأول عبد الجبار عبد الله صاحب نظرية تدرس باسمه، وأول رئيس لجامعة بغداد.



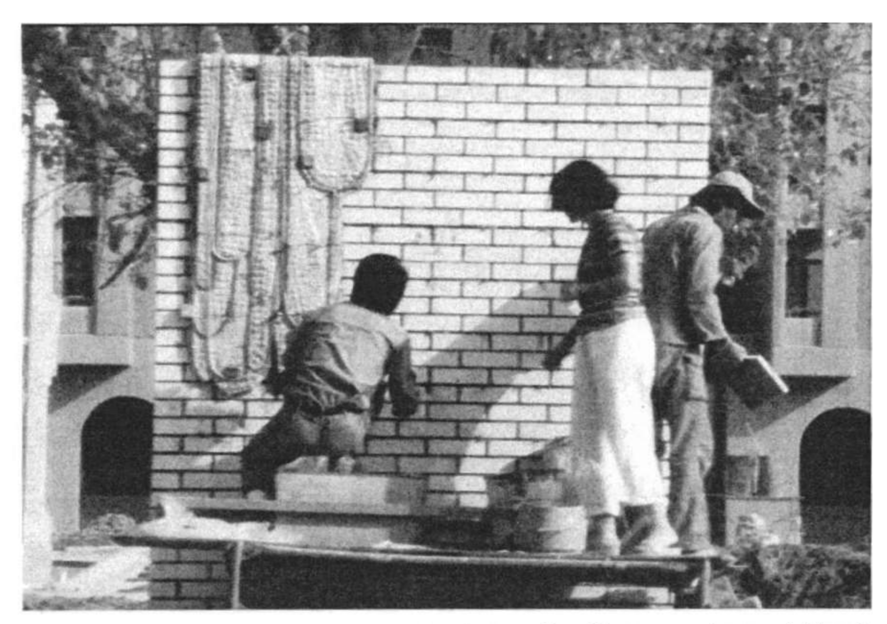


حداثة في بداية الاربعينات في الكرخ، محطة تعبئة أرت ديكو ودار من تصميم بدري قدح

أهالي الشواكة يتحدثون عن سعدون الشاوي ما بين الأساطير والطرا
والشطحات الصوفية. (الشاوية هم من عوائل البيكات السبعة كذلك) إ
يقسمون بأغلظ الايمان على أن هذه الحادثة الغريبة حصلت: عندما خر.
بنعش سعدون الشاوي بغية دفنه في مقبرة الشيخ معروف، عاند النعش
واستدار 180 درجة متجهاً إلى النجف، على خلاف رغبة العائلة ورغبة حام
وثمة انقسام بشأن الوجهة التي فرضها النعش على المشيعين والمود
فمنهم من يؤكد أنه دفن في النجف، وهناك من يقول إنه بعد تحميل الن
توجّهت السيارة نحو النجف حقاً بيد أنها استدارت بعد مئات الأمتار
مقبرة الشيخ معروف!

لسعدون الشاوي قصص كثيرة يتداولها أهل الشواكة. يقال إنه كان ف
صاحب لسان لاذع، مازح يوماً دعبول البلام والسمّاك الشهير في المنطقة بش
السمكة التي اشتراها من ذيلها، فاعترض دعبول قائلا: سيدنا لمعرفة ج
السمكة ينبغي شمّ رأسها بدل ذيلها. فجاء جواب سيدنا صاعقاً: "دعبول..
أريد أن أعرف فيما إذا وصل العفن إلى الذيل!". هذه القصة تنسب لعدد
مشهوري بغداد، منهم محمود شكري الآلوسي عند وجوده في الكرخ للتدر
في جامع الشيخ صندل، وتنسب إلى جعفر الأوقاتي جد الدكتور أنور الاوق
من سكنة الشواكة المعروفين بالنكتة اللاذعة والتي أورثها إلى حفيده.





الخزافة نهى الراضي وجدارية شبكة دعبول السماك

خُلد دعبول بجدارية من السيراميك الملون اقترحناها في موقع وسطي في الشواكة في حيفا جزء 6، مثّلت شبكة صيد الأسماك سجلت عليها أسماء صيادي المنطقة منهم دعبول الشهير. هذا العمل الفني نفذته الفنانة نهى الراضي، كذلك خلدته الكاتبة "أمل بورتر" بروايتها الموسومة "دعبول". يقال إن دعبول كان من أحسن من يعفط. "العفطة" حسب المعاجم العربية القديمة، ومنها محيط المحيط للبستاني هي "الضرطة بالفم"، أي التصويت بالشفتين، والبغادة اشتهروا بهذا النوع من السباب المازح، وأشهرهم كان شيخان العربنجي.

فقدتُ الصديقة العزيزة نهى في الغربة وهي في عز عطائها، أكلها المرض الخبيث الذي لا يسمى حسب قول عجائز بغداد، الآن هي في سبات أبدي في بيروت.

بين مجموعة الدور ذات القيمة المعمارية، المتوزعة على طرازي "آرت ديكو" و"آرت نوفو"، وهي حركات العمارة المعروفة في بداية القرن العشرين، ثمة مبني بهيكل كونكريتي لا لون ولا صفة له، مجاور لدار السويدي، وبطابقين على شكل "خان" أو "علوة"، الأرضي منه شغلته دكاكين حرفيين وحلاق وسوق داخلي بفناء مفتوح مسقوف السطح، يشرف على الشوارع المحيطة. الطابق العلوي منه متكون من شقق مشغولة كمكاتب وعيادات، تحيط بالفناء وموزعة على مساحة كبيرة. استملكت أمانة العاصمة هذا المبنى لغرض هدمه وإدخال مساحته ضمن تطوير شارع حيفا. والحال لا قيمة موروثة في هذا المبنى سوى أنه في وضع إنشائي جيد جداً، وبالإمكان استغلاله وتدويره، إذ أن بالإمكان تحويره إلى مدرسة أو مستوصف أو سوق عصري، ومن أجل هذا الهدف يحتاج إلى بضعة آلاف من الدنانير. فوتح الأمين بالرغبة باستعمال المبنى وقتياً من قبل كوادر تطوير الكرخ، فوافق على الفور وسلّمنا المبنى على الرغم من اعتراض رئيس قسم الانشاءات الذي أصر على إزالته.

تحول هذا المبنى إذن إلى مقر لمكاتب الإدارة والتنسيق لشارع حيفا، ومقر التصميم الحضري لمشروع تطوير منطقة الكرخ. من دون ترحيبي، لكن بناء على رغبة المستشار، استضفنا في المكان مجموعة اليابانيين من استشاريي بغداد 2000 الذين تعاونا معهم سابقاً في تطوير منطقة الشرق في الكويت. استغلت المساحات الأخرى الشاغرة كقاعات للاجتماعات الدورية، وإلقاء المحاضرات في بعض الأحيان. ضم المبنى الياباني والألماني والإيرلندي والبولوني والأفغاني، من هنا بدا مشبوهاً في المعايير الأمنية السائدة، وبات مركز اهتمام المتلصلصين والمخبرين من جامعي وملفقي الأخبار.

من مستغلي الدكاكين العائدة لهذا المبنى، فارس النجار مهني من الدرجة الثالثة، والحاج كريم الذي يلغي حجه إلى مكة المكرمة يومياً عشرات



المرات بارتكابه الموبقات، حداد من الدرجة الثالثة، ثم حلاق للرجال من الدرجة العاشرة، إذ تجد عنده أقذر عدة للحلاقة. هؤلاء كانوا من المؤجرين القدامى، ثم استغلوا دكاكينهم بالمجان بعد استملاك السوق. الحاج كريم صنع للمكتب عشرات السروج الحديدية، لامتطاء الألواح الخشبية عليها، وهي المدورة بينياً من أبواب قديمة من مخلفات التهديم بعد تغليفها وتحويلها إلى طاولات وبوردات للعمل والرسم. فارس النجار كبس وغلّف الأبواب المهترئة وحوّلها إلى طاولات للرسم والعمل والإجتماعات. الحلاق ظل على عمله بالاضافة إلى أنه تسلّم رأس الاستشاري ولحيته الكثة أسبوعياً. لقد بات هؤلاء، فضلا عن قيامهم بأعمالهم السابقة، جزءاً من فريق إدارة وتنسيق شارع حيفا.

هذه المجموعة وملحقاتها من مساعدين ومعارف وأهل ساعدت كثيراً على إضافة الأجواء الكرخية الحقة بما أثار إهتمام الفنيين الأجانب. والواقع تحول المبنى بعد استغلاله بالتمام إلى أجمل المكاتب التي عشت فيها وأكثرها حيويةً، فثمة عشرات الفنيين والاختصاصات في حركة دائمة، طلاب ومتدربون في العمارة والهندسة والإحصاء، دوريات وكتب ومنشورات مهنية عدة، محاضرات دورية وعروض للشرائح الملونة وبلغات عدة ولجنسيات مختلفة.

هذه الحيوية والإنتماء والتوحد مع العمل والمنطقة والمدينة لم ترق للمصطادين في المياه العكرة، فهم لم يعتادوا على استشاري من طبقة نخبوية (حسب اعتقادهم)، يتسامر ويأكل الباجة ويلعب (آزنيف) الدومنة[8] مع الطبقات الكادحة، إلاّ لغرض مشكوك في أمره. (لابد من أن يكون الآزنيف أرمني الأصل، فالكثير من بنات أرمينيا باسم آزنيف).

هل كان أمين العاصمة عالماً بالغيب حين أمر بتثبيت قطعة دلالة على المبنى تشير الى هويته كونه تابعاً لأمانة العاصمة للتخلص من العيون الفضولية المتلصلصة؟

نحن بدورنا قمنا بصيانة أنفسنا من الواشين والمتلصلصين بتعميم تعليمات تقضي بعدم غلق أي غرفة أو جارور. كانت اجتماعاتنا مكشوفة، لا كواليس، لا بشبشة، لا شيء يخفى، هاتف مركزي للجميع، وكل ما في المكتب متاح للجميع ولا يحتاج إلى سرية، فنحن نعمل في دائرة العاصمة، أي الحكومة عينها بمخبريها وأمنها.

كنا نعلن على الملأ بزوارنا ونعرّفهم، فهذا هو الصديق "كردال خليلي"، من زملاء الصف في تركيا، هو الآن دانماركي ومن مصممي جزيرة بغداد. الآخر فالنتينوس، عراقي، أستاذ جامعي وفنان، في قبرص الآن وووو... وهكذا بعد التعريف، يتركوننا بسلام.

على الرغم من كل الحيطة، لم نسلم من التعقب اليومي والنبش والتفتيش المزعج، خاصة ما يتعلق بمقتنيات الأجانب العاملين في المشروع غير المعتادين على استباحة أسرارهم ومقتنياتهم حتى لو كانت عديمة القيمة.

"عمر أكبر" رئيس كوادر التخطيط، دكتور ألماني أفغاني الأصل، وقامة عالية في التخطيط الحضري، هو الآن رئيس مدرسة "وايمر" للعمارة، جاءني صباحاً مصفراً متجهماً، وهو أصلا بلون الباذنجان غير الناضج، وأعلن هامساً بأن كتبه ومجلاته يعبث بها على الدوام، وقد نفد صبره، ويريد أن يعرف سبب هذا العبث. والحال هو لم يعترض الاّ عندما اكتشف فقدان أحد البحوث التي أجراها على مدينة لاهور ومدينة أفغانية أخرى، ومعروف أن اللغة شبه الرسمية في افغانستان هي الفارسية، والبحث محرّر باللغة الفارسية. الفارسية تعني المجوسية، وليس لغة العشق والغزل، لغة سعدي الشيرازي صاحب الكُلستان، وجلال الدين الرومي، وحافظ الشيرازي[9] القائل في العشق العراقي:

سليمى حين حلت بالعراق



ألاقي في هواها ما ألاقي
وطوّح بالنهى في زنده روُد
بشرب الخمر في نغم عراقي
عروس أنت يا بنت القناني
وحظك بعض أحيان طلاقي

كانت الفارسية هي لغة المجوس (يا للهول! المضخمة على طريقة يوسف وهبي بك في فيلم انتصار الشباب)، والبلد معبأ ضدهم. عندما أخبرني عمر بالأمر توجست شراً وقررت المواجهة. طلبت مقابلة أمين العاصمة وكان عبد الحسين الشيخ علي يشغل المنصب وهو زميل بأخلاق رفيعة. أخبرته باستحالة العمل على هذا المنوال، فعليه وهو مسؤولي المباشر، أن يجد صيغة وإلا فـ "عمر أكبر" مغادر على أول طائرة، وفقدانه خسارة كبيرة لنا ولأمانة العاصمة. طلب عبد الحسين ساعات معدودات، وسوف يأتي بجواب قطعي. ولم يتأخر الجواب ساعة واحدة : ليستمر عمر بعمله، فما من اعتراض عليه. في اليوم التالي وجد عمر بحثه محفوظاً بين مجلاته ودورياته.

كانت بيئة العمل والجو المحيط بالمقر أشبه ما تكون بأجواء أفلام فليني[10]، يختلط فيها التهريج بالجمال، المعقول باللامعقول، الجيد المنتج والخلاق الى جانب الموبق والعفن. تلك في الحقيقة أجواء الكرخ الحقة. في وسط هذه الأجواء كان على الاستشاري المخطط أن يعايش الغث والسمين: يا لسعادتي!

بعض الحوادث التي تعرفت عليها أرّقتني ولاسيما معانات المسحوقين وضحايا الحرب المستعرة.



كان هناك شاب من الكريمات اسمه صاحب، مشتق من عبد الصاحـ
تخلف عن الإلتحاق في جبهات الحرب، بمعنى أنه حكم على نفسه بالإعدام
جدع الأنف أو قص الأذنين. تعرفت عليه مع مجموعة "السوق الخارجي" تـد
المكتب، وعرّف نفسه من خريجي المعاهد المهنية، وعلى نحو ما وضعني ؛
موقع مسؤولية كبيرة بعدم إخباري للسلطة. كان صاحب يختبئ في سـد
الدار معظم وقته، وأمه تقوم بما يحتاجه هناك. في أحد الأيام فاز فر
كرة القدم العراقي في مباريات مهمة، وكالعادة احتفل مدمنون إطلاق الـ
العشوائي بهذا الفوز العظيم. كانت ليلة مقمرة وصاحب نائم في السـد
متأملا سماء بغداد التي لا تشبه في جمالها ولألأة كواكبها أي سماء ؛
الدنيا، وتدفعنا إلى ممارسة الحب، فإذا بمقذوفة طائشة تنزل ساخنة وتة
خاصرته. لا مفر. لا يسعه الذهاب إلى المستشفى للعلاج، وأي طبيب
يجازف بمستقبله ومستقبل عائلته من أجل تطبيبه. صاحبي هذا وحسـ
نصيحة أهله التجأ إلى مدينة الثورة التي يصعب على السلطة العثور علـ
الوطن كله بشماله وجنوبه يُغتال يوميا بطلقات طائشة مكتومة الصوت.

تلبية الواجب لا مفر منها والا.. ووصل لي الدور: ففي يوم جمـ
بارد، أحاطت داري من جميع الجهات سيارات المرسيدس الفارهة الممـ
بالأشباح. طلبوا مرافقتهم، وفهمت منهم أنهم تربصوا بي لأشهر عديـ
حُشرت في سيارة مرسيدس فارهة، وتحرك الموكب، إلى اين؟ لا أدري. هـ
احتمالان يميناً جهاز المخابرات، يساراً المنظمة الحزبية. (أين أنا مما يقـ
الشاعر الفلسطيني "يساراً حتى تل الزعتر"؟) كانت المنظمة في المنصـ
أقل إرهاباً نسبياً. انتهى التخمين فقد اتجهت المارسيدس يساراً حتى مـ
المنظمة الحزبية. تنهدت. هناك أردت أن أعرف سبب هذا الموكب الأسو
لم يجيبوا، وإنما طلبوا التريث. ثم نفد صبري وسألتهم عن كل هذه الضجـ



أخبروني أن الحافلة ستكون هنا خلال نصف ساعة، لغرض الإلتحاق بمعسكر النهروان للتدريب على القتال. خاطبتهم بنوع من الصلافة الهازئة -المتوجسة: أنتم أولا تسوقون ضابط مهندس احتياط وبرتبة ملازم. ثانياً أنا استشاري مدعو من قبل أمانة العاصمة لتنفيذ مشروع يعتبر استراتيجيا، وأخيراً أنا مقيم خارج العراق. استغربوا، وأعادوني الى الدار بلا موكب أسود، وبلا مودعين. رعب ذلك الفجر بات موضع تندر أمين العاصمة الذي تخيلني منبطحاً وزاحفاً على أرض "النهروان" - المعسكر المخصص لتدريب الجيش الشعبي، وكانت في يوم ما موقع المعركة التي خاضها الإمام علي مع الخوارج.

أي شخصيات مرح نجد في الكرخ! المرء يلهو معهم هم اللاهون، فيما الحرب سادرة في غيها. "قاسم" واحد منهم، شاب لطيف، أصم وأبكم، تدرب على النطق بكلمات محدودة، وتعلم مهنة الحدادة لكنه يتنقل في كسبه للعيش بين أعمال متفرقة. وقع في غرام بنت يدعوها "فظم" وهي فاطمة ككل الفاطمات اللاواتي نمضي "منذ فطمنا" جلّ حياتنا في البحث عنهن، باسماء مختلفة، فهي ليلى، وأولغا، و بثينة، أو هي الـ "فرزندة" الإيرانية الحسناء "جمرة العشق الضائع"[11] الذي بحث عنها عبد الوهاب البياتي، وقال فيها غزلا:

لطم الورد في الحدائق خده   مذ رأى في سماءه فرزنده

قاسم يحوم يوميا حول دار فاطمة التي تسكن إحدى المحلات القريبة من المكتب. يدعوني "أمين" لسهولة نطقه، وكل من اشتغل في الأمانة أو مع الأمانة هو أمين. جاء يوما راكضاً لاهثا والدم يسيل من أنفه وفمه، مستنجداً: أمين، أمين... وبالكاد فهمت أن أهل فاطمة كبسوه في موقف لا يرتضونه لابنتهم، فأشبعوه ركلاً ورفساً. حاولت إصلاح ذات البين بإسلوب لبق. إدعى أهل البنت أنه ومنذ مدة يضايق ابنتهم، وقاسم يدعي أنها تحبه، ثم اعترف سراً بالحقيقة السفيهة، وهي أنه ظل يحوم حول دارها، وعندما تأكد خلوه إلاّ منها

تعرض لـ "فظم" التي أطارت عقله، وأفقدته صوابه إذ كانت تظهر له مفاتنها المستورة. حذرته وأخبرته إن تخطى ثانية زقاق أهل "فظم" فسوف أسلمه بيدي لأهلها. أطاع صاغراً متلوعاً من فقدان حبه، ثم راح يبحث عن غيرها.

ثمة شخصية أخرى، فقد كان هناك مراهق من صناع السوق، أدعوه بلغة النجارة "جراق" صانع، لا يتجاوز عمره الخمس عشرة سنة، متخلف بأقل من نصف درجة بمقياس التخلف لدى الاختصاصيين، مشكلته أنه ما زال بكراً، وتنغص حياته الرغبة الجنسية العارمة، ويؤرقه انتصاب شبه دائم. حالته هذه كانت موضع تنكيت وتمسخر شاغلي "السوق الخارجي" وأصحابهم.

في يوم ما حاولت التخلص من ضغط وتوتر العمل في مرافق السوق العلوية ونزلت إلى ورشة الحاج كريم. هناك طلبت صحن "باجه"، والكرخية أحسن من يحضر طبخة الباجة. تمنعوا، معتذرين بكونها غير نظيفة. مرات عديدة لم يعترض أحد على نظافتها فلماذا الآن؟ وجدوا لثنيي عن تناولها أسباباً واهية وغير مقنعة، فأدركت أنهم يحاولون إخفاء أمر ما، فأفهمتهم أنني سأرابط حتى مطلع الفجر حتى أكتشف المخبوء أو أحصل على صحن "الباجة". عندها راح زعيمهم في الفسق الحاج كريم ينادي يائساً على الصانع "الجرّاق" لكي ينزل من طابق خشبي نصفي في محل الحدادة العائد له، طالباً منه أن يجلب صحن الباجة لأن الأستاذ الاستشاري سيرابط حتى يحصل عليه. نزل الجرّاق مع شبح شبه امرأة، قد تكون بعمر جدته، بيد أنه كان رجلا متخنثا بزينة وملبس مومس من الدرجة العاشرة. ذكرني هذا بأفلام "فدريكو فليني" "روما" و"ساتيريكون"، وبنساء محمد شكري في سوقه الداخلي. فقد الجراق المسكين عذريته مع مسخ. كيف سيتذكر ممارسته الأولى؟ هل سيبقى عاشقاً للمرأة أو يتجه إلى اللواط السادي؟ حذرته من مغبة إصابته بأمراض العولمة. اختفى وتوارى لفترة طويلة، ثم عاد إلى عمله



الذي يعيل أمه من مردوده، بين تعليقات وتنكيت مخلوقات السوق الخارجي.

من يبقى في الدار أبان الحرب الضروس؟ المعوّق والعاطل والخائف والمتخلف، والمتنفذ جدا. خيرة شباب الوطن كانوا في آتون لا يكل، يطحن المهندس والطبيب والشاعر والفنان: أعمدة المجتمع الصحي.

الحرب تشتد مع الجارة الشرقية. بغداد بدأت تستنشق رائحة البارود من جراء القصف العشوائي. أصيب برج مصرف الرافدين في شارع المصارف-السموءل-بصاروخ أول، تلاه صاروخ قرب القصر الجمهوري، إلى أن أصبح التراشق بالصواريخ لعب ولهو روتيني، إلى أن اعتادت عليه بغداد، كما كانت تعتاد دائماً على المنغصات. بالنسبة لي لم أعتد عليه على الرغم من تجربتي الصاروخية القاسية في بيروت خلال حربها القبيحة.

كنت أتعرف على مواقع سقوط صاروخ إما بالنظر نهاراً، متتبعاً أعمدة دخان الحرائق التي يسببها، ومن ثم تعيين موقع المنكودين بهدية الولي الفقيه. أما في الليل فبواسطة راديو سوني جبار أدخلته معي، وكان ممنوعاً، اكتشفت بالمصادفة أنه يلتقط مكالمات شرطة النجدة.

في عصر يوم جمعة ونحن في الغرفة المظلمة لتحميض الصور، في ملحق مطبخ الزميل في التصوير والعبث الجاد ليث الكندي، اهتزت على حين غرة أركان دار السلام، فتوقفنا عن العمل، وصعدت إلى سطح الدار لتعيين موقع زائر الغضب. من تخميني لعمود الدخان والمسافة بدا لي أن الصاروخ سقط بالقرب من سكني في المنصور. محموماً بفضول مشوب بالخوف توجهت إلى البيت حالا. استغرقت السفرة من الجانب الشرقي في الأعظمية عبر دجلة إلى الجانب الغربي في المنصور مدة ليست بالقصيرة، وعند وصولي إلى المنطقة وجدت أن السلطات كانت قد منعت دخول أحد إلى مكان سقوط الصاروخ، بيد أنني كنت معروفاً في المحلة، فسمح لي. كان

هناك دخان أسود كثيف ورائحة بارود كريهة منتشرة في الجو. دخلت البـ
من فتحة، إذ لا باب ولا شباك بات في مكانه بسبب العصف، والزجاج ه
المكان. في العتمة وعلى الفراش جلس أولاد أختي سيفي وعمر وترجوذ
الانتقال إلى دارهم إلى حين رد الشبابيك والأبواب الى أماكنها. كان مو
نزول الصاروخ على بعد 40 متراً، ونزل على دار جار، مكون من سبـ
اشخاص دفنوا جميعا بحفرة قطرها 15 مترا وبمزق متفحمة. في ما بـ
تحولت الدار إلى بحيرة من جراء تدفق المياه الجوفية، كانت إصابة موفـ
لهدف استراتيجي. عجبي هل هذا هو الإنتصار المطلوب في حرب كهذه؟

كانت الحرب القائمة أقبح من سائر الحروب.. جائعة، شرهة، ا
تستثني أحداً في المعاناة. أخبرتني أختي في أحد الأيام أن ابن ا
خالي الشاب الذي لم يتجاوز العشرين عاماً، الكرخي المولد، فُقد ا
معركة الفاو، وأن أمه ذهبت إلى الجبهة تستفسر عن مصيره. لقد رابـ
الأم في الخطوط الخلفية، ومرت أيام ولم تجده، لم تعرف بأنه متروك ا
ساحة المعركة الموحلة، ولم يجرؤ أحد على إخلائه. وهكذا عادت حز
لتصل الدار تماما في الوقت الذي توقفت سيارة أجرة تحمل صندوقاً ملفو
بعلم ضم رفاة ولدها.

المقابر في جميع أنحاء العراق راحت تبتلع وتنادي هل من مز
بات تشييع الجنائز إلى مقبرة الكرخ الجديدة بالقرب من أبي غريب شـ
شرقي بغداد لافتا للنظر، يزداد حدة في أيام الهجومات الإيرانية المتكر
سيارات الأجرة تحمل صناديق ملفوفة بعلم الوطن، وهي الراية نفسها الـ
توقف العمل بها في ما بعد لانتهاء مفعولها.

كانت المقبرة مقسمة إلى نصفين: الأول إلى اليمين غابة منبسـ
من الأعلام، مثبتة بحجارة فوق التربة، في انتظار بناء لحود دائمية. ا



اليسار غابة أرضية أخرى منبسطة كرقعة الشطرنج. أفواه أرضية مفتوحة باتساق هندسي منتظم، حاضرة لبلع ما تجود به الحرب. ثمة بلدوزر كان يزأر، رواحاً ومجيئاً بتحضير الحفر وتوسيع الرقعة لاستقبال الوجبات الوافدة الجديدة.

رجال الدفن إثنان من اخوانا المصريين الوافدين، خبيران حاولا تنفيذ الطقوس بأسرع ما يمكن. الأول يحمل الصندوق على كتفه من دون استعمال يديه، والثاني في الخلف في الجهة المعاكسة للتوازن، والإثنان كانا يركضان بالنعش إلى اللحد المفتوح الذي لا يرفض أحدا .

هذه الصور شاهدتها في المقبرة في تلك الفترة ولم تمح من الذاكرة. كنت أتساءل: مقبرة الكرخ الجديدة هذا هو حالها، فكيف حال مقبرة وادي السلام الهائلة في النجف؟

اصطبغت مدينة الثورة واتشحت باللون السود. فسحات لعب الأطفال غدت مرابط لخيام قبول التعازي، العلم العراقي الشعبي الأسود ذو اللون/ الالون، يرفرف فوق دور المدينة. ما زال يرفرف على كل دور العراق كأنه العلم الجديد. (ألم أقل أن لا حاجة إلى تصميم علم آخر جديد؟!)

المآسي لا توقف العمل بصرف النظر عن شعار (يد تبني ويد تقاتل). كنا على أية حال ما نزال نعالج الكرخ. فقد انتهت المرحلة الأولى من الدراسة الشاملة لمنطقة الكرخ، مرحلة وضع الاستراتيجيات المطلوبة لتطوير المنطقة. جرى المسح الموقعي العام بكل أوجه الحياة، تمت معرفة وإيجاد المكونات والمكنونات المميزة، بحسناتها وسيئاتها، والعوائق والخصائص المشجعة، الأهداف الآنية والمستقبلية.

كشفت الدراسة معلومات وتفاصيل عن البعض من أوجه المسح، وهي تتشابه مع مفردات المعلومات المتوفرة في الجهاز المركزي للإحصاء.



يسكن المنطقة 44570 نسمة، يصل عدد الرجال إلى 23270، 15٪ منهم أميّون، ويصل عدد النساء 21300 امرأة 30٪ منهن أميات. قسّم مجموع السكان على 7930 وحدة سكنية، أسرة حجمها 5.62. الوحدات السكنية أقل بكثير من عدد الأسر، أي اشتراك اكثر من أسرة بوحدة سكنية واحدة، وبكثافة سكنية متوسطها 448.34 للهكتار. هذه الكثافة موزعة على كثافة انشائية واطئة نسبياً: ابنية بطابقين، في حين وبنفس الكثافة الانشائية تتجاوز الكثافة السكانية في مدينة الثورة/صدام/الصدر ال 1000 شخص بالهكتار، وفي سكن أفقي. في شارع حيفا المخطط له 650 شخصا للهكتار للسكن العمودي.

عدد السكان قبل المباشرة بالتطوير يوازي 63000 نسمة. اكبر زيادة في عدد السكان تبين انه حدث بين سنة 1968 و1980، أي سني الخطة الاقتصادية الانفجارية، وقبل نشوء الحرب العراقية الايرانية.



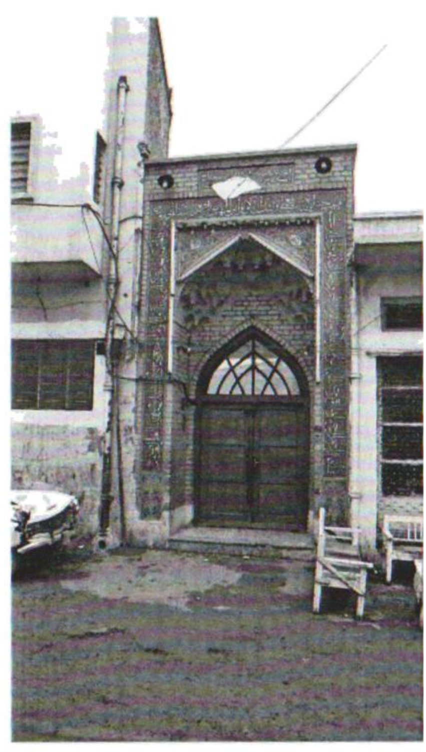


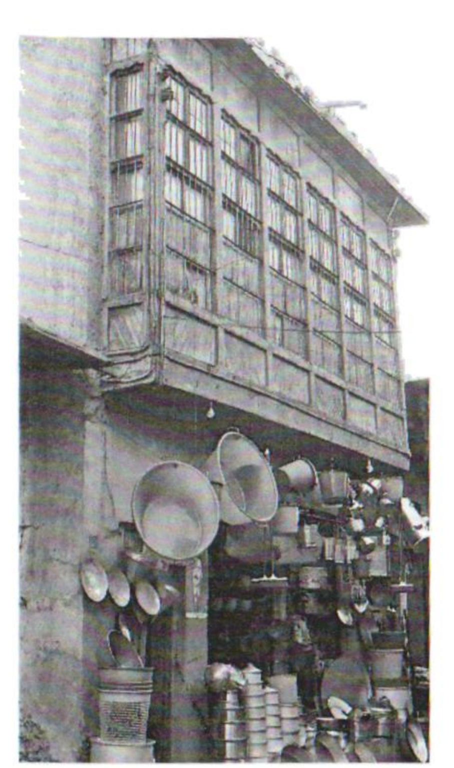
استعمالات مختلطة سكن وسينما واسواق

وجدت الدراسة أن صفة مهمة تتصف بها منطقة الكرخ، وهي وجود كل أنواع الاستعمالات في جميع المناطق، أي أن الفعاليات الصناعية والتجارية مختلطة وبتداخل مع المناطق السكنية، هذا الاختلاط يصاحبه تلوث بيئي يجب السيطرة عليه، إذ استعملت كثير من الدور والطرق والفسح كأفنية للإنتاج، وهذا ما يجعل المنطقة حية تتنفس في جميع الأوقات.

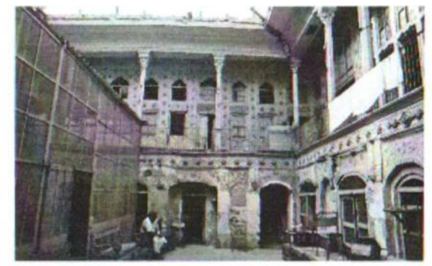


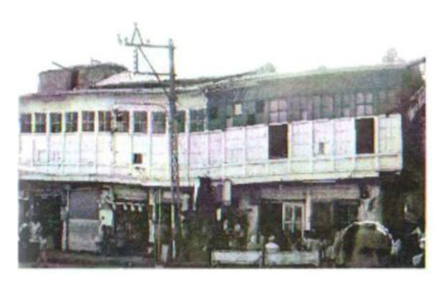
قطاع النقل معقد جداً. الكرخ تقع ضمن المنطقة المركزية للمرور، فهي ممر صاخب، شرق غرب وبالعكس عبر الجسور، شمال جنوب وبالعكس، بموازاة نهر دجلة. ما زاد في حجم المشكلة هو إدخال ما يزيد عن الـ 2000 عربة جديدة للمنطقة من جراء تشييد شارع حيفا. الحدث الأكبر المخطط له هو تشييد محطة مركزية مهمة للأنفاق في علاوي الحلة، يمر منها خط مدينة الثورة-ساحة التحرير-المنصور.الخدمات الأخرى غير متوفرة، وإن توفرت فليست بالمستوى المقبول بيئياً.





استعمالات متعددة مختلطة ضمن النسيج العام في الكرخ





استعمالات متعددة مختلطة ضمن النسيج العام في الكرخ

المهم جدا في أي دراسة تخطيطية هو تحديد أهداف التطوير. في هذا المجال جوبهنا بالمعضلة الحساسة، فأمانة العاصمة تمثل صاحب العمل الدولة/السلطة/الحزب، من هنا لها أولوياتها الاستراتيجية التي لا تخلو من أفكار مجردة وشعارات حزبية، وفي قسم منها نختلف معها. والحال أن الشعار الذي افتقدناه هو المشاركة وحق المواطنة والتعبير عن مجموع أهل الكرخ في تقرير ما يلائمهم أو لا يرضيهم. كنت قد طلبت من الجميع إضافة أهداف نود كمخططين توفيرها. الألمان بالغوا بالليبرالية بسبب عقدة النازية ودفعوا الأمر إلى الطوباوية، من دون الأخذ بالحسبان ما هو ممكن. كانوا في زمان ومكان غير زمانهم ومكانهم. في هذه النقطة احتدم الجدل بيننا نحن أهل البلد المسكونين بالخوف، وهم الخبراء الأحرار. الجدل تمحور بهدفين، الأول أن أهداف أمانة العاصمة كان خلق "البيئة الملائمة للعراقي الجديد" والثاني مقترح ألماني، هو الإعلان وبصوت عال توفير الحرية المطلقة لممارسة طقوس جميع الأديان والمذاهب.

الإعتراض على هدف الأمانة جاء من قبل الكوادر الألمانية، بل جرى رفضه تماما على أساس المحك الآتي: ما عيب العراقي القديم؟ وما صفات العراقي الجديد؟ هل المطلوب قولبته عقائدياً؟ حقيقة لم أتمكن في حينه من الإجابة على هذا التساؤل، على الرغم من استيعابي الكامل لاعتراضهم هذا، خوفاً من أن

يفسر ذلك سياسياً، ويجري تأويله شتى التأويلات من قبل أولي الامر، وبالطبع خفت على أصحابي، وعلى جلدي، من هنا رحت أساوم وأعدل بالصيَغ. فصغت هذا التعديل: الهدف (هو خلق بيئة تساعد على الإنتاج والإبداع وتوفير المناخ الملائم للمواطن الكرخي لخدمة بلده). وافق الألمان على هذا التخريج، ولم تنتبه أمانة العاصمة إليه. ما الفائدة؟ إن عقدة السياسي وشعاره الرخيص يلاحقانا كما يبدو، فالهدف بعد "التحرير/الاحتلال" توسع وأصبح (بناء العراق الجديد)، فهل نخوض نقاشاً تالياً بشأن تعريف الجديد؟ ما المقصود منه إذا كنا دائمي النكوس إلى قيم قديمة؟ إن إرضاء السلطة أوصل مدينة بغداد إلى ذيل جدول المدن غير القابلة للسكن في تصنيف الهيئات الدولية المختصة. إن بغداد الجديدة هي أتعس مدينة على وجه البسيطة. أتعس من مقديشو!

بالرغم من الإلمام التام بأحقية الألمان في إصرارهم على شمول الحرية في ممارسة الأديان والمذاهب المختلفة طقوسها، إلا أنه لم يكن من الممكن قبول تضمين هذا الهدف كأحد الأهداف الاستراتيجية. والحال بقدر ما يحتويه هذا التضمين من بداهة، فهو يثير سوء فهم السلطة ويفسّر كمعارضة سياسية مذهبية مبطنة. لنتركه إذن ونسعى إلى ما في وسعنا نحن المخططين من تطويره والإلتزام به وبقوة. حسن .. هل هذه تقية؟ ما أنقذني من سوء فهم الآخرين هي زيارة المطران الكلداني عمانوئيل دلـي المثال في الأخلاق السمحة الراقية والأدب الجم، وهو الآن بطريرك الكنيسة الكاثوليكية لعموم العراق، لاختيار موقع تشييد كنيسة جديدة في الكرخ، وقضينا معاً فترة طويلة في البحث والتقصي، واتفقنا على موقع مفضل له في شارع جمال عبد الناصر. هذا الحدث خفف من غلواء الألمان في الإصرار على مطلبهم، فقد جربوا الممارسة عملياً.

التقية ساعدت كثيراً في التعامل مع الألمان، فعند وصول المخططة كريستين امان، وجب علينا إشعار دوائر السفر والجنسية، والحصول على

وثيقة الإقامة، وملء استمارات المعلومات المطلوبة. عند وصولنا إلى السؤال الذي يخص الديانة أجابت كريستين، وبكل بساطة "بلا ديانة"، ثم أصرت عليها. توسلت بها، عزيزتي، صديقتي، دكتورتي، ومديرة مشروعي.. لكن من دون فائدة، وكان ردها الصريح هو : "إذا لم يعجبهم فبها، ومع السلامة أنت والمشروع". تركت الموضوع ليوم واحد شاحذاً الذهن: نعم وجدتها! صباحاً سألتها عن ديانة والديها فأجابتني بأنهما مسيحيان. إذاً أنت ولدت مسيحية، وأنت التي قررت الخروج من الكنيسة؟ أجابت بنعم. فهل لديك مانع من كتابة "ولدت مسيحية"؟ وافقت، وتخلصت وتملصت من مشكلة ألمانية أخرى بالتقية المعهودة. ضباط الإقامة لم يستوعبوا الإختلاف بين الجوابين.

إن ما ساعد في تخفيف عبء اتخاذ القرارات الكبيرة هو اختيارنا مع مستشار أمانة العاصمة لمجموعة من الخبراء من خارج كوادر الأمانة والإستشاري، أي لجنة خبراء مستقلة هدفها التثبت من صحة القرارات. تكونت اللجنة من مخططين، من العراق الأصدقاء: هنري زفوبودا وإحسان فتحي، و "جورج دادلي" من هيئة تخطيط نيويورك، والاستشاري السويسري المعروف "ستيفانو بيانكا" مخطط مدينة فاس وحلب والرياض [12]، و"كاثرين هويا" مخططة مدن من الخُضر، و"راينير إيرنست" بروفسور ألماني من جماعة برلين. هذه المجموعة كانت تقوم بمهمة الاطلاع والتدقيق وتنتقد ما يعرض عليها وما يتوصل إليه فريق التخطيط. إنه دور استشاري غير ملزم لأي طرف، لكنه ساعد كثيراً في التطمين والمراجعة.

إن مجموع أهداف التخطيط الحضري التفصيلي للكرخ تتوضح وتتلخص:

- إيجاد صلاحية في الخطوط العامة للتصميم الأساس المعتمد لمدينة بغداد والجزء الخاص بالكرخ.
- إيجاد حلول تفصيلية للمخطط الأساس وما استجد من متغيرات لم



يتطرق إليها التصميم.

- عرض ووصف دقيق للبدائل الممكنة لمستقبل المنطقة، من خلال الإمكانات المتاحة والمقترحة لاستعمالات الأرض.

إلى أي مدى يمكن أن تحقق هذه الإستعمالات والأهداف المرجوة من التطوير. الأهداف تعتمد على الأسس الرئيسية التالية وهي:

- دعم الطابع السكني للمنطقة.
- تشييد منطقة تجارية مركزية وتنمية النشاطات المتمركزة أصلا في الكرخ ودعمها لخدمة المدينة ككل.
- ومن خلالها تنمية قاعدة التشغيل وتنمية فرص العمل.
- تطوير شارع حيفا ليشكل عنصراً عمرانياً حديثا مندمجاً، ومستَوعبا ضمن منطقة الكرخ والمنطقة المركزية لبغداد.

التوصل إلى ما جاء أعلاه بعد دراسة وتحليل جميع مرافق العيش في الكرخ من خلال ما يزيد عن الـ 28 ورقة عمل اختصاص، أعدت من قبل خبراء عراقيين وأجانب، ابتداءً من النسق العمراني وتأثير السكن العمودي اجتماعياً، ووصولا إلى منظومة جمع القمامة وتدويرها إن أمكن.

بتطور ونضوج الدراسة برز تصور أكثر وضوحاً في كيفية الحفاظ على التراث المعماري. في التصميم الأساس الأصلي اقتصر مفهوم المحافظة على منطقتين منفصلتين من المناطق السكنية في الكرخ، وهي الكريمات والشواكة. هذا المفهوم اتسع ليصبح الهاجس والمرشد في خطة تطوير الكرخ بأجمعها وإسباغ الطابع الخاص المميز عليها.

لا يقتصر مبدأ الحفاظ هذا على حدود معينة، وإنما أخذ هذا المبدأ في إطار الخطة الرئيسية التي تصف التغيرات الكبرى الحادثة في المنطقة. إن الحفاظ في منطقة تخضع لتغير سريع لا بد من أن يترجم

عملياً إلى معاني أخرى، تصب في مجال الحفاظ على الخواص السكنية والاقتصادية للمنطقة.

لقد حاول مقترح المشروع أن يتعرف على ما يمكن المحافظة عليه من النشاطات الأصلية والأنظمة الإقتصادية المتوارثة، ثم مواءمة هذه النشاطات مع المستويات الحديثة للسكن وتسهيلاتها، وأن يدمجها مع النظم السكنية الحديثة. إن الحفاظ على منطقة تعني الحفاظ على كثافتها السكانية، وهي استجابة واقعية لمتطلبات التصميم الأساس لمدينة بغداد. وهنا ظهر لنا التحدي الجوهري وهو بيان كيفية التجديد، بدلا من إحلال الجديد محل القديم، أو بدلا من إزالة الموجود. دلالة هذا المشروع هو بيان الممكن في التطوير، بلغة التخطيط، على مستوى المحلة، أي التنطيق المايكروي، مستوى المجتمع الصغير الذي يعيش على مساحة محدودة، وترتبط أفراده علاقة وقيم حميمية، توصف بالتواصل فيما بينها، ولاحقاً بالمجتمع الكرخي البغدادي.

التمنطق حدد مواقع الإستعمالات المختلفة التي إن دمجت بالنظم المقترحة المستحدثة تؤدي إلى خلق أجواء مثالية بقدر ما يسمح به واقع الحال العام. الإستعمالات التي حددت مواقعها وحجومها هي: السكن، والصناعات الخفيفة، والأبنية الدينية والثقافية والترفيهية، والأبنية الإدارية والعامة والإستعمالات المختلطة، فضلا عن مرافق متخصصة للكرخ، مع توفير الخدمات اللازمة لهذه الإستعمالات، كالطرق، ومواقف السيارات، والمجاري، والكهرباء وما شاكل ذلك.

تم تثبيت وتعيين ذلك من خلال مقترحات أطقم إنشاءات تطوير محددة بجدول زمني للتشييد، وخاضعة لبرمجة أولويات ملحة، كأطقم الخدمات والطرق ومواقف السيارات. هذه الأطقم هي:

- الأول: تطوير الطرق الرئيسية والخدمية.



- الثاني: تطوير منطقة التكارتة. وأخذ هذا الطقم الأولوية بناء على توجيهات القيادة ومن دون اتباع التفاصيل المقترحة من قبلنا.

- الثالث: للأبنية الثقافية والرياضية.

- الرابع: لأبنية عامة، المستشفى العام مع الملعب الرياضي.

- الخامس: تطوير المنطقة السكنية التقليدية الموروثة المجاورة لشارع موسى الكاظم.

- السادس: المنطقة الترفيهية - مسابح وقاعات تسلية ومركز شباب وفندق بسعة 250 غرفة.

- السابع: تطوير منطقة السوق مع الحمام والمقاهي القديمة.

- الثامن: تطوير علوة السمك وسوق الخضار.

- التاسع: تطوير منطقة الشواكة وربطها بشارع حيفا من خلال مشاركتهم في الخدمات المقترحة .

- العاشر: تأهيل وتطوير منطقة الكريمات. تم تحضير نموذج متكامل لهذا الطقم، كمثال على كيفية تنفيذ الأطقم.

- الحادي عشر: تأهيل السفارة البريطانية بصفة المتنزه الرئيس في الكرخ.

- الثاني عشر: تطوير مناطق مختلطة الإستعمالات، سكنية وصناعات قديمة ودكاكين متفرقة مع أبنية دينية جميعها ذات طابع تراثي بحاجة إلى صيانة عاجلة.

- الثالث عشر: تطوير سوق الأقمشة بوصفه امتداداً لأسواق الأقمشة في منطقة الرصافة.

- الرابع عشر: موقف الحافلات والباصات المركزي في الكرخ مع ربطه بمحطة المترو المنوي تشييدها مع موقف للسيارات بسعة 200 سيارة.

- الخامس عشر: مبنى مركزي للمكاتب مجاور لمحطة المترو قرب حيفا



الجزء الخامس.

- السادس عشر: المركز المدني لمنطقة الكرخ، مركز متكامل هو امتدا لمركز الرصافة.

- السابع عشر: تطوير المنطقة الواقعة شرق شارع الأردن وتخصص للخدمات كورش صيانة ودوائر خدمات مع جزء سكني مكمل.

- الثامن عشر: تطوير تقاطع الشيخ معروف (حسب علمي تم تصميمه ولم ينفذ بعد).

- التاسع عشر: جنوب الشيخ معروف المخصصة لخدمات البلدية كورش للصيانة ومدارس لتعليم الكبار وخدمات الدفاع المدني.

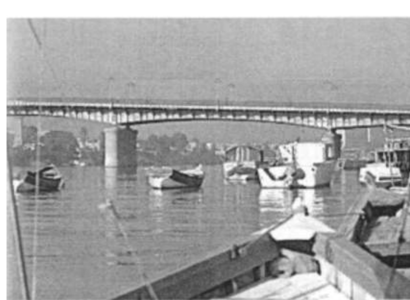
- العشرون: في جنوب الشيخ معروف مساحة تخصص لبناء معهد مهن مع أبنية وورش متخصصة في صناعة البناء.

- الحادي والعشرون: منطقة إسكان عمودي نسبياً بين شارع حيفا والشيخ معروف بتوفير جميع الخدمات الذي يحتاجه السكن الحديث.

- الثاني والعشرون: تطوير منطقة سكنية واسعة في المشاهدة والفحامة وتشتمل على إعادة بناء محلات سكنية بمرافق كاملة ومكملة لشارع حيفا.

تطوير واجهة النهر على امتداد منطقة الكرخ يحتاج إلى دراسة معمقة موازية لحافة النهر ككل.

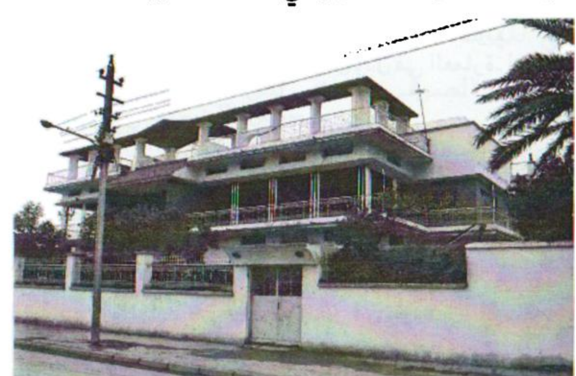




النقل وخدمات اخرى نهرية في شريعة راس الجسر



قسم التصاميم في أمانة العاصمة ملتزم بإصرار إلى يومنا هذا بالمقترح والتصميم الحضري، حسب ما ادعته المهندسة المسؤولة، وما يتبين من موقع أمانة العاصمة، قسم التصاميم، في الأنترنيت، إلا في حالة واحدة عندما أمرهم رئيس الجمهورية والذي لا ترد أوامره بتشييد منطقة التكارتة الواقعة ضمن منطقة ينبغي الحفاظ عليها.




بداية التشويه وانحدار ذائقة ساكني الكرخ

الهوامش

1 - بِيتَر بِرنز 1886-1940، مهندس مِعماري ألماني اشتُهر بأعماله الرائدة في الهندسة الصناعية والتصميم. كان مكتبه مركزاً تدريباً للمهندسين المعماريين مثل "ميس فان در روه"، و"والتر جروبيوس"، و"له كوربوزييه".

2 - 1781-1841 مصمم متحف برلين وجزيرة المتاحف الشهيرة.

3 - من الرواد المعماريين الألمان 1886-1969، صاحب نظرية ما قل ودل في العمارة. له مبنى المتحف الحديث في برلين. من مؤسسي مدرسة الباوهاوس.

4 - مهندس معمار ألماني 1910-1999، مصمم الانتركونتنتال في مكة، عمل مع فراي اوتو في تصميم الخيام الحديثة. اعتنق الاسلام، تقية ليتسنى له دخول المنطقة.

5 - مكان بين الجحيم والفردوس لا يوجد فيه ليل ولانهار بل هدوء وحزن وتحرر من عبء الذكريات.

6 - كتاب عن الطبقات الإجتماعية في العراق 1999، وترجم ونشر في بيروت.

7 - ديانة الصابئة ابراهيمية المنبع، من أتباع يحيى بن زكريا. التغطيس في الماء من أهم شعائرهم الدينية.

8 - لعبة تلعب بالدومينو، وهي تسجيل الخمسة ومضاعفاتها، وكانت مقاهي بغداد حلبات لهذه المبارزة.

9 - شاعر فارسي 1310-1337 لقب بلسان الغيب وترجمان الأسرار.

10 - المخرج الإيطالي المعروف فيدريكو فيليني 1920-1993.

11 - من بكائية إلى حافظ الشيرازي، لـ عبد الوهاب البياتي دار الكنوز، 1999.

12 - مهندس معماري مخطط مدن ومؤرخ سويسري، اعتنق الاسلام وأمضى معظم حياته المهنية في العالم الإسلامي.



المعمار في بيئته سلطان. والتسلطن في أجواء التذكر الشاحذ مليء بالأفكار المتمنات وشطحات التخيل. إنها شطحات تماثل أحوال الصوفي بتمشكلها المعروف، فقد تُنعت لدى غير المتعمق بشتى النعوت التي قد تذهب بصاحبها إلى المهالك. الواقع أنه حتى للمعماريين المنهمكين شطحات هي من صنف التخريف الصوفي الخلاّق. لكل معمار "فولي" عابث ولاهي خاص به من دون معنى ظاهر، وهو يلحّ باطنياً للخروج، والتخلص من أرقه. في بيئة الغربة يشتهي المعمار أن يتخيل لمنبعه، ومكّون شخصيته. للتخيل طعم ومنحى متجدد متطور غير ذلك المتكرر المتأصل من جراء اجترار الذكرى البديعة الأصل.

التذكر عند الحضور ثانية في المدينة الأم يفرض بقوة على الابن المنتمي، الصالح وغير العاق، التواصل مع المدينة وأهاليها. العيش فيها، في داخلها، جوّاها، حزنها، أفراحها.. وهو منها. هل هذا تكريس للانتماء؟ استمرار في النهل من المنبع؟ هل هو لتسمين الذاكرة بمادة متوجع منها؟ من منا يتصور أن غربته ستتطول إلى أن يأكله دود الزمن وهو نصف حي ينتظر العودة؟

المثير في الأمر أن سبب الغربة والتغرب نتج من محاولة التشبث بالإنتماء. هنا يصبح الوطن ذكرى وانتماءً وليس بقعة جغرافية، وطن يتسرب من تلافيف الذاكرة، عساه أن لا يحتضر.

الطفولة الفسحة، الشارع وأصدقاء "الطرف"، مجموعة دور سكن أصدقاء الجيرة الواحدة، أصدقاء المدرسة والمطالعة والرياضة، الكرة والسباحة، واللعب واللهو الجاد، أصدقاء الأفلام والسينما والسفرات .. كل هذا لا يؤسس للذاكرة وحسب بل و لبناء الشخصية الذاتية. في العمارة وعمل الإبداع تسهم الذاكرة

والشخصية الذاتية في تطوير الفكر. إن المعمار الذي ينتمي إلى مدرسة فكرية تستلهم المحلية للوصول الى العالمية يعيش خزينه الفكري كهواجس وإلحاحات يعينانه في عملية الإبداع، والنهل من خصوصيته وتفرده، فيما هو يعيش الحاضر بمن دون تفريط بما استجد من واقع وخبرة وتجديد.

في الغربة شيدنا أبنية لم نعرف أصحابها، ولا نسقها المديني. قسم منها في مدن عرفتها بوصفي زائراً، وأُخرى لم أكن محظوظاً بزيارتها. على عكس المدينة الأم التي تنفستها منذ الصغر، المدينة الرحم، خلايا الجسد تعرف تفاصيلها وتتجاوب معها.

في البدء كانت هناك ثلاث محاولات لتثبيت هذا المعتقد المهني، لا تدخل ضمن درب الكرخ وشارعه، بل متفرعة منه، من جراء الوجود في درب العمارة الأوسع. وبالتأكيد هي ناتجة من الوجود في المكان والزمان المتوحدين، لذا هي تتفرع من الدرب، ولا تتقاطع معه. الإنتماء المهني هو ذاته ناتج عن عدم التفريط بالمبادئ المتوارثة الأصلية، والإلتزام بها على نحو قريب من التزمت، أي عدم المساومة عليها وعلى قيمها. المحاولات الثلاث لها علاقة قوية بالناس الذين عرفتهم جيداً، وعرفت احتياجاتهم الظاهرة والمتخفية.

المحاولة الاولى هي تأهيل بعض قطاعات مدينة الثورة التي أعرفها جيداً وواكبتها منذ ولادتها في أوائل الممارسة: أطفالها، شبابها، شيوخها، أراملها، وهم المعاناة بعينها.

المحاولة الثانية هي تصميم جامع بغداد الكبير، جامع الدولة الرسمي.

المحاولة الثالثة هي دار الصليخ "المكعب"[1]، دار سكن المعمار بلحمه ودمه في منطقة المنهل الأول، بالقرب من مدرسته قبل الإبتدائية.



مدينة الثورة

مدينة الثورة، بعد أن باتت عشوائية، هي مدينة صدام، ولاحقا مدينة الصدر، وسميت لفترة قصيرة في 1963 بـ "مدينة الرافدين".

سباق محموم على التسمية. كل يدعيها لنفسه، على الرغم من تعاسة المستوى المعيشي فيها، مع تعامل مع ناسها يرقى إلى الشر. استغلت المدينة في التسابق السياسي السائد في العراق الجديد، والسابق له، وما قبل السابق له، ومن يدري أي زمن لاحق سينتهي أو لا ينتهي. إنها منطقة سكنية واحدة تؤكد الواقع الاجتماعي السائد في العراق: كثافة سكان غير عادية، رقم قياسي في سوء الخدمات في كل مناحي الحياة. بهذا المعنى هي مدينة (مفخخة) وحبلى بخطاب فوضوي، تقوّيه جماعات سياسية دينية.

مدينة الثورة في الأصل تعود للزعيم عبد الكريم قاسم الذي له اليد الفضلى في تأسيسها ونموها العشوائي.

في بداية الخمسينيات شرعت الدولة العراقية، بواسطة مجلس الإعمار، بتنفيذ خطة إعمارية شاملة شملت كافة نواحي الحياة. هذه الخطة ذات مفعولية مقبولة وواضحة إلى هذا اليوم، يُلتجأ إليها كلما دعت الحاجة إلى أي تخطيط استراتيجي على مستوى القطر، فما زالت متقدمة في أهدافها.

كان المطلوب من مجلس الإعمار آنذاك إعادة تقييم ووضع مخطط هيكلي، يأخذ بالحسبان المستجدات الإقتصادية الجديدة، والأهداف الموضوعة على المستوى القطري. الكثير من التنمويين المتخصصين يطالبون حالياً بمجلس شبيه بذاك المجلس لحلّ مشاكل القطر المستعصية.

من أهم أهداف الخطط التي وضعها مجلس الإعمار هو توفير السكن اللائق لذوي الدخل المحدود والمتدني في كافة أنحاء القطر، والمقصود هو السكن اللائق بمعانيه الواسعة وبكل مستلزماته وحاجاته البشرية. لذا تم دعوة

مؤسسة "دوكسيادس" اليونانية الاستشارية ذات التخصص المتميز في مجال الإسكان، لتقديم المشورة في هذا الحقل من خطة الإعمار. هناك من يقول إن الدعوة كانت بموجب ترشيح من قبل المؤسسات الرسمية الأميركية.

في بغداد، الموروثة من العهد العباسي الأخير، كان حدود التوسع غرباً يتوقف عند نهر الخر وشرقاً عند سدة ناظم باشا[2]، لذا اتخذت المدينة شكلا طولياً موازياً لنهرها، وعلى جانبي نهر دجلة.

بغداد المتوارثة الموازية لنهر دجلة

سدة ناظم باشا هي حاجز ترابي يقي بغداد من الغرق عند حدوث الفيضانات، وقد حمى دار السلام من الغرق في فيضان نهر دجلة في 1954. أزيلت هذه السدة بعد تشييد مدينة الثورة، واستبدلت بحاجز ترابي على بعد خمسة كيلومترات شرقاً.

مخطط المدينة القديم أعد من قبل مؤسسة انكليزية "مونوبريو"، والجديد الخمسيني (مخطط دوكسيادس) ألغى هذين الحدين، السدة والنهر، وفسح المجال أمام قيام مدن ملحقة هي: بغداد الجديدة، وزيونة، والرشاد، ومن ثم مدينة الثورة شرقاً، والشعلة والمنصور والمأمون والدورة والداوودي غرباً.

هذه الخطة الإعمارية الطموحة الموضوعة في حينه من قبل مجلس الإعمار أدت إلى نزوح كبير من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية الكبرى كالبصرة وبغداد، لما توفرها هذه المدن من فرص عمل، ومستوى جيد من الخدمات المدنية. كانت الهجرة من الريف إلى المراكز الحضرية أشبه باجتياح لا مثيل له للمناطق الحضرية وتأثيره كان مزلزلا.

إن عدم توفر السكن، وعدم استيعاب المراكز الحضرية لمثل هذه الكثافة السكانية، أدى إلى نشوء مجمعات سكنية عشوائية على حافات المدن، وعادة ما كانت وحدات هذه المجمعات منسوخة من نمط المعيشة الأصلية لساكني هذه المناطق الريفية. في بغداد سميت هذه التجمعات بأصحاب الصرائف، وفي أفريقيا سميت مدن القصدير أو الصفيح، وفي تركيا تسمى "كيجه كوندو" أي مدن الليلة[3]، وفي مناطق أخرى تسمى الفطريات[4].

في مدينة بغداد تمركزت المجمعات العشوائية بكثافة سكانية عالية في منطقتين أرضها مملوكة للغير، الأولى في الكرخ تسمى الشاكرية، وهي قرب محطة القطار القديمة، مجاورة لفندق الرشيد الحالي وقاعات المؤتمرات، في المنطقة المخضرة اليوم سكن ومركز فعاليات النخبة "السياسية" . والثانية

في شرق مدينة بغداد في الرصافة مجاورة لمحطة قطار الشيخ عمر، محطة القطار الصاعد إلى كركوك وأربيل.

في هذين المجمعين، انتقل الريف وقيمه السائدة إلى المراكز الحضرية، فالطريقة البنائية للوحدات السكنية "الصريفة" هو الطين "اللِبن"، والتسقيف بالبردي والحصير المنسوج من القصب، وهي مواد متوفرة في أهوار العراق الجنوبية. إن نمط المعيشة السائد في الريف، صاحبها عدم توفر الخدمات، جعل هذه المجمعات بمستوى معيشي مزر، وبؤراً لأنواع الأمراض الصحية والإجتماعية، ما حدا بالدولة التفكير جدياً في إيجاد الحلول اللازمة لإزالة هذه المجمعات. ولقد اقترح إنشاء مجمعات سكنية في الرصافة (مدينة الثورة) والآخر في الكرخ (مدينة النور ولاحقاً الشعلة)، على أن تكون مدينة الذهب الأبيض في (أبو غريب)، غربي بغداد، ومدينة (الفضيلية) في شرقي بغداد، لإسكان أصحاب الجاموس، فهؤلاء جلبوا جواميسهم ودوابهم إلى مراكز سكنهم الجديد. كان منظر الجواميس والدواب المحملة بسيارات الشحن، على الرغم من غرابته، من المناظر المألوفة على الطرق المؤدية إلى العاصمة.

مؤسسة دوكسيادس في تصميمها الأساسي لمدينة بغداد عينت موقعين: الأول خلف السدة الترابية الشرقية المذكورة، ما استوجب إزالتها ونقلها لاحقاً الى نحو خمسة كيلومترات شرقاً. في الوقت نفسه استحدثت مانعاً مائياً لعزل هذا التمدد الأفقي عن بغداد المركز بواسطة قناة مائية تربط نهر دجلة قبل دخوله، وربطها بنهر ديالى جنوب شرق بغداد، بعد خروجه منها. سميت هذه القناة المستحدثة بقناة الجيش، وصاحبها طريقان سريعان موازيان لها، سميا في ما بعد وما زالا بشارعي القناة وطريق ثالث يسمى شارع فلسطين.

إعتمدت المؤسسة الإستشارية على نمط تخطيطي كانت قد توصلت إليه في دراساتها في مركزها الـ"اكيستك"[5] في أثينا. نمط سكني أتبع من



قبلهم في مناطق عديدة من العالم، كما في الباكستان وأميركا، ومستوحى من أصله الأغريقي، المتكون من تقاطع وتعامد الطرق والممرات مكوناً شبكة شطرنجية. إنها "الشبكة الحديدية"، كما تدعى بلغة المخططين، مستلهمة من نمط تخطيط المعسكرات الأغريقية القديمة، والتي تسهل مهمة الدفاع عنها. بعد عشرات السنين، أثبتت نجاعتها في الدفاع والمقاومة في مدينة الثورة، وفي تحد القوى الأمنية وقوى السلطة، وأخيراً في مقاومة الاحتلال.

استعمل هذا النمط من التخطيط في مشاريع الإسكان كافة، في البصرة والسليمانية والحلة وغربي بغداد والسليمانية.

هذه الشبكة في مدينة الثورة متكونة من قطاعات رئيسية، وكل قطاع متكون من بلوكات، والبلوك عبارة عن مجموعة دور متراصة، وجميعها متصلة/ مقسمة بشبكة الطرق.

إذن المدينة متكونة من قطاعات متعددة عددها الأصلي 5-6 قطاعات، بيد أنها نمت بصورة مخيفة، ووصلت بعد سنوات قليلة إلى ما يزيد على الثمانين قطاعاً، وكل قطاع يحتوي على 28-32 بلوكاً حسب ترتيبها في القطاع، ترتيب لا تصميم فيه ولا إبداع. تحتوي جميع البلوكات على مدارس ابتدائية وفسح مفتوحة وسطية ومحلات مكشوفة للتجمع سميت بزوايا القشبة. أسقطت مواقف السيارات خارج البلوك. أما الحدائق والتشجير المديني فلا ذكر له في التخطيط الأصلي للمدينة.

كل من هذه البلوكات تتكون من 26-32 وحدة سكنية متراصة، وهي بطابق واحد ونصف الطابق. تشترك القطاعات بالأسواق في موقع وسطي مركزي، كما يضم المركز المدني لها فضلا عن الأسواق جامعاً ومستوصفاً ومدارس ثانوية، وأبنية إدارية، أي أن مجموعة قطاعات تكوّن في ما بينها وحدة سكنية أسوة بالمحلة المتعارف عليه في العراق، وتشترك بمركز واحد.

هذا ما كان عليه تصور المشروع والقطاع النموذجي تخطيطياً، أما ما حدث في الواقع فكان كارثة بحجم لا يقاس.

انتشرت إشاعة توزيع الدور السكنية في بغداد من قبل رجال الثورة، وتزامن ذلك مع إنهاء عقد مؤسسة دوكسيادس بعد ثورة 14 تموز بصورة غير مقبولة مهنياً، نتج عن صراعات داخلية غير مهنية[6]. مع انتشار الإشاعة هاجت وماجت الجموع وشدت الرحال من الريف متجهة إلى المدن وخاصة بغداد العاصمة: فيضان بشري لا يمكن صدّه.

لم ينقذ ولم يساعد تسلم دوائر الإسكان من قبل المهندسين العراقيين بشيء، فقد فقدت السيطرة على هذه الهجمة الكبيرة من سكنة الريف إلى مدينة بغداد، في حين لم تكتمل الخدمات والبنى التحتية، ما أدى إلى وضع مهندسي قسم التصميم والتخطيط في وزارة الإسكان في موقع لا يحسدون عليه. فكان عليهم مسؤولية تخطيط وتوزيع القطع السكنية على سيل الوافدين، بيد أن الزخم الهائل لم يسمح بالتريث وإعادة التقييم ومحاولة تغيير نمط التخطيط. لقد اعتمدت سياسة لا تسيطر على الاختيار سوى بمعرفة نوايا الوافد في استعماله للقطعة المنوي منحه إياها، لتقدم له مخطط السكن الجديد. كانت المخططات محضرة من قبل الأهالي أو من كتّاب عرائض لا علاقة لهم بالتخطيط، خرائط أمية بكل معنى الكلمة، مضحكة مبكية في بدائيتها، وأكثر من هذا أنها ليست حقيقية، والغرض منها آني لتمرير الطلب والحصول على قطعة الأرض، ومن ثم جرى استغلالها حسب ما يرتأيه صاحبها. كثير من هؤلاء حاولوا الإسترزاق بفتح غرف الدار إلى الخارج لغرَض تحويلها إلى دكان لبيع المواد المنزلية. أحد المالكين الجدد شيّد على الأرض الممنوحة له بناية متعددة الطوابق، تجارية الاستعمال، فأغضب الزعيم عبد الكريم قاسم الذي أمر بتهديمها وسحب قطعة الأرض منه، على اعتبار أن مالك القطعة لا يحتاج إلى المساعدة.



ما أثار الإنتباه أن الطلبات الخاصة بتشييد الأبنية الدينية أصبحت مصدراً للتكسب، وعدد الطلبات بات كبيراً جداً، وقضت التعليمات بعدم رفض أي طلب لاستعمال ديني. إزاء ذلك لم يمرّ أي طلب من أي محسن أو مؤسسة تخصص أرضاً لتشييد مدرسة أو مستوصف أو ناد رياضي، ولا حتى ساحة للألعاب.

القطاعات الخمسة المخطط تشييدها لإسكان الوافدين أصبحت في مدة قصيرة نسبياً ثمانين قطاعاً. وبمعادلة بسيطة يتبين لنا أن عدد سكان مدينة الثورة أصبح يتجاوز المليوني نسمة، وهي كثافة سكانية تزيد عن ألف شخص بالهكتار الواحد، في حين أن التصميم الأساسي حدد الكثافة القصوى بـ 650 شخصاً للهكتار في الأبنية المتعدددة الطوابق. إنه الرقم الذي حدد في تشييد شارع حيفا، وعندما كان معدل أفراد الأسرة الواحدة في عموم القطر نحو 5.5 أشخاص والذي أصبح اليوم 6.4 أشخاص للأسرة الواحدة على الرغم من توالي الحروب: زد وبارك.. بالرغم من أن ٪40 من الشعب العراقي بدخل يومي تحت خط الفقر المتعارف عليه إنسانياً!

هذه الكثافة السكانية الكبيرة ضاعفت الاحتياجات والخدمات الضرورية اليومية: زيادة في استهلاك الماء والكهرباء، وفي تكدس النفايات والصرف الصحي، وفي مقاعد الدراسة واسرَّة المرضى، مع كل ما ينتج عن هذه الزيادات من علل اجتماعية، وحالات غير إنسانية في نمط المعيشة، وخلط غير مستحب في استعمالات الغرف بصورة تشوّه القيم والتقاليد المتعارف عليها. النتيجة النهائية أن المستوى المعيشي المتردي سحب إليه القيم الإنسانية الأساسية، وظهور جيل وطبقة مسحوقة مغبونة، وبالطبع حاقدة على السلطة والتحضّر.

لقد غرقت المدينة بمياه الصرف الصحي، وتكدست الأزبال على هيئة تلال، وانتشرت الأسواق بين الدور والفسح الخالية، وما تبقى منها غدت أسواقا تقام على عجل وتنمو من دون ضوابط: أسماك متعفنة، حوض من الماء الآسن

لسباحة البط والوز، أقمشة، أثاث، ثم اعجوبة الأسواق كسوق "مريدي" الذي يبيع المسروقات والأسلحة الخفيفة والثقيلة وتجارة الممنوعات، وتصريف العملة .. ولعله سوق تأليف النكتة وبيعها، وهي بضاعة رائجة في مدينة البكا. الدائم. ثمة سوق تخصص بتزوير الوثائق والشهادات الدراسية، ظهرت فوائده الجليلة لأعضاء طالبي الحكم والبرلمان.

لقد اشتركت الدولة في تكوين مراكز سكن عشوائية، وبمستوى إنساني غير مقبول ولا مسموح به بيئياً، ومن هنا فإن ناسها كانوا متلهفين لحمل السلاح.

منذ أعمال تنفيذ وتأسيس المدينة بصحبة الصديق الحميم رفيق الهجرة في بيروت وليماسول مصطفى الجاف، وهو المسؤول عن تخطيط المدينة بعد الاستغناء عن الاستشاري، تولد نوع من التعاطف مع المدينة وأهلها، معتقدا عدم جدوى إسكان الناس بتوفير أرض وسقف ليس إلا، فالمهم هو توفير السكن اللائق، من هنا أصبحت مدينة الثورة من المشاريع الإسكانية الفاشلة، فقد توفرت الأرض وارتفع السقف من دون أن يبدو أننا وفَرنا سكناً يليق بالإنسان. في بعض مشاريع الإسكان على مستوى القطر تبين مقدار الخلل الذي يحدثه توفير ما يسمى ظلماً بالسكن، فدوافعه الحقيقية هو الترويج السياسي الرخيص، من هنا لم يلتزم بأبسط مستلزمات المعيشة الكريمة واحتياجات الفرد الأساسية من بنى تحتية وأجواء صحية اجتماعياً وثقافياً. ومما يؤسف له استمرار هذا النهج، بتوزيع الأرض بالجملة للترويج السياسي والانتخابي، تحت شعار مساعدة المسحوقين الذين هم الأكثرية الساحقة.

الناتج من كل هذا تخلخل مديني شمل العاصمة كلها، ومن ثم القطر بأكمله. الخلل الذي أحدثته الهجرة من الريف قد يتساوى في ضرره الخلل الذي أحدثته الحروب، إذ أدى إلى ترييف المناطق الحضرية، وترييف كل مرافقها. الريف منسي منذ فترة طويلة إلى يومنا هذا. لم نر سلطة أو جهة مسؤولة تأخذ



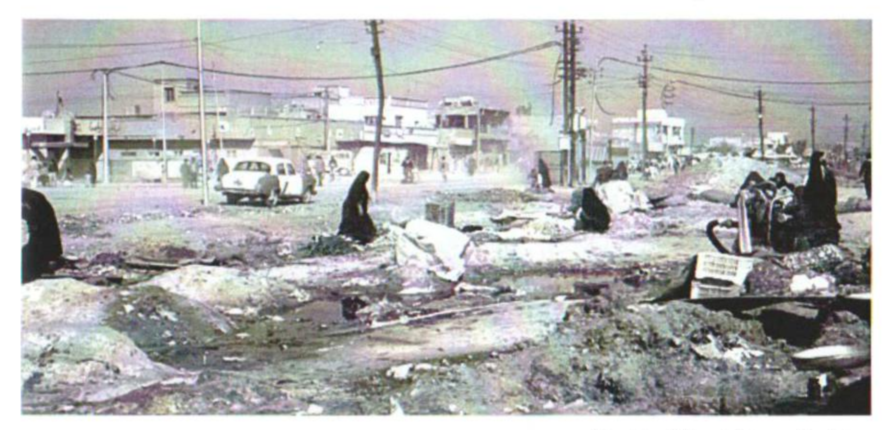
على عاتقها وضع مخطط هيكلي استراتيجي لمنطقة ريفية، في حين حظيت المدينة وسكانها بالنصيب الأكبر من تخصيصات الميزانية السنوية. والحال أن نمواً بسيطاً تحقق في عموم القطر، أما الريف فيكاد الإهتمام به أن يكون معدوماً.

في حالة العالم الثالث تتوسع الكثير من المدن بنسبة أكبر من نسبة الزيادة السكانية للبلد، وذلك لاستمرار زيادة نفوس المدينة جراء الهجرة من المناطق الريفية، كما هو حال مدن أميركا اللاتينية والقاهرة واسطنبول وجوهانسبيرك. في المدن المتقدمة حضرياً يحدث العكس، إذ النمو سالب، أي توجد هجرة معاكسة من المدينة إلى الريف، كما هو الحال في المدن الاميركية والألمانية وشمال أوروبا، والسبب تساوي جميع الأمكنة بمستوياتها في توفير الخدمات الحضرية، في حين توجد بيئة خضراء صحية متقدمة في الريف.

في بغداد توقف النمو كما هو الحال في نيويورك، لكن لسبب آخر، وهو تساوي جميع الأمكنة في عدم توفر الخدمات الحضرية، وترييف جميع مراكز العراق الحضرية، لذا انتفت الحاجة إلى السعي لما هو متقدم معيشياً، ولا توجد مدينة أحسن من قرية ريفية في توفير الخدمات.

في منتصف الثمانينيات قامت أمانة عاصمة بغداد بمحاولة تأسيس مجاري للصرف الصحي، وتوفير الحد الأدنى من الطرق المكسية. نتجت من هذه الحملة مناطق مفرغة، مصممة ومخصصة لتوفير الأجواء الملائمة للاختلاط والعيش المشترك، مخطط لها أن توفر أجواء إنسانية تخدم القطاع السكني الواحد، ومساحات أخرى بحجوم أكبر بين القطاعات، الغرض منها خلق أماكن للتجمع واللعب، تساعد على خلخلة الكثافة السكانية الهائلة، داخل الدور وخارجها. هذه المساحات في داخل القطاعات سميت في حينه بـ"زوايا القشبة". بعد إكساء الطرق وتوفير الخدمات، ظهرت الحاجة الماسة للعمل على

هذه المساحات وتأهيلها، بدلا من تركها لتغدو مكباً للأزبال ومستنقعات زاكمة للأنوف. كان تأهيل هذه الفسح بحد ذاته تجربة جديدة على بغداد، وبدا لي أنه تحد آخر في تنفيذ الرغبة بإسعاد ومساعدة أخوة مسحوقين.



حالة الفسح المفتوحة في المدينة



سوق السمك

مستشار الأمين ارتأى دعوة استشاريين يابانيين لتأهيل المساحات المفتوحة من هذه القطاعات، وكانت هناك نحو الثلاث مائة مساحة بأحجام مختلفة، وهو عمل عملاق خارج عن التصور.



صوب الرصافة من بغداد هو صوب الانتماء الأصلي للسلف، فالسكن والمدارس وأكثر جوامع الألوسية تقع في الرصافة، ماعدا قبورهم في الكرخ. ومن الأسف سوف لن يكون للخلف أي نصيب غير الذكرى، فالوالد متقبرص، ووحيده يمارس العمارة في سنغافورة لمدن الصين.

اعتقد أمين عاصمة بغداد، سمير الشيخلي، وهو مدرك ما لصاحبه المهندس من شعور بالإنتماء، أنه سيكون من المعقول عرض ما تفضي إليه أعمال تحديث البنية التحتية غير الموجودة أصلا في مدينة الثورة إلى استشاري الكرخ وحيفا. في البداية جرى سؤالي ثم تورطت بعد أن أظهرت مدى علاقتي السابقة بمدينة الثورة، منذ تأسيسها. كنت أحاضر في التصميم الحضري على طلبة الدراسات العليا في الجامعة التكنولوجية، وكان أحد مشاريع الفصل دراسة اجتماعية/تخطيطية لما ستؤول اليها حالة قطاعات مدينة الثورة عند تصميم وتنفيذ مترو الأنفاق المزمع تنفيذه، والذي يقطعها من أقصى شرق بغداد إلى أقصى غربها، مروراً بساحة التحرير وانتهاءً بالمنصور. كان هذا تأكيداً إضافيا على إلمامي بالأمر. لذا كلفني الأمين، وهو المسؤول الحزبي للمدينة العصيّة على النظام، على نحو غير رسمي، أي أنه (نخاني) بوضع تصور لحل هذه المشكلة.. وانتخيت.

على الرغم من التفاهم المقبول مع المستشار في كثير من التصورات المعمارية والتخطيطية، بيد أننا اختلفنا في إيجاد الحلول للمشكلة. كنت أفضّل أن نجد آلية نابعة من نمط العيش، فما هو مستورد لن ينفع، وسيفرض على ملايين البشر "المعترة" على حد قول البيروتي. في التعامل مع المشكلة لابد من إيجاد آلية خاصة بالمدينة، من المحتمل أن تكون تدشيناً ليس له مثيل، لمدينة هي بحد ذاتها لم يسبق لها مثيل، فضلا عن ضرورة دراستها والاستفادة من التجربة لتعميمها على عشوائيات القطر.

اعتقدت أن الطريق الأصوب هو اعتماد عدد من المحكّات واختبارها بالتجربة، فالمدينة تحتاج إلى عدد لا يحصى من التصورات لإيجاد التصور الأمثل. نحن أمام امتحان لا نجد أجوبته في الكتب. ما من مدينة أو محلة في العالم أجمع تشبه مدينة الثورة، من هنا يجب التجريب المراقب عن كثب، والتقييم المستمر والمعايشة الدائمة، أخذ وعطاء مع الأطفال والكبار، النساء والرجال.

كنت متأكداً من أن اعتماد آلية اليابانيين المختارين من قبل المستشار غير مجدية البتة. كان استخدامهم يؤكد عدم فهم المشكلة، عدم فهم بشر المدينة وأصولهم وتكوينهم الإجتماعي. الحلول تحتاج إلى معالجة جديدة، ليست هي بالتأكيد تلك المقترحة من قبل الاستشاريين اليابانيين والتي تتضمن معالجات ضخمة، بعضها متطور إلكترونياً يرقى إلى إلكترونيات مدينة "والت ديزني" في "أناهايم" كاليفورنيا[7].

خير بداية هو الحصول على المخططات الكاملة الحديثة للمدينة، وأي إحصائيات إن وجدت. اصطدمنا بجدار لا يجوز اختراقه، على الرغم من أن أمين عاصمة بغداد هو الذي تقدم بطلب الخرائط والاحصائيات، فتبين عدم وجودها. في مدينة حبلى بالسخط، وبتعبير اليوم "مفخخة"، ممنوع منعاً باتاً سبر غور مشاكلها.

اهتدينا إلى حل بسيط وهو إرسال تلكس واحد إلى زميل في لندن لشراء المعلومات كاملة، وبالتحديد لمدينة الثورة المحاصرة مخابراتياً. حصلنا على مبتغانا من دوائر الإنكليز الحربية، تصاوير بمقاييس مختلفة وبدقة متناهية، حتى الشجرة، الزرع والضرع، واضح كالكريستال. لقد حصلنا على كل هذا بسعر بخس هو 150 جنيه انكليزي. للمقارنة كان الدينار الواحد حينذاك يعادل ثلاثة دولارات.



عرضت نسخاً من الرسوم والخرائط على جدران غرفتي للتأمل، التخيل والاستيعاب، وإيجاد الحل. أمين العاصمة في زيارته الروتينية لشارع حيفا، وقد استعصى عليه الحصول على معلومات عن مدينة هو مسؤولها الحزبي[8] تسمّر عند رؤيته تفاصيل المدينة مصورة، في الوقت الذي تمنع حكومته الكاميرا البدائية البوكس. استولى الأمين المندهش على الخارطة، مبرراً الأمر أنه يريد الشماتة بالمسؤول الذي ادعى الحفاظ على المعلومات كما يحافظ على عرضه!

لقد اعتاد سكنة هذه المدينة عدم الثقة بكل ماهو حكومي، فكيف إذا كان الحاكم حزبيا بآفاق مشكوك بصلاحيتها. من هنا فإن المبدأ الرئيس في عملية التخطيط الحضري هو تحفيز البشر على القيام بما يرغبون به، وتطوير مشاركتهم، من دون إملاء. هناك منطقة لقاء بين ما تتوخاه أنت وترغبه كمخطط ومحفز بشري وما تمليه المصالح الانسانية العامة. قبل كل شيء لابد من أن تتجسد في هذه المنطقة تبادل الثقة، والفهم المتبادل والصداقة، مع ساكني القطاع، بعيداً عن الكسب السياسي الرخيص.

بواسطة الكاميرا رحت أبحث عما هو قابل للتطوير، والتركيز على مكونات المجتمع. الكاميرا ترى من دون وجهات نظر أو تصنع مناورة خاصة بالتقييم، فهي شاهد على الجميل والغث في آن. كان أول درس في السنة الأولى من الجامعة هو الدراسة بواسطة التسجيل بالكاميرا، ولقد اخترت منطقة سكنية لذوي الدخل المحدود في قلعة "حصار" بأنقرة، وها أنا من جديد أستعيد العملية نفسها في مدينة أخرى. الفارق بين المدينتين متساويان في الأهمية بوصفهما موضوعين للدراسة، الفارق الكبير يتجلى بين المرافقين، بين "ايسون" الزميلة الجميلة الوحيدة التي تملك كاميرا في الصف، وبين مرافق حزبي التحف بالخاكي. كان من حسن حظي أنه من المعروفين بالمدينة بدماثة أخلاقه، والمهم أن الناتج كان مجموعة عزيزة جدا



من الشرائح أعتز بها كثيراً وما زالت بحاجة إلى تأمل وتحليل.

في تأهيل مدينة الثورة كان الهدف الرئيس هو توفير الأجواء اللازمة للتمدن، ورفع صفة الترييف السائد فيها، وهو ما يعني إبعاده عن العاصمة، وخلق أجواء مدينية ابتداءً من الدار وانتهاءً بالمدرسة. فضلا عن أهداف أخرى: أجواء ملائمة للعب، للجد والهزل، للأعمار كافة، للصغار والكبار، ولكلا الجنسين. التحفيز على تحسين مستوى المعيشة، تشجيع على المحافظة وصيانة الملك، وأكثرهم مالكين لدورهم، ثم التأكيد على احترام الذات ومحاسبتها وإشراكها في التأهيل.

كان تبليط الشوارع في هذه المنطقة عملية معقدة، إذ كان يتطلب الوصول إلى الطبقة الصالحة من الأرض نظراً لتراكم طبقات الطين الآسن، وما يسمى بلغة مهندسي الطرق "الروطان". كانت أرض المدينة غير صالحة لأي شيء سوى التلويث، ومن الواجب التخلص منها قبل المباشرة بالدفان ووضع طبقات التبليط. في أحيان كثيرة كان الحفر يصل إلى أكثر من مترين والأرض ما زالت سوداء آسنة بعد.

كان يجب إنشاء مجاري الصرف الصحي لتلافي أكبر مصدر للتلوث، ومن ثم تصبح العملية هندسة روتينية تتلخص بتبليط طرق السيارات وأرصفة المارة. وماذا عن الساحات والتشجير وفسح اللعب؟ بعد إقامة هذا وذاك يتسلم الإستشاري القطاع مبلطاً وبخدمات، عندها يباشر التأهيل وحملة العلاقات العامة.

في معامل أمانة العاصمة وورشها العملاقة الكثير من المرتجعات التي هي في طريقها إلى التلف ويمكن الإستفادة منها وتدويرها لأغراض متنوعة، كما توجد الكثير من المواد الانشائية الصالحة للإستخدام. الأيادي العاملة متوفرة، والمطلوب حسن استغلال هذه المواد وتوظيفها ومساعدة الناس.



من يريد صيانة داره؟ المعمار موجود للمساعدة والتوجيه، والمواد متوفرة، فليتفضل، هذه فرصة العمر. كان السمنت والرمل والأصباغ بألوان مختارة من البيئة متوفر. (في بيئة شبه ريفية كان كثير من الملابس النسائية بلونين اسود واحمر نقي، والرجالية أبيض سكري، للدشداشة) الأبواب زرقاء وخضراء وحسب الطلب، صاحب الدار هو الذي يقرر. مجرد وصول دعوتنا إلى السكان توافد الجميع، وفيهم الكثير من العاطلين، فتأهل القطاع وتلوّن الجو بأصالة وجمال قلما يوجد في المناطق المتمدنة، وبأذواق على الرغم من بساطتها جذابة وممتعة. البعض لوّن داره ورسم وروداً، والثاني خلط الألوان بذوق أحسن بكثير من الألوان التي تتشوه بها بغداد اليوم. اللون الليلكي السائد في العراق الجديد اغتصب بناية لؤلؤة الحداثة في بغداد، مبنى الهلال الأحمر القديم في السعدون المصمم من قبل المعمارية ألن جودت في أواخر الستينيات. في الأصل كان المبنى أبيض ناصعاً وبات ليلكياً.

للساحات في مدينة الثورة معنى آخر، فهي معدة للعب ولهو الأطفال، أما عندما توفرت الإضاءة الكافية فوظفها الشبان للمطالعة وتحضير الدروس. الدراسة تحت ضوء الشارع تقليد قديم واصل العمل متكيفاً من جديد لزحمة البيوت ولفصل الصيف الساخن.

قدمت مرتجعات معامل الأمانة مادة لتأثيث الشوارع والساحات، فالمقاعد من أنابيب المجاري الفاشلة في الفحوصات لوجود تشققات وغيرها. زميل الستينيات عدنان جابرو، مدير عام في أمانة العاصمة، كان كريما بتزويد القطاعات بالأنابيب الكونكريتية التي دوّرت الصغيرة منها لتصبح مقاعد للجلوس موزعة في الساحات، والمتوسطة الحجم منها دوّرت إلى مزهريات لزراعة أشجار اليوكالبتوس المورقة. مديرية المشاتل أسهمت عن

طريق الكرخي الأصيل ضياء المؤمن بنشر الخضرة والزهور. لم تحدث سرقة لها أبداً، وبالعكس أديمت الأشجار من قبل الساكنين على أحسن وجه. الأنابيب الكبيرة الحجم تحولت الى ألعاب تمتطى وتركب من قبل الاطفال، مع ألعاب بسيطة أخرى أنتجت من معامل أمانة العاصمة من مرتجعات الحدادة: مكعبات من الأنابيب الحديدية للتسلق والتمرجح، عوارض وقوائم أهداف لكرة القدم والسلة في الساحات الكبيرة خارج القطاعات السكنية.









القطاع بعد التاهيل

كانت سعادة قصوى أن أكتشف عند زيارة المواقع لاحقاً مدى اعتناء أطفال ومراهقي وكهول المدينة، ومن كلا الجنسين، في المحافظة على مكتسباتهم وإدامتها. صوّرت أطفالا بعمر الخمس سنوات يغسلون الرصيف أمام دورهم. كنت أذهب كل يوم صباحاً، قبل زيارة شارع حيفا، وقبل محاولة الإشتراك في تطوير الكرخ، وفي أحد الأيام وجدت كتابة على جدار: يعيش



المهندس .. وبالاسم! لا أخفي أنني شعرت بالاعتزاز، لكنني طلبت مسحها فوراً، فمن يستحق الهتاف له هو من نفذ وأبدع.

كان مردودنا المادي صفراً، بيد أن التجربة كانت كبيرة جداً. المكتب لم يتقاض أي أجور عن هذه الأعمال، لا لقاء توفير الخبرة، ولا تكاليف الإشراف على العمل. كان القصد السعادة والغبطة، والمشاركة في إسعاد الغير. مهنياً لقيت التجربة استحساناً كبيراً عندما عرضت في فوروم برشلونة للتجمعات البشرية في الأمم المتحدة، وعدت نموذجا لتأهيل العشوائيات [9].

بعد عشرات السنين، والمهندس مغترب في الجزيرة العائمة صادف من ذكّره بهذا العمل. ففي مباراة لكرة القدم لنادي "أبولون" ونادي قبرصي آخر، أصيب لاعب النادي العراقي الدولي مهدي كريم في رأسه، واضطروا إلى نقله إلى المستشفى. عندما سمعت بالخبر أخذتني الحمية وقررت زيارته على الرغم من عدم وجود معرفة سابقة. كنا نشترك في بغداديتنا فقط. زرته في المستشفى برفقة الصديق القبرصي فالنتينوس. بعد مجاملات التعارف المعهودة التي لا تخلو من حرارة، عرّف أحد زواره نفسه بأنه من سكنة إحدى تلك القطاعات التي قمنا بتأهيلها. طمأنني أن تلك القطاعات هي الوحيدة الصالحة للسكن.

يخفف البحر في قبرص من وطئة الاغتراب. اعتدت لنحو خمسة وعشرين عاما الجلوس على كرسي قابل للنقل على الشاطئ بصحبة الكتاب. القراءة هروب لذيذ من هموم الغربة، وما كنت بحاجة إلى أن يذكرني أحد بهويتي الوطنية على نحو مباشر في مكان تجلجل فيه الطبيعة. في أحد الأيام وأنا مستغرق بالقراءة حياني صوت عراقي: أستاذ مرحباً! وعرّف على نفسه: أنا حمزة، كنت قد قمت لكم بلبخ الدور! لم أسأله عن الدور التي قام بلبخها بالسمنت (تدعى الطرطشة بلبنان) وذلك لكثرة الدور التي أشرف المكتب على تنفيذها، بل سألته عن الدهر الذي أوصله إلى الشاطئ القبرصي

في ليماسول. تبين أن حمزة، هذا المواطن العراقي الأصيل، وصل الجزيرة على زورق تهريب دافعاً مبلغاً كبيراً لقاء هذا وهو في طريقه إلى بلد الإنقاذ، مهد الحرية، منجم الفرص، أميركا. سألته: وماذا أنت تنوي عمله ياحمزة في بلاد العولمة؟ أجابني: ما كنت أعمله في بغداد! ذكّرني بتأهيل مدينة الثورة والشباب الذين تعلموا تواً كيفية اللبخ بالسمنت. مرّ بعد شهرين مودعاً، فهو في طريقه للتحرر أو لمعاناة قسوة الغربة. تمنيت له كل التوفيق، ممتناً له تذكيره لي بتجربة تؤكد منبتنا المشترك وفردوسنا المفقود.

لم تكن التجربة بمجموعها خالية من المرارة. الخطأ الكبير الذي يرتكب في العراق هو عدم التعامل مع الفرد الإنسان، إلاّ على نحو لاإنساني. ينبغي أن يكون الإنسان العادي هو الهدف الرئيس للتطوير والوسيلة الأولى للتمدن، فمن دونه يصعب البناء على أسس صحيحة ومستدامة تؤسس لكيان متمدن قوي، يشد فسيفسائه اجتماعيا.

في إحدى السهرات وبصحبة "جون راوخ" شريك المعمار الفطحل "روبرت فينتوري"، الذي كنا نساعده محلياً في تصميم بناية عملاقة في ساحة الخلاني وشارع الجمهورية (صُممت ولم تشيّد) مررنا بشارع الرشيد، فصادف أن إحدى السيارات دهست كلباً: أي ألم ! كان الحيوان ينط ويتمرغ من الألم على إسفلت شارع الرشيد بينما اخترق عواءه الحزين العمارات التي تحيط بالمكان. نزلت الطيور على رأس جون، عيناه وحدهما تسمعان العويل فتلتمعان، توقف صامتاً كأنه يتذكر وأنا أحاول تهدئته. قال لي: يامعاذ كل ما تعمله من تطوير الكرخ، أو مدينة الثورة، في حيفا أو الكاظمية، لا يعني شيئاً إن لم يستهدف الانسان الفرد وإسعاده.

ظل صامتا الطريق كله حتى وصوله إلى الفندق، وتركني وأنا في خيبة كبيرة لاعتقادي الجازم بصحة ما قاله.. خجلا متألماً، فقد كانت عواطفي



المهيّجة من تأثير الحادث تذكرني بلاإنسانية الحياة التي يعيشها العراقيون.

الحيوان في مدينة الثورة ملازم للإنسان، منذ الأيام الأولى لتشييدها. في زيارة للموقع قرب القطاع رقم واحد كانت حفر معامل الطابوق مليئة بمياه الأمطار والمياه الجوفية، من هنا كانت تستعمل لتغطيس الجاموس المحب للغطس منذ أيام وجوده في الأهوار. حفر معامل الطابوق اليوم هي بحيرات مدينة الألعاب ونصب الشهيد بعد ربطها بمياه دجلة بواسطة مضخات قناة الجيش.

في أحد الأيام زرت المدينة مع مصطفى الجاف وسامي علوش، وكان في حينه يحضر أطروحته النهائية في قسم العمارة، ولقد جلب انتباهنا كيف يغطس الحيوان في حفر الطابوق، وتمتعه بمياه الحفر الأسنة، وفيما كنا نتأمل هيبته السوداء الثقيلة هاج ثور ولحق بسامي، ونجا منه بأعجوبة. والحال أن الحيوان لم يتوقف إلا بعد أن عومل بقسوة. ولقد فهمنا أن هياج ذكور الجواميس يؤدي في النهاية إلى قتلها بصورة رهيبة عراقية/استرالية، وهي أن يقذف القصاب بسكين حادة جداً ترمى كما يرمي الأسترالي "البوميرانك"، وبمستوى أسفل الساق، فيقطع التندون ويبرك الثور، ثم يذبح ويسلخ والجميع أطفالا وكباراً في غبطة من حدث اليوم.

قوانين البلدية تفرض الفصل بين البشر والحيوان، وتعزل السكن ما بينهما، على الرغم من أن السكان هنا يعشقون الحيوانات: جاموس وحمير وخراف وكلاب ودجاج وبط وطيور بأنواعها. بسبب هذا العشق لم ينجح القسم البلدي في مدينة الثورة بتنظيم هذه العلاقة، من هنا كنا دائما نكتشف أحداثا مضحكة ومبكية.

كانت المجاري الكبيرة الرئيسية، وهي بقطر متر واحد تتوقف من سوء الاستعمال، فهي تبتلع ما تنتجه المدينة من فضلات بشرية صلبة وسائلة،

وبسبب سوء الاستعمال، وهي حوادث لا تحصى في هذا المكان، تتخثر الفضلات وتسد المجاري وتصاب بالجلطة كانسداد شرايين البشر بالضبط. لدى مصلحة مجاري بغداد تانكرات مزودة بما ينعتوه بالصاروخ. هذا الصاروخ يزيل أي انسداد يصيب المجرى، وعمله شبيه بعمل قسطرة شرايين الإنسان. في يوم ما، أصاب إحدى المجاري الرئيسة في مدينة الثورة انسداد، وفشل الصاروخ في مهمته في القصف. تكررت العملية من دون فائدة، ما اضطر الفنيين إلى فتح المجرى قبل أن تغرق المدينة بمخلفاتها، فوجدوا جثة حمار حساوي بحجم البغل مكبوساً داخل المجرى الرئيس، ما اضطر العاملون على تقطيع الحمار المسكين لتخليص المجرى منه. مثل هذه الحوادث باتت شائعة في مدينة الثورة.

هناك قصص من نوع آخر عن سوء الاستعمال لها علاقة بالحمير. ففي فجر يوم ربيعي جميل، تسلمت نداء استغاثة من قبل أحد مسؤولي القسم البلدي راجياً مني الحضور إلى القطاع الفلاني وبالسرعة القصوى، أي قبل أن يقوم أمين العاصمة بجولته الصباحية الروتينية. كان الخوف من المحظور يلازمني في دولة تعيش في حالة طوارئ دائمة. ما الذي حدث؟

عند وصولي وجدت تجمعاً كبيراً في ساحة القطاع الوسطية، وهو قطاع تم الانتهاء من تأهيله مؤخراً، وكل شيء في مكانه، الأشجار والألعاب والدور، مع إضاءة متكاملة. وجدت الحزبي المسؤول في وسط المعمعة، متسلطاً على من يتوسل به: شاب مراهق يطلب المغفرة، وجرمه ليس بذاك الحجم الكبير الذي استوجب عليه استدعائي في الفجر. الجرم المضحك المبكي الذي ارتكبه المراهق هو استمتاعه بما عطفت عليه الحمارة، ورضخت له لممارسة الجنس معها. كان قد حشرها بين الأنابيب الملونة بأزهى الألوان والمصممة للعب الاطفال. سوء استعمال في الفجر .. وما كان ليعد كذلك قبل تأهيل القطاع.



كان قد حشر المطية[10] بين أنبوبين لتهدئتها والسيطرة عليها عند ممارسة عمله المشين، خوفاً من أن تأخذها النشوة وتبدأ بالـ "مزاكطة"، لكن ما لم يخطر بباله وجود من كان يراقب فعلته مستمتعا بها: كانت إحدى المحوونات النائمات على سطح الدار المطل على الفسحة، إذ سمعت وشوشة الغزل وأنين اللذة البشرية/الحيوانية، ربما التنحنح الحيواني، نهيق خافت الطبقة، فجرّها هذا إلى حب الاستطلاع. راقبت العملية بأكملها، استمتعت ولم تعترض في حينه، إلا بعد أن أكمل الشاب فعلته، وأخذ من دابته وطراً، عندها نادت على من يخلص الدابة من براثن الشاب الـ(دون جوان) الظالم غير الرافق بالحيوان.

رد الفعل كان متبايناً. فالمعماري الاستشاري قرر على الفور رفع الأنابيب التي توفر البيئة الشاعرية الملائمة لنكاح الدواب، وإخراجها من الساحة، مكتفياً بأنابيب أقل قطراً، لربما تصلح للكلاب والنعاج. ردة فعل المسؤول، مختلفة كلياً، وقد تكون هي الملائمة، فقد نادى على الإثنين الشاب والمرأة، وبما أن الدابة بريئة فقد أطلق سراحها، وصفع الشاب مع بصقة كبيرة في وجهه وأخلى سبيله. أما المرأة فحصتها كانت كبيرة من التنويه بمحنتها الجنسية، وكيفية استمتاعها بالمسرحية من دون الاحتجاج منذ البداية، فسامها بكلام يصلح للكتب الزرقاء، سيناريو لأفلام البورنو الرخيصة. المرأة التي أضطهدت كالدابة قفلت راجعة ومحبطة.

على الرغم من معرفتي المسبقة بعلاقة الإنسان والحيوان في بيئة مشابهة، يشاع، ولم أر هذا بعيني المجردة، أن هناك اسطبلا لدعارة ممارسة الجنس مع الحيوان، أسوة بـ "بيستولوجيا" و"زوفيليا" الدول المتحضرة. عولمة، أمراض متشابهة، ولاعجب فالبشر من منبع واحد.





انابيب مجاري كونكريتية للراحة وللعب ولاغراض اخرى

كانت الكثافة السكانية وما تنتجه من نفايات مشكلة كبيرة. ففي مشروع تطوير الكرخ اضطررنا إلى استخدام إستشاري لتحضير دراسة متكاملة في كيفية التخلص من النفايات. في المجمعات السكانية ذات الكثافة البسطة موضوع آخر. في "اودن فالد باد كونك" بألمانيا، حيث سكنت لفترة ليست بالقصيرة، لاحظت أن أسلوب جمع النفايات يوازي الكثافة السكانية. هناك النفايات الاعتيادية التي تجمع كل أسبوعين، والورقية بعدها بأسبوع، والزجاجية والبلاستيكية في حاويات خاصة لأسبوع آخر. الكثافة قليلة جداً غير مؤثرة في هذه الحالة. بعض النفايات الثقيلة كان علينا التخلص منها بأنفسنا، فكنا نحملها بالسيارة الخاصة، وننقلها إلى مكب، والغاية منه خلق جبل أخضر جديد. كانت السيارة توزن قبل الكب في المدخل ثم في الخروج، وندفع الفرق بالكيلو. أما في بيروت، في القسم الغربي، كانت الغابات الكونكريتية تستعين بالبلدية لجمع النفايات مرات عديدة في اليوم الواحد، لكثافتها السكانية العالية، فما بالنا في مدينة الثورة ذات الكثافة العالية جداً جداً؟ كان الحل هو تزويد القطاعات المؤهلة بحاويات كبيرة جداً تفرغ يومياً، وعلى الأهالي بأنفسهم التخلص من نفاياتهم فيها. من خلال التأهيل تم تعيين مواقع وسطية ملائمة لوضع الحاويات، وبمسافة مقبولة. ما شوش الفكر وجلب الشك هو تغيير محل هذه الحاويات يومياً، من قبل القسم البلدي، وهم على معرفة تامة سبب اختيار



المواقع المحددة من قبل الاستشاري. بعد الاعتراض والتحقق تبين مدى عبقرية المسؤول الخسيسة، وهي جعل الحاوية مصدر رزق إضافي، فكان يختار الموقع حسب ما يعتقد من أن المجاورين سينفحونه بعض الدنانير للتخلص منها، لذلك ينقلها إلى محل آخر بعيد، وهكذا كانت الحاوية تتنقل والسائق يجني عمولته، والمساكين صاغرين ومن لا يدفع فحسابه في مقر الجيش الشعبي البعبع.



مجلس عزاء لاحد شهداء المدينة

عملية التأهيل نجحت إلى حدٍ ما، إلاَ أنها لم تستمر، إذ توالت الأحداث، حروب وحصار ونهب وسلب وجيوش متقاتلة في هذه المدينة. عادت سرادقات التعزية في الساحات المهلهلة، وعمّ القطاعات اللون الأسود طوال أيام السنة، ثم الفلتان في التصرف اليومي، ما أعاد المدينة إلى حالتها المتهرئة باحثة عن حلول جذرية، حلول بعيدة عن إزاحتها بالكامل، كما اقترح أحد وزراء المحتل، أيام مجلس الحكم السيء الصيت.

لم تدم محاولة مثيلة لها في مدينة الشعلة. كان الفرق بين المدينتين والتجربتين كبيراً، ولاسيما في الشعور نحوها ونحو أهاليها، فالشعلة غريبة عن تجربتي الخاصة نسبياً، ولربما كانت عصيّة عليّ في التواصل والتوافق مع أهلها.

الهوامش

1 - تسمية دار السكن في فهرس جائزة الآغا خان للعمارة.

2 - حاجز ترابي شرق المدينة أنشيء في 1910. وصل الفريق ناظم باشا بغداد بعد أن عين قائداً للفيلق السادس وواليأ لبغداد.

3 - بسبب تشييدها ليلا تلافياً لإيقافها وعدم تهديمها نهارا من قبل السلطات.

4 - لنموها المفاجئ والسريع كالفطر.

5 - مؤسسة في أثينا أسسها المخطط اليوناني كونستنتين دوكسيادس تعنى بالتجمعات البشرية.

6 - ادعت المعمارية ميشيل بروفوست في مقالها "تخطيط المدن والصراع على العالم الثالث" بالعدد 87 من مجلة "فكر وفن" التي يصدرها معهد غوته الألماني، أن المخابرات المركزية الأميركية ومؤسسة فورد كوّنوا تحالفاً ضد المعسكر الاشتراكي في حرب الإعمار.

7 - مدينة ألعاب في مدينة أناهايم قريبة من لوس انجلس في الساحل الغربي للولايات المتحدة لجميع الأعمار، فيها كل ماهو غريب ومسلي.

8 - الإستعصاء كلمة تستعمل في كلية ضباط الاحتياط تصف رفض الطلقة القاتلة الخروج من سبطانة المسدس.

9 - الدورة الثانية للمنتدى الحضري العالمي في برشلونة-اسبانيا، في الفترة من 13 إلى 17 أيلول/سبتمبر 2004.

10 - مؤنث مطي، تطلق على الحمار باللهجة العراقية، تصريف من كل ما يُمتطى.



بموجب قرار صادر من رئاسة الجمهورية في صيف 1982 تم تشكيل لجنة لتشييد جامع الدولة الكبير، برئاسة مستشار أمين العاصمة رفعة الجادرجي، وعضوية ممثلين لوزارة الأوقاف ووزارة التعمير، مع تعيين مستشار أجنبي للتنسيق والتحضير لمسابقة دولية. في منتصف 1982 جرى دعوة 23 مكتباً لتقديم الوثائق المطلوبة للتأهل في الاشتراك بالمسابقة المعمارية. كان هناك عشرة مكاتب من العراق، واثنان من المملكة المتحدة، واثنان من إيطاليا، واثنان من الولايات المتحدة، وواحد من كل من مالطة، وأسبانيا والأردن واليابان وألمانيا الغربية وكندا. دُعيت هذه المكاتب لتقديم الخبرات، ووزع العمل كل حسب اختصاصه، بانتظار انتقاء قائمة مصغرة للاشتراك الفعلي في تقديم التصاميم.

تأهلت في النهاية سبعة مكاتب: من الأردن راسم بدران، ومن العراق قحطان المدفعي ومحمد مكية ومكتبنا، ومن أسبانيا ريكاردو بوفيل[1]، ومن الولايات المتحدة روبرت فنتوري، ومن اليابان مينورو تاكياما[2]. امتاز المشروع بالضخامة، فالجامع يستوعب 30000 مصلي في وقت واحد، مع وجود مصلى آخر للنساء يستوعب نحو 3000 مصلية. وبكلمة كان مدينة لممارسة كل الطقوس الدينية، تتكون من ساحة خارجية، صحن، مكتبات، صالات اجتماعات متعددة بحجوم مختلفة، سكن للقيمين على المؤسسة وللعاملين بها.

تكونت هيئة التحكيم من رفعة الجادرجي من العراق، و"كوبان دوغان" من تركيا، و"ستيفانو بيانكا" من سويسرا.

فريقنا المؤلف الذي نال تأييد لجنة اختيار المتسابقين تكون من: "مانفريد سوندرمان" - صاحبي المعمار الألماني والعامل في فريق تطوير

الكرخ، ومخطط المدن "عمر أكبر" الأفغاني الصديق العامل في فريق الكرخ، وخبير الإسلاميات سيدة سويسرية تركية الأصل البروفسورة "كوكنول فوخت"، أستاذي الكبير "عبد الله كوران" الذي لم يكن في صحة جيدة، وهو الأمثل والأقدر. في الزخرفة والنهج الهندسي الإسلامي عصام السعيد، المعمار والفنان ابن العائلة المعروفة وحفيد نوري السعيد رئيس وزراء العراق في العهد الملكي. في الخط العربي يوسف ذو النون الخطاط الكبير من الموصل، وفي الهندسة الانشائية "امان ويتني" من نيويورك، مركزهم في بناية "ورلد تريد سنتر" محبوبة تنظيم القاعدة.

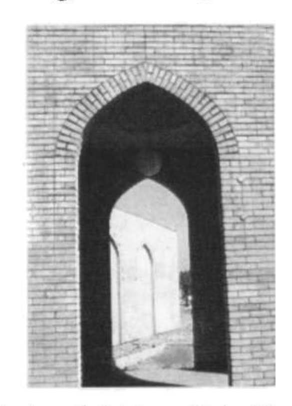
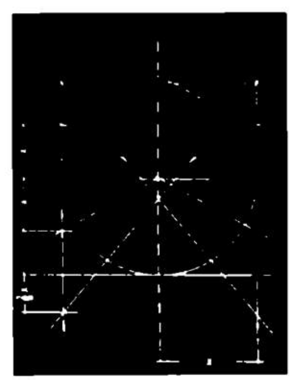
الجوامع في بغداد لها نمط هندسي مميز، تختلف عن جوامع العالم أجمع، فهي نحتية فريدة، وبمقياس إنساني قبل أن يجري الإستيراد الخاطئ لأساليب غير معروفة في العراق. فمنذ تشييد جامع أم الطبول، استوردت عمارة غريبة عن بغداد الحاضرة، لينتهي بجامع أم القرى والرحمن، وآخرها تسقيف الحضرة الحسينية في كربلاء. كل هذه الأمثلة كانت خروجاً عن التواصل والتسلسل الفكري الطبيعي. صنّف أبو المعالي محمود شكري الألوسي في كتابه الصادر في سنة 1926 "جوامع بغداد"[3] الجوامع إلى مساجد جامعة، ومساجد منها ضرار، وأخرى للتقوى، ووصف قيماً معمارية ودينية أساسية في تشييد الجوامع، وبين ما هو ضروري ومستحب، وما هو غير مرغوب أو مقبول في التنظير لبناء المساجد.

كانت مديرية الأوقاف في العراق مسؤولة عن تشييد الجوامع، وفنيوها هم من حافظ على هذا النمط المتميز. وبدلا من الإضافة إلى تراث عريق واختيارات سابقة جرى بتر هذا السياق على نحو قاس. إن تصميم جامع كبير لبغداد حدث لا يتكرر في المستقبل القريب والبعيد. من هنا كان فرصة لتأكيد الهوية عالمياً.

بالنسبة لخبراء مديرية الأوقاف كان الحفاظ على نمطية متوارثة له قدسية



لا تقبل التلاعب والخروج عليها، لذا كان لزاماً التعرف على هذا الاعتقاد الراسخ عندهم منذ القدم، فبعض التركيبات المعمارية قد تكون سومرية/بابلية موروثة من التاريخ قبل الإسلامي، كالمقاييس الذهبية، وهي قياسات الدائرة الهندسية "الخيط والرمي"[4]، وكالمتواليات الهندسية المثمنة والمسدسة. كانت القباب المدببة والمنتفخة فوق الحزام الـ"قباب ذات ثلاثة مراكز تدوير" تجلس على أربعة أعمدة فقط، وتدرج من الحزام الدائري، ويسمى "الكراب"، وهي بأشكال هندسية متناسقة، متوالية من الشكل الدائري ينتقل إلى المربع الجالس على أعمدة زوجية العدد، ومن خلال هذا الانتقال تتولد الزخرفة الهندسية الأساس. هناك أبعاد متناسقة تساعد على الاصطفاف بتراص عند تأدية الصلاة، محددة بأبعاد جسم الإنسان المتعبد، سجوداً وجلوساً، تدعى الأساكيب والبلاطات. مبادىء لا تقبل المساومة، للمحافظة على اصطفاف المتعبدين، وطوابير المصلين دون فوضى، متساوين في التقوى.


الخيط والرمي وكيفية حساب القباب والاقواس

إن الكثير من هذه القيم ومبادىء الخط، جرى التعمق في أصولها من الفني الخبير في مديرية الأوقاف مصمم جامع عادلة خاتون وجامع الشهيد المطل على ساحة الفردوس، عبد الله الصغير.

المسألة التي يطرحها إنشاء جامع الدولة هي الاختيار بين البقاء ضمن حدود النمطية التي لم تتغير عبر القرون، وبين تجاوز هذه النمطية. والسؤال هل يحق للمعمار الإفتاء والتغيير؟

نشأت نمطية الجامع، وبشكل واضح، في فترة مبكرة من تاريخ الإسلام. فشروط صلاة الفرد والجماعة تحددت على نحو صارم، وكانت على الأرجح حاسمة في خلق العديد من السمات الأساسية لأنماط الجوامع الأولى. كان التصرف في هذه التقاليد يحتاج إلى مرجعيات دينية، فالمهندس المعمار غيرمخوّل في تحوير مبادئ التعبد وأصولها.

الدعوة للصلاة، ومراسيم التطهر، وتعريف المجالات ذات القدسية، والتوجه نحو الكعبة، وتراص صفوف المصلين بتوازٍ لجدار القبلة، والتسابق للتقرب من الجدار خلف الإمام، كل هذه العناصر شكلت المحددات الهندسية ووضحت مخطط الجوامع الأولى. إلا أنها كانت غير كافية لتوضيح شكل أو أهمية بعض الأمكنة الضرورية (كالفناء مثلا)، كما أنها لم تثبت وجود بعض العناصر الرمزية مثل القبة أو المحراب أو القوس. والحال تطورت حول هذه المساحات والعناصر المعمارية تكوينات في مختلف الثقافات الإسلامية عبر التاريخ. بالرغم من ذلك قد يتساءل البعض: هل بالإمكان التجاوز إلى أبعد من ذلك - نظرا لأن العمل على نهج العمارة الحديثة قد فرض إرادته، وتجاوز النمط التقليدي وصولا لأنماط مبتكرة؟ إجابتي هنا سلبية. لأن المهمة الأساسية للصرح الديني هي الديمومة والبقاء. نمطية الجامع هي أكبر بكثير من التصرف المكاني البحت، لأن السمات الرمزية لمساحاته هي من متطلبات قيام المؤمن بأداء شعائره.

تجاوز أحد المتسابقين في جدار المحراب من وسطه إلى الشكل الدائري: خروج غير مقبول، تشجيع على التفريق بين المتعبدين، مقياس آخر



غير التقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم. هذا التدوير، التدرج الدائري، يخوّل المصلي إن كان من المهمين، بالتقرب ومنحه الفرصة خلاف غيره للتقرب من جدار المحراب. هذا المتسابق استبعد من الدورة الأولى في التحكيم من قبل هيئة تحكيم المسابقة.

الآخر سقّف الصحن، ونافس الحرم في قدسيته، فاستبعد من الجولة الأولى ايضا. الآخر شجّر الصحن وعمل منه غابة وحدائق للتنزه. متسابق آخر استبعد أيضاً جعل من المئذنة برجاً لبغداد بارتفاع عشرات الأمتار لقضاء الأوقات في التنزه والتمتع بمناظر بغداد مكيفاً "حوضها" المرتفع لمهمة الفرجة هذه. متى رأينا جموعاً تتسلق مآذن الإسلام وتنزل منها؟ في جامع المتوكل الملوية التي أصبحت أكثر أهمية من الجامع نفسه لقيمتها الأثرية المعمارية، وكثير من زوارها السواح على جهل بوظيفتها الأصلية كمأذنة، ماذا لو تجرأ أحدهم وأذّن فوقها اليوم؟ إنه بالتأكيد سينعت بالخبل.

إن القيم الجمالية لفنون العمارة في العراق لم تقتصر في أي وقت على استغلال عناصر شرقية مبتكرة في تصاميم مفرداتها، بل انتظمت ضمن نظم هندسية ثابتة متعارف عليها عرفت بالأصول والموازين. تتسم هذه الأصول بالشمولية فهي نهج بقدر ما هي وسيلة قياسية أساسية للفنون العربية الأخرى.

لنقرأ ما كتبه الناقد الفرنسي "برنارد هويت" في أبنية المساجد:

"هناك وسيلة واحدة لتحقيق الفخامة شائعة كثيراً في تقاليد العمارة العربية دون اللجوء إلى المقاسات الضخمة والثراء الزخرفي الخارجي. وذلك باستخدام الترتيب الغني للمساحات البسيطة، التعددية، تنوّع المشاهد، استكشاف العظمة والكمال الهندسي للحجوم المختلفة، التوازن الدقيق للمواد في زخرفتها وألوانها، وعدم المباهاة".



"... فالجهد الرئيس للمعماريين ينبغي أن يكون، وببساطة، منصبّاً على التعرّف على العناصر الرئيسة للتراث، وبالأخص المفهوم الإسلامي العربي للمكان، هذا المفهوم الذي يتميز بخصوصية، محددة، بالإضافة إلى كونه نمطاً للإنتاج وتأثيراته الإجتماعية والإقتصادية، من وجهة النظر هذه، تربط المشاريع المقدمة ارتباطاً ضعيفاً مع المفهوم العربي للمكان"[5].

إن تشييد جامع كبير لبغداد حدثٌ فريد لسبب ان مقوماته مماثلة لتلك العائدة للمساجد الجامعة الأولى في الإسلام.

في نهاية 1982 كان شارع حيفا قد تخطى المراحل الحساسة في عملية التشييد. العمل بات روتينياً. تطوير الكرخ وصل إلى المراحل النهائية، وتبلورت القرارات وثبتت استراتيجيات التطوير وما تبقى هو إعداد الوثائق النهائية، كالخرائط والرسوم والتقارير الخاصة بالتطوير. الأولوية الجديدة الآن هو لتصميم الجامع.

فريق مسابقة الجامع بأجمعه شدّ الرحال إلى مدينة "مونستر" في "ويستفاليا" الشمالية، بألمانيا، نظراً لأجوائها الأكاديمية، ولوجود جامعة محترمة تساعد في إعداد وثائق المسابقة. طلاب قسم العمارة كانوا خير عون في إنتاج الوثائق المطلوبة.

مونستر ليست مدينة صغيرة، ولا هي مدينة كبيرة. مدينة "باروكية"[6] المنشأ، دائرية، يحيطها حزام أخضر، مثالية للتأمل والشطح في الخلق والإبداع. يعيش فيها نحو 280000 نسمة، تشكل نسبة الطلبة منهم 20 بالمئة. تعتبر من ناحية اقتصادية وثقافية وعلمية أهم مدينة في منطقة "ويستفاليا"، يعود ذلك إلى تاريخها وإلى حاضرها في آن واحد. إنها ليست متوسطة الحجم فقط، بل متوسطة العمر أيضا. تأسست قبل أكثر من 1200



عام، وصقلت شخصيتها عن طريق الرهبنة والتجارة في عصر الباروك. آثار ذلك مرئية في أبنيتها وأزقتها. إنها المدينة الأمثل للاختلاء ولإنتاج تصاميم الجامع. اللهو الألماني محدود جدا، فالجميع كان يلتقي في فندق وماخور عمره يفوق القرنين، "بنكوس موللر"، باسم صاحبه الأصلي.

تم تأجير مكتب بسيط وأثاث رخيص وقتي، المكتب في خان أو سوق حديث يسمى "اكيدي ماركت".

التحقت بنا رفيقة الدرب الأزلية من فرانكفورت، وهو المقر العائلي، لاستحالة العيش في بيروت والجيش الإسرائيلي يحاصرها ويشترك مع من هب ودب في خرابها.

التحق عصام السعيد من كمبردج، مليء بالنشاط والعزيمة، غير مصدق، وهو المتدين، بأنه سيشتغل لجامع مدينة أجداده التي تركها وهو يافع، وعانى ما عانى بسبب شظف العيش. كان حفيد نوري السعيد (رئيس وزراء العراق شبه الدائم) يمتلك وثائق سفر إنكليزية وقتية، رافضاً الحصول على اللجوء السياسي، وأي جنسية أخرى، في حين أن السفارة العراقية لا تعترف بأصله العراقي، وتنكر حصول والده وجده لمرات عدة على الجنسية العراقية. ماذا يقال عن سياسيي اليوم الحاملين لأكثر من جوازين سفر لأوطان مختلفة؟ هاهو من تمسك بوطن جهازه السياسي يرفضه. من معرفتي الوطيدة به هو أحق الناس بالمواطنة، إنتماءً وإخلاصاً وتصرفاً. عندما دعوته إلى بغداد للمشاركة مع الفريق خلال ندوة التقديم، اعتذر، وأفحمني. تساءل: أي مقبرة سيقوم بواجب زيارتها تكريماً لأهله؟ عظام والده وجده سحقت في شوارع بغداد، بغداد بكرخها ورصافتها.

الآن وقد غادر عصام دنياه.. هذه الفانية قبل أن يشيخ، غادر وهو في الغربة بالسكتة بينما كان نائماً، لا يسعني إلاّ أن أعيد عليكم ما قاله تركي

واصفاً الدنيا بأكثر من فانية، ولشهرته بات مثلا دارجاً:

"دنيا بوموكي دنيا، يلانجي دنيا اورسبو دنيا"

الدنيا؟ هل هذه هي الدنيا؟ الدنيا الكاذبة العاهرة..

أعضاء فريق مسابقة الجامع كانوا على توجه واحد، مع الألمان والجامعة وطلاب العمارة الذين كانوا جميعاً مطلعين على الحركة الجديدة الأوروبية بقيادة "ليون كرير" وأخيه "روب"[7]. إن النوستالجيا الحديثة موازية لمفهوم الوطان، لعمارة تصر على الإنتماء للمحل والتاريخ. لم نجد أي صعوبة في الوصول إلى الحل الأمثل بالنسبة لاعتقادنا الذي نال تأييد قسم من أعضاء هيئة التحكيم، واختير تصميمنا أحد التصاميم الثلاثة المتميزة والمقبولة، ونال النقد البنّاء من الناقد الفرنسي. وفي الوقت الذي استحق التصميم التهنئة من أكثر الشباب المعماري الأجنبي، فإن البعض من الزملاء العراقيين تساءل فيما إذا لم يكن بالإمكان أحسن مما كان[8]، والقسم الآخر الصديق والزميل القريب جدا، تكهرب وتعصب، متمنياً لو أن الفائزين الثلاثة هم من خارج البلد.

لقد اختيرت ثلاثة حلول من أجل دمج معالمها في حل جديد واحد: الهيكل الرئيس لراسم بدران، والصرحية لـ"بوفيل" الأسباني، والانتماء البغدادي/ العراقي لمكتبنا.

بتوجيه من رئيس الجمهورية للندوة الدولية الموسعة، اتفق المجتمعون على إشراك الجميع مع اختيار مكتبنا للتنسيق بين المكاتب الستة. استبعد الياباني لعدم حضوره الندوة. الكبير فنتوري رفض الاقتراح، وأعلمني بأن لا مانع لديه من التعاون معنا فقط، أسوة بالتعاون الذي كان بيننا في تصميم بناية الجمهورية. والحال أن رفضه جاء تأكيداً لعدم رغبته في التعاون مع "ريكاردو بوفيل" الذي عدّه أساء إلى حركة ما بعد الحداثة، وهو يرى نفسه قائدها ومؤسسها بحق.



كانت الندوة بمستوى معماري راق، وهذا لا ينفي أنها كانت للبعض كرنفالا معمارياً ساذجاً، فالرئيس حضرها كل يوم مستمعاً ومطنشاً بالرهط المعماري الفذ الذي حضر على الرغم من دوران رحى الحرب.

إن المتمعن في مجريات ندوات العمارة التي نظمت في بغداد خلال فترة الحرب الضروس، سواء كانت في موضوع الحفاظ علي التراث المعماري، أو في افتتاح نصب الشهيد، أو ندوة تصاميم شارع أبو نواس سيرى أنها كُرست جميعها لإثبات جدوى وفاعلية الشعار المتداول "يد تبني ويد تقاتل". في الوقت نفسه كرست للنفاق المهني والسياسي لمن استغلها على الرغم من عدم إيمانه التام بمواضيعها. أحدهم، ومن المسؤولين على تحضير الندوة الدينية، اعتقد أن العراق مستعمر بالإسلام العربي للخمسة عشر قرنا من قبل قريش. صرح بهذا بعد "التحرير!" في إحدى الفضائيات اللبنانية.

والآخر .. ربما بسبب التقية نعت الرئيس بجعفر المنصور الجديد، ثم طالب بإعدامه في ما بعد ليكون قدوة لباقي الحكام الطغات. الآخر زايد في الوطنية والحرص على عروبة بغداد، فاقترح تبديل اسم شارع أبو نواس لكونه غير عربي، إلى أن انبرى له الأستاذ الصديق جبرا ابراهيم جبرا وأفحمه.

آخر من المغتربين كوفئ على تجشمه وحضوره إلى الوطن، وترك عمله المتراكم في بلاد الأرض الواسعة بتكليفه تنظيم ساحة احتفالات أخرى مشابهة لساحة الإحتفالات في العاصمة، على الرغم من نقده للساحة الأولى في بغداد بكتاب أشير إليه في الجامعات الاميركية. حقيقة أنه عاد مهرولا إلى بلد الإقامة الدائمة ولم يزر العاصمة ثانية، إلا أنه لم ينس تصميم الساحة.

والآخر صرّح في ندوة نصب الشهيد أنه ينشد المقتل على وزن المقام الفارسي من الغناء العراقي. التصريح في ظرف كهذا، وحرب "المجوس" متقدة، يستوجب"مكافأة" لشجاعته. "أعطوه 5000 دينار": قالها رئيس الجمهورية!

الجميع في كل المواقع كان ينتظر مكرمة الرئيس، وهي عادة ما تكون نقدية، أو سيارة من مخازن الشركة العامة للسيارات. كان ابن البلد ينتظر دوره لسنين عديدة للحصول على سيارة بأي موديل كانت.

كانت الاجتماعات والندوات كثيرة، وهناك من به إسهال شفاهي وجد الفرصة أكثر من سانحة للتعليق في موضوع حساس ليس هو من أهله. تعليقات قليل منها مفيد ويصب في صلب الموضوع، وكثير منها فج ومتخلف.

كان الرئيس يقترح تصاميم وأفكار معمارية تصنف في قاموس العمارة الحديثة، بـ"ما بعد الجهل"، بتدخلاته بات فعل التصميم المعماري عملا شعبياً مشاعاً، يمكن لأي كان ممارسته، وحسب الأذواق.

في شروط كهذه ينمو جدل غير مهذب يأخذ ساعات، فقد جاهر البعض وتساءل، فيما إذا يحق لغير المسلم تصميم مرافق اسلامية؟ حدث هذا مع وجود من غير المسلمين. إن الطاهر عندهم هو المسلم فقط، والباقون غير مطهرين ولن يدخلوها آمنين. أشهر المهندسين المعماريين الأتراك هو "سنان" معمار السلطان سليمان القانوني، وصديق وزميل "مايكل انجلو" فنان عصر النهضة الايطالي، سنان باشا هذا مصمم جامع السليمانية اسطنبول[9]، هو أرمني إلى سابع ظهر.

بعد جدل مفتوح تقرر إعادة المسابقة، ومن حق الجميع الاشتراك فيها، أي كل من هبّ ودبّ. إذن السلام على تعب المعماريين والمسابقة الاولى!

اعتذر مكتبنا، بحجة أننا لن نتمكن من تقديم أحسن مما قدمناه في حينه، وتلك هي قابلية الفريق وليس في وسعنا أن نضيف شيئاً. في النهاية حصلت بغداد على حملة رحمانية ومساجد مستنسخة من أفلام ألف ليلة وليلة الهوليودية، جُرب فيها أنوع جديدة من الإيمان والتعبد، صلاة داخل بحيرات، وأطباق طائرة، ومآذن تشبه صواريخ موجهة، وساعات مرفوعة دقّاقة، وزخرفة



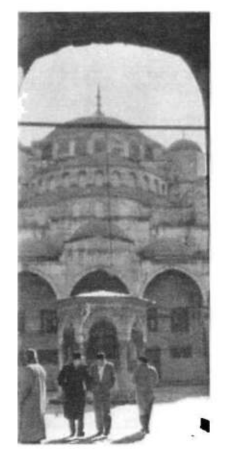
دخيلة بنهج عشوائي، جامع على هيئة رخ يهم بالإقلاع منسوخ وممسوخ حرفياً من مبنى شركة طيران "تي دبليو اي" في مطار كندي للمعمار "سارانين"[10] في نيويورك، جوامع كأنها مدن ألعاب.

لقد طنش الجميع وابتهجوا وسعدوا بالإسلام الجديد في العراق الجديد، يتسابق المؤمن على احتلال المسجد الفلاني قبل أخيه المؤمن الثاني مقتسمين الغنيمة، وعلى عينك يا أبو المعالي محمود شكري الآلوسي، صاحب كتاب "مساجد بغداد" الذي كتبه في أوائل القرن الماضي، كأنه استشف ما ستؤول إليه مساجد بلده. هل تحلحل في قبره احتجاجا ونكداً؟.

خلال المسابقة العالمية الأولى اقترحت جميع المشاريع المتسابقة قبة رئيسية واحدة ومأذنة واحدة، من دون تكرار للعناصر الرئيسية. لقد ظهرت المآذن المتكررة والقباب الملحقة بالرئيسية أول ما ظهرت في الجوامع العثمانية، فالقباب تكرر مع أنصافها، من جراء المخطط الأفقي المربع الشكل بدلا من المستطيل المتعارف عليه، وغرضها إنشائي بحت، فقد ارتأى المعمار سنان، محاكات لارتفاع الكنائس البيزنطية الشاهقة، إدخال التدرج النازل على شكل قباب ساندة انشائيا مثل كاتدرائية "أيا صوفيا"، القريبة من جامع السلطان أحمد [11]. تعلو جامع السلطان أحمد ست مآذن، أُعترِض عليها في حينه، نظراً لأن المسجد الحرام يحتوي على ست مآذن، لكن السلطان تغلب على هذه المشكلة بتمويل بناء المئذنة السابعة في المسجد الحرام، ليكون جامعه الوحيد الذي يحوي ست مآذن في تركيا. أرجع سبب تعدد مآذنه إلى استخدام المعمار التقية. السلطان أحمد عندما كلف المعمار في تصميم الجامع أبدى رغبة في أن تكون المنائر ذهبية. (باللغة التركية الذهب، "آلتن"). لكن المعمار محمد أغا لم يعجبه هذا الطلب الأمر، فلم يعمل المنائر الذهبية، وعمل بدلها ست مآذن. عندما سُئل عن الذهب، قدم عُذراً ذكياً، فقد اعتقد أن

ما أمر به السلطان هو عمل ستة منائر، والستة باللغة التركية "آلتي" القريبة من الذهب "آلتن"، وعلى هذا النحو تخلص من الذهب مفسد الأخلاق.





اماسيا عاصمة آل عثمان الشرقية بقباب قبل التاثير البيزنطي في جامع سلطان احمد



الهوامش

1 - مهندس معماري أسباني إنجازاته متأثرة بالعمارة الكلاسيكية، ولد في برشلونة 1939.

2 - مهندس ياباني من أتباع مذهب ما بعد الحركة الحديثة وحائز على جوائز عديدة.

3 - "تاريخ مساجد بغداد وآثارها"، تأليف السيد محمود شكري الآلوسي وتهذيب محمد بهجة الأثري، مطبعة دار السلام 1926.

4 - الخيط والرمي هما العنصران الوحيدان اللذان يؤلفان خصائص جمالية للعمارة. الخيط هوالخط، والرمي هو الخط المدور المرسوم رمياً.

5 - نشر التقرير في "معمار"، مجلة جائزة الأغا خان للعمارة، العدد 17 والصادر في سنغافورة، وفي مجلة آفاق عربية بترجمة الصديقة الأديبة ناصرة السعدون .

6 - الباروك حركة فنية ومعمارية وموسيقية سادت أوروبا من أواخر القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر.

7 - كرير مهندس معماري من مواليد مدينة لوكسمبورغ في 1946. وروب أخوه الأصغر الذي شاركه في صياغة تصور للمدن الأوروبية الحديثة.

8 - مقالة للدكتور خالد السلطاني، منتقداً المحافظة والالتزام الصرف بالمنهج التعبدي.

9 - مسجد السليمانية بني بناء على رغبة السلطان سليمان الكبير 1525، بوشر العمل به في 1550 واستغرق سبع سنين. يعد المعمار سنان أشهر معمار في تاريخ بناءالمساجد .

10 - من تصميم المعماري الفنلندي الأصل ايرو سارنين 1910-1962. تم تدشينه في 1962 على شكل طيارة تهم بالتحليق.

11 - الجامع الأزرق أضخم المساجد، بني بين عامي 1609 ـ 1616م مهندسه محمد أغا أشهر المعماريين الأتراك بعد سنان باشا.



العمل في الخليج، ومع أهل الخليج في النصف الأخير من القرن الماضي، لا يتيح للمعمار الفرصة للتريث والتوقف لإعادة التقييم. العمل يضغط، وجميع الاستجابات هي ردود فعل عفوية، أو حلول تفي بالغرض فقط. الجميع في عجلة من أمره، صاحب العمل يريد تلبية طلباته حتى قبل التكليف. يطالب بالمستحيل، والكسب السريع، ومردود العقار على الفور. على الرغم من ذلك كان ثمة من يستجيب من طلبات ووضعية مثل هذه ويستفيد منها، فعملية التصميم عنده قياسية "ستاندرد" محضَرة مسبقاً. الواقع أن الكثير من الوافدين الهنود وبعض الأخوة المصريين جزء من هذه الوضعية، يمتلكون جوارير مصنّفة حسب الطلب. التلكس يقول مبنى في شارع كذا، والتداعي الغريزي يسجل: مبنى "واحد + أربعة". إن تكليفاً غير محدد ولا يتضمن تفاصيل يكفي لانتقاء وإرسال مبنى متكون من طابق أرضي تجاري وأربعة شقق سكنية/ تجارية، حسب متطلبات بلدية المدينة أو المنطقة. هناك مشاريع متكاملة يمكن سحبها من الجارور، مفهرسة حسب الحجوم والكلفة وتعليمات البلدية. هناك كذلك رسوم ملونة أنيقة، يظهر فيها رجال (فقط!) يلبسون الدشداشة. المدينة الخليجية بدون نساء، محرم رسمهن، طبعا ما يعادل غيابهن في الصورة وجود سيارة فارهة، ونخلة مع عثوق تمر. المهني لا يريد تفويت الفرصة البترولية، وهو سهل الاستجابة لطلب العميل الخليجي، فعند صاحب العمل البديل جاهز، يقف في الباب وفي يده لفة من التصاميم لعرضها.

في العراق لم نعتد على هذا النوع من الاستشارة الهندسية. حتى أقلنا احتراماً للمهنة، وعاشقاً للفلوس، وأولوياته أن يكون غنياً بسرعة، كان لا يسمح لنفسه بالانحطاط إلى هذا المستوى، ويدفع عن نفسه من أن يؤشر

عليه بالمهني السفيه، وإذا ما استسلم للإغراء فبخجل وفي الخفاء. الواقع يولد التعامل مع أعمال العمارة والتخطيط في الخليج الكثير من الضغط النفسي، ويؤدي في بعض الأحيان إلى الكآبة. بالنسبة لنا كان الإصرار والتحدي يجري مع عدم التخلي عن تطبيق الأولويات المهنية، فالاتقان ديدنا مع حد أدنى من الإبداع. كنا غير مستعدين للمساومة على حساب الحد الأدنى من التصرف المهني، وكثيراً ما فوتنا فرصاً جيدة لكنها غير مأسوف عليها، مسجلين بسبب هذا الموقف عدم رضى شريك وقريب وسخطهما. يتساءل البعض : العناد المهني مع من؟ مع عميل جاهل متعجرف كل مؤهلاته انتفاخ جيوبه بفلوسه؟ لكن تلك هي بالضبط دعارة مهنية تحاول أن تملي علينا سلوكاً غير مهني. حتى في العمارة والهندسة هناك دعارة.

كانت تجربة العودة من الغربة إلى حيفا مناسبة لتفحص هذا العنت المهني، ومدى ملاءمة وصحة خيار الدرب المستقيم. وأعتقد أن السبب هو الرجوع والعودة إلى الجذور. هناك بيئة ملائمة لاتضاح الرؤية وإنضاج الذات المهنية، بصرف النظر عن الظروف القاسية والسلطة. هناك أموات وأحياء من الأحبة يراقبون ويشجعون على ذلك.

بيد أن عليّ أن أصف بعض الحقائق، فحيفا وكرخها، أهلها وبيئتها، أفرغوا التشنج المهني والتصلب في موقف يستدعي المرونة. هناك ضغط وتوترات من نوع آخر ألحّت على إعادة تقييم الأولويات. والسبب الحقيقي طبيعة العمل في شارع حيفا، ووجود احترام متبادل بين الخادم والمخدوم، وشروط فاعلة للمعايشة المهنية، والإحتكاك اليومي بالناس. كان هناك الحذر من التشويه، والخوف من أن نوصم بالعقوق. إن مشروعاً معمارياً تخطيطياً حضارياً متكاملا فرض بقواه الخاصة تصرفاً مهذباً جديداً شاملا.

قالها العضيد المهني فيصل: "مشروع حيفا والكرخ بقدر ما هو نعمة



مهنية، وقلما تتكرر لأي معمار في تاريخه المهني، إلاّ أنه في الوقت ذاته نقمة كبرى." كل مشروع لاحق سيكون، غير ملهم، مفقود الود والتعاطف، عند مقايسته بما جرى في الشارع، من تواصل ومعايشة، واحترام متبادل بيننا وبين أصغر سكير في الشارع حتى أكبر مسؤول في الدولة. لا تعالي نفطي مادي، ولا عنجهية نخبة مهنية تتعامل مع مخدوم جاهل كل مؤهلاته هو امتلاكه لنقود تشم منها رائحة العفن والغازات.

على المهني صاحب الخبرة أن لا يتمادى في المساومة، وأن لا يقبل ذلك الشعار المبتذل القائل إن "العميل دائماً على حق". في العمارة العميل على خطأ، فهو لا يملي متطلباته على المعمار. إن فعل العمارة معقد جدا، يحتاج إلى إلمام واسع في حقول متعددة ومختلفة. بعد حيفا والكرخ، لن نحيد عن الدرب السراط. لا مرونة ولا مساومة على قيَم كنا نقوم بليّها في مشاريع الخليج، من اجل الممارسة وبسبب الحاجة في بعض الاحيان. بعد حيفا الكرخ لا أعمال وسطية وعادية تلبي الغرض التجاري والربحي. بوسعنا الآن اختيار المشروع والعميل، مشروع يفيد ويضيف ويدوّن مرحلة مميزة.

في حينها لم تتوفر الفرصة والشجاعة على التجريب والشطح مع أي من أصحاب العمل الكثيرين، في الوطن وخارجه. بالتوازي مع الكرخ وحيفاه، تزامنت الكثير من المشجعات على هذا التجريب.

اولا التعايش مع العمارة المحلية بوجه عام، ومع ما في الكرخ وحيفا من خصائص بوجه خاص. لقد اكتشفنا في هذه التجربة تفاصيل العمارة العراقية الجمعية وما لها من مقومات وأصول في استاطيقيتها الأكاديمية النخبوية.

وثانيا أننا بتنا أكثر ثقة بنهجنا في التعرف والعمل، ولاسيما بعد احتكاكنا بعمارة اليوم السائدة، وبالأستاذ الكبير "روبرت فنتوري" شخصياً



والتثبت من مدى ارتباطه بالقيم المعمارية الموجودة في عمارة الحاضر ومواكبته لعمارة الماضي والتاريخي، التراث العالمي. نحن كمحليين أغنياء ووارثين عمارة ثرة أيضا. أهم ما طلبه روبرت عند وجوده في بغداد هو اطلاعه على موروث معماري نستلهم حداثته نحن، ضرب من توارد خواطر مهني، وطلب تعريفه على أعمال تلامذة الأستاذ الكبير "أدوين لاجنس" المعمار الانكليزي[1]. لقد عمل تلامذة هذا الأستاذ في مدرسة العمارة الكولونيالية في بغداد، فأجادوا ووضعوا مع زملائهم العراقيين اللبنة الأولى للعمارة العراقية الحديثة المتميزة. "ولسن" و"جاكسن" و"كوبر" "وميسن"، معماريون تركوا لنا التصميم الحضري لمنطقة المقبرة الملكية في الأعظمية، ومبنى جامعة أهل آل البيت، وكلية الهندسة، ومعهد الفنون الجميلة، ومطار البصرة[2].



المقبرة الملكية في الاعظمية



و محطة القطار العللية



وللعقل نماذج عمارة تلامذة ادوين لاجنس



مع فنتوري وجورج دادلي



يعد كتاب فنتوري الموسوم "التعقيد والتناقض في العمارة"[3] من أهم مؤلفاته التي تعد أحد المصادر الرئيسية للتوجهات الجديدة التي ظهرت في العمارة. أما كتابه "التعلم من لاس فيغاس" فهو دعوة للعبث بجدية وبجمالية. إنه يناقض قول "ميس فان دير روه" "ماقلَ ودلَ" في العمارة الحديثة، من الأفضل القول: "ما قلَ ملل". أحد مشاريعه لـ"لاس فيغاس" حشد من الإشارات والرموز مع خيال خصب وخلاق. تضاد مع القيم الجمالية في الحداثة. الإشارات شعبوية صرفة، هي المبدأ الاستاطيقي المسيطر على جمال العمل الفني وتفرده.

إنه يقف "بالضد من سطوة عمارة الحداثة وعقلانيتها". تلك العقلانية التي سعت دوماً إلى استبعاد توظيف الأشكال التاريخية القديمة، واستنكرت استخدام العناصر التزيينية غير المبررة وظيفياً في المنتج المعماري الحداثي. المعمار في الحالة هذه يجب أن يكون ضليعاً بالتقنيات الحديثة، وفي كل ما يتعلق باتقان العملية التصميمية وعناصر العمارة، ليتمكن من منح الإشارات المناسبة، والتوصل إلى التأثير بالرموز غير المبتذلة، وإلا سيكون هناك تناقض بين التقنية الحديثة وبين المحاكى من الموروث الشعبي. إن المعمار يفكك ويخلخل المتعارف الموجود، بعد أن يتمعن في مفرداته، ومن ثم يعيد تأليف هذه المفردات بنوتة جديدة حديثة معاصرة في مفهومها العام. إنها أشبه بـ"الفوغة" الموسيقية، ومن هذه العملية التأليفية تتولد لغة على شكل موجات غير مباشرة تدغدغ وتناغي لا إرادياً مراكز الإدراك اللاواعي.

العملية برمتها يجب أن تكون استكشاف مفردات العمارة المحلية وإعادة تهذيبها وتطبيعها وتصنيفها فكرياً، ثم الإنطلاق بها نحو كشوفات جديدة. إن تسلسل العملية هذه واستمراريتها هو عمل إبداعي صرف يعتمد المحاكاة بصورة رئيسية.

إن قطع سلسلة التواصل عملية يرفضها المجتمع المتطور لكونها البدء من الصفر، كما أن رفض الواقع الذي هو حتماً نتاج جهد فكري وتراكم حضاري يعني رفض لمبدأ التطور والعمل كمجموعة إنسانية متكاتفة ضمن فريق حضاري له مقوماته وخصائصه.

من هنا، كان لزاماً علينا اكتشاف المقاطع والمفاصل الذاتية الخاصة بنا التي ينبغي علينا محاكاتها واستلهامها (التواصل مع الموروث)، ومن ثم نغنيها في سبيل التواصل مع الأجيال القادمة. المقصود أن نكون على وعي بأننا بصدد الإبداع في العمارة وليس النقل المباشر الكسول. فضلا عن ذلك يجب أن نمعن النظر في مسبباتها ونتأكد من أنها خالية من العفوية، وبعيدة عن كونها مجرد نقل لحالة طبيعية، لا تحفز ولا تحرك مراكز الادراك لدينا.

إن التزاوج بين العالمي والمحلي هو التواصل مع ما يحيط بنا من قيم وحركات جمالية بوعي شمولي وإنساني، محافظين على الخصوصية المكتسبة.

أستاذنا الكبير جبرا ابراهيم جبرا علّق على القوس بوصفه مفردة موروثة، فكتب قائلا: ".. فقد اقترن العرب في أذهان الناس اقترانا وثيقا بعمارة الأقواس، حتى ليتساءل المرء ألم يكن العرب هم الذين اخترعوها....ثمة إيحاء بقوة عاطفية في الخط الذي يتصاعد من الأرض وينحني مع السماء ليسقط ثانية إلى الارض. وإذ يتكاثر هذا الشكل، فإن وقعه في الغالب أشبه بالموسيقى التى تملأ الصدر بجذل أو انشراح فجائي يكاد يعجز عنه أي تحليل"[4].

تأكد صحة هذا المنهج عند مدارس العمارة الحديثة، وفي مراكز الإبداع المعماري، إن كان ذلك في ألمانيا، مع طلاب جامعة مونستر عند تحضير تصميم جامع بغداد الكبير، أو من خلال لغة جديدة في التخاطب اليومي، الثقافي الفني والمعماري، التي وجدتها عند وحيدي بكر الذي درس في رود آيلند للتصميم، ومن ثم هارفرد. فهذه الأفكار ليست غريبة في تلك المراكز الدراسية المهمة.



إنني أتأمل العمارة العراقية الحديثة، أتأمل بنيتها وتركيب مفرداتها واستمرارها، وأرى أن قدرتها الإشارية كبيرة، قدرتها على جمع المتناقضات، الصيف والشتاء تحت سقف واحد، تدفق من الإيماءات والتأشيرات المستمر نحو الذات ومكوناتها. بوساطة التكرار والزخرفة تقدم تعريفاً مغايراً للمكان، كونه البطانة الداخلية للحيز. الجرجاني يقدم هذا التعريف: "هو السطح الباطن من الجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر من الجسم"(5).

لقد أصيبت الثقافة المعمارية في بغداد بنوع من الجمود الفكري. الرعيل الأول من المعماريين استمروا في النهل من حركة الحداثة المعمارية، مصدر ثقافتهم الأساسي، من دون أن يواكبوا ما يحدث من إنتاج يعم الساحة الـ"ما بعد الحديثة". إن الحرمان، والرقابة المسيطرة على كل مرافق الثقافة، والكتب المنتقاة، والأفلام الخاضعة لمقص الرقيب، ومنع الدوريات المعمارية والفنية أو أنها عدّت غير ضرورية، كل هذا أوقف نمو الخيال، ودفعنا حثيثاً نحو العصور المظلمة والظالمة. الواضح أن العراق وصل إلى هذه العصور الآن. سعدي يوسف القائل في يومه هذا:

سيكونُ الأمرُ ـ كما تعرفُ ـ معروفاً
لا سـرّ لديكَ
ولا سـرَّ لديّ.
الدنيا، الآنَ، غدتْ أضيقَ من جُـحْـرِ الضبِ ...
الخيلُ تخِـبُّ بعيداً ـ.......

عند دعوتي لإلقاء محاضرات في كلية العمارة ببغداد، طلب صديقي العزيز "هنري" المثقف الواعي والمدرس في الكلية التخفيف من اللغة الجديدة، لتلافي الإمعان في التشوش وعدم الفهم! أما آسو الجاف، الأستاذ والصديق في الجامعة التكنولوجية، المطلع على ما يدور في الحياة الثقافية، وفي



مدارس العالم المعمارية، فطلب عدم معالجة اللغة المعمارية الجديدة مع طلاب قسمه، والاكتفاء بالمواضيع المتعارف عليها، تجنباً للتشويش. أتذكر أنني في إحدى المحاضرات التي تناولت ضرورة إيجاد لغة نقدية معمارية موحدة، وبعد توالي الأسئلة اضطر آسو إلى غلق باب النقاش، لتردي مستوى الأسئلة وخاصة من الأساتذة الحاضرين، والذي تبين أنهم في واد آخر من المعرفة.

من هنا كان القرار الأهم الذي اتخذته هو ألا أحقق في وطني إلاّ ما يدهش، ويجترح إزاحة، ويضيف ويبدع .. ومقاومة وسطية سطحية لا تقلق ولا تثير أسئلة.

في هذا السياق هناك تجارب قليلة ليس إلا: دار الصليخ "المكعب"، ودارة سيف الدين، ودار الصديق أبو هند عبد الوهاب الصافي، ومستشفى الوزيرية، ومبنى أيا.

والحال لقد دافعنا في العمل عن مبدأ الاختيار والتميز في تقديم الخدمة إلى من هو مستعد أن يشاركنا في التجريب، ومن له طاقة في قبول شطحات غير اعتيادية، والتسليم المهني بالمكتب. كان عملنا المرتجى يضم الرموز الموحية وتأويلاتها ضمن مساحة واسعة من الاجتهادات والابتكارات، مستلهمين الموروث المعماري ومقوماته.

أشير إلى أننا اعتذرنا عن القيام بأعمال كثيرة في ضرب من التعالي الخجول، منها دار لنائب رئيس الوزراء طه الجزراوي. والحقيقة أن الطلب جاء من قبل رئيس المركز القومي الزميل الصديق عبد الحسين الشيخ علي. أفهمت صاحبي باستحالة القيام بالعمل. تفهم الوضع، ووعد بالمساعدة بالخروج من هذه الورطة. طلب القيام بتصور أولي، نظراً لأن النائب أعجب بدار كان المكتب قد قدم المشورة فيه. بمساعدة أمين العاصمة، وعبد الحسين، وبحجة



التفرغ التام لمشروع الكرخ، تم الإتفاق على تحضير تصوُّر وتسليمه إلى المركز القومي لإكمال العمل. وهذا ما حدث ونفذ العمل حسب المخطط، دون التعامل والتواصل المباشر.

ثمة تجربة ثانية غثة. فقد كنا نحن الأصدقاء والفنانين نلتقي في محل نعبث فيه ليلياً، وهو مطعم افتتحه طلال والعضيد فيصل. المطعم نفسه كان في الأصل مشروع أصدقاء يحبون أن يلتقوا يومياً، يأكلون ويشربون ويرسمون ويستمعون للموسيقى البغدادية والغربية، لنقل أنه مركز إبداع عابث، يصول ويجول فيه الفنانين النخبة من العراقيين وأصدقائهم العرب والأجانب. بسبب العبث سمى فيصل المطعم بـ "الغريب"، وهو غريب حقا بوجودنا الدائم والصاخب، ولأنه بات مكاناً لحفظ عشرات اللوحات الفنية، وللكثير من خربشات الخواطر الآنية. بيد أن الفنان الكبير جورج بهجوري أطلق عليه اسم "مقهى الآلوسي". في نص "مهرجان الآلوسي" نقرأ هذا المقطع للبهجوري:

"....اجتمع على طاولاته الصغيرة ومقاعده السجادية خلاصة الفنون المعاصرة. من الشكل إلى اللغة، إلى تقاسيم على القانون، وصوت جديد لألحان قديمة عربية تراثية، وانطلق الشعراء يلقون أشعارهم، والرسامون يبحثون عن ورقة وريشة ولون ليعبروا عن لحظة الإحتفال بالحياة، وكان الإلهام للجميع نبع من العطر تفوح رائحته الزكية.."(6)

من المؤكد أن هذا "الغريب" سد فراغاً هائلا نتج عن التصحر والجوع.

في أحد الأيام، ونحن في خضم عبثنا الثقافي، وصلت لي ورقة صغيرة تطلب مشاركتهم العشاء.. كانا هو وزوجته الشابة الجميلة جداً يحتلان الطاولة المجاورة بمظهر المتنعمين. تبين أن الزوجة كانت قد مرت بدار الصليخ المكعب، وأعجبت به، وقد رصدت مبلغاً مفتوحاً لإنشاء قصر، وفي الوقت نفسه تريد داراً مشابهة. طبعاً اعتذرت بأدب جم، متحججاً بانشغالي التام في

أعمال الكرخ. فيما عدا حجتي الكبيرة حاولت ثنيها بوصف مختصر ومبسط عن أسس تصميم دار الصليخ : إنها تجربة خاصة جداً سيدتي، مكان مكعب الشكل. حجم واحد يحتوي النوم والعمل والتسلية والرسم والتصوير، فضلا عن مراسيم أخرى ومآرب عيش عابث. حتى المواد البنائية عبثية، وهي بحالتها الطبيعية العارية دون تشويه: الطابوق والخشب والإضاءة الظاهرة. حديقة داخلية. غرفة نوم لا باب لها ولا شباك، وغير مستورة، لأنها مندمجة بفناء داخلي أخضر، وتطل على دجلة. والحمام يا سيدتي.. وما أدراك ما الحمام، مسطبة مرمر تسخن، تشرف على النهر، طوّرتُ وظيفتها لقضاء وقت طويل في القراءة متوسداً المرمر المسخَن.

إذن بكل احترام، ومع أفضل الشروحات، أفهمت الزوجين صعوبة تلبية طلبهما. لكنهما أصرا على تنفيذ رغبتهما، وأكدا ذلك بزيارتي للمكتب لاحقاً. السيء في الموضوع برمته ليس إلحاحهما المفهوم بل أن زملاء المكتب عاتبوني مستغربين، كيف لي أن أرفض عملا بهذا الحجم وهم بدون عمل؟! لم أتمكن من إقناعهم بموقفي، ومن ثم وافقت على مضض. في ما بعد شرّف الزوجان المكتب وبصحبتهما مخططات كاملة لأخذها بالحسبان عند إعداد التصاميم، مخططات محضَرة-حسب إدعائهما-من قبل معمار أحد ملوك اليوم، عمل معماري نموذجي لمعمار ملك. فسألتهما بخبث، متشفياً بأعضاء المكتب اللجوجين: كيف لهما القبول بمعماريين على شاكلتنا بينما هما على معرفة بمعمار ملوكي؟ بالرغم من هذا، ولأجل عيونهم، نقطة ضعفي، كلفت المهندسة ندى زبوني التي كانت المعمارية الأكثر احتجاجا على رفض المشروع، قلت لها: تفضلي يا ندى، عليك التعامل مع العميل المميز! وما هي إلاّ أيام قليلة وإذا بها تستنجد، طالبة الإعتذار لعدم قدرتها على قبول متطلبات ملوكية لا معقولة.

لا تخلو لقاءات "الغريب" من غثاثات غير متوقعة. ففي دعوة عشاء مع

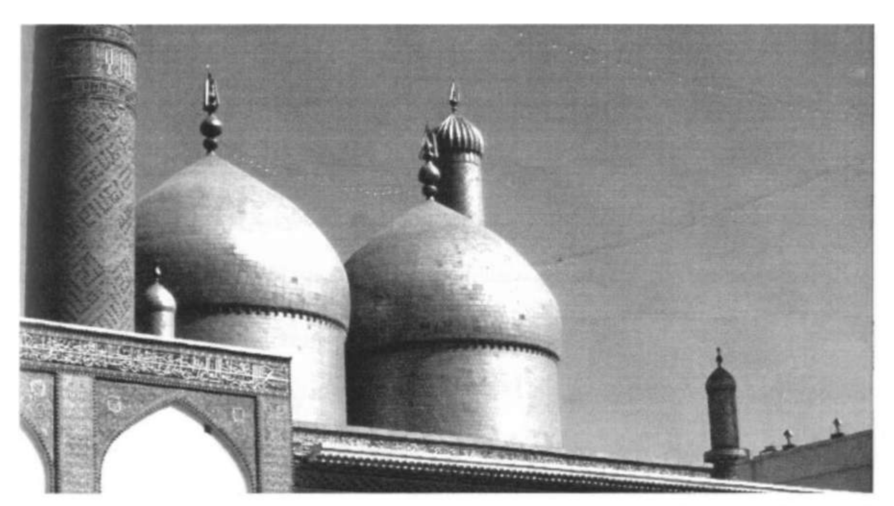


الصديقة العظيمة نضال الأشقر[7] وكانت تزور أصدقاءها في بغداد، وتعمل على مسرحية "ألف ليلة وليلة في سوق عكاظ" مع فرقة الممثلين العرب، دخل بهدوء شقيق الرئيس برفقة معماري معروف وزوجته. كنا قد اتفقنا مع زين اللبناني وهو من طلاب العمارة ويعمل في المطعم، أن يؤشر لنا بترك المحل عند زيارة أولاد الرئيس ومرافقيهم للمطعم، فعندها نصبح نحن غرباء تماما مع الكثير من الخشية والإحراج. في تلك الليلة لم يؤشر زين. بعد برهة مرّ علينا المعمار للسلام وعرض مشاركتهم الطاولة، بكل كياسة اعتذرنا. بيد أن القصة لم تنته عند هذا الحد، إذ جاءنا زين وسلّم للسيدة نضال ورقة يدعوها فيها شقيق الرئيس إلى مائدته. عندها زلزلت الأرض زلزالها، ومالت الأبنية المجاورة من جراء احتجاجها. لم تترك نضال كلمة غير نظيفة في "لسان العرب" لم تستخدمها ضد صاحب الدعوة، ورحت أتوسل بها خوفاً لكي تحافظ على "النبرة الخافتة"[8].

المعمار وشقيق الرئيس غادرا المحل من دون وداع. وكان هذا بحد ذاته يثير القلق.

شكّل بيت الصليخ "المكعب" الذي رشح لأحد جوائز الأغا خان للعمارة مجموعة شطحات نتجت عن تراكم مسترجعات الطفولة. كان الملهم له دار السيدة أم وداد (صاحبة الدار)، وهو سكن الطفولة المطل على الشط، مقابل منائر وقباب موسى الكاظم الذهبية. كان جدار غرفة نوم الوالد حتى نهاية الثمانينيات يطل على جسر الأئمة[9]، و"الفراندة" الخشبية تطل على دجلة الخير. في دورة النهر، وفي بعض الأماسي، يتناغى القمر المبكر في الظهور مع الشمس المتأخرة في الغروب، فيتضافر الإثنان بتلوين نهر دجلة بالذهبي القاني، "دويت" أوبرالي، مناجات روحانية، منظر يدغدغ الحواس أجمع إلى يومنا هذا، جمال فردوسي وبيئة متطورة. حتى الآن أرى في عيون عقلي ماء دجلة والبساتين الخضراء على مدّ البصر، أرى رسوم وألوان الوالد، وقباباً ومآذن ذهبية تتلألأ في العمق.





قباب ومآذن ضريح الامام موسى الكاظم

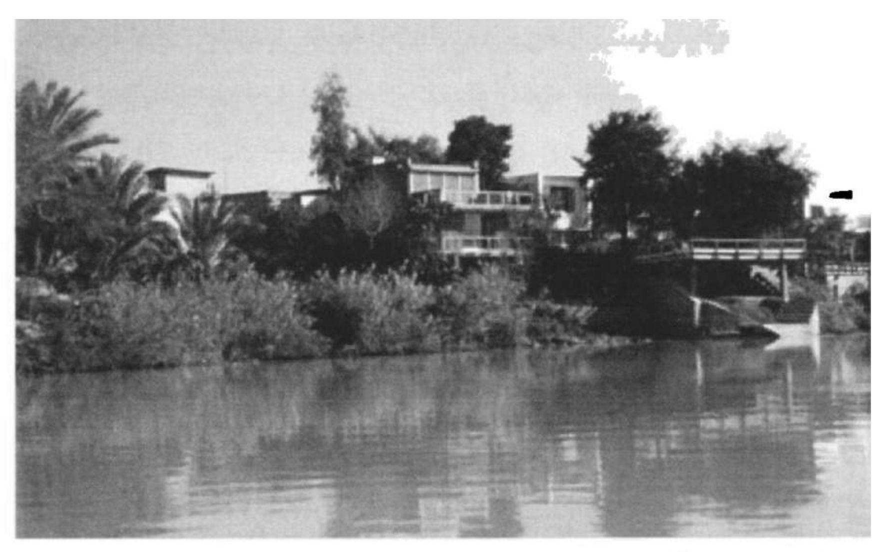
هذا المشهد الذكرى ظل يلح في حياتي. بات شوقاً مضطرماً، فيما ظلت محلة الحارة المطلة على كل هذا الجمال هي منطقة أساطير وتاريخ يذكرني بكل هذا العطاء الدائم (باتت مسرح عمليات وساحة معارك).

هذا المكان ظل يلح ويحفر كهاجس وحلم .. من هنا أردت عودة مستحيلة إليه، أردت في ما بعد تجسيدا جديداً له، أردت ببساطة بيتاً مثله. فمن أين لي أن أحقق حلماً من دون مادة كاملة، من دون نهر، وانعكاسات، وارتعاشات؟

"لقيتها" كما قال أحدهم قديماً، قالها ابن العم خليل القريب جدا من أحلامي: جاره في المنطقة نفسها مستعد للتنازل عن جزء من حديقة داره المطلة على الماء ويعتقد أنها غير مستغلة على الوجه الأكمل. ولقد تكفل العضيد فيصل العارف بما يدغدغ الأحاسيس الكامنة وتمكن من التفاوض المضني مع صاحب القطعة، والحصول عليها بثمن ليس بخساً.

تلك هي قصة دار العمر الذي أحن إليه، قصة حلم أسهم الإتقان والتفاني في العمل المعماري بإنجازه. من يدري، ربما يعود طللا .. فمن سيقف عليه ويبكي؟





دجلة في الصليخ بيئة الدار للكعب قبل التشويه

كتب الدكتور خالد السلطاني عنه قائلا :

" تثير عادة، الدور المصممة لسكن المعمار نفسه اهتماماً خاصاً، ذلك لأن فرادة الحدث النابعة عن التحام رب العمل والمصمم في شخص واحد، تتيح معرفة تامة ومطلقة لطبيعة المتطلبات التصميمية من جهة، ومن جهة أخرى فإن الحدث يعطي المعمار إمكانية إسقاط حاجز النزوات المتغيرة والمفاجئة التي تتسم بها رغبات أكثرية أرباب العمل والتي تحول دون اكتمال وضوح الفكرة التصميمية وعرقلتها، بالإضافة إلى أن المصمم يمنح لنفسه القدرة على تغير مسلمات أعراف العيش المألوفة والسعي نحو تجاوزها وفق مفاهيمه ومنظوره الخاصين" (10).

بعد نحو عشرين عاماً كتب السلطاني عن موضوع دار المعمار الخاصة: "مختبر لتجريب الأفكار التصميمية التى يتبناها. وفي عمارة تلك المباني ذات المقياس المتواضع، تظهر عادة، النجاحات التصميمية بصورة جلية، كما أن

إخفاقاتها لا يمكن التستر عليها أو تجاوزها. من هنا تضحي واقعة تصميم تلك البيوت بمثابة مناسبة مؤاتية لعرض المعمار أهليته التصميمية ومقدرته المهنية. من جانب آخر، اعتبرت دوماً موضوعة البيت السكني من المواضيع الأثيرة لدى المعماريين العراقيين، إنها لا تفتأ تمثل تقليداً تصميمياً يتعين على جميع المعماريين ممارسته أولا قبل الشروع بتصاميم مبانٍ ذات مضامين أخرى. إنها الموضوعة التصميمة القريبة جدا لقلوبهم، ويبدو أن هذا التقليد يمتلك تاريخه الخاص السحيق في تلك البلاد. وعندما تمتزج مهام المصمم مع رب العمل في شخص واحد، تكون النتيجة مؤثرة وغير عادية"(11).

ليس التجريب في دار الصليخ مجازفة معمارية كما يعتقدها البعض، بل هي تنفيذ لعمارة عراقية شعبية بطرزها المختلفة الموروثة، مختلطة مع عناصر من عمارة عالمية سائدة. هذا ما أسميه تناقض بدون تضاد.. إستعارات جسورة من الباطن، غير ظاهرة، محاكات عناصر لحدود تقترب من التهكم. ليس هناك نقل مباشر وسهل، كما أنها بعيدة كل البعد عن القطع واللصق الألكتروني بلغة الحاسوب.

إذن ابتدأت مرحلة ما بعد حيفا بدار الصليخ المكعب هذا. المواد محلية صرف، الطابوق والخشب وسكك حديد، لا مرمر ولا ألمنيوم، تلاعب بالمواد المحلية واستعمالها بأقصى احتمالاتها الأستاطيكية. تجارب جديدة في التسقيف والعقد بالطابوق، "فراندا" خشبية معلقة فوق دجلة، مشابهة لتلك في دار السيدة أم وداد. المكعب بطوابق ثلاثة، الجدران حملت المرسوم والمنحوت من أعمال الأصدقاء الفنانين. حديقة داخلية مع ستة "كاليريهات" لمزروعات معلقة، مقسمة على ثلاثة طوابق بكل جهة. كانت الضربة في المكعب هي في تعيين مركزه. وللمرة الأولى تحولت إلى ثلاثية الأبعاد، وفي العادة هي ثنائية في وسط مسطح المخطط الأرضي. هي ثلاثية الأبعاد



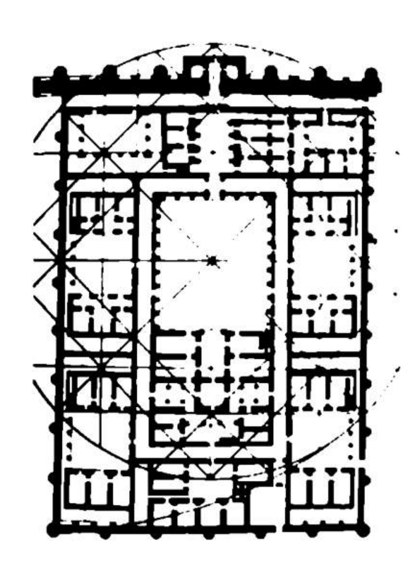
لكنها تتعين وهمياً وتتكون من تلاقي أشعة شمس ساقطة من ثلاث فتحات على شكل إهرامات مدببة، مائلة كل واحدة بزاوية معينة بحيث تتيح الالتقاء في مركز المكعب، في بعض أيام السنة، وهي بوجه عام تحاكي شعاعات فتحات سقوف أسواق بغداد المعقودة والعاملة على شكل مزاول لقياس الوقت. المعمار محمد شيرزاد، من طلاب دراسات العليا في الجامعة التكنولوجيا، طالب يشع حيوية وذكاء، نجل أستاذي الكبير إحسان شيرزاد، عرفته وهو طفل، وعرفته في الكلية وامتحنته، وبعدها تلميذاً في الدراسات العليا. حمودي كما كنا نسميه في طفولته، أخذ على عاتقه من دون علمي حساب وإيجاد اليوم والساعة الزمنية التي تلتقي فيه هذه الأشعة، وعرف أن في يومين من السنة تلتقي الأشعة في مركز المكعب. هذا هو الباطن غير الملموس، يعمل عمل الإيحاءات والإشارات.



الشعاع الشمسي في الاسواق القديمة



مرت هذه الإيماءات والإشارات في اختبار فريد من نوعه. فقد زارني في المكعب معمار يوغسلافي، وبعد التأمل والاطلاع، استفسر فيما إذا كان هذا المكان قديماً وتم تأهيله مؤخراً. كانت دهشته كبيرة عندما تيقن من أن المكعب جديد ودشن مؤخراً. المعمار اليوغسلافي صرح لاحقاً متعجباً من الغرض بدفع كلف إضافية لبناء مبنى يوحي بالعتق. أليس هو التناقض والتعقيد الذي دعى إليه روبرت فنتوري؟





نقاط الارتكاز في رسوم الواسطي وقصر الاخيضر

خليل ابن العم المتنور جداً وصف انطباعه بنوع من الخشوع في حضرة هذا المكعب، نوع من الطاقة. هل وصلت الإيماءات؟ هل وصلت الإشارات السيميوطيقية؟[12] نعم.. وكل حسب خزينه المعرفي، أليس هذا هو المطلوب من الفن بأشكاله؟

لم يبق من هذا المكان إلاّ الذكرى. استمتعت به لمدة ستة أشهر فقط، وهو مغلق منذ مايس 1989. لا ضير، فالمتعة الكبرى هي عملية الخلق والممارسة



التصميمية نفسها. والحال تم القضاء على بيئة المكعب وطوباوية وجوده، فالرئيس السابق، معتمداً على اقتراحات مجموعة من الجهلة والمنافقين من الحاشية، أكسى جرف دجلة بالحجر. لم تعرف بغداد في تاريخها المعماري على مادة إنشائية اسمها الحجر. عجبي أين ستلوذ الحمائم بين الحين والحين؟ لقد أفرغوا ضفة دجلة من الطين نكاية بالشاعر الجواهري متمم رسالة المتنبي في الفخر العراقي:

حيَّيت سفحك عن بُعد فحييني ... يا دجلة الخير يا أمَّ البساتين

حييت سفحك ضمآنا ألوذ به ... لوذ الحمائم بين الماء والطين

إني وردت عيون الماء صافية ... نبعاً فنبعاً فما كانت لترويني



دجلة الصليخ مدجن بدون شاطيء



بيئة الدار للكعب الجديدة

الرؤساء الجدد ودباباتهم الـ"ابرامز"، سلبوا هوية المنطقة، فقد هُجِّر من هُجِّر، ومن لم يغادر عُزل بجدار برليني/إسرائيلي، جدار يقسم الصليخ والأعظمية إلى موالين وممانعين. الجدار العازل بين ناس المحلة الواحدة والتاريخ الواحد.

ولسوف يسجِّل "المكعب" أول احتكاك بالمحتلين. دقوا الباب للتفتيش. لم يجبهم أحد لأن ساكن البيت يعيش في قبرص، كسروا الباب بكل ما حمل من تصميم وزخرفة من عمل المعمار الصديق عصام السعيد.

في المرة الثانية دخلوا الدار بمساعدة الجار الدكتور عاكف ابن ابن العم، ابن حفيد عاكف أفندي الألوسي، قائمقام الشامية في بداية القرن الماضي. الجندي الأميركي غير الحائز على الجنسية الأميركية بعد لم يستوعب معنى الفناء الداخلي، والحديقة الوسطية، بينما كانت ماكنته الطنانة كاشفة الأسلحة والتفخيخ تعمل. ظل في حيرة من أمره، لم يدرك أن سبب الطنين والرنين الصاخب هو الأنبوب الحديدي المدفون في الحديقة الداخلية. هذا الجندي الأميركي المحرر هاجم بعنف وحطَم صخرة سيراميكية كبيرة في مركز ارتكاز الفناء الداخلي، وهي هدية من صنع صديقة العمر الفنانة نهى الراضي.. صخرة تحكي تاريخ صداقة العمر، حطمها بأخمص الـ"ام كي"، منتعشاً وساخطاً لعدم عثوره على الأسلحة، ناعلا الفن واصحابه.

الدار معروض للبيع الآن، أي في طريقه إلى سوء استعمال من نوع آخر، سيغتصبه من يدفع أكثر، من حواسم أو أعمال قفاصَة أو علاَسة. بيد أن ذكراه ستبقى.

لقد تفهرس "المكعب" وحفظ في مكتبة "الآرج نيت" الرقمية[13]، كما كان موضوعاً لأطروحة ماجستير في العمارة من قبل إحدى المعماريات.

دارة أخرى تفهرست وصنِفت في المكتبة المذكورة وهي دارة سيف الدين. إنها محاولة ثانية ممتعة تزامنت مع المكعب الطيب الذكر. والدارة هي مجمع من عدة مساكن متصلة منفصلة، لأسرة ممتدة متكونة من أربع عوائل هما والدان وثلاثة أبناء وزوجاتهم وأحفادهم. كل عائلة منهم له مأواه المستقل والمشترك في آن واحد. مجمع أطلق عليه الناقد الصديق خالد السلطاني اسم "الدارة"، وكان قد اكتشفها وأشبعها درساً وتمحيصاً حتى قبل تعارفنا وتوثيق الصحبة بيننا. تسلَم السلطاني الإشارات والإيماءات والدارة تحت الإنشاء، فنشر عنها صفحة كاملة تحت عنوان تداعيات آنية لحدث مستقبلي[14].



تشكل هذه الدارة محاولة في تحدي الممارسة المعمارية وقيمها السائدة التي تقولبت وجَمُدت وبدأت تعيق عملية الإبداع. ثمة قيم صارمة تعلمناها في المدارس المعمارية كالمقياس الإنساني والتناسب والتماثل والابتعاد عن الاستعارة والتناص، التضاد والتناغم، التجريد وتلافي المحاكات الواضحة أو المعلنة، فضلا عن حزم كثيرة من المحددات. إن كل هذه هي قيود تحدد من عملية الخلق والتخيل الجميل.

والحال ثمة مسؤولية إضافية شعرتها في إعداد تصاميم هذا المجمع، فأصحابه هم شقيقتي الوحيدة وزوجها ابن العم فاروق سيف الدين الآلوسي ابن صديق الوالد[15] وأبناؤهما المتمسكين بخالهم المعمار.

لقد تولدت الأفكار التصميمية لدارة سيف الدين من تحليل بسيط، فالشقيقة وابن العم على أبواب الكبر، وكان يجب توفير الراحة لهما مع البساطة. لا مساومة على الجوانب الوظيفية إذن. والمهم كيف يصاغ هذا الجانب الوظيفي من دون خسارة إيماءات الإبداع والأصالة في آن.

اعتمد التصميم على "الحوش"، أي الفناء الداخلي، وهي مفردة ملازمة للدور التقليدية في بغداد والمنطقة من أيام أور إلى يومنا هذا. الفناء الداخلي وما حوله من مرافق ملحقة وظيفياً وجمالياً بات عنصراً رئيسياً في تكوين السكن. تنفتح الدور جميعها إلى الداخل مطلة على الوظائف التقليدية في السكن، كالاستقبال والنوم وحتى الطبخ، من خلال ملاحق في الطابق الأول وكاليريات في الطابق الأعلى الذي له مماثل في السكن التقليدي الذي ندعوه بـ"الكفشكان". ترتبت الدور بالتدرج حول خط وهمي رابط يمر من مراكز الإرتكاز للأحياز، وهي إشارة غير مرئية. ثمة تدرج وظيفي من الدار الأكبر ثم الوسطي ثم الأخير ضمن بحر واحد، وبقواف متعددة، مكونة دارة سكنية لاحفاد سيفي الدين الآلوسي. إن صياغة الأبيات المفردة مفككة ومقطَعة

من مفردات موروثة معروفة أعيد صياغتها بمواد غير تلك التي صنعت منها وبمقاييس فيها كثير من التحدي لخلق الدهشة مع المحافظة على مصدر الإشارة الأصلية. لقد تناغمت هذه التركيبات وكوّنت صورة شعرية جديدة، مع قوس ثلاثي المراكز، بدا ناقصاً وفيه لمسة من المزاح والعبث. الطابوق الأصفر اشتغل بتقنية عالية جداً لاستعادة دور الأسطوات وما قدموه لعمارة العراق التقليدية، واستعارة تراتيب طابوقية مزخرفة ببساطة متناهية، جرى صياغتها في حينه لتوفير الستر. أما الأعمدة "الدلك" فكانت مصدر التحدي الأقوى، إذ أنها حاكت الأعمدة البغدادية الرشيقة الجميلة، وبمنهج هندسي مشابه لكن معمول بالطابوق والكونكريت بدل الخشب الهندي المزخرف الرشيق، موفرة تساؤلا باستحالة استرجاع الأصل. من الذي يريد إعادة التاريخ وتكوين نفس الأعمدة بالخشب؟ إنها عملية رجعية. وأين النجار الهندي أو الأسطة اليهودي الذي يتقن البناء بالطابوق؟ ثمة من استعاد هذه الأعمدة (الدلك البغدادي) نقلا حرفيا بمادة الكونكريت، مكررها على شكل نصف دائرة في ساحة الفردوس.

في الدارة تتنوع الأعمدة لأنها قواف ضمن البحر الواحد، تختلف قليلا، مع كل بيت، ونظام التفعيلة للبيت الشعري الموجود في ذلك المسكن. تعقيد وتناقض، وليس هناك ما قلَّ ودل، بل زد وبارك في البحث والإبداع، تحفيز الآخر كي يبحث فيما هو يستمتع بالجميل.

.. لكن ما أدراني بالحياة حقاً أنا المستمتع الذي أراد لأقربائه المتعة؟ لقد تزوج الأولاد وخلفوا في هذه الدارة، لكن ما كان في الحسبان أن تهاجر الأسرة كلها. لنقل إنها سنّة الحياة، لكنهم في الحقيقة هجّروا كحال الملايين من العراقيين، ولاسيما أبناء الطبقة الوسطى.

قبل أن تظهر الهجرة في الأفق كان الشؤم العراقي يحوم في منطقة الدارة. الأخ غير الشقيق للرئيس، وكان في حينها رئيس جهاز المخابرات،



قرر استغلال بناء ضخم يحاكي معبداً آسيوياً "باغودا" مجاورة للدارة، ومنذ ذلك الحين حامت العيون الصقرية في المكان، مراقبة وحراسة تامة للداخل والخارج للدارة، وبكلمة (تنغيص) مستمر للخصوصية والحرية الشخصية. بعد التحرير المزعوم سكنه أحمد الجلبي، صاحب الفضل في "تحطيم" العراق. فظهر حراس أجانب يتصفون بالكفاءة والوقاحة يراقبون الداخل والخارج، وكثيراً ما اصطدم الأحفاد برؤوسهم الحامية بهم محتجين على سلوكهم.

كان هذا الموقع يجلب الصواريخ والمفخخات، أحد هذه الصواريخ استهدف المسكينة ليلى العطار وزوجها[16].

بعد أن تقاعد الآلوسي ابن العم بعد نصف قرن قضاها في مهنة الطب، بحث عن حياة هادئة وأمينة، وكان بحاجة إلى رعاية صحية خاصة، فسكن مع رفيقته، أختي الوحيدة، في عمان التي باتت ملاذاً لعشرات الآلاف من العراقيين. ما زال يحن إلى دارته في بغداد رافضاً التصرف بها، فهي ثمرة تعبه ومعاناته. والحال كلما أفكر في حالته أشعر بالقليل من اللوم، فتصميمي فيه عيب مؤكد يقضي بعدم إمكانية التصرف بالدارة، إذ لا يمكن بيع أو تأجير الوحدات المكونة للدارة فرادى، المشتري أو المؤجر سوف يتطفل ويُتطفل عليه، فالدارة لأسرة واحدة ممتدة.

ثمة تجربة غريبة حصلت عند تأجير الدار الصغيرة في الحي العربي، وهي الدار الأولى لذوي الدخل المحدود. فبعد تأجيرها بمدة قصيرة لامرأة، وردت رسائل مستعجلة إلى ليماسول تتضمن إحتجاجاً على تأجيرها لمن تستعمل جسدها للكسب والرزق. الجار احتج وطلب حلا سريعا، طبعاً كان الحل هو تخلية الدار على الفور، فالجار قبل الدار.

من الشطحات المهمة في ممارسة العمارة في الفترة نفسها هي تصميم دار صديق وزميل عملنا سوية هو المهندس عبد الوهاب الصافي. هذا الزميل



ساعد في إدارة شارع حيفا، وقد حصلنا بسببه لوم البعض من خارج المكتب لأننا ألحقنا بفريقنا شخصاً يشغل أخاه عبد الرزاق الصافي موقعاً متقدماً في قيادة الحزب الشيوعي العراقي. لم نعط أي إذن صاغية لهذه الهرطقات لما لعبد الوهاب من كفاءة وإخلاص ورقي أخلاقي. كان له عائلة جميلة مكونة من زوجته وابنتين شفافتين. في أحد أيام رحلاتي المتكررة ما بين قبرص وبغداد أخبرني "أبو هند" أن "البنات " يرغبن في أن يكون لهن دار ذات ميزة خاصة، وهن يطلبن من عمهم أبو بكر بتصميمها. لم أصدق أن فتاتين تحت سن المراهقة لديهن رغبة كهذه، ولمعرفة أبو هند بمعتقدات المكتب، وعد بإخلاص ألا يكون له رأي معوّق في ما سنقترح لهم من تصاميم، ولقد برّ بوعده. وبالفعل شيدنا داراً تمتعت بها هذه العائلة المتماسكة الصديقة كما تمتع بها المصمم والمكتب و"اودو كُلترمان"[17].

لقد استمرت محاولاتي واستكشافاتي لتفكيك ودراسة مفردات العمارة العراقية، ومن ثم إعادة صياغتها وتأليف مفردات جديدة محاكية للأصلية، وبالقيم العالمية المستحدثة. جربت هذه المحاولة في مستشفي الوزيرية: بناء طابوقي باتقان وأناقة في التنفيذ، تجديد في البناء بالطابوق وحوش وسطي، وجدار نصف دائري يحاكي جدار مدرسة ثانوية الأعظمية، وغرفة ضيافة دار كامل بك الجادرجي نصف الدائرية، من تصميم المعمار السوري بدري قدح، فضلا عن توليف أعمدة بغدادية بلغة أجرية مغايرة، وبمقياس متوسط الحجم. بيد أن هذه المبادئ لم تجرب على الأبنية المتعددة الطوابق بعد.

سنحت الفرصة بتصميم بناية متعددة الطوابق لرجل أعمال عراقي، جربت فيها الكثير من الأفكار التي قد تؤسس لشطحة أخرى على مستوى الأبنية المرتفعة. لقد نال الحلّ الذي قدمته على استحسان كثير من المعماريين الأصدقاء والنقاد، وعدّه الزميل خليل العلي، الأستاذ في جامعة التكنولوجيا،



مشروعاً يستحق التنويه وطلب إدخاله ضمن عرض في جامعة التكنولوجيا. لكن كان لصاحب العمل رأيا آخر على نحو كارثي، فقد أطلق لسانه البذيء علينا. لم نحتج ولم نحرك ساكنا، وغادرنا أنا وفيصل بهدوء شاكرين له حسن الضيافة، هاربين بحالنا مع ما تبقى لنا من قوة الأعصاب. هذا الجاهل الوجيه استورد في ما بعد تصاميم تشبه المواد التي يستوردها في تجارته من "تشيكيا أو سلفاكيا".

التجربة الأخرى في العمارة الطابقية صممناها لتاجر في الأثاث المنزلي كان طياراً عسكرياً تقاعد وبات صاحب معرض أثاث "أيا" الذي اشتراه من مؤسسةُ رفعة الجادرجي، وهو معرض مخصص لتجارب تصاميم رفعة في الأثاث الخشبي. صاحب المعرض الجديد هذا هو أيضا جار قديم، واستوعب تجاربنا، ومنحنا الثقة الكاملة لتصميم بناية تقع خلف القصر الأبيض في السعدون، وعلى تقاطع طريقين مزدحمين، وفي موقع مميز. إنها تجمع بين نزعة تكريس النظام والإخلال به، بين وضوح القرارات التصميمية وغموض تنطيقها، بين رصانة كتل المبنى والنزعة التهكمية في التفاصيل، بين توق تبيان الإنتماء إلى الحداثة وتقليدية المرئي المستحصل.

"المبنى وإن بدا كلاسيكياً غارقاً في محافظته وتقليديته، إلا أنه بعيد جداً عن إعطاء المتلقي انطباعاً لمبنى عتيق"[18].

لم نتمكن من إعادة تقييم إشارات هذا المبنى بسبب عدم اكتحال العين برؤياه وتصويره، فقد تغربت ثانية، وهذه المرة بالكامل، لا عودة. لقد صدعت من المراقبة الدائمة والشعور بأنني محاصر في حركتي. ثمة سيارة بك أب ترابط أمام الدار. شك دائم. الهاتف مراقب، الدار مراقب، والمكتب مراقب، الكتب تصادر في المطار، والبريد الخاص يقرأ قبل أن نتسلمها، والأدهى قانون منع الزواج بالأجنبية إلاّ إذا تجنست بالجنسية العراقية، والألماني

حسّاس جداً من هذه الناحية، ففقدان جنسية الأم والأب مرفوض قطعاً.

في زيارة لها إلى بغداد، روقبت الرفيقة حتى في سفراتها المعهودة إلى أسواق الشورجة المحببة إليها.

في مكالمة هاتفية بينها من قبرص و الشاب المصري المهذب سعد، المساعد الدائمي في السكن، والإثنان يرطنان، هي بلغتها العراقية الثقيلة، وهو بلغته السوهاجية الأثقل، فلم يتمكنا من التفاهم. وبعد جهد جهيد تدخل الطرف الثالث من المكالمة، وهو المتنصت، وأخبرها بتعاطف ومن دون خجل: "سيدتي سوف نخبر زوجك بما طلبته منه!"

من كان يراقبني اعتقد على نحو دائم أنني غير منتبه، إلى أن سلمت عليه وسألته عن أحواله. فوجئ وقلل من مرابطته.

كانت الطريقة الوحيدة للتعامل هو التصرف الطبيعي. هذا ما فعلته كريستين المخططة الألمانية لمشروع تطوير الكرخ بعد أن كانت تتوتر، ثم اعتادت وأصبحت تبادر بالسلام عليهم، وتسألهم عن الصحة، والعراقي بطبعه مهما كان يرد التحية بأحسن منها.

كنت أسأل نفسي في مثل هذه المواقف : إلى متى؟ وإلى أين؟



الهوامش

1 - أدوين لاجنس 1869-1944، معماري معروف بتصاميمه لقصور وفيلات ضواحي لندن، حوّل مدينة "نيودلهي" إلى "روما: انكلو-هندية": فخمة ومهيبة في آن واحد. المعماريون العسكريون الكولونياليون الذين عملوا في العراق من تلاميذه.

2 - معاذ الآلوسي، الفن المعماري في العراق 1920-1940، مجلة ننار، مجلة جمعية المعماريين، كانون ثاني 1966.

3 - بقلم الناشر هاري. ن. ابرامس 1977.

4 - يوميات بصرية لمعمار عربي: معاذ الآلوسي، إعداد وتصميم سلمى سمر الدملوجي، تقديم جبرا ابراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1983، ص 6 - 7.

5 - التعريفات للشريف الجرجاني، علي بن محمد، ص 111، مكتبة لبنان، بيروت 1985.

6 - جورج بهجوري، مجلة الطليعة العربية الصادرة في باريس 30 اذار 1987.

7 - فنانة مسرحية لبنانية لعبت في الستينيات والسبعينيات دوراً أساسياً في تحريك الفن المسرحي اللبناني والعربي محاولة تحديثه، لها مسرحها الخاص في بيروت باسم مسرح المدينة.

8 - استعارة من الصديقة الناقدة الأديبة فاطمة المحسن، من عنوان لها عن شعر سعدي يوسف.

9 - تطل اليوم على مقابر ضحايا حصار الغيتو الأعظمي من قبل المليشيات.

10 - د. خالد السلطاني، داران لمعمار واحد، مجلة عمارة العدد 3 /1989.

11 - د. خالد السلطاني، جريدة المدى في 6 و13 حزيران 2008.

12 - وهو علم الدلالة، علم قديم قدم التفكير المنطقي والعقلي.

13 - مكتبة مؤسسة جائزة الآغا خان للعمارة في جامعة "أم أي تي " في بوسطن.

14 - "تداعيات آنية لحدث مستقبلي"، جريدة الجمهورية 23 كانون الثاني في 1986.

15 - سيف الدين والوالد ظافر من عمر واحد، ففضلا عن القربى هما أصدقاء وزملاء في المهنة إذ كانا فنيين في مديرية الري العامة.

16 - فنانة تشكيلية عراقية شغلت مديرة المتحف الحديث، أصيب منزلها بصاروخ أودى

بحياتها وحياة زوجها عام 1993. يقع منزلها في منطقة المنصور.

17 - العمارة المعاصرة في الدول العربية، منشورات ماكفرو-هل 1999، ص43.

18 - د. خالد السلطاني، المدى، في السبعينية 6 و13 حزيران 2008.



الكرخ وحيفا وبغداد ومشاريعها المناطة انتهت وتسلمها أصحابها. شقق حيفا وزِّعت على مستحقيها وغير مستحقيها. الدار المكعب أصبح واقعاً. الجميع ممتن مثلما يحدث في نهاية حكاية مريحة. عليَّ أن أشدّ الرحال إذن. المكان لا يرحب بي، ولعله ينتظر فرصة لكي يلدغني. إن جردة حسابات تؤكد هذا التقدير، ففتح مكاتب في خارج العراق يحتاج إلى موافقات عديدة. لقد صدرت قوانين جديدة مدوّخة ولا معنى لها. للعمل في الخارج ينبغي أخذ موافقة المخابرات والأمن العامة والبنك المركزي، ومن لم يحصل على أي من هذه الموافقات لا يحق له التردد على المدينة الأُم. وأية كمية من أوراق واستمارات تجهز من السفارات لغرض أخذ مثل هذه الموافقات الاصولية! قدمت هذه الإستمارات بواسطة مكتب الخطوط الجوية العراقية، وهي مؤسسة ترعى مصالح العراقيين في قبرص ولها اتصال بمسؤول المخابرات في سفارة أثينا حسب العائدية. إنها معاملات تثير الجنون.

أخبرتني المهندسة الزميلة وجدان ماهر وهي من المعارف المقربين باختيار المكتب مع مجموعة أخرى لتحضير تصاميم قصر رئيس الجمهورية، ويسمى "صرح القادسية": قصر، صرح، نصب قلعة، ومعقل، يقع على تلة اصطناعية، بأتربة متكونة من حفر بحيرة اصطناعية، وفي بيئة متوترة دخيلة ومصطنعة، لسلطة متصنِّعة.

الصديق الزميل عبد الحسين، أمين العاصمة، حذر من مغبة الاعتذار، ففي تقييم مسابقة الجامع المعادة، تساءل الرئيس عن سبب عدم مشاركتنا في إعادة التسابق، وعندما أعلم باعتذاري، لعدم إمكانه تقديم مشروع جديد أحسن من الذي كان، عاد وتساءل فيما إذا كانت الجهة المسؤولة قد وجهت

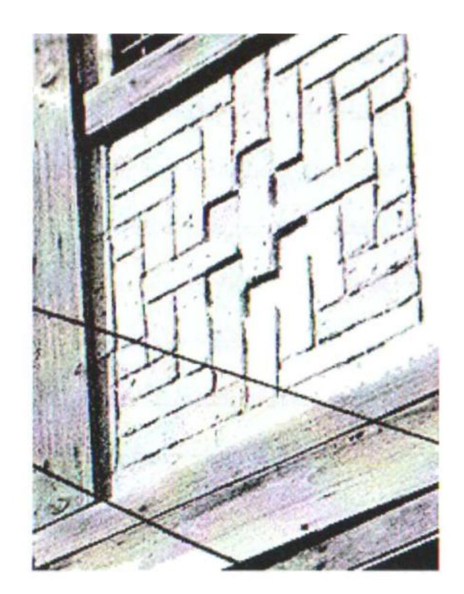
له الدعوة، فإن فعلت فلا عتب على اللجنة. هكذا كان التعليق، لذا حذرني عبد الحسين مبدياً قلقه عليَّ. ومنصاعاً لقلق الأصدقاء، ومجبراً على الاشتراك بهذا القلق المعمم القاهر، اشتركت بالمسابقة. أهي تقيّة أخرى؟

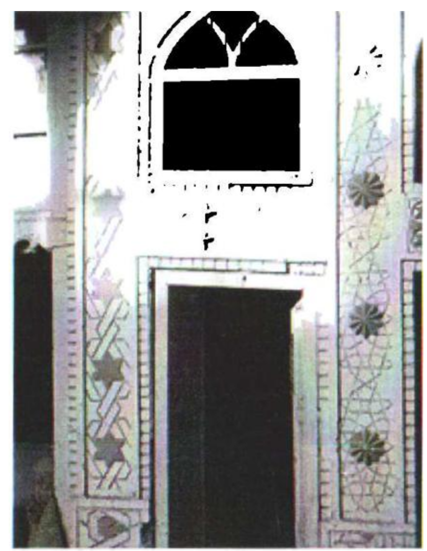
كنت متهيباً ولا أستطيع التواصل مع كل ما يحتويه المشروع. كانت البيئة غير مشجعة، منطقة حضرية وسط امتداد جديد للمدينة، ماء البحيرة مغتصب من مياه المناطق الزراعية المجاورة، وهو مصدر أرزاق عدد كبير من المزارعين، أكثر من هذا أن المنهاج بمجموعه ولغته بدا كأنه من قصص الأطفال لمساعدتهم على النوم. بالطبع سيكون مؤرقاً جداً على البالغين، ولاسيما المعماريين منهم. لنتخيل: قصر بثماني بوابات، كل بوابة باسم من أسماء الحواضر العربية، وهو على شكل نجمة ثمانية عربية إسلامية، كأن السداسية، نجمة للنبي داوود فقط، ولا يوجد امتداد لها في بلاد سومر وأكَد.

تحضرني ههنا حكاية: ماريون إحدى معماريات ألمانيا، ومن العاملات في المسح المعماري التراثي في مشروع تطوير الكرخ، أوقفت في مطار بغداد لأنهم وجدوا في حقائبها صوراً لأبواب قديمة في الكرخ نقشت عليها نجوم سداسية.

استغرق إقناع خبراء المخابرات "التاريخيين" زمناً في كون هذه النقوش هي من دور ما زالت مسكونة في مناطق علاوي الحلة والشواكة والمشاهدة في الكرخ. الفارق أن الألمان لم يعترضوها في مطار فرانكفورت عندما وجدوا معها صوراً للصليب المعقوف الذي كان معروفاً في العراق القديم منذ خمسة آلاف عام قبل الميلاد وكان يغطي أبواب وشبابيك في الكرخ!







النجمة السداسية والصليب في دور الكرخ

لم تكن مسابقة صرح القادسية مسابقة معمارية فحسب، وإنما مهرجان إعلامي ترفيهي، يتوخى تسلية المهندسين. فقد سمح للمعماريين المعزولين بسبب الحصار والحرب أن يزوروا قلاعاً وقصوراً تاريخية لملوك ورؤساء في أوروبا، بناءً على مكرمة من القائد. ليطلعوا على الـ"فرساى" و"بكنهام" وما شابه من قصور يمكن التمثل بها، لا عابدين ولا رأس التين[1]. كانت الدولة بحاجة لرضى المعماري، بحاجة إلى رشوته بجولة سياحية، مع تحويل نقد أجنبي محدود جداً. الجميع تسوقوا وخاصة النساء منهم، كما أكلوا وشربوا بأضعاف أضعاف ما سمحوا لهم بتحويله إلى العملة الخضراء. الجميع استفاد من هذا الكرم بطريقة أو بأخرى.

شباب وشابات المكتب القاطنين في بغداد ساحوا مع السائحين، وكنت أتمنى أن يمروا بقبرص، من أجل أن يطلعوا على القصر الجمهوري هناك بوصفه أمثولة. حسن هو ذا المدخل: باب حديدي يفتح صباحاً ويغلق مساءً،

باب واحد، حارس واحد فقط، لا يحق له أن يستفسر من الزائرين الذين يتدفقون بـ"السيرفس" أو النفرات، أو ما يسمى بالتركية "الدولموش" من "الدولة"، أي المحشي لازدحامه على الدوام. السيرفس في نيقوسيا يوصل الراكب الذاهب في زيارة القصر إلى الباب الداخلي ومباشرة إلى السكرتير، وهناك يستفسر منه عن الموعد والغرض من زيارة القصر الديموقراطي: ترجمة حرفية، فكلمة "الديموقراطية" باليوناني تعني "الجمهورية" نفسها، (غير تلك البنفسجية/الخضراء اللون كما في عراق اليوم). في ديمقراطيتنا القصر يسمى صرحاً وعلينا أن نأخذ ذلك بالحسبان عند إعداد التصاميم. من يروم الوصول إلى القصر الجمهوري أو التفكير بولوجه، فهو مقتول، مفقود، مختف. سيجد أنواعاً من الحمايات والحرس الخاص.

على الرغم من المعاناة في تصميم صرح القادسية فقد كانت له بعض المنافع الجانبية، وهي التحفيزعلى الكتابة والتدوين، بل كان أحد أسباب كتابة هذا النص. حتى من دون أن تكون متهكماً، بل قد تكون حزيناً جداً، يخطر في بالك أن تضع هذا العنوان لنص: كيف تبني قصراً وأنت مجبر؟ أو: مواصفات تصميم صرح جمهوري وأنت غير مخير!

الفائدة غير المتوقعة التي جاءت من قصر القادسية، وهي أقرب إلى الهزل منها إلى الجد، أن مكتبنا دعي لتحوير "قصر الشعب" في الكونغو برازافيل، وهو قصر المندوب السامي الفرنسي السابق، لمعرفتنا بمنهاج قصور الحكام في العراق ولاسيما من ناحية عوامل الأمان وإدارة المجمع الرئاسي.

كان منهاج التسابق، وليس المسابقة، هو انصياع كامل للشكل فقط، وكأن الصرح-القصر يشيد لتنفيذ هذا الشكل وتخليده، ونعني به النجمة الثمانية. كانت هذه النجمة تبدأ في التمظهر عند أي التفات ودوران، أما من الجو فهي تبدو أشبه بمدالية وضعت على صدر الأرض. العقل الشاذ لا يكف



عن الإلحاح على شكل واحد، وهو ضرب من إعمام يهدف تشكيل رمزية خاصة للدولة. وبالفعل ظهرت هذه النجمة الثمانية في كل موجودات الدولة، من حاوية الأزبال الى مانعات المرور وأحواض المياه والزهور. بالنسبة لكثير من المهندسين، يعد أصل هذا المثمن أو النجمة الثمانية معروفاً، إلا أن كيفية تصرف هذا الشكل هندسيا واحتمالات التفكيك وإعادة الصياغة من دون فقدان أضلاعه أو إشاراته الثمانية تبقى طلسما هندسياً. وها نحن أمام فائدة ثالثة من الفوائد التي اتاح لها هذا الصرح، إذ وفر فرصة التعمق في نهج وهندسة المتوالية الهندسية المثمنة، وعلاقتها بالنسبة الهندسية الذهبية، أي تكملة لمنهاج العزيز عصام السعيد الذي درس المعضلة ووضع نسبها عند تصميم جامع الدولة. إن خيبات الأمل لا تعدم إمكانية التعلم الجانبي، بل والتعلم من الإحتكاك بمواد تسبب لك مشكلة.

في بيئة عمل لا روح فيها ولا تواصل ولا حوار، فإن النتيجة المتوقعة هو عمل بلا روح. زميلنا عوف من الأصدقاء الذين نتبادل معه رفع الكلفة، وهو أحد المنافسين لمكتبنا في هذا المشروع قال مستغرباً بنبرة مؤدبة: "أستاذي أين أنت وكيف؟ هذا المشروع نظيف جدا، كأنه معامل بمادة قاصِرة"، وقصد أن المشروع بدون روح، بدون عبث ولهو مفرح. كيف لنا العبث ونحن لا نعرف على وجه الدقة سلوك صاحب العمل، ليس في الرضا والقبول العاديين، بل في الغضب والمعاقبة؟ في أحد أيام الغربة كنت أشاهد وصلة مصورة من قبل تلفزيون الجمهورية العراقية، وكانت عن الرئيس وأحد ضيوفه المهمين يصطادان السمك في البحيرة الصناعية، فظهر في عمق الصورة أحد زوارق مديرية السياحة، زوارق هولندية زجاجية السقف، استوردت للسوح والمخر في عباب دجلة، تحت شمسها اللاهبة التي تتجاوز 50 درجة. لقد بدا واضحاً أنه كان مركوناً في بحيرة صغيرة حجمها لايكفي

لمناورات الزوارق التشغيلية، مكتفين باستعمالها البصرى الثلاثي الأبعاد زيادة في لامعقولية المنظر.

عملية الإبداع على الرغم من تعقيداتها ومنغصاتها لها لذة خاصة، تنعش كالعزف الموسيقي، تشبع جشع ونهم الخلق والتعامل مع الجميل المبتكر، لذا في كثير من الأحيان تصاحبها الموسيقى والغناء وحتى في بعض الأحيان "المايم" الحماسي لا الرقص الهزاز الرعاش، في حالة استدعى الموضوع للحركة، إلاّ في صرح القادسية الذي كان جافاً، غير مسل، وغير محفز. رفيقة الدرب تساءلت في تلك الأيام: أين سيتار "رافي شانكار"؟ أو شاهناي استاذ "بسم الله خان" أو سارود "علي أكبرخان" أو سنتور "علي شهيدي"، أو حتى ساكسفون "جيري موليكون" أو باص "تشارلس منكوس" أو قيثارة "ايميت راي" .. أسماء موسيقى وعزف كانا يصاحباني في عملية التصميم. والحال كان الجاز الخلفية الملازمة للعملية التصميمية منذ أيام الدراسة الأولى. الموسيقى والعمارة متلازمان. وها أنا أعمل بهذا القصر بلا خلفية رابطة تتصل بعلامات العمارة وموجاتها.

في ما عدا هذا اليباس كنت أراني محشوراً في حاجر سجن زمني، شبيه بمطهر دانتي. لا وقت للهرب، للرسم، للتصوير، للقراءة اليومية، وهي المنافذ الوحيدة المفرغة لشحنات التوتر. كل شيء مغلق. إنني كمن دخل من باب إنغلق عليه من الخارج وبلا وسيلة لفتحه من الداخل. تولد هذا الإحساس من شعوري الدائم بأنني أصمم حيطاناً صماء.

لقد امتلأت بقلق مهني، زادته الغربة اضطراباً. عندما التحق المعمار محمود من مكتب بغداد للمساعدة شعرت بالقليل من الإنفراج.

في تلك الأيام حثّني غانم بيبي أن أنسى الموضوع كله وأباشر في تسجيل ما يدور في نفسي. لكن كان لدي ما أتسلى به أو ألجأ إليه:



الرسم والنحت والقراءة. مع ممارسة معمارية اعتيادية في تصميم أبنية قياسية ناشفة.

في الثمانينات، خلال سلوك الدرب في بغداد وكرخها وحيفاها، الشارع الطيب الذكر، انتفت الى حد ما الحاجة الماسة للجوء إلى أي نوع من أنواع المهدئات أو مفرغات التوتر، بيد أن مشاركة الأصدقاء في مناسباتهم الفنية في بغداد وبيروت كان يشغلني ويمنحني الكفاية. بغداد على الرغم من منغصات وآلام حربها، كانت كلها دروب تواصل مع الجميل والفريد، المفرح والحزين في كثير من الاحيان.

بعد صرح القادسية والتغرب الأخير، أصبح الفن المنقذ والشاغل الأول في الممارسة الإبداعية. كنت على نحو ما أهدئ خاطري بهذه الممارسة، ولقد زاد حماسي في هذا الاهتمام الشاغل بعد ضرب العراق القاسي والهمجي أثناء إحتلال الكويت. ومن لم يكن بحاجة إلى التهدئة في ذلك الزمن السادي؟ مدينة القلب تغتصب بقسوة، ونحن لا حول لنا ولا قوة. أصبحت ممارسة الفنون الشغل الشاغل والأهم والدائم. حين أتأمل هذا المنحى لا أراني أمارس نشاطاً حتى لا أغرق بالبؤس والكآبة وحسب، بل وأمارس احتجاجاً صامتاً من خلال اللون والشكل، وكان من القوة بحيث جرى الإنتباه إليه، فأصرّت الصديقة نضال الأشقر أن تقيم لي معرضاً ضم 40 لوحة نتاج تلك الفترة، وذلك في صالة [2] 50x70. بوساطة اللون والشكل للتعبير عن الألم والمعاناة، ومن دون قصد التبضع أو تحويل الفن إلى تجارة "بضاعة رخيصة تطرد الجيدة" حسب ما قاله صديق ناقد في الفن، متناسيا النشوة التي توفرها ممارسة الفنون بانواعها، بدا أنني أستخدم حياتي بكفاءة كما أريد وليس ما تفرضه متطلبات العيش في الغربة عليَ من توترات وأحزان.

تقول ناقدة الفنون في جريدة الحياة مهى سلطان حول معرض بيروت 1991 في كاليري 50X70:

"ما يفسح في المجال لربط أعمال الآلوسي بتجارب عالمية معروفة وعلى الأخص المدرسة الألمانية التي تميزت عن مدرسة باريس بنهجها التعبيري مع رووه ومانش وجماعة القنطرة الذي زادت الحرب من حدته وقوة اندفاعه، لرفع صرخات الإحتجاج والمقاومة والرفض لحالات انكسار أو انهيار القيم الإنسانية والمثالية.."[3].

نص طويل تحليلي ينم عن تقبل الإشارات الفنية بكل وضوح، وبنفس الإستجابة صاغت الناقدة نقدها للمعرض الثاني الذي أقيم في بيروت عام 2000 في كاليري "ابروف دارتيست"[4].

لم يكن صرح القادسية بالعملية المنشطة، أو المهيجة، بل مجرد عمل روتيني ميكانيكي. أعددنا مواد العرض في قبرص وبغداد وفرانكفورت. في قبرص أعددنا قسماً من الوثائق وصوّرت في فرانكفورت، وتم تصنيع ماكيت في مدينة "باد فلبل" قرب فرانكفورت، بدلا من أنطوان حبيقة البيروتي عامل المجسمات الذي صعب الإتصال به في بيروت لاحتدام حرب التحرير بين حلفاء الأمس أعداء اليوم في الشرقية من بيروت. في "باد فلبل" أنجز "الهير شنايدر" موديلات مجسمة في ورشة قريبة من داره، وتم الإتفاق مع ندى وفيصل بالتوجه إلى ألمانيا للمساعدة والمرابطة في "باد فلبل" عند الحاجة.

بانتظار فيصل على الخطوط الجوية العراقية القادمة من بغداد والذاهبة إلى فرانكفورت، ترائى خلف الكاونتر وجه معروف لشاب عراقي يتكلم الألمانية بطلاقة في العقد الثالث من عمره. بعد التمعن به إذا هو نفسه مسؤول المخابرات في سفارة العراق بأثينا، وكنت قد تعرفت عليه أثناء وجوده في قبرص وليماسول باعتبار قبرص من اختصاص سفارة أثينا.



وكانت الخطوط الجوية العراقية في نيقوسيا هي المسؤولة عن الرعايا العراقيين في الجزيرة، وفي حينها كان مديرها الغاضب الصلف قد رفض سفري في إحدى سفراتي إلى بغداد، ولأسباب ثقافية صرفة!

في إحدى سفرات العودة إلى بغداد عن طريق مطار لارنكا المؤقت، وهو البديل لمطار الجزيرة الدولي المهجور في الخط الأخضر، وثمة منطقة خضراء أخرى معزولة بين الشمال التركي والجنوب اليوناني[5]، كان مسؤول الخطوط المرعب هذا قد قاد مظاهرة الركاب، إذ هجم الجميع على البوابة المؤدية إلى الحافلة الناقلة لسلم الطائرة، هجوم لا يشبه إلا هجوم الجموع الجائعة على الغذاء في مجاعات افريقيا. الشرطي القبرصي، ظناً منه بأني من الجزيرة، ربما لعدم تدافعي، أو لبنيتي المشكوك في وطنيتها، أو للحيتي الكثة، قال لي ساخراً: هذه الحالة تحدث مع الطائرة العراقية فقط .. وفي اليوم الذي تذهب فيه العراقية إلى بغداد!

كنت في مؤخرة المظاهرة أتقدم إلى البوابة، فإذا بقائدها الموظف الكبير ينفجر بغضب عارم، بسبب تأخري، وعدم اشتراكي في مظاهرته. كان قد تذرع بقيادته لهذا التدافع أن السلطات لم تمنحه الوقت الكافي لتفتيش الطائرة، ولسوف تتأخر الطائرة لهذا السبب، فهي يجب أن تفتش بدقة. عن ماذا يفتش؟ لقد فتش ونغبش، وعند اكتشافه أن كل ما أحمله مجموعة من الكتب، تلك التي ترسل لي من القاهرة أو بيروت، انفجر متذمراً وبقلة أدب لا تليق بغريب، ما دعى الشرطي القبرصي التدخل لحمايتي من هذا التعجرف، ومرافقتي إلى (ابن فرناس) البريء.

في صباح يوم شتائي مشمس وكنت أشاهد الأخبار في التلفزيون القبرصي المتخلف، وهو في حينه محطة واحدة بالأبيض والأسود، شاهدت لقطات مع صراخ وعويل عراقي مُمَيز، في عمق الشاشة كانت هناك سيارة

للخطوط الجوية العراقية محترقة بالكامل. تبين أن هذا الموظف العتيد شبه الطفل فُجّر بسيارته من مخابرات منافسة او صديقة.

كان على العراقيين التعامل مع السفارة في أثينا عن طريق الخطوط الجوية العراقية. الجميع هناك مخابرات. وكانوا يرعون شؤون العراقيين في ما يتعلق بالجواز وتجديده، التعداد السكاني، الموافقات، التوكيلات، وما شاكل. كنا في الحقيقة نتفادى السفر على الخطوط الجوية تجنباً لصلافة جميع العاملين فيها وعليها، على الارض وفي الجو، في الخارج والداخل.

كانت الموافقات الضرورية للعمل خارج العراق تقدم من خلال الخطوط، قنصل/وكيل مخابرات في سفارة العراق في اثينا. ثمة مختص معني بهذه الأمور يزور الجزيرة ويتخذ من الخطوط مقراً له. كانت إستمارات طلب الموافقة للعمل خارج القطر وثيقة تزيد على العشر صفحات، ومن الضروري أن تملأ بحذر، وإلا قد تسبب في إتهام قريب أو صديق. كانت ثمة أسئلة حسب رأي عمتي الألمانية جدة وحيدي الآرية، مشابهة لاستمارات كانت توزع عليهم في زمن الرايخ الثالث في ألمانيا، وتتضمن معرفة أصل الأخوال والخالات، والأعمام والعمات، والجدود والـ"تيتات" الـ"بيبيات" باليوناني "يايا" وبالتركي "انه انه" (تكرر حروف الجدة بكل اللغات). كان اهتمام الرايخ هو معرفة العرق، بتصنيف البشر، وصولا إلى ما تحت الآري والأنكلو ساكسوني. ماذا يبحثون في الإستمارة العراقية؟ عن الولاء أوالإنتماء! أسئلة عن الزوجة وأجدادها، عن أصلها وفصلها، عن الأصدقاء والمعارف، ومدى الإلتزام بتعليمات السلطة والموقف من القادسية الجديدة. أسئلة فجة تعرّي الشخص من أبسط خصوصياته في أهله وأصدقائه. ما سبب كل هذه المعلومات وما علاقتها بالإشتغال وكسب الرزق خارج العراق؟

بالرغم من كل الدفع والدفش والتوسط في بغداد استغرقت الموافقة مدة



طويلة جدا. من الواضح أن الاستمارات تستخدم لتحديث ملفات المخابرات، تنتقل من شعبة إلى أخرى، وتستغرق بعض الوقت للانتقال عبر ممرات المخابرات والأمن العام، إلى مكانها المعتاد في الحفظ لحين الحاجة إليها.

كان الدبلوماسي-المخبر العراقي المقيم في أثينا-يختار مناسبات الأعياد والإحتفالات للتردد على قبرص، حيث يخلط البهجة والعمل. وكانت في ليماسول مناسبات عديدة للبهجة. فهي ميناء بحري قديم، عواصم قبرص الاغريقية مجاورة للمدينة، "أماثوسيا"[6]، و"كوريوم"[7]. ثمة تاريخ عريق من الاحتفالات الدينية، كأعياد الميلاد، ورأس السنة، وعيد الفصح هو الأهم بالنسبة للمسيحيين القبارصة. هنالك مهرجان للشراب، وللطوفان "الكاتاكلزموس". في فصل الربيع ثمة كرنفال عابث ملون وفاضح يستمر لمدة عشرة أيام، قبل الدخول في "اللنت"[8] شهر الصيام. إن التهلوس والتسطل والتخريف في ليماسول لا ينتهي، احتفالات وعربدة مزعجة للساكن غير السائح.

رن جرس باب الشقة في ليل إحدى هذه الاحتفالات، فإذا بالدبلوماسي/ المخبر في زيارة للمجاملة في الظاهر. قال إنه مرّ للسلام وشرب القهوة لوجوده في ليماسول، قبل الانتهاء من تبادل السلام المعتاد، و الله بالخير العراقية، تسمرت عيناه على المكتبة الحاوية على مئات الكتب بلغات متعددة، العربية طبعاً والإنكليزية والألمانية، وبحركة لا إرادية، وخلال ثوان معدودة اختار وسحب كتاباً من بين كل هذه الكتب: كان كتاب "إيران". ارتاح وهدأ عندما تبين له أن كاتبه "قاسملو"[9]. قالها مرتاحاً: "هذا من عندنا". لا بأس من قراءة الثورة الإيرانية ومن منظار يتفق قليلا أو كثيراً مع سياستهم المعلنة. سألته إن كان هو من رأيته خلف الكاونتر في مطار فرانكفورت؟ أجاب بالإيجاب باللغة الالمانية. كان يتكلم الإنكليزية واليونانية والألمانية

والعربية، من إنتاج قرية العوجة قرب مدينة تكريت العتيدة، مسقط راس اجداد الوالدة.









التهلوس والتسطل والتخريف في ليماسول

وللمقارنة، مع الفارق الكبير، وصلني هاتف غريب من شرطة ليماسول، طلب فيه المتكلم بتهذيب موعدا لزيارتي في بيتي. (هم اهل البيت ونحن الضيوف). في الموعد زارني تحريان بملابس مدنية ونصحاني بكل كياسة بالابتعاد عن القواعد العسكرية الانكليزية، والسبب أنهم القبارصة يثقون بي وعلى معرفة بشخصي، لكن لا سلطة لهم على هذه القواعد المنتشرة، وقد ادخل في قيل وقال مع الشرطة الانكليزية لأنني عراقي. كانت نصيحة لحمايتي.

اتصالات متكررة مع السفارة العراقية في أثينا للاستفسار عن معاملتي، ومع المكتب في بغداد للتوسل بالمعارف والمتنفذين للحصول على الموافقة.



أشهر طويلة من الانتظار، وقد تمت مصادفة، فأمين عاصمة بغداد السابق سمير الشيخلي، وهو في موقعه الجديد كوزير للداخلية، تساءل عن سبب غيابي عن بغداد.

تسلمت الموافقة مع اتصال هاتفي من السفير، وهو من المعارف، وفهمت أنها موافقة مشروطة، والشرط مهم جداً جداً، وهو كتابة تعهد بإعادة الأموال والأطيان التي سيحصل عليها المكتب غير منقوصة إلى الوطن لحاجة البلد الماسة إليها، وبدونها سيفلس العراق العظيم صاحب خزين النفط، والغاز، والماء، والتمر!

تمت الموافقة المشروطة على اشتغالي في الخارج، ومن ثم السماح بالتردد على بغداد. بيد أنها موافقة متأخرة جعلتني بعيدا عن العمة العتيدة رديفة الأُم بحنانها وحبها عند وفاتها. لقد رحلت وأنا محشور في ليماسول حزيناً عن بعد، من دون وداع، ومن دون القيام بالواجبات أو رد الجميل كابن بار لامرأة لم تكن يوماً عالة على أحد، وهي آخر العمات العوانس من العائلة، ذات كاريزما بغدادية كرستها لكي تكون عمة للجميع، وكانت آخر الجذور في التربة.

عودة إلى الوطن، وإلى السكن في المكعب مجدداً. وكان عليّ أن أنجز أعمالا ملحّة مختلفة، وهي الحصول على براءة ذمة، والتناطح مع فاسدي ضريبة الدخل، الناقمين والمنتقمين، وكلما زادوا تعسفاً، ازدادت مكافآتهم. الأجواء العامة متوترة، البلد يغلي بصمت حزين، لم يعتد التعامل مع السلم والوداعة. أخواننا المصاروة احتلوا كثيراً من مواقع المقاتلين العائدين، في السوق والحقل ومواقع العمل في بعض البيوت، تخلصوا من الجلابية ولبسوا الدشداشة، وراحوا يتحدثون بـ "أكو ماكو" بدل "الفي والمفيش".

مجموعة من موظفي أمانة العاصمة، ومن أرباب العمل لمشاريع شارع حيفا والكرخ والثورة، قبعوا بالسجون بتهمة الفساد والارتشاء وتحويل الأموال



إلى خارج القطر. منهم صاحب العلاقة المباشر، وكيل أمين العاصمة الفني. وحكم على رئيس قسم الانشاءات عند تنفيذ وتسلم شارع حيفا بالإعدام، خفض بعد فترة إلى المؤيد ومن ثم أطلق سراحه بعفو رئاسي خاص.

ستة أشهر عصيبة هي ملاحق لحروب سابقة، فتداعيات الحروب تواصل العمل، جيش عرمرم اعتاد العنف والقتال ما زال موجوداً. الجنود المرغمون، المحطمون، فاقدو الوعي، غير المصدقين ما حدث لهم خلال السنوات الثماني الماضية، يريدون العودة إلى منازلهم. أسرى ومشوهون بأعداد هائلة من كلا الطرفين، اقتصاد منهار، ديون متراكمة تطالب بها دول صغيرة وكبيرة، بينما حجزت الموارد وهي في باطن الارض.

قبل العودة إلى بغداد زارني في ليماسول الكاتب الإنكليزي المشهور "ديفد هيرست"[10]، وكان عائداً من بغداد. كان يفكر، وهو العالم بتردي الحالة، كيف سيتصرف العراقيون بعد الحرب. سألته بدوري ماذا عن المستقبل؟ أجابني بعد وصفه للحالة أن القادة سيضطرون إلى خلق حرب جديدة وفتح جبهة أخرى، وليس هناك من نقطة ضعف غير الكويت. ديفد هيرست توقع الغزو إذن. ذكّرته بعد سنين بتوقعه ذاك، وهو بدوره أخبرني بأن أكثر من صديق من معارفه ذكّره بذلك، وهو يأسف عدم الكتابة أو الإعلان عن ذلك عند تحليله للأخبار.

هذا الواقع العراقي الأليم ما بعد الحرب الضروس أثر سلباً على المدينة الجريحة. بدا كل شيء حزينا ويستدعي إمعان النظر. هنا أم في الخارج؟ بالمقارنة بين مفردات الأمن والقانون، وقضايا احترام حق الإنسان في العيش الكريم، والأمل، والانفتاح، والحرية، بدا لي أن الأفضل هو الابتعاد والغياب لفترة إلى حين ظهور ما يشجع على العيش في الوطن. كنت بحاجة إلى بصيص من الأمل يوحي بالعودة إلى حياة البشر البسيطة المحترمة.



سعد السوهاجي اللطيف المعشر، الوفي، سيقوم بصيانة المكعب. له دفيتر صغير يذكَره بما يستوجب القيام به للمحافظة على تعب وحلم العمر. لم يخطر بباله أبدا أن الصواريخ العابرة للقارات ستحلق وتتخذ من سماء بغداد ساحات للتحليق والردع والقرقعة، ملوثة الفضاء والأرض والماء. في حرب تحرير الكويت صبر، وفي حرب "التحديم" (لا التحرير بل التهديم) الكبرى قرر ترك المكعب. أرسل رسائل جميلة احتفظت بها، بلغة ركيكة، مؤثرة جداً، إلى "ولي أمره العراقي"، وبتسميته هذه فقدت الاتصال به، كما فقدت مئات الأشياء الجميلة.

ثمة ميراث محمول ما زال لي هناك: الكاميرات ومظلات التصوير وبروجكترات الإضاءة، والمعدات الكهربائية الأخرى كالتلفزيون والقيثارة[11] والأجهزة الكهربائية الخفيفة الأخرى. كل هذا الميراث سلم إلى عاكف جاري وابن ابن العم العزيز. اللوحات والمنحوتات الفنية، المجموعة بأكملها بقت معلقة إلى أن يأتيها الفرج. أبقيت الكتب على الرفوف، آملا ألا تنوشها جرذان نهر دجلة الجائعة من جراء الحصار الأممي القاسي. لا تعلم ان الثقافة لاتشبع، ومن يدري قد تضطر إلى تناول كلاً من الكتب والأعمال الفنية.

المكتب ظل بيد فيصل الأمين، الذي أبقى "الحضور المهني عن بعد" وهذا ما سمته مجلة " ايربن لاند" الأميركية[12].

ذهبت إلى المطار وليس هناك من يسكب الماء خلفي، كعادة العراقيين، متمنياً عودتي السريعة. في ما بعد عرفت أن البعض رمى خلفي أكثر من حجر، متمنياً لي عدم العودة.

كنت أردد في داخلي بيت الجواهري:

يا دجلةَ الخير يا نبْعاً أفارقُهُ

على الكراهةِ بين الحين والحينِ



تركت الزورق في دجلة الصليخ حزينا

كانت غصة في قلبي وكلمات من مثل: إذن بيت آخر في أرض وسماء أُخرى.

وكالعادة يختلف الواقع عما يراه المرء في قلبه ويأمله، لأنه سيكون عليَّ أن أبحث هذه المرة عن بيت ومشغل آخر في محل آخر بعد أن أُحتل بيت بيروت. كانت ست الكل حزينة ومشغولة عن محبيها، وتحافظ على نفسها بالكاد من الاغتصاب، مشروخة بين شرقها المسيحي وغربها المسلم.

في أول مايس 1989 هبطت متغرباً خافض الجناحين في جزيرةالحب، حيث سكنت "افروديتي" آلهة الهيام والغرام، وبالتحديد في ليماسول، مدينة العنب والخمر.

كنت أفكر: ديار بحجم طاولة العمل والقراءة يمكن أن تكفي! بغداد ستكون معي حتماً ..

عنوان الكتاب (نستوس) مبرر باشكاليتي كعراقي مُتغرب. إنها كلمة يونانية قديمة تعني الحنين الى مسقط الرأس، أو الوِطان بكلمة عربية عبقرية واحدة. لعله عنوان يلخص التناوب ما بين تغربي وحنيني، الخروج والعودة من دونما أمل بالعودة. إنه يضم اسم مسقط رأسي وحركة خروجي منه وحنيني اليه.

انتهى ولم ينته في ليماسول 2011 شباط ..



الهوامش

1 - من قصور الملوك المصريين تحولت إلى متاحف.

2 - صالة لعرض الفنون التشكيلية تملكه السيدة نورا جنبلاط في السادات، بيروت.

3 - "نظرة فنية تعبيرية إلى وجوه مثقلة بالألم"، الحياة 5 تموز 1991.

4 - "وجوه معذبة ولامبالية على جدار الغربة"، ملحق النهار في ٤ تشرين ثاني 2000.

5 - لديهم الآن مطار دائمي جديد وجميل جدا.

6 - من القرن الخامس ق.م، من أقدم مدن قبرص الملكية على الشاطئ الجنوبي جدارها وآثارها ما زالا قائمين.

7 - المدينة الجنوبية الأخرى التي زالت في القرون الوسطى الميلادي على إثر زلزال مدمر، مسرحها ما زال قائما يستعمل للعروض.

8 - يطلق على صوم الأربعين في أوربا وفي البلاد التي تتكلم الإنكليزية، كلمة تعني آذار شهر الصيام الذي يسبق الاحتفال بعيد الفصح.

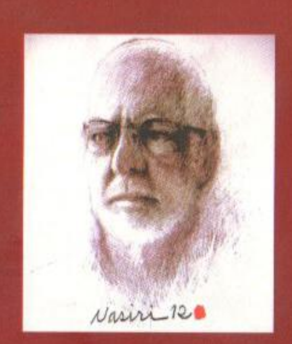
9 - عبدالرحمن قاسملو، ناشط سياسي، ومؤسس الحزب الدمقراطي الكردستاني الإيراني المعارض.

10 - مراسل الكارديان من 1963 الى 1997، له كتب عدة عن الشرق الاوسط.

11 - جهاز تسجيل عراقي الصنع يمتاز بالقوة كان يصعب الحصول عليه لعدم توفره في الأسواق.

12 - مقالة بقلم وليام برانتلي في مقابلة بشأن تخطيط بغداد الحضري، عدد آب 2004.





ولد في بغداد سنة ١٩٣٨
مارس العمارة والتصميم الحضري
اختصاص ابنية مدرسية
اقام في بيروت وفرانكفورت واثينا
له معارض فنية عديدة
مقيم حاليا في ليماسول - قبرص

من يحب بغداد الخالدة، يعرف أن لها وجوهاً حضارية عدة. فهناك الفنون والأدب، والابداع في النمط المعيشي، لتفاجئك بعبث مقلق أو حلو. والحال أن أهلها عابثون بامتياز، لكن من دون مجون أو فحش. لقد كانت هذه المدينة نوّاسية بامتياز قبل أن تغتصب وتُخصى وتصاب بالجهل والتخلف والخوف. وعلى الرغم من مسحة الحزن الجميل الذي يغطيها، فهي لا تنام ليلاً. أصوات البستات العراقية وقراءة المقام في الزوارق والمقاهي يتردد صداهما على الشاطئين، وفي الجزر الصيفية المؤقتة التي تظهر في الصيف وتختفي عند ارتفاع المناسيب في الشتاء والربيع. شواطيء دجلة لا تهجع، نهاراً للرياضة، وليلاً للكيف. الكيف المغربي لم يكن معروفاً في العراق. المجون ساد في أوساط حديثي النعمة في العقود الأخيرة الذين هم من مستهلكي فنون الغجر ومجونهم الرخيص...

